

الأستاذ جمال التازي
الدكتور يحيى بوعزوين



طبعة خاصة
مكتبة الجزائر

فريضة سنوية في طائفة
الشيخ محمد بن عبد الله
أو

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد بن عبد الله بن عبد الله
ووليّه

فريضة السنوية

في التعريف

بالأستاذ محمد بن عبد الله

تأليف

المؤلف محمد بن عبد الله بن عبد الله

مكتبة الجزائر

مكتبة الجزائر

الدكتور يحيى بوعزوين



الأعمال التاريخية
للدكتور محيي بوغريز

فريّة منيّة في حال دخول الترك بلاد قسنطينة
واستيلائهم على أوطانها

أو

تكملة قسنطينة

محمد الصالح بن العنزي

وليّه:

روضته النيرة

في التعريف

بالأشياخ الأربعة المتأخرين

تأليف

المشايخ محمد بن صفي الأنصاري والمساف

الترجمة سنة 901 هـ

مراجعة وتحقيق

الدكتور محيي بوغريز

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين

بمناسبة الذكرى الخامسة والخمسين لاندلاع الثورة التحريرية المباركة



مكتبة
الكتاب
والوثائق
للحكومة
الوطنية

محفوظ جميع الحقوق

طبعة خاصة
2009

ردمك: 978-9947-912-02-7

رقم الإيداع: 2009-5318

عالم المعرفة

للنشر والتوزيع
الجزائر

فَرِيَّةٌ مَنِيَّةٌ فِي عُمَالِ دَعْوَلِ التَّرَكِّ بَلَدِ قَسْطَنِيَّةِ
وَاسْتِيْلَانِهِمْ عَلَى وَطَانِهَا

اَوْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محمد الصالح بن العنبري

مراجعة وتقديم وتعليق

د. محیی بو عزیزی

جَامِعَةُ وَهْرَانِ

مجلس أمناء جامعة القاهرة
لجنة التعليم والبحث العلمي
مجلس أمناء جامعة القاهرة

مجلس أمناء جامعة القاهرة
لجنة التعليم والبحث العلمي
مجلس أمناء جامعة القاهرة

رقم: 12-02-7-97
رقم الإيداع: 2007-5318
مجلس أمناء جامعة القاهرة

مجلس أمناء جامعة القاهرة
لجنة التعليم والبحث العلمي
مجلس أمناء جامعة القاهرة
مجلس أمناء جامعة القاهرة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

مقدمة وتمهيد

حظيت مدينة قسنطينة وبايليكتها ، باهتمام عدد لا بأس به من الكتاب والمثقفين الذين حاولوا أن يؤرخوا لأحداثها السياسية والعسكرية ، ويدونوا أخبارها القديمة والحديثة ، خاصة العهد التركي . ومن بين هؤلاء أربعة ألفوا كلهم باللغة العربية ، وفي وقت واحد تقريبا ، وهو منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وهم :

— الشيخ الحاج أحمد بن المبارك بن العطار الميلي القسنطيني الذي ألف : « كتاب تاريخ قسنطينة » وتحدث فيه بإيجاز عن ماضي المدينة قبل الإسلام ، وأحداث الكاهنة مع الفاتحين المسلمين ، وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن بعض الهجومات التي تعرضت لها قسنطينة وبايليكتها مثل :

هجوم السلطان أبي عنان المريني عليها وعلى عنابة في منتصف القرنين 8 هـ و 14 م .

وهجوم مراد باي التونسي على قسنطينة عام 1112 هـ (1700 م)

وهجوم حمودة باشا بعده كذلك في القرن 18 م .

وهجوم الشريف بالاحرش الدرقاوي عام 1219 هـ (1805 م)

كما تحدث عن أسباب إنشاء حصن المنصورة ولخص بعد ذلك أحداث البايات : حسين قليان ، وحسين بوحنك ، وحسين باي زرق عينو ، وأحمد باي جد الحاج أحمد باي ، وصالح باي . وأورد ترجمة للشيخ فتح الله ، وذكر بعض أخبار ثورة الباي أحمد القبائلي . وقد قام السيد دورنو بترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية ونشره في المجلة الإفريقية عام 1913⁽¹⁾ كما قام نور الدين عبد القادر بتحقيقه ونشره بالعربية عام 1952 .

— والشيخ صالح بن العنتري الذي ألف كتابا عن بايات قسنطينة سنتعرض له فيما

بعد بشيء من التفصيل لأنه موضوع هذه الدراسة .

1) Durnon : kitab tarikh qosantina. par el-hadj el-mobark. revue africaine (R.AF) (1913) pp. 256-305

— والشيخ محمد البابورى الذى ألف كتابا عن تاريخ قسنطينة بطلب من شربونو ، عام 1848 حسب رواية فايست⁽²⁾ ولم نطلع عليه .

— والمترجم المستشرق ليمبرى : limbry الذى ألف كتابا بالعربية كذلك . عن تاريخ قسنطينة وذكر دُورنو عام 1929 أنه ما يزال محفوظاً بأرشفيف البلدية⁽³⁾ .

من هو صالح بن العنترى ؟ .

صالح بن العنترى هو ابن محمد بن العنترى الذى كان يعمل خوجة لدى الحاج أحمد باي ، وأمر بقتله عام 1837 ، أثناء زحف القوات الفرنسية على مدينة قسنطينة خلال الحملة الثانية ، وذلك بوشاية وتحريض من الباش حاميه علي بن عيسى كما سيأتى توضيح ذلك فيما بعد .

ولم يتحدث أحد عن تاريخ ميلاده ، ولا عن تاريخ وفاته . ويبدو أنه ولد بين عامى 1790 و 1800 م ، وتوفى بعد عام 1870 لأنه في هذا العام أنجز كتابه الثانى : سنين القحط والمسغبة ببلد قسنطينة وذلك بطلب من الضابط أدلير رئيس المكتب العربى بالمدينة⁽⁴⁾ .

كيف تم تأليف كتابه ومتى ؟

في شهر أوت 1843 تم تعيين الضابط بواسوني : le capitaine boissennet على رأس المكتب العربى بمصلحة الشؤون العربية في مدينة قسنطينة ، من طرف الجنرال بارقي ديللى : Le general baraguay d'hillier فاختار للعمل معه في مكتبه صالح بن العنترى ككاتب ، ولا ندرى بالضبط سبب اختياره ، ولكن يبدو أن سعة ثقافته واطلاعه من جهة ، وحقده على الحاج أحمد باي قاتل أبيه من جهة أخرى ، من ضمن أسباب ترشيحه واختياره لذلك المنصب ، وتلك الوظيفة .

2) E. Vayssette : Histoire de constantine sous la domination Turque de 1517 à 1837. R.N.M.S.A.C. (constantine — 1867) pp. 241-255.

3) C. Saint-calbre : Constantine et quelques Auteurs Arahe. R.AF. (1913) pp. 70 - 95.

4) حققه ونشره رابع بونار تحت عنوان مجاعات قسنطينة (الجزائر 1974) ص 76 .

ولما كان الضابط بواسوني مستشرقاً يحسن العربية ، ويهتم على ما يبدو بالتراث ، وله رغبة في الاطلاع الواسع على ماضي قسنطينة ، وبإبليكها في عهد الأتراك ، فقد كلف كاتبه صالح بن العتري بأن يؤلف له كتاباً عن ذلك ، ووضع له منهجاً وخطّة ، فشرع في العمل دون أن يذكر متى ، ولكن يبدو أنه أواخر عام 1843 ، وانتهى منه أواخر عام 1846 ، على ما يبدو لأنه توقف عند أحداث زيارة ورحيل الدوك دومال للمدينة في شهري جوان وجويلية 1846 ، وقد سمّاه في المقدمة : « فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها » وفي الخاتمة : « تاريخ قسنطينة » . وطبعه له عام 1846 . حسب رواية فايسيت⁽⁵⁾ وعام 1852 حسب رواية دورنو ، الذي قام بترجمته إلى الفرنسية عام 1929 ونشره في مجلة مجموعة ملاحظات ومذكرات الجمعية الأثرية القسنطينية⁽⁶⁾

أسلوب الكتاب ومحتواه :

كتب العتري كتابه بأسلوب بسيط ، ولغة متواضعة يفهمها الجميع ولكنه أكثر من الأخطاء اللغوية ، وقواعد الرسم ، والنحو ، إذ يرفع المفعول ويجره ، وينصب الفاعل ، ويجمع بين الاسم الظاهر والضمير ، في الفاعل ، على لغة « أكلوه البراغيث » ويأتي بالضياء المشالة بدونها ، وهكذا .

أما محتوى الكتاب فهو عبارة عن سرد مختصر لتاريخ بايات قسنطينة بأسلوب الحوليات ، استعرض فيه الأحداث السياسية والعسكرية والتنظيمات الإدارية لبعض البايات ، واهتم بصورة خاصة بالحروب التي نشبت بين البايليك وتونس ، خلال القرنين 17 و 18 م .

وهناك مجموعة من الملاحظات ممكن إنجازها فيما يلي :

5) Premiere essai d'une histoire de constantine (constantine Felix guende imprineur et Lithographe. Place du palais 1846)

6) Dournon: constantine sous les Turcs d'apres salah el antri. R.N.M.S.A.C. constantine 1928—1929) pp 61-178.

أولا : بدأ العنتري التأريخ لبابليك قسنطينة بعام 1050 هـ الموافق لعامي 1640 - 1641 م ، الذي اعتبره التاريخ الحقيقي لدخول الأتراك إلى مدينة قسنطينة . وأول باي أرخ له هو الباي فرحات ابتداء من عام 1052 هـ (1642 - 1643 م) وأهم فترة قرن وسبعة وعشرين عاما كاملة من تاريخ البابليك ، وقد يكون معذورا بالنسبة للفترة الغامضة الممتدة بين 1514 و 1567 م ، والتي لا يعرف حكامها وولاتها من الأتراك ، ولكن الفترة التالية لها من 1567 إلى 1647 م ، غير معذور في إهمالها لأن البابليك تكون بصفة رسمية عام 1565 م من طرف البايبرباي حسن باشا بن خير الدين ، وحكمه البايات الخمسة : رمضان تشولاق باي (1567-1574 م) وجعفر باي (1574-1588 م) ومحمد بن فرحات باي (1588-1608 م) وحسن باي (1608-1622 م) ومراد باي (1622-1647 م) ومن غير شك أن عدم معرفته لأحداثها هو الذي دفعه لإهمالها تماما .

ومعلوم أن هناك خلافا بين الباحثين والمؤرخين حول التاريخ الحقيقي لبداية دخول الأتراك إلى مدينة قسنطينة واستقرارهم بها وكل البابليك ، ففايسيت جعله عام 1517⁽⁷⁾ وميرسي جعله بين عام 1519 و 1522 م⁽⁸⁾ ودافيتي جعله عام 1522 م⁽⁹⁾ وليمبري جعله عام 1526 م⁽¹⁰⁾ والعنتري جعله عام 1050 هـ (1640 م) كما سبق . ونحن نرجع . عام 1514 م الذي تمكن فيه عروج وخير الدين من افتكاك مدينة جيجل من الجنوبيين والاستقرار بها قبل انتقالهما إلى مدينة الجزائر .

وقد بذل فايسيت جهودا مشكورة في استقراء الكتب ، والمخطوطات ، والرسائل والأختام وغيرها ، من أجل تحديد هذا التاريخ ، وملء الفجوة التي أحدثها العنتري في كتابه ، وتمكن من جمع روايات كثيرة وقارنها ببعضها البعض ، ووضع دراسة لا بأس بها لهذه الفترة ، ولأحداث البايات الذين حكموا خلالها ، وذلك في الجزء الأول من دراسته بمجلد عام 1867 ، في مجلة مجموعة الملاحظات والمذكرات للجمعية الأثرية القسنطينية⁽¹¹⁾ .

7) Vaysettes : IBID (1867) pp: 276-284.

8) Ernest mercier: histoire de constantine (constantine - marle et biron 1903) p. 191

9) Davity: description general de l'Afrique (ED. 1660) p. 205.

10) CH. Feraud: R.AF (1866) p. 191

11) Vaysettes: IBID (1867) pp.241 - 352.

وعليه اعتمدنا نحن في وضع موجز تاريخي عن هذه الفترة كذلك ، صدرنا بها كتاب العتري ، وأزلنا ذلك البتر ، وتلك الفجوة في انتظار دراسات أخرى جادة ، وعميقة وشاملة .

ثانياً : ليس هناك توازن في تاريخ العتري ، فكثير من البايات اكتفى فقط بذكر سنة توليتهم ، وسنة انتهائها . ولا يقل عددهم عن سبعة عشر بايا ، والأغلبية أوجز لهم بصفحة ونصف الصفحة والصفحتين ، مثل : علي خوجة ، وحسين بوكمية ، وبوحنك ، وزرق عينو ، وأحمد باي ، وإبراهيم بوصبع ، وعثمان باي ، وحسين باي ، وصالح باي ، ولكنه توسع بصورة خاصة في الحديث عن الحاج أحمد باي آخر البايات ، وعن أحداث الفرنسيين خلال ذلك . واستغرق منه ذلك ما يقرب من ثلثي الكتاب ، وبالضبط 36 ورقة من جملة 59 ورقة والتي هي كل الكتاب وصلبه . وقد اتسم تأريخه لأحداث الحاج أحمد باي بالاضطراب والتناقض ، ولم يلتزم التسلسل التاريخي ، فقدم واخر ، وأكثر من هذا اشتد تحامله عليه وعلى الأتراك بصفة عامة ، بكيفية مفرطة ، لا مبرر لها إلا الرغبة في التقرب أكثر من الفرنسيين ، أو ضغط الضابط بواسوني عليه ، كما سنوضح فيما بعد .

ثالثاً : لم يذكر العتري المصادر التي اعتمدها إطلاقاً ، ماعدا بعض الروايات الشفوية التي أشار إليها في المقدمة . وهنا يتساءل المرء من أين له كل تلك الأخبار ، وذلك الحشد من المعلومات التي أوردها ؟ . فإذا كانت حوادث الحاج أحمد باي والفرنسيين معاصرة له وعاشها بنفسه ، فإن أحداث القرنين السابع عشر والثامن عشر بعيدة عنه ، ولا بد أنه طالع عدة مصادر ومخطوطات ، وقرأ عدة كتب ورسائل ، لم يتفطن للإشارة إليها ، ولا شك أن دار الفنون زاخرة بعدة مصادر ، نرجح أنه اطلع عليها أو بعضها خاصة وأن حمودة بن الشيخ الفنون كان موظفاً مثله ، وعين شيخ البلد منذ احتلال المدينة عام 1837 . هذا إلى جانب عائلات أخرى علمية يحتمل أن يكون قد استفاد من تراثها ويحتمل كذلك أن يكون هو نفسه يملك عدة مصادر .

رابعاً : أورد العتري في آخر كتابه نص الاتفاق الذي أبرم بين الحاج أحمد باي ، وأعيان مدينة قسنطينة ، عام 1830 ، بعد عودته من الجزائر العاصمة ، وقصيدة شعرية في مدح

قسنطينة ، وأخرى من الشعر الملحون في وصف الحرب التي اندلعت بين البايليك ، وتونس ، ففصلناها عن الكتاب ، وجعلناها ملاحق ، وأضافنا إليها ملحفاً رابعاً أورده الناسخ للكتاب ، المكي بن علي بن الففون ، في صدر الكتاب ، هو عبارة عن قائمة لبايات قسنطينة بالترتيب ، والحكام الفرنسيين بعدهم حتى عام 1846 م . وفضلنا نحن تأخيرها ، كما فعل دورنو . وكذلك أضفنا ملحفاً آخر لخصنا فيه أحداث الحاج أحمد باي في جبال أولاد سلطان ، ونهاية حياته ومطافه حتى وفاته إتماماً للفائدة .

خامساً : كل العناوين التي بالكتاب من وضعنا نحن تسهيلاً للقارئ . أما المؤلف والناسخ للكتاب فقد اكتفينا فقط بكتابة البايات أو مفتاح الفقرات بالخط الغليظ إشارة إلى ذلك على ما يبدو . وكذا فهرس الموضوعات ، وقائمة المراجع ذات الصلة بالموضوع وفقرة المدخل ، إلى عام 1643 فمن وضعنا نحن .

سادساً : النسخة الخطية التي قمنا بمراجعتها ، والتعليق عليها ، من نسخ المكي بن علي بن الففون ، وليس لها أي تاريخ ، وعدد أوراقها إحدى وستون (61) ورقة من حجم 21 x 14 ، مسطرة أفقياً وعرضياً ، عدد أسطر كل منها 32 سطراً وطول السطر المكتوب سبعة صانتيما في الثلثين الأولين ، وتسعة صانتيما في الثلث الباقي . غير مرقمة ولكنها مخيطة ومجلدة بسفر غليظ من الورق المقوى ، والمغلف باللون الأحمر . الصفحتان الأولى والثانية كتبت عليهما قائمة أسماء البايات ، والحكام الفرنسيين بعدهم . والصفحة الثالثة سُجِّل عليها الناسخ ملحوظة عدم تسجيله كلام جده في ذم أهل قسنطينة لعدم وجود الورق . والصفحات السبع الأخيرة ، سُجِّل عليها اتفاق الحاج أحمد باي وأعيان قسنطينة ، والقصيدتان الشعريتان .

سابعاً : في هذه النسخة نقص بسيط يمثل في نسيان الناسخ للجزء الأخير من حياة أحمد باي جد الحاج أحمد باي ، والجزء الأول من حياة صالح باي ، وعندما عدنا إلى نص الترجمة الفرنسية للسيد دورنو ، وجدنا ذلك النقص ، واعتمدنا على ما كتبه السيد فايسيت لاستدراك ذلك النقص في الهامش ، لأنه أوسع وأشمل وأوفى مما في النص الأصلي المترجم .

ثامناً : تحامل العنثى كثيراً على الحاج أحمد باي بصفة خاصة ، والأتراك بصفة عامة ، وذلك لثلاثة اعتبارات على ما يبدو :

1) لأن الحاج أحمد باي قتل أباه ، أو تسبب في قتله لمجرد وشاية ، غالب الظن أنها كاذبة من طرف الباش حامية على بن عيسى ، مفادها وملخصها : أن محمد ابن العتري ، لما ذهب رسولاً من قبل الحاج أحمد باي ، إلى الدوك دوغور ، والمارشال دامرميون ، قائدي القوات الفرنسية في الدرعان قرب قالة ، في أكتوبر 1837 م ، تلقى رشوة منهما ليشتيع بين الناس ، أن القوات الفرنسية كثيرة العدد والعدد ، ولا قبل لقوات الحاج أحمد بمواجهتها ، وبذلك يحطم مغنوياتهم ، ويدفعهم إلى الاستسلام دون قتال . واقتنع الحاج أحمد بهذه الوشاية ، واعتقل كاتبه ورسوله محمد ابن العتري ، وبعد ثمانية أيام مات مسموماً ، كما ذكر ابنه بعده ، صالح ابن العتري .

2) لربما يكون رئيسه الضابط بواسوني هو الذي أُملي عليه هذا الموقف وحرّضه على تبنيه مادام هو الذي اقترح عليه تأليف الكتاب نفسه ، ووضع له خطة ومنهجاً ، لم يكن باستطاعته أن يعصي له أمراً أو يخالفه ، لأنه ولي نعمته ، والهدف هو إبراز مساوئ هذا الرجل المقاوم والمعاند ، ومساوئ الأتراك وحكمهم بصفة عامة ، وإبراز محاسن الإدارة الفرنسية الجديدة حتى يتقبلها الناس ويرضوا بها دون مشاكل وصعوبات .

3) وهناك احتمال ثالث جدّ وجيه ، هو أن صالح بن العتري تطوع بإرادته ليتخذ هذا الموقف ويتناهى حتى يتقرب أكثر من سيده وولي نعمته بواسوني وينال رضاه ، ورضى كل الإداريين الفرنسيين فييقونه في وظيفته ، ويشملونه بعطفهم ورعايتهم ، وفي كتابه ما يبرر هذا من خلال الأمثلة والشواهد التي نستعرضها فيما يلي :

فعن الحاج أحمد باي قال العتري إنه في البداية لما تعين حكم بالعدل : « ومن بعد ذلك تبقى حاج أحمد باي في البلاد هذا الوقت أحكامه بالعدل والسداد وعلى نمط الشريعة والرشاد . وقد زال الظلم والجور ، وذهب أصحاب البغي والفجور » . وذكر أنه ذهب إلى الجزائر العاصمة حاملاً الدنوش قبل الأوان ، حتى يحصل على صيت وسمعة ومكانة أكثر من غيره ، وليستأذن من الداي حسين في التخلص من خصومه ، فحصل على موافقته وقام بقتل كل من الأخوين : أولاد بن زكري ، وأولاد بن نعمون ، وأولاد بن الأبيض ، والشيخ الزواوي ، واستمر على هذه الوضعية المرضية أربع سنوات كاملة .

وبعد الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر عام 1830 ، وعودة الحاج أحمد من هناك ،
ثار ضده أتراك البايليك بزعامة محمود بن شاكّر ، وعسكروا بالحامة ، ولكن أعيان
قسنطينة والشيخ بن الففون ، وقفوا إلى جانبه ، وساعدوه على الدخول إلى المدينة
والقضاء على زعماء الفتنة والتخلص منهم بالقتل .

وتفرغ بعد ذلك لتحصين أسوار المدينة ، وأبوابها استعدادا للأخطار الفرنسية
المتوقعة ، وجند عدة فرق من قبائل زواوة ، وواجه تمرد الباي السابق إبراهيم الكريتي
اللاجيء في المدينة ، وذلك في أحواز سطيف ، ولاحقه إلى الهضاب العليا والصحراء
عندما انسحب إليها ، وقضى هناك ما يقرب من أربعة شهور .

وعندما عاد إلى قسنطينة « ضرب سكة الدراهم ونقش عليهم سكة قسنطينة وتمهد
له الوطن ، وصارت أحواله مستقيمة ، وباقى في سيرة طيبة ، وأحوال مرضية جيدة ،
ينصف المظلوم ، ويقهر الظالم الفيشوم . ومهما يشكل عليه أمر (كذا) ويعزم على
قضائه إلا ويشاور أهل العقول فيرشدونه ، ولا زال على هذا المنوال برهة من الزمن .
ولما توغل وتمهل له الوطن ، وانقادت له الرعية صارت أحواله غير مرضية ، انعكست
حقيقته وتبدلت سيرته » .

وبعد أن استعرض العتري قضية الحاج عمار بن زفوط ، وأحداث عناية مع إبراهيم
الكريتي ، ويوسف المملوك ، عاد مرة أخرى للتعريض ، والنيل من الحاج أحمد باي
بأمثلة وشواهد فقال : « وأما حاج أحمد باي ما يحصل بيده إلا ذنوب العباد ، ولا
اتصلت بيده تلك البلاد ، وكان من سابق زمانه أنه ما يعمل شيئا إلا بمشورة الناس
الكبار ، وأصحاب العقول الفضلاء الأخيار ، فيسهل عليه كل شيء صعب ، ويدنوا
إليه البعيد والقريب ... وصار حاج أحمد باي من بعد قضية عناية أموره ناقصة غير
معتادة . ففي عام 1247 هـ (1830 م) قصد الحصنة فلما وصل إليها استولى على أرزاق
ناسها بالظلم والجور ، وشتت شملهم بالبغي والفجور ، ثم رحل وقصد بلد لمدينة ...
تراه استظهر إليهم بالنصيحة وعاملهم بظاهر المدد ، وحسن السريرة ... فحينئذ استأنسوا
لقدمه وتقدموا إليه بالهدايا من الأموال والخيول المسومات ، وطلبوا منه أن يرجع
بايا عليهم ... ورجع ولد بومزراق في بلد المدينة باي ... وكان حاج أحمد باي بالخيلة
مع ناس ذلك الوطن والخديعة . حتى قضى حوائجه ومن بعد ذلك خدعهم وربط

مائة رجل من كبارهم فرفعهم مريوطين وفرّ هارباً من وطنهم فلما وصل إلى قسطنطينة قتل ذلك الناس كلهم وفناهم عن آخرهم ، وقد اشتهر ظلمه ، وكثر جوره وبغيه ، وصار يقتل الناس ظلماً وعدواناً ، ويخدع بالأمان فقتل ستين فارساً من أولاد متله في يوم واحد ، ومائة رجل من أولاد أعمر بالحضنة في يوم واحد .

وفي عام 1251 هـ (1835 م) غزا إحدى مناطق الأوراس واعتقل ستين رجلاً من أولاد سعيد ، وقطع لهم أيديهم اليمنى ، وأرسلها إلى قسطنطينة ، وفي عام 1836 م كتب أعيان مدينة قسطنطينة رسالة إلى يوسف المملوك ، حسب رواية العتري طبعاً ، بعناية التي كان يحكمها تحت سيطرة الفرنسيين ، وطلبوا منه أن يشن هجوماً على قسطنطينة ، ووعدوه بأن يساعده على اقتحامها واحتلالها . ومن هؤلاء حسب رواية العتري دائماً : أحمد الشريف شيخ ريفه ، وفرحات بن سعيد ، والأخضر بن سليمان من دائرة واد بوصلاح ، وأولاد بن يلس ، وأولاد قايت ، ومحمد بن سخون من الزمول ، وأولاد مقورة بن عاشور ، وفرحات بن عولي من أولاد عبد النور ، ومحمود بن الطيب العسائي من أولاد عبد النور كذلك ، والبعض من مشايخ أمية . وعندما فشلت الخطة وانهمزت الحملة الفرنسية الأولى على قسطنطينة كتب هؤلاء الأعيان رسالة اعتذار إلى يوسف المملوك وهم : الشيخ بن الففون ، ومحمد البجاوي قائد الدار ، والحاج المكي بن زفوطه ، وعمر القشي ، وعلي بن حجوج ، والحسين بن سليمان التاجر ، والمرابط العربي ، ومحمد بن العتري الذي تولى بنفسه كتابة الرسالة كما ذكر ذلك في كتابه .

وعندما عاد الحاج أحمد إلى قسطنطينة بعد انسحاب الفرنسيين ، واكتشف خيوط المؤامرة ، اعتقل المرباط العربي ، والحسين بن سليمان التاجر ، وتجرىء على قتلهم ظلماً وعدواناً ، وزعم أنهم من أصحاب الفساد وأنهم كانوا اتفقوا وأرادوا أن يدخل الفرنسيين إلى البلاد . وقد تدخل الشيخ بن الففون لديه ، وحذره من مغبة استمراره في قتل الناس ، فتوقف عن ذلك مدة من الزمن . وهذا الرمي هو السبب الذي جعل باقي أفراد خطة التآمر ينجون من القتل ، ومنهم محمد بن العتري كاتب الرسالة . ويحتمل أن تكون آثار هذه المؤامرة هي التي شجعت الحاج أحمد باي على قتله في العام الموالي .

ففي خلال استعدادات الفرنسيين لإنجاز الحملة العسكرية الثانية على مدينة قسنطينة خلال خريف 1837 ، أخذ الحاج أحمد باي يستعد هو الآخر وجهاز عدة كتائب وأرسلها إلى جهات قلالة لتعرض القوات الفرنسية وتناوشها بقيادة الآغا بلحملاوى وبوزيان العلمي ، وأرسل إليه الفرنسيون اليهودى ولد بوجناح ، ليختبروه ويعرضوا عليه شروطهم . وجرت بينه وبينهم عدة مراجعات انتهت كلها بالفشل . وذكر العتري هنا : « أن ولد فرانصة والماريشال المذكور يتكلمون معه بطريق الريفلة الفرانصوية وهو يتكلم معهم العادة العربية فلم ينتج شيء » .

وهذه إحدى أساليب العتري في التعريض بالحاج أحمد باي ، والنيل منه ، كلما وجد الفرصة لذلك . وتجاوزته حتى إلى الخط من الجنس العربي المسلم ككل وهو منه . كل ذلك من أجل إبراز حقده ، والتقرب أكثر من أسياده الفرنسيين .

وحتى يتأكد الحاج أحمد من مدى قوة وضخامة الحملة الفرنسية ، والتعرف على إمكاناتها المادية والبشرية ، أرسل كاتبه الخوجة محمد بن العتري رسولا من قبله إلى قائدى الحملة الفرنسية : الدوك دوغور ، والماريشال دانريمون ، ليتفاوض معهما ويبلغ شروطه إليهما ، ويتعرف عن قرب ، ودون وساطة اليهود ، على شروطهما وعروضهما للصلح ، إن كانت هناك شروط للصلح وليس للاستسلام .

وعندما وصل محمد بن العتري إليهما استقبلاه وسمعا منه ، وسمع هو منهما . وكانت عروض الحاج أحمد باي للصلح تلخص في انسحاب الفرنسيين من قلالة ، والدرعان ، وعنابة . ولكن الفرنسيين رفضوا ذلك وصمموا على استعمال القوة لاحتلال قسنطينة ، فعاد العتري بتلك الأخبار إلى الحاج أحمد باي ، وأبلغه بأن القوات الفرنسية كثيرة العدد والعدد ، فاقنع بما جاء به من الأخبار ، وكلفه بأن يذهب إلى قسنطينة ليبلغ القادة هناك هذه الأخبار ، حتى يقتنعوا كذلك ، ويشتركوا معه في اتخاذ قرار مناسب للموقف .

أما من جهة ابن البجاوى قائد الدار فإنه صدق كلام العتري ، واقنع بخطورة الموقف . وأما الباش حاميه علي بن عيسى ، فإنه استنكر رواياته واتهمه بأخذ رشوة من الفرنسيين ليشتيع تلك الأخبار حتى يهزم الناس فيتكاسلوا عن المقاومة ، ويستسلموا

دون قتال للفرنسيين . وقام بإرسال رسالة إلى الحاج أحمد باي في الموضوع ، فداخله الشك وقام باعتقال محمد بن العنتري في الحين بعد أن عاد إليه . وبعد ثمانية أيام مات مسموما . وهنا قال ابنه صالح بن العنتري : « ولما مات رحمه الله تعالى ترك أولاداً منهم العبد الفقير إلى ربّ الأرباب ، محمد الصالح الناسخ لهذا الكتاب ، وإني الآن كاتب بالبيرو بالدرب . وكان الذي ولّاني القبطان بوسنة المتولي أمور العرب . وأنا أقول إن أي تكلم الحق ونصح حاج أحمد باي كما ظهر له قبل سماع كلام الشياطين . ولما بلغه كلامهم مكر به وقتله وهذا ظلم عظيم وأنا لا أنساه أبداً ، وأخدم الدولة بنية صالحة لما علمت من حب أي لها لأنه لو عاش لكان أول من سارع إلى خدمتها بنصح وجد ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة » .

وعندما ضاقت الأمور بالحاج أحمد باي واشتدت ملاحقة القوات الفرنسية وأعوانها ، له وأخذ ينتقل من مكان إلى آخر في جبال الأوراس والحضنة ، شبه العنتري بناس غرناطة في آخر أيامهم . وقال معرضاً به : « لكن صار له مثل ما صار إلى ناس غرناطة حين جاء إليهم الإسبانيول . وكانوا ناسها دائماً مشغولون باللهو ، والطرب ، فحين نزل عليهم جاءهم النذير وقال لهم تيقضوا وأوقفوا على أنفسكم ، فإن الإسبانيول استولى عليهم ، فقالوا حتى نكملوا هذا الشغل ، ثم جاء إليهم مرة ثانية وقال لهم وصل إلى أبواب مدينتكم ، فقالوا له أيضاً حتى نكملوا الشغل الآخر ، فما زالوا يفرغوا من شغل ويدخلوا في شغل آخر حتى دخل عليهم الإسبانيول واستولى على وطنهم . كذلك حاج أحمد باي صار ينتقل من وطن إلى آخر حتى وصل إلى جبل أولاد سلطان ، وصار له ما صار من التشيت والهوان ، حتى نزل ولد سلطان فرانسة على ذلك الجبل كما سنذكره آتياً » .

تباهى العنتري بقدم الدوك دومال إلى قسنطينة كحاكم جديد عليها ، وعلى الإقليم بكامله أواخر عام 1843 ، وأشاد بخصاله ، وخصال مترجمه جورج طوماس إسماعيل أوربان ، ووصف رحلته إلى بانه وبسكرة في مطلع عام 1844 م وملاحقته للحاج أحمد باي في جبال أولاد سلطان . ومما قاله عن جبال أولاد سلطان وسكانها : « وهو جبل حصين لكثرة شعبه ، وتصعب طرقاته ، وشجاعة ناسه . وكانوا في زمن الترك لا تناههم الأحكام ، ولا يعطون مطالب البايليك باتمام » . واستدرك بعد ذلك ليعود إلى الحديث

والتعريض بالحاج أحمد باي قائلا : « وكان حاج أحمد في هذا الوقت نازل عندهم بخيامه وحریمه فلما نزل عليهم ولد السلطان المذكور تراه صعد إلى جبلهم بالعساكر والسرصور ، وجعل جيوش العرب من وراء الجبل ، ودوروا له الفتن من كل جهة ، فانهزموا أولاد سلطان هزيمة كبيرة ، وانهزم حاج أحمد باي معهم وضاع له رزق كبير ، ومال كثير ، وما نجا إلا بنفسه ومات البعض من حریمه في ذلك الهزيمة ، وما حل به ذلك . الا من قلة عقله لما أن جعل رأييه في يد غير العقلاء ، صار به هكذا أو أكثر من ذلك ولو اتبع كلام الناس العقلاء أول الزمان لم تجر عليه هذا الامتحان ، ولكن الأمر مقدر ، ولا ينفع الحذر من القدر » .

وعندما غادر الدوك دومال قسنطينة في زورته الثانية عام 1846 م استأذن منه كل من : علي بن باحمد والأخضر بن وان ، والبوروي ، وبواخراص بن فانة ، وأحمد ولد مقران ، وأحمد ولد أحمد بن محمد خليفة بجانة ، ومحمد الشاذلي قاضي قسنطينة ، والشيخ الحاج محمد بن الخروبي ، في أن يصاحبه لزيارة باريس ، فقبل ، ولحقوه فيما بعد وعادوا بمحمدون ويسبحون بفضائل فرنسا ، وساستها .

وقد أنهى العتري كتابه بخاتمة لخص فيها النتيجة التي أراد هو ، أو طلب منه ، أن يصل إليها ، وهي عقد مفاضلة بين الحكيمين : التركي ، والفرنسي ، وإبراز مساويء الأتراك ومحاسن الفرنسيين ، وتشخيص غدر الحاج أحمد باي ، فقال وهو يخاطب قارئ كتابه : « إنك إذا تأملت ذلك حق التأمل ، وجدت بين الدولتين في الأحكام والسياسة فرق كبيرا وذلك لأن الأتراك في بدء أمرهم حتى لم يتمكنوا من الوطن كل التمكن عدلوا بين الناس ولم يظلموا أحداً ، وحيث تمكنوا صاروا يظلمون الناس ويسفكون دماءهم ويأخذون أموالهم بغير حق ويعدون ولا يوفون ، ويؤمنون ويغدرون ، كما يعلم ذلك مما تقدم . ولم يزل ظلمهم يزداد حتى تم وجاوز الحد ، في ولاية الحاج أحمد باي بن محمد الشريف الذي أخذت قسنطينة زمان ولايته ، فإنه بلغ في الظلم وسفك الدماء وأخذ أموال الناس بالباطل الغاية وأما غدره وعدم الوفاء بوعدده ، فأمر معلوم عند كل الناس حتى صار لا يأمنه أحد ولو حلف الأيمان المغلظة كما يعلم فعله مما تقدم . ومن جملة غدره والرجوع عن الوفاء بوعدده أنه لما أخذ الفرنسيون الجزائر ورجع هو إلى قسنطينة وخاف من قيام الناس عليه وعزله جمع العلماء وأرباب دولته ، وكبراء البلد ، وأعيانهم ،

وقال لهم ما تقولون في أمري ؟ فقالوا له إذا أردت تبقى حاكما ونبايعك أن تقبل شروطنا وهي : أن تزيل الظلم على الرعية والمغارم السابقة ، ولا تأخذ منهم الزكاة ، والعشور ، لأن الظلم السابق كان سببه الجزائر وهي الآن أخذت فأجابهم إلى ذلك ، وقبل شروطهم وكتبوا في ذلك كتابا ووضعوا فيه خواتمهم شاهدة عليهم وهم : الحاج أحمد نفسه ، ومصطفى بن باش تارزي قاضي الحنفية وأحمد العباسي قاضي المالكية ، ومحمد العربي بن عيسى ناظر الأوقاف ، والشيخ العربي بن الحاج ومصطفى الخليفة وابن البجاوي قائد الدار ، ومحمد بن العربي قائد الزمالة . « وبقي على ذلك مدة قليلة ثم شرع في نقض الشروط حتى أبطلها كلها ، وتمرد في الأحكام حتى إنه لما تكلم معه في ذلك بعض العلماء القاعدين معه للشروط المتقدمة ونهاه عن فعله هم بقتله وبقي على ظلمه وضاق الأمر بالناس ، حتى تمنوا الناس ولاية الفرنسيين وكان الأمر كذلك » .

وبعد أن استعرض العنترى محاسن الفرنسيين ختم كتابه بالفقرة التالية التي تكشف عن مبالغته في التحيز والتجني وقال : « وهذا فرق كبير بين الدولتين ، فإن ظلم الترك ليس مخصوصا بمحل بل هو عام في أرضهم الأصلية ، وفي غيرها ، مما تحت أيديهم كما يعلم ذلك من سافر إليهم ، وشاهد أحكامهم بخلاف الفرنسيين ، فإن أرضه الأصلية أهلها في غاية العافية ، بسبب العدل بينهم وعدم الظلم ، فسار هذا في كل محل تحت أيديهم ، ومن لم يعلم ذلك يسأل العارفين » (12) .

تاسعاً : ورغم كل ما سبق فإن كتاب صالح بن العنترى ، سيبقى وسيظل وثيقة مهمة ، وأساسية بالنسبة لتاريخ قسنطينة وباباتها ، وبابليكهها وبالنسبة لبعض الأحداث العامة التي تتصل بالجزائر ، وعلاقتها بتونس .

وبما أنه مفقود تماما حتى في المكتبات العامة ، فقد رأينا إعادة طبعه من جديد في إطار إحياء التراث ، وإثراء المكتبة التاريخية الجزائرية الحديثة ، وسارعنا إلى مراجعته ، ووضع التعليقات ، والتوضيحات المطلوبة على ما غمض منه أو كان غاية في الاختصار

(12) أخذنا هذه الفقرات من كتاب العنترى وسيجدها القارئ عندما يظالعه ويراجعه فيما بعد .

ووضعنا له عناوين داخلية ، وقدمنا له بتمهيد عن الفترة التي أعملها المؤلف ، وفهرسناه ، وزودناه بقائمة من المراجع ذات الصلة بموضوعه تعميما للفائدة ، وذلك في فترة لا تزيد على ثلاثة أشهر من 1/15 إلى 10/4/1985 م (13)

وإذا كان لابد من الشكر فإن أول من يستحق ذلك هو الأخ الزميل الأستاذ مبارك نجاح الذي وضع تحت تصرفنا مخطوط صالح بن العنترى مما أثار فينا رغبة قراءته ومراجعته ، ونعميشه ، ثم الأخ الفاضل عبد المجيد أمير مدير القسم الثقافي بإذاعة وهران الجهوية ، وكاتبه قاسمي الهاشمي ، اللذان أنجزا ضربه على الآلة الكاتبة بدون تأخير مما سمح بتقديمه إلى الطبع دون تأخير كذلك ليصل إلى القارئ والباحث في أقرب فرصة ممكنة ، بعد غياب دام حوالي 140 عاما تقريبا .
والله الموفق .

د . يحيى بوعزيز
جامعة وهران

وهران - حي الصادقية
الأربعاء 19 رجب 1405 هـ
10 أبريل 1985 م

(13) بعد أن انتهينا من إعداد هذه الدراسة للطبع ، وخلال زيارتنا لقسنطينة يوم 21 و 22 و 23 أبريل 1985 لإلقاء محاضرة عمل طلبة قسم التاريخ وأسألتهم علمنا أن الباحث الناشئ سيارى أحمد قد حقق كتاب العنترى ونالته كدبلوم للدراسات المعمقة منذ ثلاث سنوات ولكنه لم ينشره بعد ، ولا شك أن عمله سيزيد الفترة وضوحا . وقد اتصل بنا الباحث نفسه وحدثنا عن جهوده في ذلك .

مدخل

بايليك قسنطينة على عهد الأتراك

1837 - 1514

الموقع الجغرافي والشكل التضاريسي والمظهر البشري :

يشمل الشرق القسنطيني ، الرقعة الجغرافية الواسعة التي كانت تمثل بايليك الشرق ، أو بايليك قسنطينة ، والتي تمتد من البحر شمالا إلى ما وراء بسكرة ووادي سوف ، في حوض ريغ ، وابتغرغر جنوبا ، ومن الحدود التونسية شرقا إلى ما وراء إقليم ونوغة وبرج حمزة (البويرة) ، وسفوح جبال جرجرة غربا . ويحتوي هذا الإقليم على جبال البيان ، وحوض وادي الصومام ، وجبال البابور ، وقسنطينة ، وعنابة ، وسوق أهراس ، وعلى السهول العليا القسنطينية وكتلة جبال الأوراس ، والتماشة ، وتيسة ، وجبال الحضنة ، وحوضها ، وجبال الزاب والزيان ، ووحدات سوف في حوض وادي ريغ ، ووحدات الصحراء الشمالية الشرقية وعلى رأسها : بسكرة ، وتقرت ، وورفلة ، بل وحتى وحدات ميزاب بوادي الشيككة .

والشرق القسنطيني بصفة عامة جبلي في معظمه ، من حيث المظهر التضاريسي ، تلتقي في وسطه سلسلة جبال الأطلس : الشمالية التلية ، والجنوبية الصحراوية عند كتلة جبال الأوراس ، وليس فيه من الأحواض والسهول سوى حوض وادي الصومام ، والسهول العليا القسنطينية ، التي تمثل الجزء الشرقي من إقليم الهضاب العليا الجزائرية إلى جانب منسطات تيسة ، وحوض وادي سوف ، ووادي ريغ ، وسهول عنابة وسكيكدة . تناله نسبة لا بأس بها من الرطوبة في الشتاء لارتفاعه ، وقربه من جبهة البحر الشمالية المتوسطية ، وذلك في القسم الشمالي ، أما الجنوبي الصحراوي فالجفاف أهم ظاهرة فيه ، ويعتمد على المياه الجوفية أكثر من غيرها . ونسبة كثافة السكان فيه عالية عبر التاريخ إذا ما قورن بوسط البلاد وغربها ، وذلك لظروف تاريخية ، وطبيعية كذلك .

والحياة الاقتصادية فيه تعتمد على الفلاحة وتربية المواشي أساساً ثم النشاط التجاري ، والصناعات التقليدية ، التي كانت تدر على أصحابها مردودوا لا بأس به في القرى

العمرائية الكبيرة وعلى رأسها مدينة قسنطينة⁽¹⁾.

وفي عهد الأتراك كانت حدود البايليك على الشكل التالي :

من الشمال البحر ابتداء من طبرقة شرق القالة إلى حدود مدينة بجاية التي لم تكن هي وحوض وادي الساحل الغربي يدخلان ضمنه .

ومن الشرق الحدود التونسية التي تبدأ من طبرقة على البحر وتمتد إلى الجنوب عبر تبسة حتى واحات وادي سوف .

ومن الغرب جبال البيان ، وقرى : بني منصور ، وسفوح جبال جرجرة الشرقية والجنوبية ، إلى برج حمزة ، وقرتي : سيدي هجرس وسيدي عيسى ، اللتين تفصلانه على بايليك التيطري في الجنوب الغربي .

ومن الجنوب الصحراء الكبرى غير المأهولة جنوب واحات وادي سوف ، وتفرت ، ورفلة ، ومزاب .

وبحكمه نائب عن الياشا بالجزائر العاصمة يحمل لقب الباي ، وقسم إداريا إلى أربعة أقسام على كل منها حاكم مستقل عن الآخر يخضع مباشرة للباي بقسنطينة وهي : القسم الشرقي ويشمل مواطن الحنانشة ، ووادي زناتي ، وعامر الشراقة ، ومن أبرز زعمائه الأحرار كبار الحنانشة .

والقسم الشمالي الذي يمتد من عنابة إلى بجاية ، ومن أبرز زعمائه أولاد بن عاشور في فرجوة ، وأولاد بن عز الدين في الزواغة .

والقسم الغربي ويمتد من سطيف إلى جبال البيان وقرى بني منصور وونوغة ، ومن أبرز زعمائه أولاد مقران بقلعة بني عباس ومجانة .

والقسم الجنوبي وأهم زعمائه الدواودة ، وأولاد بن فانة .

(1) عن هذا الموضوع انظر مقالا : الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن التاسع عشر . مجلة الثقافة . عدد 80 (الجزائر - مارس أبريل 1984) من 159-186 . وقد أقيمت في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ المغرب وحضارته الذي انعقد في مركب الأندلس غرب مدينة وهران أيام 26 و 27 و 28 نوفمبر 1983 تحت إشراف ورعاية جامعة وهران .

وسكان البايليك من العرب ، والقبائل ، والشاوية ، تربط بينهم العقيدة الدينية واللغة ، والعادات والتقاليد ، والمصير المشترك كذلك . ويحكمهم قواد وشيوخ يخضعون للباي مباشرة أو بعض خلفائه ، الذين يساعدهم الكتاب والمكحالية في زمالاتهم . ويبلغ عددهم حوالي 35 شيخا ، وقائدا وحاكما منهم :

- 1 — شيخ الحنانشة وتحتة 12 قبيلة .
- 2 — شيخ العرب بالزاب (بسكرة) وتحتة 11 قبيلة من البدو الرحل
- 3 — قائد الحراكته أو القائد العواسي الذي يقيم بمدينة قسنطينة لأهميته ، وتحتة 32 قبيلة صغيرة تشمل معظم سكان الشاوية .
- 4 — قائد الحنانشة .
- 5 — قائد الزمول ، وهي قبائل عسكرية ، وتحتة حوالي 20 قبيلة .
- 6 — قائد الأوراس وتحتة 12 قبيلة .
- 7 — قائد عامر الشراقة وتحتة 6 قبائل .
- 8 — شيخ الدير أو أولاد يحيى بن طالب في جهات تبسة .
- 9 — شيخ بللزمة وتحتة 13 قبيلة .
- 10 — قائد أولاد إبراهيم وتحتة 11 قبيلة .
- 11 — قائد سكيكدة وتحتة 9 قبائل .
- 12 — قائد زارديزا وتحتة عدد كبير من سكان القبائل
- 13 — شيخ فرجيوة وتحتة 6 قبائل .
- 14 — شيخ الزواغة وتحتة 4 قبائل .
- 15 — قائد أولاد عبد النور وتحتة 31 قبيلة .
- 16 — قائد أولاد التلاغمة .
- 17 — قائد عامر الغرابة وتحتة 5 قبائل .
- 18 — شيخ قصر الطير بريغة .
- 19 — شيخ أولاد مقران بمجانة وتحتة 13 قبيلة .
- 20 — قائد أولاد دراج في الحضنة .
- 21 — قائد تبسة .

22 — قائد ميعة .

23 — قائد مسيلة .

24 — قائد زمورة⁽²⁾ .

ويمكن أن نلخص فيما يلي أجهزة البايليك الإدارية في مدينة قسنطينة وإقليمها التي تطورت بمرور الزمن طبعاً . وذلك حسبما جاء في دراسة فايست التي اعتمدت بدورها على عدة مصادر ومخطوطات محلية أخرى .

الجهاز الإداري للبايليك :

تتألف إدارات بايليك قسنطينة من أجهزة إدارية متعددة في المدينة والأطراف يمكن أن نميز منها الأجهزة التالية :

أولاً : ديوان الأوجاق :

ويتألف من رجال المخزن أو أعضاء الحكومة الذين يحيطون بالباي ، ويشاركونه في إدارة البايليك ، ويحتفظون بالسلطات العليا إلى جانبه ، ويتصلون به بصفة مباشرة ، ويشتركون معه في اتخاذ القرارات ، وهم :

1 (الخليفة : وهو مسئول عن شؤون الأوطان أو أقاليم البايليك ، ويخضع له القواد ، ورجال الميليشيا المنظمين وينظم عملية استخلاص الضرائب ويتولى إخضاع السكان لحكومة البايليك ، ويذهب مرتين في العام إلى الجزائر العاصمة في الربيع والخريف ، لحمل الدنوش إلى الباشا ، وذلك عند عدم ذهاب الباي بنفسه .

2 (قائد الدار : وهو بمثابة شيخ البلدية حالياً ، أغا متقاعد ، مكلف بالإدارة وشرطة المدينة ، ويتموين رجال الميليشيا برواتبهم الشهرية . وتمتد مسؤوليته إلى القسم الأكبر من أملاك البايليك وعقاراته ، ومخازن الحبوب ، وأئمة المساجد ، ووعاظها ، والقضاة ، والمفتاي ، الذين عليه أن يدفع لهم أجورهم ، وأرزاقهم المستحقة . وإليه يعود أمر حفظ الأمن بالمدينة .

2) E.Vayssettes : Histoire de Constantine sous la domination Turque de 1517 à 1837. Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de La province de constantine (constantine 1867) pp. 264-267.

3 . النفاذ أو المقتصد : وهو صاحب السلطة على كل المصالح المالية ، والإنفاق ، وجمع الضرائب ، وإعداد أموال الدنوش التي ترسل إلى العاصمة .

4 . قائد الدائرة أو آغا الدائرة : وهو أحد رؤساء فرسان المخزن . يدير فرق الفوم غير المنظمة في الأرياف . ويتولى توفير ما تحتاج إليه ، ويخرج مع الباي لمعاقبة القبائل العاصية .

5 . الباش كاتب ، أو الكاتب العام : يحرر ويصحح البرقيات ورسائل الباي وكل ما يتصل بشؤون السياسة للبايليك ، ويتخذ لنفسه دفترًا يسجل فيه كل أموال البايليك كالنفود ، والأحصنة ، والبغال ، وقطعان الأغنام ، ويخرج مرة على مرة للمراقبة ، ويختم رسائل الداي ، ويستقبل رسائل الآخرين الواردة على البايليك ويحرر رسائل الموظفين في البايليك ، ويخضع له كتاب يتولون تحرير محاضر الجلسات المتصلة بالعدالة . والمراسلات العامة بين الباي ، والخلفاء ، والقواد .

6 . الباش سيار : وهو مسئول عن قافلة البريد ، ويحمل بنفسه رسائل الباي ، إلى الباشا بالجزائر العاصمة ، ويعود برسائل الباشا إليه . ويصحب الخليفة إلى العاصمة عندما يحمل الدنوش إلى الباشا .

7 . باش سايس ، أو قائد الزمالة : مسئول عن حيوانات البايليك ، وحمايتها ورعايتها والاعتناء بها .

8 . باش شاوش : مكلف بتنفيذ الأوامر الموجهة إلى الأتراك ، وتوضع تحت سيطرته كتية من الجنود الإنكشاريين وفرقة من فرسان الصبايحية الكراغلة ، وقوات أخرى من المخزن لتدعيمها .

9 . شاوشا الكرسي : وهما من الأتراك ، ويتوليان وظيفة الجلد ، ويسيران أمام الباي عندما يخرج ، ويتوسطان بينه وبين بعض المسؤولين الأجانب في مسائل السلم ، وفتح الروابط ، ويعلنان للناس في الاجتماعات العامة سلامة ونحياته . ويقومان بجلد من يأمر الباي بجلدهم .

ثانياً الموظفون الذين لا يتصل بهم الباي مباشرة :

- 1 - آغا الصباحية : وهو مسؤول عن الصباحية ، والشواش الذين يقومون بدور المساعدين .
- 2 - شواش محلة الشتاء : مكلف بتوزيع ما يحتاج إليه جنود المحلة من المؤن والأغذية ، والخيام ، والأخشاب التي يتوصل بها من قائد الدار مباشرة .
- 3 - باشا العلم : وهو الذي يحمل العلم أمام الباي عندما يخرج في مهمة سواء في السلم أم الحرب .
- 4 - باش الطبل : وهو رئيس الطبول التي تضرب وتندق في حالات الحرب والسلم كذلك ، للنفير وغيره .
- 5 - باش المكاحل : وهو رئيس حرس الباي الخاص ، ويحمل أسلحة الباي في الحفلات العامة ، ويحكم فرسان الحرس الدائم للباي .
- 6 - باش خزناجي : يسخر لحراسة قوافل المحلة التي تستخلص الضرائب من الناس . ويتكلف بإعداد الأحصنة والخيول لحمل هذه الضرائب في كل مرحلة من مراحل هذه العملية . ويحمل أمتعة الباي عند سفره .
- 7 - باش مانفا : وهو مسئول عن إعداد وتقديم البغال ، والأحصنة ، للقافلة التي يقودها الباي للقيام بغارة مفاجئة .
- 8 - قائد موهر باشا ، أو خوجة الخيل : وهو مسئول عن تنشيط سير البغال والأحصنة ويصحب الخليفة إلى مدينة الجزائر عندما يحمل الدنوش في الربيع . ويتكلف بإرسال أمتعة القافلة من عاصمة الجزائر إلى عاصمة البايليك في عودتها .
- 9 - باش سراج : وهو مسئول عن اصطبلات الباي في عاصمة البايليك .

ثالثاً موظفو قصر الباي :

- 1 - قائد المقصورة . ويمثل وظيفة مقتصد قصر الباي الخاص .
- 2 - باش الفراش : ويتكلف بفراش قاعات القصر .
- 3 - قائد الجيرة : ويتكلف بجيرة الباي وتزويدها بالأموال اللازمة وتعهدتها .

- 4 - قائد السيوانة : ويحمل مظلة الباي في الأمطار ، والحزارة .
- 5 - قائد السبسي : ويتكلف بغليونة الباي ، ويعتد له حشيشة الدخان .
- 6 - قائد الطاسة : ويتكلف بحمل أدوات شرب القهوة من الفضة خلال سفر الباي .
- 7 - باش قهواجي : ويقوم بإعداد القهوة وتقديمها للباي وضيوفه بالقصر .
- 8 - قائد الدرية : وهو البواب الأول لمنزل الباي ، ويكون خصيا أسود ، ويدعى آغا الطواشي .

رابعاً : موظفو المدينة الذين يخضعون لقائد الدار :

- 1 - أمين الخيازين .
- 2 - أمين الفضة .
- 3 - قائد الباب : ويكون مسئولاً عن السلع التي تدخل إلى أسواق المدينة للتجارة ويستخلص من أصحابها الضرائب والمكوس المطلوبة . وفي العادة يكون له كاتب خاص ، وعدد من معاونين ، والمساعدين .
- 4 - قائد السوق أو مفتش الأسواق :
- 5 - قائد الزبل : وهو مسئول عن تنظيف الشوارع والأسواق والحارات .
- 6 - قائد القصبة : ويسمى في الجزائر العاصمة بالمزوار ، وهو مسئول عن شرطه المدينة في الليل ، ويخرج مع خليفة العيال للمراقبة والتفتيش والتفقد .
- 7 - البراح في الأسواق والساحات العامة لتبليغ الناس أوامر قائد الدار ، والباي ، والخليفة ، خاصة قضايا الإعدام ، ويصاحبه شاوش الباي .
- 8 - باش الحمار : وهو مسئول عن البغال ، ويتولى تجهيزها عند القيام بحملة ما .
- 9 - وكيل بيت المال : ومن مسؤولياته إعانة الفقراء والمساكين والتصرف في الموارث التي لا صاحب لها ، وحفر القبور ، وحماية المقابر ، ويضع الباي دائماً تحت تصرفه مبلغاً من المال من الخزينة العامة لمواجهة هذه المشاكل .⁽³⁾

3) E. Vayssettes: histoire de constantine sous la domination turque de 1517 à 1837. recueil des notices et mémoires de la société de la province de constantine (constantine 1867) pp.241 — 256.

الجهاز الشرعي والديني بقسنطينة :

يوجد بمدينة قسنطينة مفتي ، وقاض ، مالكي لعموم الناس ، وقاض حنفي للأتراك والكراغلة ، وعدلان ، وناظر للأوقاف الإسلامية ، يؤلفون جميعاً المجلس الشرعي الإسلامي الذي يجتمع كل يوم جمعة للنظر في القضايا والفتاوى المختلفة ، ويرأسه الباي ، أو قائد الدار .

وبمدينة قسنطينة أكثر من مائة جامع ، ومسجد ، وزاوية ، وكتاب يعمل بها أئمة ، ووعاظ ، ومرشدون ، ومؤذنون ، وقيّمون ، وحزاب ، ومعلمون للقرآن الكريم ، ومدرسون للعلوم الدينية ، والأدبية ، ويوجد بها أمير الركب الذي يقود قافلة الحج إلى بيت الله الحرام كل عام . وكانت هذه الوظيفة في أيدي عائلة أولاد عبد المؤمن ثم انتقلت إلى عائلة أولاد بن الففون⁽⁴⁾ .

مداخل البايك ، وموظفوها

تعتمد خزينة البايك على الموارد الثلاثة التالية :

أولاً : الضرائب : كالحكر على الأراضي ، والعشور على الحبوب ، وضرائب التبن ، والغرامات النقدية على القبائل البعيدة ، دراهم وغيرها .

ثانياً : عوائد أرضي البايك ، وممتلكاته المختلفة ، كالمزارع ، والأحواش ، والأراضي المؤجرة للخماسة . والعزل ، وأراضي الأوقاف .

ثالثاً : عوائد التولية والغرامات ، والحجر ، وضرائب أخرى غير عادية .

ومن ضمن موظفي الإدارة المالية في البايك :

1 — قائد العشور : ويتكلف بتحديد ضرائب حبوب الحرث .

2 — قائد الجابري : ويتكلف بتحديد ضرائب أراضي البايك .

3 — قائد عزب الجمال : ويتكلف بحراسة جمال البايك .

4 — قائد عزب البقر ويتكلف بحراسة أبقار البايك .

5 — قائد عزب الجلب : ويتكلف بحراسة قطعان الغنم التابعة للبايك .

6 - باش خزناجي ، أو قائد المهور باشا أو خوجة الخيل كذلك . (5)

قوات البايليك العسكرية :

تتألف قوات البايليك من حوالي 45 ألف رجل موزعين هكذا :

22000 من المشاة .

23000 من الفرسان الخيالة

وينتمون إلى فئات ثلاث : الميليشيا : والزمول ، ودائرة المخزن .

— جنود الميليشيا يجندون من الأتراك ، وبعض الكراغلة ، ومهمتهم الخدمة في النوبة (المعسكر) والمشي مع محلة الدنوش ، ومع قوافل الغزو في الحروب .
ومن أشهر النوبات في البايليك :

— نوبة قسنطينة وعدد أفرادها 73 عسكرياً .

— نوبة عنابة وعدد أفرادها 71 عسكرياً .

— نوبة بسكرة وعدد أفرادها 72 عسكرياً .

— نوبة بجاية وعدد أفرادها 44 عسكرياً .

— نوبة تبسة ، وعدد أفرادها 29 عسكرياً .

— نوبة جيجل ، وعدد أفرادها 29 عسكرياً .

— نوبة برج حمزة (بويرة) وعدد أفرادها 15 عسكرياً .

— جنود الزمول أو رجال الزمالة : ويجندون من قبائل المخزن ويعسكرون عادة في عين مليلة بين قسنطينة وباتنة ويرأسها قائد يعرف بقائد الزمالة .

— جنود الدائرة : وهم رجال حرب وفرسان ، ينتفون من كل القبائل ويرأس الدائرة رجل يحمل لقب : أغا الدائرة ، ويقم بمدينة قسنطينة ويبلغ عدد أفرادها حوالي ألف فارس يعسكرون في عدة أماكن منها :

— دائرة الوادي في وادي بوسلا بين عين الخشبة وجميلة .

— دائرة السراوية في السرا جنوب ميلة .

— دائرة وادي زناتي في قرفة .

— دائرة قسنطينة .

وعندما تذهب المحلة إلى الجزائر العاصمة لحمل ضرائب الدنوش تمر على المراكز التالية التي تأخذ في كل منها قسطاً من الراحة ، وتعرف بالقناق ، وهي : بشر البقيرات ، وذراع الطبول ، وركاب ، ومجاز الحمار ، وسطيف ، وعين تاغرووط ، وسيدى مبارك ، وذراع الحمر ، ومجانة ، وبني منصور ، والدهوس ، وحزمة ، وبني هيني ، وذراع البرال ، والحوش ، ومتيجة ، والجزائر العاصمة .⁽⁶⁾

بداية حكم الأتراك في قسنطينة وإقليمها :

في ربيع عام 1514 تعاون خير الدين ، وعروج ، التركيان ، ورفاقهما ، وانتزعوا مدينة جيجل من الجنويين الإيطاليين الذين اتخذوها مركزاً لهم لصيد المرجان في الشرق الجزائري ، وحاولوا أن يستخلصوا بحاية فلم ينجحوا ، وفي الوقت نفسه ضايقهم الأمير الحفصي بتونس فنقلوا قاعدتهم البحرية من حلق الوادي إلى جيجل ، وهناك استنجد بهم سكان مدينة الجزائر عام 1516 فلبوا الرغبة ، واتجهوا إليها بقواتهم البرية والبحرية ، وتمركزوا بها ، وقضوا على المعارضين لهم ، وذهب عروج إلى تنس لمعاينة أميرها الزياني الذي تعاون مع الإسبان ومن هناك أخذ طريقه إلى تلمسان لنجدة سكانها عام 1517 ، ولكن الإسبان تمكنوا من قتل أخيه إسحاق في قلعة بني راشد ، وقتلوه هو غدرا في المالح بعد أن فر من تلمسان نتيجة لغدر سكانها به وذلك عام 1518 م .

وبقي مركز أخيه خير الدين بالعاصمة معرضاً للخطر فاتفق مع كبار سكانها على إلحاق الجزائر بالخلافة العثمانية في العام نفسه وأرسلوا وفداً إلى السلطان سليم الأول

في مصر ليخبره بذلك فقبل ، وأرسل ففطان التولية لخير الدين بايلرباي عليها ، وألفي جندي انكشاري ، وكمية من الأسلحة ، فقام خير الدين بتنظيم الإدارة واستقر هو بالعاصمة ، وعين نائباً عنه في الناحية الغربية يدعي محمد بن علي اتخذ شرشال مركزاً له ، وعين أحمد بن القاضي نائباً عنه في الناحية الشرقية اتخذ دلس مركزاً له .

وفي عام 1521 م نشبت مشاكل بينه وبين أحمد ولد القاضي أمير كوكو ، فاضطر أن ينسحب من الجزائر ويعود إلى جيجل مركزه الأول ، ليستأنف نشاطه البحري ويرقب الأمور من هناك عن كثب . فجدد صلاته بالسكان وزعماء العائلات الكبرى واهتم بأمر المراكز العمرانية المهمة بالمنطقة الشرقية كمواطن استراتيجي ليركز سلطته ويوسعها .

وعلى أساس هذه السياسة غزا مدينة القل في العام نفسه 1521 وسيطر عليها وركز بها حامية عسكرية من 200 جندي انكشاري ، وغزا مدينتي : عنابة وقسنطينة في العام الموالي 1522 م ، وركز بالأولى حامية من 1500 جندي ، وفي الثانية 600 جندي انكشاري يرأسها ضباط يحملون لقب قائد العسكر . وكان اسم قائد حامية قسنطينة يوسف . وأعطى الحرية لكل قائد في سلوك السياسة التي يراها تجاه السكان ، وحثهم على تحسين علاقاتهم وتمتينها معهم لضمان تموين حامياتهم العسكرية بتلك المدن ، خاصة قسنطينة التي يصعب تموينها من البحر ، ولا بد من تموينها براً من الأسواق المحلية . ولذلك ربط القائد يوسف صلات حسنة مع الشيخ الففون شيخ البلد الذي مكنه من الاتصال والتعاون مع أولاد يعقوب بن علي الهلالين الذين يتحكمون في منطقة واسعة بقسنطينة من عنابة شرقاً إلى سطيف غرباً ، وإلى تفرت جنوباً ، وتعهدوا فعلاً بتزويدهم بالمتون مقابل الحصول منه على البارود بكميات كافية .

وبعد أن عاد خير الدين إلى الجزائر العاصمة عام 1525 م وحرر قلعة البنيون عام 1529 ، وهزم حملة اندري دوريا الجنوبي في شرشال عام 1531 م ، غزا تونس وفتحها عام 1533 م ، ولكن شارلكان الإسباني استجاب لطلب الملك الحفصي الضعيف وشن حملة على تونس في العام الموالي 1534 م ، واضطر خير الدين أن ينسحب منها براً إلى عنابة ، ومن هناك ركب البحر إلى الجزائر العاصمة ، ثم إلى ماهون بالبليار ، وخلف وراءه بعنابة حسن أغا ساردو على رأس قوات أخرى وطلب منه أن يقودها إلى الجزائر براً عبر قسنطينة .

وعندما وصل إليها وأراد الدخول للراحة منعه السكان من ذلك ، وندخل الشيخ القفون ، والقائد يوسف ، وأقنعوه بالتركز خارجها ، وتعهدوا بتزويده بكل ما يحتاج من المؤن ، وبعض التموينات نقداً ، فأخذ طريقه إلى جيجل حيث أخذ المراكب بحراً إلى العاصمة .

وقد عانت الحامية التركية بقسنطينة مشاكل كثيرة بسبب الصراع الذي كان قائماً بين الخانشة وأولاد يعقوب على السلطة والنفوذ ، والخطوة ، واضطر القائد يوسف أن يستنجد بأولاد يعقوب في الجنوب ليضع حداً لمحاولات الخانشة . ورغم المشاغبات التي حصلت في سهل سطيف ، فقد توصل كبار القوم من الطرفين إلى الاتفاق على أن يتحرك الخانشة في شرق المدينة ، والدواودة في غربها ، والبعض داخلها وكان لهذا الاتفاق أثره الحسن في وضع قاعدة وأساس لتزويد الحاميات التركية بالمؤن المطلوبة بسهولة ويسر .

وعندما عين حسن أغا ساردو قبطاناً للبحرية العثمانية ، خلفه حسن قورصو في منصب البايبراي على الجزائر ، وقرر تركيز عدة حاميات تركية في أماكن استراتيجية بإقليم قسنطينة ما بين عامي 1540 - 1541 ، ومنها : زمورة ، وبرج بوعرييج ، والمسيلة ، والبويرة ، وتم تعيين بوعكاز بن عاشور شيخ العرب على رُحل الدواودة ، شرق قسنطينة ، وعبد العزيز من قلعة بني عباس خليفة على مجانة عام 1542 ، فقام بتوسيع سلطته إلى الزاب ، وبسكرة وأخضعها لسلطته .

وعندما تولى حسن بن خير الدين منصب البايبراي لأول مرة عام 1544 إلى 1552 ، كلف خليفة مجانة عبد العزيز بمحاربة أحمد ولد القاضي الذي كان مايزال عدواً للأتراك ، فهض بالأمر ووسع نفوذه وسيطرته حتى إلى البيان غرباً وبسكرة جنوباً ، وريوات جرجرة الشرقية غرباً ، ومضايق خراطة شمالاً بالبابور ، وقد وافق حسن بن خير الدين على أن يفرض أولاد يعقوب بن علي سيطرتهم على المنطقة الممتدة بين قسنطينة والعلمة ، والأحرار شيوخ الخانشة سيطرتهم على شرق قسنطينة ، وعبد العزيز سيطرته على المنطقة الغربية من سطيف إلى البويرة .

ولما تولى صاحب رايس منصب البايبراي في أعوام 1552 - 1556 ، غزا الجنوب

القسنطيني ، وسيطر على ورقلة وتفرت وقضى على إمارة بني جلاب في تفرت ، وكان من ضمن ما ساعده في ذلك شيخ العرب بوعكاز ، وعبد العزيز خليفة مجانة الذي طلب منه أن يخضع له المنطقة الممتدة من بسكرة إلى المسيلة فرفض صالح راييس ذلك ، فأظهر عبد العزيز تدمره ومعارضته التي انتهت بإعلان عصيانه فيما بعد ، ومحاولته التحالف مع أحمد ولد القاضي الذي كان خصما وعدوا له ، ولم يكتف بهذا فقام بمهاجمة ومحاصرة الحاميات التركية في زمورة ، والبرج ، والمسيلة ، والبويرة ، ونشبت الحرب بينه وبين صالح راييس ، وابنه محمد بن صالح راييس ، وشنوا عليه حربا شعواء طوال ثلاث سنوات ، من 1552 — 1554 ، وحصلت معارك طاحنة راح ضحيتها عدد كبير من الطرفين وتم تدعيم الحاميات التركية المشار إليها بعد أن كانت قد انسحبت من أماكنها بسبب قساوة الحروب ، والمعارك ⁽⁷⁾ وتمكن صالح راييس عام 1555 من افتكاك مدينة بجاية من الأسبان وتحريرها ، ووضع بها حامية عسكرية من 600 رجل بقيادة ضابط تركي .

وبعد عودة حسن بن خير الدين إلى الجزائر على رأس البايليك في أعوام 1557 — 1561 تفاوض مع ولد القاضي ، أمير كوكو ، وتزوج ابنته ليقربه منه ، وحاول أن يتفاوض مع عبد العزيز خليفة مجانة والقلعة فرقص ، ونشبت الحرب بينهما وقتل عبد العزيز كما قتل أخوه الفضل قبله على عهد صالح راييس ، وخلفه أخوه أحمد أمقران الذي استكمل العائلة بعده اسمه : أولاد مقران . أو المقرانيون .

تفاوض أحمد أمقران مع حسن بن خير الدين وقبل شروطه للصلح عام 1559 فتقلصت سلطته على الزيان والصفة الغربية لوادي الساحل .

وفي الولاية الثالثة لحسن بن خير الدين التي بدأها عام 1562 ، طلب منه السلطان العثماني أن يستعد لمهاجمة الإسبان في وهران ، وفرسان مالطة في جربة ومالطة ، فكتب إلى

7) Marmol . T.2. PP.425 — 427 — berbrugger epoques militaires en grande kabylie p. 100.

زعماء قسنطينة وإقليمها رسائل يحثهم فيها على الاستعداد وتجهيد الناس ، وقاد الحملة الأولى على وهران في أبريل 1563 م بمعية أحمد أمقران الذي قاد 12 ألف رجل من منطقة بالييان ، وكذلك قائد حامية قسنطينة الذي قتل أمام أسوار وهران خلال المعارك والمشادات ، ولولا استدعاء السلطان العثماني له على عجل ، لم فتح البايليك⁽⁸⁾ .

تكوين بايليك قسنطينة :

ومن أجل ضبط السلطة وإقامة إدارة محكمة قرر حسن بن خير الدين تقسيم الجزائر إلى ثلاثة أقسام كل منها يحمل اسم بايليك ، هي : بايليك الغرب وبايليك التيطري وبايليك الشرق أو بايليك قسنطينة ، هذا إلى جانب بايليك الجزائر العاصمة ، في الوسط الذي يحمل اسم دار السلطان كذلك ، ويحكم كل بايليك نائب عن الباشا بالجزائر يحمل لقب الباي ، بمساعدة مجلس ديوان صغير ، وعدد من الأعوان . وفي السنة نفسها عين حسن بن خير الدين على بايليك الغرب ، المدعو بوخديجة ، ونصبه في مدينة مازونة ، أما بايليك قسنطينة فلم يتم تعيين باي عليه إلا بعد عامين من هذا التاريخ أي عام 1567 ، وهو المدعو رمضان تشولاق باي ، الذي بقي في منصبه حتى عام 1574 م كما سيأتي .

رمضان تشولاق باي 1567 - 1574 :

عينه الباييرباي محمد بن صالح رايس في هذا المنصب ، وذلك في ظروف صعبة ، ومشاكل معقدة في الإقليم . وحسب رواية فايست فإن تعيين رمضان تشولاق باي في هذا المنصب تم حسب الكيفية التالية :

في عام 975 هـ (1567 م) حصل اتفاق بين سكان مدينة قسنطينة على تكوين وفد وإرساله إلى الباشا بالجزائر العاصمة ليشرح له أوضاع المدينة المتدهورة ، وتألف هذا الوفد من الشيخ عبد الكريم الففون ، والمفتي عبد اللطيف المصباح ، وعدد من الشخصيات المعتمدة ، وسافروا واستقبلهم الباشا محمد بن صالح رايس الذي خلف حسن

بن خير الدين ، وسمع شكاواهم ونظلماتهم . وبينما هم بمدينة الجزائر سمعوا بقيام سكان مدينة قسنطينة بثورة ، وهجومهم على الحامية التركية بها ، وقتلهم للحاكم التركي ، فخافوا أن يسلط الباشا عقابه عليهم ، ففروا ليلاً إلى بلاد القبائل وعندما علم الباشا بهروبهم أمر من لاحقهم وأعادهم إلى العاصمة وسجنهم بعض الوقت ثم أطلق سراحهم ، وصحبهم معهم في حملته التأديبية على مدينة قسنطينة وفتح له السكان أبواب المدينة دون قتال فدخلها وقبض على زعماء الفتنة وقتلهم ، وسجن عدداً آخر من الموروثين ، وباعهم عبيداً ، وأعاد للمدينة أمنها واستقرارها ، وبعد ذلك قام بتعيين رمضان تشولاق بايا على المدينة والبايليك ، وقفل راجعاً إلى العاصمة ليعزل هو الآخر ويعين بدله العليج علي الفرطاس بايلرباي على نيابة الجزائر كلها .

وفي عام 1570 ذهب العليج علي لمهاجمة الإسبان في تونس وصحب معه القائد رمضان تشولاق باي ، وفي نيته أن يعاقب الأمير الحفصي مولاي أحمد الذي أخلص في تعاونه مع الإسبان ، واصطدم بقوات هذا الأمير الحفصي في باجة وهزمه ، واضطر أن يفر إلى حلق الوادي ، فعاد العليج علي إلى الجزائر ، وعاد رمضان تشولاق باي إلى قسنطينة .

وخلال هذه الفترة قام بعض العصاة باختطاف الشيخ عبد الكريم الفنون ، والمفتي عبد اللطيف المصباح ، وصهره مزور الشرفة ، وقائد جيش المدينة ، بينما كانوا يتفحصون خارج المدينة ، ويبدو أن ذلك كان وفق خطة ومؤامرة مبركة ، وتدخل أحد الزعماء ذوي الحظوة والمكانة ويدعى الرئيس العباسي ، فأطلق سراحهم بعد أن قدم للمختطفين مجموعة رؤوس أغنام كفدية .

وفي عام 1572 اندلعت بقسنطينة ثورة أخرى واستعمل الباي رمضان تشولاق قسوة وشدة في القضاء عليها ، وفي العام الموالي تجددت الثورة وعمت معظم البايليك واضطر تشولاق باي أن يستنجد بقوات مخزن الدواودة ، والبايلري عرب أحمد بعد أن ثار الحنانشة في شرق البايليك ، وأولاد مفران في غربه . وتوسط أحمد بن بوعكا الدواودي لدى الحنانشة فأقنعهم بوضع حد للثورة والتمرد ، ولكن المقرانيين رفضوا هذه الوساطة رغم أن بوعكاز صهر لهم . وفي وسط هذه الاضطرابات شارك سكان البايليك في الهجوم على تونس بقصد تحريرها من الإسبان . وفي عام 1574 غزا النصارى مدينة عنابة

واحتلوها ، ففر منها الشيخ سيدى خليفة بن سيدى عيسى إلى قسنطينة ، وتوفي بها وبني علي قبره مسجد قرب باب القنطرة . وفي العام نفسه دعي رمضان تشولاقي باي إلى الجزائر ، وعوض بجعفر باي⁽⁹⁾ .

جعفر باي 1574 - 1588 :

سلك سياسة حكيمة فوثق صلاته بالعائلات الكبيرة ذات النفوذ والمكانة في المدينة والبايليك ، وزود العلج علي بعدد من الجنود الانكشاريين وفرسان الخزن خلال حملته ضد سلطان المغرب عام 1576 . وفعل الشيء نفسه مع حسن فنزيانو في حملته ضد الإسبان . وفي عام 1580 ذهب إلى الجزائر العاصمة ليقدم تهنئه إلى الباشا الجديد جعفر باشا الذي يحمل نفس اسمه ، وصحب معه عدداً من زعماء البايليك وعلى رأسهم أمير بني عباس الذي حمل معه إلى الباشا هدايا كثيرة ومتنوعة منها : ستة آلاف روبل أو ما يعادل 2400 ريال إسباني ، و 400 جملاً ، و 1000 خروف⁽¹⁰⁾ .

وفي عام 1582 حصل طاعون في قسنطينة ، وإقليمها ، ومات خلق كثير ومرت السنوات دون أن نعرف ما جرى خلالها إذ لم تحدثنا المصادر على ذلك وفي عام 1588 استدعى جعفر باي إلى منصب آخر ، وخلفه محمد بن فرحات في منصب الباي علي بايليك قسنطينة الذي دام حكمه عشرين عاماً تقريباً .

محمد بن فرحات باي 1588 - 1608 م :

لم يكن من أصل تركي وإنما هو من نبلاء مدينة قسنطينة خلف جعفر باي الذي استدعى إلى القسطنطينية ، سلك سياسة سلفه نفسها فيما يخص التقرب من القبائل وزعمائها ، ويبدو أن طبيته هذه فسرتها القبائل بالضعف فرفضت أن تدفع له الضرائب المطلوبة منها في الأوقات المناسبة ، وعجز هو عن دفع أجور جنود الميليشيا ، وتوفير نفقات الحروب والغزوات التي كان يقوم بها ضد العصاة والمتمردين ، وكان ذلك من المشاكل والصعوبات التي عاناها خلال حكمه .

9) Berbrugger : IBID.p.101. vayssettes. IBID.p.311.

10) Vayssettes / IBID.p.311.

وعندما تولى خيضر باشا السلطة في أعوام 1589 - 1592 ، طلب من البايات في البايليكات ، أن يستعملوا نفوذهم لدى القبائل حتى تدفع ما عليها من الضرائب في أقرب مدة . فقام الباي محمد بن فرحات بتذكير الشيوخ والخلفاء ، والزعماء ، بهذه التعليمات فامتثل البعض لها ، ورفضها آخرون ومنهم زعماء أولاد مقران بمجانة ، الذين أجابوا بإعلان الحرب عليه ، فتصدى لمواجهتهم واستنجد بالباشا في العاصمة الذي أنجده وأرغمت قواتهما المقرانيين على دفع خسائر الحرب مع الاحتفاظ بامتيازاتهم القديمة .

وقد تواصلت المفاوضات بين الباي محمد بن فرحات ، والمقرانيين الذين متوا صلاتهم بابن القاضي أمير كوكو ، وتحالفوا ، وأخذوا يهددون أبواب مدينة الجزائر العاصمة ، مثلما هددوا باي قسنطينة في الناحية الشرقية .

وجند الباشا بالجزائر العاصمة قوات كافية قادها الأغا مصطفى ولاحق المتحربين إلى سفوح جبال جرجرة وأطراف البيان ، وفي عام 1596 أبرمت هدنة مؤقتة سرعان ما نقضت من طرف الباشا مصطفى (1596 - 1599) وقام الباي محمد بن فرحات بالزحف من الشرق ، والأغا مصطفى من الوسط ، ضد قوات عمر بلقاضي ، ولم تنته هذه الحروب إلا بعد أن رحل مصطفى باشا وعوضه في منصبه خيضر باشا للمرة الثالثة .

وعندما أبرم السلطان العثماني محمد الثالث معاهدة الامتيازات مع الملك الفرنسي هنري الرابع عام 1597 ، تم الاعتراف بامتيازات التجار الفرنسيين في الجزائر . فغضب الديوان ، ورفض قبول ذلك ، وأمر الباشا خيضر باي قسنطينة محمد بن فرحات بتعطيل وتهديم الباستيون الفرنسي في ساحل القالة ، ولما سمع السلطان العثماني غضب على الباشا خيضر وعزله ، وعوضه بالباشا محمد قوصة الذي قام خيضر باعتقاله وقتله ، فثار عليه الجنود الانكشاريون وأرغموه على التخلي عن منصبه لمصطفى قوصة شقيق الضحية .

وبمجرد أن تسلم مصطفى قوصة منصبه ، أمر باي قسنطينة محمد بن فرحات بالتخلي عن تهديم الباستيون الفرنسي ، والتوقف عن ذلك امثالاً لأوامر السلطان العثماني .

وفي خلال عامي 1602 - 1603 حصل وباء الطاعون في قسنطينة وقتل خلقا كثيراً ثم حصل قحط وجفاف تواصل مدة تسع سنوات كاملة ، أدى إلى حصول مجاعات حادة خلقت ضحايا كثيرة .

وفي عام 1607 م أغار دوق الطوسكان كونتا بل بيكولميني : Connetable Piccolemini على مدينة عنابة بعمارة بحرية من 14 مراكباً ، وحاصر الحامية التركية بالقصبة فأُنْجدها الباي محمد بن فرحات من قسنطينة ، وحارب المغيرين وجرح خلال المعارك ومات ، وتمكن الأعداء من غنم وأسر عدد كبير من الرجال والنساء ثم انسحبوا ، وقام قائد عسكر الباي ، رجب بن حسين بأمر إعادة النظام إلى المدينة ، وإصلاح أوضاعها ، ثم عاد إلى قسنطينة لاستقبال الباي الجديد حسن باي⁽¹¹⁾ .

حسن باي 1608 - 1622 م :

في عهد هذا الباي تم إبرام معاهدة ضبط الحدود مع نيابة تونس عام 1614 م ، وتوفي قائد الجيش رجب بن حسين ، وفي عام 1617 وقع اتفاق بين الجزائر ومرسيليا لتبادل الأسرى فأخلف الفرنسيون وعددهم وأرسلوا عدداً من الأسرى الأتراك لا يتفق مع عدد الأسرى الفرنسيين فغضب السكان ، ورفضوا السماح للأسرى الفرنسيين بركوب البواخر ، وعزم الرياس على تنظيم حملة عسكرية ضد الباستيون الفرنسي في القالة وعنابة ، ولكن السلطان العثماني عارض هذه السياسة وعزل الباشا بالجزائر وبقي حسن باي في منصبه حتى حدث وباء الطاعون عام 1622 بقسنطينة ، فمات به هو وغيره ، وخلفه مراد باي .

مراد باي 1622 - 1647 م :

اهتم بحفظ الأمن والنظام في البايليك كما اهتم بأمن الرعايا الفرنسيين في مراكز صيد المرجان ، مثلما فعل سلفه استجابة لرغبة السلطان ، وأوامر الباشا بالجزائر . وعندما قام التونسيون بحرق معاهدة ضبط الحدود التي أبرمت عام 1614 وجهت الجزائر حملة عسكرية ضد تونس ، اشترك فيها مراد باي بقوات البايليك وخاضوا معركة ستارة قرب

(11) Vayssettes : IBID. p.329 - 331.

مدينة الكاف في 17 ماي 1628 ، وأرغموا التونسيين على إبرام اتفاق لضبط الحدود نص على ما يلي :

أولاً : يبقى مجرى وادي صراط هو الحد الفاصل بين البلدين في المناطق الجنوبية .
ثانياً : يقوم التونسيون بتهديم المراكز العسكرية التي أسسوها في المناطق المتنازع عليها .

ثالثاً : بتواصل تحديد الحدود هكذا بين البلدين من وادي ملاف ابتداء من نقطة الأحيرش إلى الكرش فقلوب الثيران ، ورأس جبل الحافة ، ومن هناك إلى البحر .
رابعاً : الذين يعبرون الحدود من أي من البلدين ، لا يتم الإعلان عنهم من طرف الدولة ، ويعتبرون متخلين عن بلدهم ، ويعتبرون من اختصاص البلد الذي اختاروا الاستقرار فيه⁽¹²⁾ .

وعندما تم إبرام معاهدة سانسون نابولون في 17 سبتمبر 1628 بين الجزائر وفرنسا ، نصت على مايلي فيما يخص بايليك قسنطينة .

- إعادة فتح الباستيون الفرنسي .
- إنشاء مركز تجاري فرنسي دائم في عنابة .
- إنشاء قلعة صغيرة في كل من رأس روز ، والقالة .
- حرية التجارة وضماتها بالنسبة للفرنسيين .
- حق البواخر الفرنسية في الرسو في أي ميناء جزائري متى داهمتها الأخطار .

واستغل سانسون نابولون هذه المعاهدة ليشير الشعب ، والاضطرابات في البايليك ، ليستغلها لمصالحه التجارية ، وخاصة المشاكل ذات الصلة بمركز طبرقة التونسي الذي يستغله الجنوبيون ، والذي حاول أن يحتله انطلاقا من مراكز القالة بالجزائر ، وانتهى

(12) Vayssettes : IBID.p.331 — 372, berbrugger: revus africaine I.TV () pp. 406 et suivante et M. rousseau: annales tunisiennes : () pp.45

الأمر بقتله يوم 11 ماي 1633 م. (13)

وفي عام 1629 سمح لعدد من الكراغلة المنفيين بعنابة ، بالعودة إلى الجزائر العاصمة فقاموا بثورة دموية بالقصبة ، وفجروا جزءاً منها أقي على حوالي 500 منزل و 600 شخص قتل ، وتمكن هؤلاء البولداش من عزل حسن باشا ، وتعويضه بيوسف باشا عام 1633 م (14) .

وفي عام 1634 م حدث وباء الطاعون في البايليك ، وأدى إلى كارثة كبيرة . إذ توفي في قسنطينة وحدها ثلاثة علماء كبار ، هم : بركات بن نعمان ، وعبد اللطيف المصباح ، وبركات بن عبد المؤمن . وبعد عامين من هذا التاريخ توفي قائد جيش قسنطينة المشهور محمد بن حسين الذي كان قد خلف في المنصب نفسه رجب بن حسين .

وعندما تولى علي باشا الحكم بالجزائر خلفا ليوسف باشا عام 1637 - 1639 ، أعلن الحرب على فرنسا ، وأمر الرايس والفائد على بتشيني بشن حملة على المؤسسات الفرنسية في القالة وعنابة فنفذ الأمر واحتلها بدون صعوبة عام 1637 م وأسر 317 شخصا قادهم إلى الجزائر العاصمة (15) .

ثورة ابن الصخري :

لم يكن مراد باي يجهل الدسائس التي يحكيها الأجانب ، والمتعاونون المحليون معهم في بايليكه ، ولذلك تجند لمقاومتهم سواء في منطقة القالة ، وعنابة ، أم في الحناشة بالشرق ، أو الدواودة في الجنوب ، وكان أخطر ما واجهه ثورة ابن الصخري شيخ العرب في جنوب البايليك ، التي امتدت بعد ذلك لتشمل كل البايليك .

ففي يوم 17 جوان 1637 م استدعى مراد باي إلى معسكره قرب مدينة قسنطينة محمد الصخري بوعكاز ، مع كبار عرشه ، وأوقفهم وحاكمهم بواسطة مجلس الديوان

(13) انظر كتابنا : علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500 - 1830 م (الجزائر - ديوان المطبوعات الجامعية 1985)

(14) المصدر نفسه .

(15) المصدر نفسه كذلك .

فحكم على محمد بن الصخرى وابنه ومئة من كبار قومه بالإعدام ، وأعدمهم في الحال بتهمة تعاونهم مع الأعداء . وكان ذلك سبباً في اندلاع ثورة عارمة عمت كل بابليك الشرق ، تزعمها ابن القليل أحمد الصخرى ، وفرض حصاراً شديداً على مدينة قسنطينة ، وحرب كل الحقول المجاورة لها والمساكن ، وقتل الكثير من الناس ، ونشبت معارك كثيرة في مختلف أنحاء البابليك وسالت الدماء أنهاراً وانعدم الأمن ، واختل النظام ، وامت الفوضى كل الأقليم ، وتعرض الباي مراد لهزيمة ساحقة في معركة سهل فيجل قرب سطيف ، واضطر أن يفر بنفسه رغم النجيدات الكثيرة التي أرسلها له الباشا بالعاصمة مرتين اثنتين بقيادة كل من القائد يوسف والقائد شعبان .

وفي عام 1638 جاءت نجيدات أخرى إلى الباي مراد قادها الأغا يحيى ، وهاجم الثوار ، والمتمردين في الحمامة ، وغيرها ، وحصل الشيء نفسه في العام الموالي ولكن الثورة لم تنته ، فتوسط الأغا يحيى بشيخ أولاد عزام ، ليصلح ذات البين وتم الاتفاق على أن يدفع الدواودة والحنانشة ضريبة الزمة على أن تعاد مراكز صيد المرجان الفرنسية لعملها على أساس أنها مصدر مهم للنشاط التجاري الخارجي في البابليك⁽¹⁶⁾ .

وعندما تولى جمال يوسف باشا السلطة عام 1640 - 1642 م أمضى مع دوكوكيل : de coquiél اتفاقاً لتنظيم العلاقات بين فرنسا والجزائر ، ولكن الكاردينال ريشيليو رفضه وألغاه على أساس ألا فائدة من المؤسسات الفرنسية في القالة وعنابة ، والتي تساس وتدار بواسطة المفاوض ليون طوماس بيكي . ولذلك عزم جمال باشا على زيارة البابليك بنفسه لمعالجة المشاكل على الطبيعة وفي عين المكان نفسه ، فراسل الزعماء الدينيين والشخصيات المرموقة ومنهم سي محمد الساسي العناني ليستطلع رأيهم ، ثم أبحر هو إلى مدينة عنابة على رأس قوات معتبرة عام 1641 ، وأمر قوات أخرى أن تلحق به إلى قسنطينة عن طريق البر . وعندما وصل إلى هناك ، اجتمع بالباي مراد ، وكبار رجاله ، وتدارس معهم الأمور والأوضاع بالبابليك ، وقرب إليه العلماء ورجال الدين ، واستشارهم في كثير من القضايا وعالج أمور الجنود الانكشاريين الذين كانوا يتسبون

في الفوضى والاضطرابات خاصة فيما يتصل بمنحهم ورواتبهم الشهرية ، وصلاحتهم بجمهور السكان .

وبعد أن انتهى من علاج مشاكل مدينة قسنطينة واحوازها قاد حملة إلى الجنوب وسافر معه في هذه الحملة زعماء أولاد مقران ، وزعماء عائلة الحملوى الدينيون ، وعندما وصلوا إلى مدينة بسكرة استقبلهم السكان بحفاوة وفرحوا بمقدمهم ، وتفقد مراد باي الأمور عن كثب واتفق مع كل زعماء الأعراش والقبائل هناك على أن يدفعوا الضريبة السنوية باستمرار ويزودوه بالفوم متى طلب ذلك ، وعاد من رحلته مزهوا فرحاً عام 1642 م (17) .

ثورة أولاد عبد المومن بقسنطينة :

كان أولاد عبد المومن بمدينة قسنطينة من الصفوف القوية ، أصحاب المكانة والحظوة ، والسلطة ، والنفوذ ، لسنوات طويلة ، وهناك أيضاً عائلة ابن الففون التي كانت تراحهم المكانة ، والنفوذ الديني ، والسياسي ، والاجتماعي . وفي يوم 12 أكتوبر 1642 م ثار أولاد عبد المومن ، وحملوا السلاح ضد الجنود الأتراك الانكشاريين الذين أهانوهم واعتدوا عليهم ودامت المعارك يومين كاملين في شوارع المدينة ، وقتل خلق كثير من الجانبين خاصة من أولاد عبد المومن الذين قتل منهم 24 شخصاً ، واضطروا أن يعتصموا بحصم في الجاية وأغلقوا الأبواب ، ولأزمو منازلهم ، وحاصروهم الجنود الأتراك ، فتدخل شيخ البلد وشيخ الإسلام ، والقاضي ، لدى أغا النوبة (قائد الانكشاريين) وتم الاتفاق على أن ينسحب الجنود الأتراك إلى ثكناتهم ، ويعاقب الجناة من الجانبين .

ثورة أولاد مقران بمجانة :

وفي مطلع عام 1643 ثار المقرانيون بدورهم كذلك في البيان ، ومنطقة سطيف

فانجحت إليهم الكتائب برئاسة الأغا يحيى من الجزائر والقائد يوسف من قسنطينة ،
والقائد مراد من النيطرى ، والقائد شعبان من زمورة ، ونشبت المعارك وتعددت
ولم تنته إلا بعد أن تعهد الداي بإلغاء بعض أنواع الضرائب المفروضة على الناس ،
وحرية التجارة بين الجزائر والمنطقة ، وفي السنوات التالية حدثت اضطرابات كثيرة
في جهات عديدة من البايليك ، وانتشرت المجاعة والجفاف ، وأمراض الطاعون فغلت
الأسعار وكثرت الأهوال والكوارث فاضطرب البايك وعمت الفوضى ، والقلق ،
وعجز الباي مراد عن ضبط الأمور وإعادة الأمن إلى نصابه ، وأثرت فيه الأحداث ،
والمشاكل العويصة فسقط مريضاً وتوفي عام 1647 م فاقترح القسنطينيون على الباشا
بالجزائر أن يخلفه ابنه فرحات فوافق على ذلك ⁽¹⁸⁾ وعينه ، وبه ابتدأ صالح بن
العتري كتابه الذى سنورده فيما يلي مع التعاليق التى سنزيدها عليه ، والتوضيحات
المختلفة الضرورية ، وما أكثرها لأن ابن العتري لم يكن مضبوطاً لا فى المعلومات ،
ولا فى التواريخ ، ولا فى الأحكام .

□ □ □

محمد الصالح بن العتري

فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة
واستيلائهم على أوطانها
أو
تاريخ قسنطينة

مجلس شورای اسلامی

کتابخانه ملی و موزه تاریخ و فرهنگ ایران

کتابخانه و موزه ملی ایران

کتابخانه ملی

الحمد لله بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله (كذا) سيدنا

محمد وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين

الحمد لله الواحد الأحد ، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولد ، مالك الملك بقدرته ،
ومكون الأكوان بإرادته ، ومرسل الرسل لإرشاد عبده ، سبحانه جل وعلا في
ملكوته ، لا رب غيره ، ولا معبود سواه ، وإليه يرجع الأمر كله .

ولما كانت الأخبار السابقة والآثار السالفة يحتاج كل لبيب الحاذق إليها ويتسلى الذكي
الفاهم بمطالعتها ، اقتضى الحال لذلك ترجمة لطيفة ونبذة مستحسنة ظريفة لمن أرادها
من ذوى العقول الراجحة ، وجلساء السلاطين والملوك الفاخرة ، فالزمت نفسي لقرع
هذا الباب واستعملت فكرى فيما رغبوه منى أولئك الأحباب وسميتها : فريدة منيسة
في حال دخول الترك ببلد قسنطينة واستلائهم على أوطانها ، وذكر شيئا مستفادا (كذا)
من سيرة بآياتها إلى انقضاء دولتهم ، واحتواء الفرنسيس على مملكتهم (1).

ونسأل الله سبحانه وتعالى العفو عن زلة اللسان ، والتجاوز عما يخطر من الهفوات
بالجنان ، والصفح عما تكنه الصدور ، وإلى الله عاقبة الأمور .

حكى عن الناس المتقدمين (الراسخين في الأعمار المسنين أن الترك لما تملكوا
بالجزائر — وتوغلوا فيها توغل البحر الزاخر ، وذلك من بعد الحروب والأفتان مدة طويلة
وبرهة من الزمان . ومن بعد تملكهم بها ، وتمهيد أو طائها تراهم قدموا إلى قسنطينة
لأجل أن يستولوا عليها ، ويحتوا على أوطانها ، وكانت ذلك الوقت هي في حكم صاحب
ولاية تونس ، فحين وصلوها ونزلوا بطرفها ، راموا دخولها من غير حرب ولا قتال ،
فلم ينتج لهم شيء ، من ذلك المآل ، إلا من بعد المقاتلة الكبيرة والمحاصرة

1) Salah el- antri: premiere essai d'une histoire de constantine. farida mounissa (la perle agreable) texte arabe

(constantine - frlix guende impreneur et lithographe plage de palais 1846) 2ème edition 1852 ?

الحكمة ليعلم ان هذه الورقة من الورق القديم وخطيها
سيرة من عرفت في ليحة كيمي الى بنو النور

الحكمة الواحدا حرالا حر: الفهم فيمنع صا حيت
ولا دل: مالكا الملك بندرته: ومكون الا حوا
بما رادته: ومرة الارسال ارسالا عيسى
: لا يجد انه جازع ولا في ملكوته: لا ريب غير
وا معبود سواء: واليه يرجع الامر كله
وكتاب ابي الاخير: كتاب الاخبار
الغاية: والافان الصالحين: يحتاج كل
ليب الحاذق اليها: ويتصل اندكها بباب
بالحكمة: افقضي الحال انك ترجمه للحكمة
ونسخة مستحسنة كخرية: لم يرد
منه: العنوا الراجحة: وجلسا: السلاطين
والملوك: بالآخر: بالزيت نفسه نوع صغرا
الباب: واستعملت في: مما رادته
او لا يك: الاحباب: وتسمى

في يده فيصير في حال: في الترتيب
فمنه: واستعملت في: مما رادته
مفتاح امن سيرة: بالآخر: الى انقضاء
ولشهر: واحتوا: ابراهيم على ملكته
ونفسه: سبطه: ونظر العجوة
المنار: التجار: زعماء: من الهوى

الطويلة . ولما طالت تلك المحاصرة ، واشتدت من الجانبين المقاتلة ، وقع الخلاف بين أهل البلد ، فبعضهم يقول نسلموها (كذا) ونستريحوا (كذا) من العناد ، وبعضهم يقول لا نسلموها (كذا) بلادنا ، وفي تسليمها أمر قبيح علينا .

فلما كثر الكلام بينهم ، وتفاقم الأمر لديهم قابلهم سيدى الشيخ بن الفكون واحتج عليهم بالدليل القاطع ، وأشار عليهم بالرأى المصيب النافع ، قائلا : هؤلاء الترك قدموا من حضرة السلطان العثماني ، وهم من أبناء جنسه وتحت حكمه ، إذ لا يليق بنا مقاتلتهم ، ولا يسعنا منعهم ، وربما تلحقنا الضرورة من السلطان المذكور من أجل مقاتلتنا لهم ، ومنعنا من دخولهم .

فعند ذلك أذعن له الصف الآخر وانقاد ، واتفقوا (كذا) كل الناس وفتحوا أبواب البلاد ، هذا الوقت دخلوا (كذا) الترك في قسنطينة وتكلموا مع ناسها قائلين نحن كنا قدمنا من حضرة الدولة العثمانية إلى الجزائر ففتحناها ومهدنا أوطانها ، وحكمنا جار فيهم بالعدل والكمال وما نأخذوا من وطنها إلا الشيء الحلال ، الذى هو مثل الزكاة (كذا) الواجب إخراجه من الأموال ، والنعم والمزروعات ، على نمط الشريعة والطريقة المستقيمة القويمة ، ثم قدمنا إلى قسنطينة كذلك يكون حكمنا بالعدل كما هو هناك ، ونجعلوا حاكم الذى تختارونه منكم ، يكون كبيراً عليكم ، ومتولى أمركم ، فحينئذ تأنسوا أهل البلاد بكلامهم واطمأنوا لجانبهم ، ورجعوا حاكم (كذا) من البلدية ، الذين لهم في ذلك الوظيفة أهلية .

وكان الخبر وصل إلى الباشا بالجزائر ، وتحقق بدخول الترك في قسنطينة على الوجه المذكور الصاير ، فكتب جوابين أحدهما إلى السيد الشيخ بن الفكون خصوصا والآخر إلى ناس قسنطينة عموماً .

صورة الجواب الأول :

الحمد لله ، إلى مقام العالم المشهور الخير الصبور معدن الفضل المصون ، سيدى الشيخ بن الفكون ، أما بعد السلام عليكم ، والسؤال الكثير عنكم ، ومن أنتم (كذا)

إليكم ، وانتسب إلى جنابكم ، فقد بلغنا أنك سرت إلى ناس قسنطينة بالتدبير المفيد ،
والرأى الصائب الرشيد ، فكان في ذلك حقن دمائهم ، وزوال الخلاف والهرج بينهم
فجزاك الله بأحسن الجزاء ، وضاعف لك الخير والثناء ، وما أنت إلا حبيبنا وصديقنا ،
من كونك تسعى في الخير والصلاح ، وترشد العباد للفلاح والنجاح ، وثم نلتبس منكم
دعاء الخير في كل خطب ، وزمان كل ركب ، وكن ببال من أولادك الترك والسلام
كتب بأمر الباشا بالجزائر .

وصورة الجواب إلى ناس البلاد :

الحمد لله مكتوبنا هذا يتصل بيد ناس قسنطينة الخاصة والعامة ، السلام عليكم
والسؤال عنكم . وبعد فإنكم عملتم مليح (كذا) وتديروا لائقاً صحيح (كذا) من
كونكم سلمتم بلد قسنطينة إلى الترك من غير ارتياب ولا شك ، مراعاة (كذا) للدولة
العثمانية ، وطاعة لتلك الحضرة العلية وآثرتم العافية على الفتنة . وحقن الدماء ، واجتناب
المشقة ، فنعم ما صنعتم ، وخير ما عملتم ، إذ نحن وأنتم في حكم الدولة المذكورة ، وفي
طاعة تلك الحضرة المبرورة ، وعليكم باتباع سيدي الشيخ ابن الفكون ، والانقياد إلى
رأيه المصون ، وما أنتم إلا أولادنا وإلينا والسلام . كتب بأمر الباشا بالجزائر .

وأما الترك أسسوا برجا خارج البلاد يسكنون فيه ، وكل الترك الذين يأتوا (كذا)
من الجزائر ينتمون إليه . وكان دخول الترك في قسنطينة عام ألف وخمسين⁽¹⁾ بعد أن
مضت من ولاية يوسف باشا عامين (كذا) ونصف .

ولما ملكوا (كذا) الترك قسنطينة بقوا أهل البلاد في أشد ما يكون من الجوع
والشر ، سبعة أعوام ، وأهل الوطن خارجون عن الطاعة . فلما كان عام سبعة وخمسين
وألف⁽²⁾ اجتمعوا (كذا) أهل البلاد وأرسلوا إلى ناس الوطن فأتوهم (كذا) أكابر

1 (هجرة الموافق لعام 1640 م .

2 (هجرة الموافق لعام 1647 م .

الوطن ، واجتمعوا مع الترك الموجود في قسنطينة ، وقالوا نكتبوا (كذا) إلى الباشا بالجزائر يجعل لنا حاكما ، فاتفقوا الجميع (كذا) وكتبوا إلى حضرة الباشا ، وخبروه بأن أمرهم لا يستقيم إلا بحاكم عادل ، وأن أهل البادية إذا وجدوا حاكما يدخلون كلهم تحت طاعته . فلما وصل كتاب أهل قسنطينة إلى حضرة الباشا رد لهم الجواب ، وقال لهم اختاروا من يصلح بكم فنرده — عليكم فلم يجدوا أهل البلاد رجلاً أحسن من سي فرحات .

فرحات باي 1647 - 1653 :

كان ذا عقل ودار كبيرة ، فاتفقوا عليه ، وخبروا حضرة الباشا به فكتب له الأمر ، وأرسل له القفطان ، وفوض له الأمر ، وأعانه بما يحتاج إليه فدخلوا الناس (كذا) تحت طاعته ، وأذعنوا لحكمه ، وأذهب الله الفتن ، والغلاء وكثر الرزق ونزلت العافية ولم يبق واحد من الرعية إلا ودخل تحت الطاعة⁽³⁾ . وجمع أموالاً من الزكات (كذا) والعشور وحملها وتوجه بها إلى الجزائر في عام ثلاثة وستين وألف⁽⁴⁾ ومشوا معه ناس من أكابر الوطن ، وأشرف البلاد ، فلما وصلوا إلى الجزائر لاقوه أصحاب الدولة وأكرموه وعظموه وقبلوا هديته ورفعوا منزلته ، وبقي في الجزائر ثمانية أيام فلما أراد الرجوع طلب من الباشا أن يسرحه ويرجع باي آخر في قسنطينة واعتذر له بأنه حصل له مرض ولم يقدر على القيام بأمر المملكة فلم يرض الباشا بعزله ، ولا الأكابر الذين قدموا معه من قسنطينة ، بل قالوا له إذا لم يقدر هو فابنه ، فقال لهم الباشا ، وما اسم ابنه فقالوا اسمه فرحات محمد ، فقال لوزيره اكتب الأمر إليه وابنه باي ، وأبوه يقوم

(3) بدأ فرحات باي عمله بإعادة الأمور إلى نصابها في البابليك ، ووضع حداً للاضطرابات والفلاقل التي عرفها طيلة عشر سنوات تقريباً ، وذلك بفضل القوات التي وضعها تحت تصرفه باشا الجزائر فقهر كل الخصوم والأعداء ، وأرغمهم على الخضوع والاعتراف بسلطته ، وعظم عائلة ابن الفغون التي وقعت إلى جانبه منذ البداية ونشئت الناس على طاعته ، انظر : قايسات المصدر نفسه (1868) ص 254 - 261 .

(4) الموافق لربيع عام 1653 م .

بأمره وخرَّج القفطان ، فأرسلوا إليه ولاقاهم في حمزة ، وليس القفطان هناك (5) .

محمد باي بن فرحات 1653 - 1666 م :

وتولى محمد باي رحمه الله بن فرحات المذكور عام ثلاثة وستين وألف (6) فمكث في ولايته زمان (كذا) وعزل (7) .

رجم باي 1666 - 1674 م :

ومن بعده تولى رجم (8) وهو عم محمد باي بن فرحات فكان رجم باي سيرته مليحة واقف في حقوق الناس ، وهو الذي بنا (كذا) في قسنطينة جامع يسمى بجامع رحبة الصوف ، وعزل (9) .

(5) بعد أن ليس ابنه محمد قفطان التولية في برج حمزة (البويرة) عاد معه إلى قسنطينة وبقي يسير الحكم إلى جانبه أكثر من عشر سنوات . معززا مكرما ، مسجوع الكلمة . وحافظ على الأمن في البابليك حتى توفي يوم 25 ربيع الأول 1075 هـ (1664 م) وخلف من ورائه ابنه محمد باي ، وزوجته عزيزة باي التي أسست في مدينة الجزائر الدار التي تحمل اسمها : دار عزيزة بجوار جامع كمشاوه . واتخذت بعدها مقرا لبابك قسنطينة ، الذين يحملون الدنوش ، فيقيمون بها ثمانية أيام المقررة لضيفتهم ثم يعفون إلى قسنطينة ، انظر : فاييت ، المصدر نفسه .

(6) الموافق لعام 1653 م مارس السلطة الفعلية بعد موت أبيه ، وحصل في عهده وباء يخطو في قسنطينة استمر من شهر رمضان إلى ذي القعدة عام 1073 هـ (1663) وقضى على خلق كثير منهم الشيخ عبد الكريم في الففون الذي مات يوم 27 ذو الحجة وخلفه ابنه محمد في منصب شيخ الإسلام . انظر فاييت ، المصدر نفسه ص 262 - 264 .

(7) لم يوضح فاييت ، ولا العتري سبب عزله .

(8) هكذا سماه العتري رجم بالميم ، وذكر فاييت أنه يسمى هكذا ، ويسمى أيضا رجب بالباء وجاء في ذلك فرو . ويبدو أن رجب بالباء أصبح لكثرة شيوع هذا الاسم بين الأتراك نسبة إلى الشهر العربي رجب .

(9) حكم البلاد وأدارها بحمد ونهارة وتزوج من زوجة أخيه الراحل فرحات ، المدعوة عزيزة باي صاحبة الدار المشار إليها سابقا بالجزائر العاصمة . وهي بنت القائد أحمد بن رمضان ، شقيق شبل بن عل بتشيني ، القائد والرايس البحري المشهور . أخذها معه إلى قسنطينة حيث عاشت معه ثلاث سنوات ثم قُلت في مزرعته بالحامة في جمادى الأولى 1079 هـ (4 نوفمبر 1668 م) . عل أبدى عداوة بن شردال لأسباب غير معروفة ، وقيل إنه بتحريض من زوجها الذي واصل إدارة البابليك بعدها ست سنوات أخرى إلى أن عزل وعوض بخير الدين . فعاش بعد ذلك عاما آخر حتى توفي في ذي الحجة عام 1084 هـ (9 - 18 مارس 1674 م) . انظر : فاييت ، المصدر نفسه ص 264 - 267 .

خير الدين باي 1674 - 1676 م :

ومن بعده خير الدين باي رحمه الله تولى عام أربعة وثمانين وألف⁽¹⁰⁾ . فمكث زمان (كذا) في ولايته ومات⁽¹¹⁾ . وجميع ما ذكرنا كلهم عرب ، ومن بعدهم تولى الترك .

دالي باي 1676 - 1679 م :

فأول من تولى دالي باي رحمة الله في عام سبعة وثمانين وألف⁽¹²⁾ . وكان رجلاً قتالاً يأخذ أموال الناس بالباطل ، فاشتكوا به ناس قسطنطينة إلى الباشا بالجزائر فقتله⁽¹³⁾ .

باش آغا باي 1679 - 1688 م :

ومن بعده تولى باش آغا باي رحمه الله عام تسعين وألف⁽¹⁴⁾ فمكث في ولايته تسع سنين ، ومات⁽¹⁵⁾ .

(10) الموافق لعام 1674 . وقد بقي في الحكم حوالي أربع سنوات ، ولم تذكر المصادر معلومات مهمة عنه وعن أعماله ، وهو آخر بابات العرب .

(11) هكذا ذكر العتري ، أما فاييت فذكر أنه عزل في أبريل 1676 (صفر 1087) وعوض بدالي باي من الأتراك ولم يذكر سبب عزله . انظر المصدر نفسه ، ص 267 - 268 .

(12) الموافق لعام 1676 م شهر أبريل . وهو من قوات الميليشية التركية ويوضح من رواية العتري أنه قتال وسفك للدماء ، وحرب ، ولذا اشتكى منه السكان إلى الباشا بالعاصمة فلبى رغبتهم وعزله وأمر بإعدامه ، فأعدم في الحال ، وعوض بانيه عمر بن عبد الرحمن المدعو باش آغا .
انظر : فاييت ص 268 - 269 .

(13) عزل وأعدم عام 1679 هـ الموافق لعام 1679 م .

(14) الموافق لعام 1679 م ، اسمه عمر ، وشهر باش آغا ، وهو ابن دالي باي السابق الذي اسمه عبد الرحمن ولهذا يقال له عمر بن عبد الرحمن كما وجد ذلك في رسالة أحمد زروق بن سيدي محمد بن يحيى بتاريخ آخر رمضان ، 1091 (17 - 26 نوفمبر 1680) نقلاً عن فاييت ، حكم باش آغا هذا تسع سنوات ومع ذلك لا تذكر المصادر أخباراً كثيرة عنه ماعدا تجديد مستحقات الشيخ عبد الكريم الفنون كإمام للجامع الكبير ، وأمير للركب ، انظر : فاييت ص 268 - 269 .

(15) تولى باش آغا في شوال 1099 هـ (17 - أوت 1688 م) ، وخلفه سيدي شعبان .

شعبان باي 1688 - 1692 م :

ومن بعده تولى شعبان باي رحمه الله عام تسعة وتسعين وألف (16) .

علي خوجة باي 1692 - 1700 م :

ومن بعده تولى علي خوجة باي رحمه الله عام أربعة ومائة وألف (17) ، وكان مليح (كذا) أحكامه بالعدل ، وسيرته مرضية ، وفي عام اثني عشر ومائة وألف (18) قدم مراد باي صاحب ولاية تونس بعرض كبير ، وقصد إلى قسنطينة فنزل بموضع يسمى الملعب ، قريبا من البلاد وحاصرها نحو ثلاثة أشهر فلم يتحصل بيده شيء فارتحل وقصد إلى الجزائر وكانوا ناس قسنطينة في مدة حصارهم خيروا الباش بالجزائر وطلبوا نصرته إليهم فلما وصل الخبر تعلق وتخبر وصار ينشئ في أمره ويدبر . وأما مراد باي المذكور لما وصل إلى الحجاز الأحمر قريبا من سطيف وكان بينه وبين سطيف مرحلة تلقاه هناك عرضي الجزائر فنزل كل عرضي في مكانه وصاروا قبالة بعضهم وكان مع مراد باي نحو سبعمائة خباء والذي مع باشا الجزائر نحو مائة خباء . فاستضعفهم مراد باي وقال اليوم نستريحوا وغدا في الصبح نأخذوهم ونقتلوا الباشا الذي هو أميرهم ثم نسيروا إلى الجزائر ونستولوا على ملكها من غير تعب . وكان باشا الجزائر وعسكره نزل بهم خوف عظيم وتيقنوا أنهم صاروا في الهلاك فبقوا يخمموا ويدبروا وقالوا إن ضربنا وإن هربنا كذلك نموتوا فاتفقوا أنهم يهجموا على عرضي تونس فلما عسعس الليل ونام كل ذي ذيل ،

16 (الموافق لعام 1688 م وقد اهتم بجمع أموال الدنوش وتكثير أعداد جنود الزمالة المعسكرين في حوض وادي الرمال بين عين سمارة ، وقسنطينة ، والذين يقومون برعي قطعان حيوانات البابليك التابعة ، للباي . وقد استعمل كل الوسائل لتوفير أموال الدنوش ، وجمعها لإرضاء باشا العاصمة . وفي آخر حياته دار أولاد بو عون في بالزمة ، وهاجموا أحواز مدينة قسنطينة ، فتوجه إليهم القائد رجب ، وأدبهم ، ووضع حدا لثورتهم وقمردهم .

حكم شعبان باي أربع سنوات ثم عزل عام 1692 وعوض به علي خوجة باي . انظر قابس .

المصدر نفسه . ص 270 - 273 .

17 (الموافق لعام 1692 م .

18 (الموافق لعام 1700 - 1701 م .

قام باشا الجزائر هو وعسكره عن آخره وتقدموا إلى محلة مراد باي فهاجموا عليه بهجمة واحدة وهم نائمون ودخلوا عليهم بضرب السيوف من كل جهة (كذا) فوفعت ضجة عظيمة وهزيمة كبيرة في محلة تونس ومات من عسكرها نحو السبعة آلاف رقة وقر الباقي وتفرقوا في الوطن سببا وهرب مراد باي ولم يثبت خوفا يتمكنوا به وركب على حصان اسمه كحيل فلم يتنفس به من المجاز الأحمر إلى مرج كحيل فسقط من تحته ميتا وهذه المسافة قدر مسيرة أربعة أيام ولذلك صاروا الآن يسموه هذا الموضع بمرج كحيل وفي يوم الفتنة مات علي باي (19) .

أحمد خوجة باي بن فرحات 1700 - 1703 م :

وتولى أحمد خوجة باي رحمه الله وهو ولد أحمد بن فرحات باي عام اثني عشر ومائة وألف (20) وهو أخو محمد باي بن فرحات ، وربطه الباشا في السجن أياما ثم قتله .

(19) هذه رواية العتري واعتمدها فاييت ، أما حسن حسني عبد الوهاب فقد ذكر أن سبب هجوم مراد باي على الجزائر هو ردها له هدية كان قد أرسلها إلى حاكمها ، فاستشاط غضبا وقام بقتل المغامرة . وذكر كذلك أن مراد باي لم يمض واما انسحب إلى القيروان مدحورا وخرب معالمها الجيلة ولم يترك بها سوى المساجد وبعض الزوايا . ولبت هذا الجائر بعث في البلاد فسادا حتى قتل به إبراهيم الشريف بمواطاة كبار الجند ، وقيل بإذن من الباب العالي . ونقل فاييت عن شربونو ، رواية عبد العزيز التونسي في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي (أواخر القرن 18 م) الذي ذكر بأن مراد باي عندما عزم على غزو الجزائر طلب من خليل باي حاكم طرابلس أن يعضده فلبى الرغبة ولكنه فر من الميدان في فلسطين بعد أن فشل مراد باي في اقتحامها ، رغم أنه تلقى منه قطانا وأموالا كثيرة وذكر عبد العزيز كذلك بأن مراد باي أسر ابن الباي علي خوجة وزوجته ، وصادر الكثير من قطعان المواشي وحاول أن يتخذها وسيلة للضغط على السكان حتى يفتحوا له المدينة فلم ينجح ، وانتهى في الأخير إلى تلك الهزيمة المرة وقتل يوم 18 ربيع الثاني 1112 هـ (3 أكتوبر 1700 م) واستولى الجزائريون على كل أمواله ودخائره وأسروا عددا من جنوده وقتل باي فلسطين في المعركة نفسها . انظر فاييت . المصدر نفسه . ص 274 - 280 . حسن حسني عبد الوهاب .

خلاصة تاريخ تونس ط (تونس 3 - 1373 هـ) . 145 - 146 . وكذلك . anneau : journal asiattque (juillet . A. rousseau : annales tunisiennes . pp.82 . yssonnel: voyage sur les cotes de barbarie en 1724 - 1825 . (bureau de la malle 1838) P.332 .

(20) الموافق لعام 1700 . وهو ابن فرحات باي ، وشقيق محمد باي ، وحفيد رجب باي ، أصله عرني وينتمي إلى أسرة تولى منها ثلاثة رجال منصب الباي في البابليكت ، وهو رابعهم ، حكم حوالي عام ونصف ثم أمر الباشا بسجنه ، وإعدامه ، فأعدم وخلفه إبراهيم باي العلج عام 1703 م انظر فاييت المصدر نفسه ، ص 281 .

إبراهيم باي العليج 1703 - 1707 م :

ومن بعده تولى إبراهيم باي العليج عام 1114 هـ (21) رحمه الله . وكان رجلاً فاطناً (كذا) حسن الوجه لكنه يأخذ أموال الناس بالباطل . وفي سنة تسعة عشر ومائة وألف (22) جاء مصطفى باشا ، ومشى إلى تونس ونزل عليها مدة أربعة أشهر وتكلم مع عسكريها ، ووعدوه بالدخول في طاعته وأمرهم أن يربطوا باي تونس فربطوه ، ولما طلبوه في الكلام الذي تكلم معهم لم يوفهم به فانقلبوا عليه وفتنوه ورحل مكرها ولم يدخل إلى تونس ، فلما وصل إلى الجزائر ، وجد باشا آخر قعد في موضعه فهرب إلى زاوية سيدى علي بن المبارك في عمالة الجزائر ، وبقي هناك حتى مات وكذلك إبراهيم باي العليج هرب (23) .

حمودة باي 1707 م :

ومن بعده تولى حمودة باي رحمه الله عام تسعة عشر ومائة وألف (24) وهو عريف من أهل البلاد .

(21) الموافق لعام 1703 م .

(22) الموافق لعام 1707 و 1708 م .

(23) إبراهيم العليج يطلق عليه اسم بن عبد الله كذلك ، أصله مسيحي أسر ، وأسلم ، وحسن إسلامه ، اتصف بالحوية والنشاط ، ولكنه كان يصادر أموال الناس بدون مبرر ، ولا رحمة ، وفي عام 1703 م اندلعت الحرب بين الجزائر وتونس فقاد الداي مصطفى نفسه قواته إلى تونس ، وصحب معه إبراهيم باي العليج ، واصطدموا بإبراهيم الشريف في مدينة الكاف وهزموه ، وأسروه هو وأخوه محمد وواصلوا سمرهم إلى تونس ، وفرضوا عليها الحصار في بوعجوس ، وشرعوا في المفاوضات مع الباي الجديد حسين بن علي ، وطالت ، وتجددت يوم 2 سبتمبر 1705 ، ولم تنجح واضطر باشا الجزائر وباي قسنطينة أن يستجدوا بقواتهم مخافة أن تطبق عليهم القبائل الثائرة ، خاصة بعد أن نجحت في مصادرة قافلة تموين قادمة من عنابة . وعندما وصل إلى الجزائر وجد هناك انقلاباً ضده فالتجأ إلى زاوية علي بن المبارك في القليعة ، واعتصم بها حتى توفي وذكر روسو بأنه شق بعد ثورة عارمة ضده . أما إبراهيم العليج فقد فرّ واختفى وعُطفه في منصب حمودة باي . وترك من ورائه عائلة أولاد بن الأبيض المشهورة في قسنطينة ، وكانت ما تزال موجودة عندما كتب فاييت كتابه عن بايات قسنطينة . انظر فاييت المصدر نفسه ص .

281 - 285 .

وكذلك حسن حسني عبد الوهاب . المصدر نفسه ص 146-150 .

(24) الموافق لعام 1707 م ، ولم تذكر المصادر شيئاً عن أعماله هو والبايات الخمسة الذين جاءوا بعده لغاية 1713 م ، ويدوا أن هناك عدة فلافل واضطرابات لأن أولئك البايات لم يبق أى واحد منهم في الحكم أكثر من عام ما عدا علي بن صالح باي . وحتى فاييت لم يذكر لهم شيئاً .

علي باي بن حمودة 1708 م :
ومن بعده تولى علي باي بن حمودة رحمه الله عام عشرين ومائة وألف (25) وهو
عربي أيضا .

حسين شاوش باي 1708 م :
ومن بعده تولى حسين شاوش رحمه الله عام واحد وعشرين ومائة وألف (26) .

عبد الرحمن باي بن فرحات 1709 م :
ومن بعده تولى عبد الرحمن باي رحمه الله بن فرحات عام اثنين وعشرين ومائة
وألف (27) .

حسين دنفزي باي 1710 م :
ومن بعده تولى عبد دنفزي باي رحمه الله اسمه حسين وهو تركي في العام 1122
المذكور (28) .

علي بن صالح باي 1710 - 1713 م :
ومن بعد تولى علي باي بن صالح رحمه الله عام 1122 (29) .

(25) الموافق لعام 1708 م .

(26) الموافق لعام 1708 م .

(27) الموافق لعام 1709 م .

(28) الموافق لعام 1710 م .

(29) الموافق لعام 1710 م . وقد بقي في حكمه حتى عام 1713 لمدة أربع سنوات . ثم نُقل عن إدارة الباشليك بإرادته وذهب
إلى الحج ، وعندما عاد قصد إلى أولاد خلوف بمجرات مجانة ، واعتكف بزاوية سيدي أحمد بن علي حتى توفي . وخلف وراءه
ثلاث بنات زوجها لشخصيات مرموقة من عائلة أولاد مفران بمجانة . انظر قليمي . المصدر نفسه ص 286 - 288 . وكذلك
المجلة الإنشائية . مجلد عام 1865 . ص 124 .

قليان حسين باي المدعو بوكمية 1713 - 1736 م :

وبعده تولى حسين باي بوكمية رحمه الله وهو قليان حسين ، عام خمسة وعشرين ومائة وألف⁽³⁰⁾ وهو رجل مليح له شجاعة . ومشى إلى تونس فأخذها وقتل صاحب ولايتها ، والسبب في ذلك أن أصحاب مملكة تونس وقع بينهم التحاسد على الولاية وكل واحد منهم يدعيها لنفسه ففر واحد منهم إلى الباشا بالجزائر واستغاث به فقبل كلامه الباشا المذكور ، وجهاز له عساكر وبعث معه الباي بوكمية وأرسل إليه جوابا قائلا له فراه قادم إليك أخو صاحب ولاية تونس ويده عساكر من عندنا فلازم أنت تنظم ما استطعت من عساكرك واعمل معه كل جهد بالتأويل ، وكن له مصاحبا في الإقامة والرحيل . فلما وصل ذلك الجواب إلى الباي بوكمية قام على ساق الجد ونظم عساكر وجند ، ثم تقدموا جميعا للسفر بالعزم والاجتهاد قاصدين إلى تونس بذلك العساكر والأجناد ، وكان الخبر وصل إلى صاحب ولاية تونس تراه نهض في الحال ورتب عساكر وأعمال وخرج هو معهم ونزل بناحية القيروان وبقي مقيما هناك لأجل مطاردة العرضى القادم إليه من الجزائر فلما وصل إليه الباي بوكمية وقابله بالعساكر الجزائرية ، ثم نشأت من الجانبين الحروب العظيمة والمقاتلة الشنيعة فانهزم عرضى تونس⁽³¹⁾ وهرب صاحب ولايتها إلى مدينة القيروان ولاقاه البين والامتحان ، فحينئذ تقدم بوكمية هو وصاحبه ودخلوا إلى تونس من غير حرب ولا قتال ، ولا معارضة ، ولا نكال فاستولوا على خزائنها واغتنموا ذخائرها ، وتولى

30 م الموافق العام 1713 م . وكان قليان حسين رجلاً حازماً نشيطاً ، وقوياً ، مما ساعده على البقاء في الحكم 23 عاماً وضع حدا لكل القلاقل والاضطرابات في البابليك ، وفي جانفي 1725 ذهب إلى الحناشة والأوراس لجمع الضرائب ، وتهدئة الأحوال ، ومراقبة الأمور عن كثب وتمكن الرحالة الفرنسي يسونيل peysonnel من الاجتهاد به في معسكره بالسفس بفضل تدخل دوسلاف de slave الموظف الفرنسي في الشركة الإفريقية بعناية . ورافقه إلى عين تارفا ، ومدغاس ، وأم الأصنام ووادى مركا ، ثم غادره ، والتحق بعناية فالجزائر العاصمة عبر فيسطينة انظر peysonnel et pesfontaine : voyage dans les regences

de tunis ; et d'alger (dureau de la malle - 1838) p.289. vayssettes : IBID.pp 288 - 295.

(31) المقصود بالعرضى . هو الحملة العسكرية ، والجيش العسكري .

مريد إلى المملكة ونال مرغوبه وبغيته (32) .

وأما ناس تونس فتلاشوا خوفاً ، وتفرقوا غرباً وشرقاً ، فعند ذاك نادى منادى الأمان ألا فارجعوا لا حرج عليكم ولا امتحان ثم إن صاحب ولاية تونس الجديد عقد شروطاً مع بوكمية والتزم بأدائها إلى الجزائر في أوقات معلومة وأزمنة مفهومة (33) .

وأما الباي فقد أخذ من عند صاحب ولاية تونس معاملته وعباً من ذلك الذخائر ما حب خاطره ، ورحل من تونس بجنده وعساكره فلما وصل إلى قسنطينة كانت له المرتبة الشهيرة وصار يرتب الأحمال ويخرج إلى الوطن يستخلص الخراج من الأموال ، وانقادت له الرعية والعمال . وكان حكمه بالعدل والكمال ، وسيرته على أحسن حال ، ومن هذا الوارد من كلام الحكماء أصحاب الموارد : العدل مادام عمر ، والظلم مهما كان مر . ومن ذلك أيضاً الملك بستان ، وثمره نتيجة العدل والإحسان .

ويرجع الكلام إلى الباي بوكمية لما طالت ولايته وبدت قوته تراه طلب الإذن من

32) نشبت هذه الحرب عام 1735 . ومن أسبابها اختلاف باي تونس حسين بن علي مع حفيده علي باشا واندلاع الحرب بينهما ، ولجوء الأخير إلى الجزائر واحتاؤه بالداي الذي قبل لجوئه ورفض أن يقتله ، واكتفى بأن قيل أن يدفع له حسين بن علي جزية سنوية مبلغها عشرة آلاف سكين ، ولكن الباي التونسي رفض عام 1735 دفع هذا المبلغ ، فقرر الداى تحدة علي باشا وتجهيزه بقوات للسيطرة على عرش تونس . انظر : فاهيسيت . المصدر نفسه . ص 290 - 302 .

33) بعد أن قرر إبراهيم باشا دعم علي باشا ضد عمه حسين بن علي ألف جيشاً كبيراً من المشاة والفرسان ، ووضع 3000 عسكري من المشاة تحت قيادة الخزاناجي ، وألف فارس تحت قيادة علي باشا التونسي ، وكلف باي قسنطينة بوكمية بمرافقتها إلى تونس بقواته ، وعندما علم باي تونس حسين بن علي بهذه الاستعدادات استعد هو الآخر عسكرياً ، وعرض على الداى بواسطة بوكمية دفع مبلغ 50 ألف قرش ضريبة سنوية . مقابل الكف عن الزحف على بلاده ، فلم يفلح العرض ، وتواجهت القوتان في نهاية ربيع الأول 1148 هـ (19 أوت 1735 م) في واد مليان بسمنجة ، وجرت بينهما عدة مناوشات لمدة 16 يوماً . وفي يوم 16 ربيع الثاني 1148 (4 سبتمبر 1735) جرت بينهما المعركة الفاصلة وهزم حسين بن علي ، وهرب ووقعت كل مؤنة وذخائره وعساكره في أيدي الباي بوكمية ، وعزل باشا التونسي ، وقام بوكمية بتنصيب علي باشا على عرش تونس يوم 7 سبتمبر 1735 ، وبقي بوكمية وجيشه عشرة أيام ثم عاد إلى الجزائر ومعه 35 حصاناً محملة بالنفود والأموال التي تعهد بدفعها علي باشا . وكان بوكمية الشخصية المرموقة في هذه الحرب كرجل عسكري قدير . وذكر فاهيسيت بأنه لولاه لما تم انتصار الجزائريين . انظر فاهيسيت المصدر نفسه . ص 290 - 302 . وكذلك حسن حسني عبد الوهاب . المصدر نفسه ص 150 - 151 .

الباشا بالجزائر لأجل أن يمشى إليه بقصد زيارته ، والوقوف إلى حضرته ، فأعطاه الإذن في مطلوبه ، ووفى له بمرغوبه ، فحينئذ نهض وعباً من ذلك الأموال بالزيادة لتكون له الحرمه والرياسة ثم تقدم إلى الجزائر في موكب عظيم ومهرجان عظيم⁽³⁴⁾ فلما وصل إلى الباشا وحل في حضرته تأدب وأعطاه حق سلطته ، ثم سلم له ذلك الأموال (كذا) الذي بيده ففرح به واستكثر من خيره ، وأقام في ضيافته ثمانية أيام في استراحة وعزم وإكرام ومن بعد ذلك خرج الإذن من عند الباشا المذكور تسريح الباي بوكمية ورجوعه إلى قسنطينة فارحاً مسروراً وهذا هو المسمى عندهم بالدنوش ، وهي كلمة عجمية ، ومن بعد وصوله في قسنطينة عاش زماناً عيشة هنية إلى أن احترمته المنية واحتوت عليه الدهية فمات رحمه الله عليه ، وكانت مدة ولايته خمسة عشر عام (كذا)⁽³⁵⁾ .

حسين باي المدعو بوحنك 1736 - 1754 م :

ومن بعده ترجع باي آخر واسمه بوحنك باي رحمه الله تركي كان سيرته بسيرة الباي الذي قبله ، ومهد الله تعالى زمانه الوطن والبلاد وأصلح الله به الرعية والبلاد لكن وقع في زمانه أمر يستراب ، حتى صار مثل (كذا) فيقولون عام الدوشمان الكذاب وذلك أن الباشا بالجزائر وقع الضر بينه وبين باش أغا المتولّي أمور العرب وتصعب عليه ولم يقدر على قتله جهار (كذا) فجعل له حيل وأفكار (كذا) وأظهر له وجه المصادقة والإسرار قائلاً له إن صاحب ولاية تونس تصعب علينا ولم يوفينا (كذا) بشروطنا ، ولكن تمشى إلى باي قسنطينة تجمعوا جنودا وتنظموا عساكر من هناك وتغزون على عمالة تونس ترهبون بذلك صاحب ولايتها . أما أن ينقاد فذلك هو المراد ، وإلا انزلوا بقربه حتى يلحق إليكم مدد العسكر ، وآلة الحرب فامثل لكلامه باش أغا المذكور، وانفصل

(34) كان ذلك في ربيع عام 1735 م .

(35) حسب رواية العتري هذه التي انفرد بها ، يكون الباي قليان حسين بوكمية قد حكم أربعة عشر عاماً فقط ، وتوفي عام 1727 م . وهذا غير صحيح على ما يبدو لأن بوكمية حكم 23 عاماً كاملة ، وتوفي عام 1149 هـ الموافق لعام 1736 م . عن عمر يناهز 70 عاماً .

من الجزائر بالعزم والقور فكان في ذلك حقه وأنفه وحلوله في رسمه . وأما الباشا بالجزائر فإنه كتب جوابا وأرسله إلى الباي بوحنك خفية قائلاً في ذلك الجواب يكون في علم الباي بوحنك ولازم عليه يقضى الشيء الذي تأمر به (كذا) . وهو أن باشا أغا ظهر عنه الفساد وخرج عن الماهية وتبين منه العناد . ولم يمكننا قتله على رؤوس الأشهاد ، وترانا كلفناه وأزمناه بالمشي والغزو على عمالة تونس . فبوصوله إليك أصفى (كذا) لقوله ، واقضى (كذا) ما يأمر بك به وأسرعوا بخروجكم ، وحين تصبروا في أثناء طريقكم اقله خفية ودسه تحت التراب دسة ، وحين تقضى فيه حاجتك ارجع على أعقابك ، وارفض الشيء الذي كان به أمرك والسلام بأمر الباشا بالجزائر .

ثم يرجع الكلام إلى باش أغا أنه لما وصل إلى الباي بوحنك وأخبره بالأمر الذي جاء بفضائه ، فامتثل ، وبادر ، ورتب له فرسان وعساكر ، وبعد تنظيم أشغالهم وقضاء حوائجهم ، انفصلوا من قسنطينة لغزوهم ، ولما صاروا في أثناء الطريق مكرهه الباي بوحنك وسقاه كأس الحريق مزق به جوفه تمزيق . فأصبح تحت التراب لا بشا بعد أن كان هسورا فاتكا ، فحينئذ رجع الباي المذكور إلى قسنطينة وعاش زمانا حتى أدركته المنية رحمة الله عليه (36) .

حسين باي زرق عينو 1754 - 1756 م :

ومن بعده تولى زرق عينو عام 1149 هـ (37) واسمه حسن وهو تركي له شجاعة

36 (حافظ الباي بوحنك على السلم سنوات طويلة : وأسس مسجد سيدي لخضر الجميل بقسنطينة ، وانتهى من بنائه في نهاية شعبان 1156 هـ (أكتوبر 1743 م) وحاول أن يعطي للمدينة مطهرا عبرانيا جملا فيما يخص بناء القللات ، والأحواش ، وتنظيم الأنهج والأرقة . ونقل معسكر الزمالة من حوض وادي الرمال إلى أراضي تبحمرت . وحاول حسين بن علي التونسي التلاهي ، بالقبرون أن يستجد به لمساعدته على استعادة عرضه قرقص . وقام بإبرام معاهدة دفاع وهجوم مع علي باشا التونسي الجالس على العرش . وفي عهد بوحنك ثار أولاد ساولة فعاقبهم . تولى بوحنك عام 1167 هـ (1753 - 1754 م) بعد أن حكم 17 عاما . ودفن في مسجد سيدي لخضر : انظر : فاهيت ص 302 - 310 وكذلك : شربونو :

Cherbounneau : les inscriptions arabes de la province de constantin. annuaire de la societe archeologique. annee 1856 - 1857 . pp105 et 119 .

37 (الموافق لعام 1736 م وهو خطأ كما ذكرنا انفرد به العتري لأن الباي زرق عينو تولى الحكم عام 1167 هـ الموافق لعام 1754 م . وكان زرق عينو هذا خليفة للباي بوحنك ، واشترك في غزو تونس مع بوكمية ولعب دورا بارزا فيها وحكم البايليك بحزم وجد ، واهتم بمدينة قسنطينة وجدد أجهزتها على نسق ملام وشجع الصنائع .

وهيبة ، وكان حضر مع الباى بوكمية في قضية تونس ، وفي مدة ولايته زاد في ترتيب وظائف المخازنية ، وأسس منازلهم بالسوية ، فمن ذلك أنه :

— رتب كتابا يكتبون أسرارهم ، وبعضهم يكتبون شكايات الناس ومدخول البايليك .

— وخليفة تركي وهو المتكلف بالمال الذي يمشي من عند باي قسنطينة إلى الجزائر .

يوضع في الخزينة . ويتسمى بالبياشي ، وهو لفظة عجمية ، يمشي في كل عام مرتين مرة في فصل الربيع ، ومرة في فصل الخريف ، ولكن في الزمان المتأخر صاروا يسمونه بدنوش الخليفة غير الدنوش المتقدم ذكره .

— وأغوات ترك وهم المتولين (كذا) أمور الصباحية الترك .

— وشواش ترك وهم المتولين أمور العساكر .

— وأغا العرب وهو الذي يسمع كلام العرب ، وشكاياتهم ، ويوصله (كذا) إلى الباى المذكور في الوقت الذي يكون الباى متصدى للحكم . فإنه يتلقى الشكايات بنفسه ويرد بلسانه .

— وقائد الدار هو الذي يكون على يده ما يلزم العساكر من الأرزاق والجنية وغير ذلك من لوازم الأحوال . وحين يخرج الباى إلى الوطن يبقى هو المصرف (كذا) في البلاد .

— والسراج وهو الذي يكون على يده خيل البايليك في المدخول والمخرج .

— والمحتسب وهو المتولي أسعار البلاد من الأمور الموزونة والملكية .

— وصاحب الشرطة هو المتولى عسة البلاد في الليل ويحرسها من اللصوص ، وهو الذي يقابل الباى في كل صباح قبل كل أحد ويخبره بجميع ما يقع في الليل . فهؤلاء أصحاب الوظائف في المدينة . وأما المخازنية ناس من البادية فمنهم :

— قائد الزمالة وهو المتولى القوم متاع العرب ، وحين يخرج الباى إلى الوطن يمشي معه هو وقومه .

— وثم قائد الغنم وهو الذي يكون بيده كل مدخول البقر التي هو للبايليك .

— وقائد الإبل وهو الذي يكون بيده مدخول كل الإبل متاع البايليك .

فهذا ترتيب الباى زرق عين ، وكل من يأتي من البايات يزيد في الوظائف وخرق عادات (كذا) .

وبعد ترتيبه للوظائف المذكورين ، تصدى لأمر البلاد وشرع فيما يصلح بأحوال العباد . فجعل ضوابط في صنعه ، وقوانين في كل ضيعة ثم صار يخرج إلى الوطن لأجل استخلاص حقوق البابليك ، ولا زال بهذه السيرة موصوف ، وبكمال العدل والخير مألوف . ومن هذا الحين ظهرت قوة الترك في قسنطينة .

وأما صاحب ولاية تونس الذي كان هرب إلى القيروان ، فإنه مكث هناك زمان ولما اشتد به الحال وضاق به الرحب والمآل . فك قدمه من ذلك المكان والتجأ إلى الباشا بالجزائر ، مستغيثا به وطالبا للأمان ، فلما وصل إلى باي قسنطينة أكرمه وأحسن إليه كل الإحسان ، وحين وصل الخبر إلى الباشا بقدمه تخم في شأنه وتفكر في أموره ، وأمره باستقراره عند باي قسنطينة في الأمان مع زيادة الإكرام والإحسان . فتراه لأمر الباشا امثل ، ولما يجود به الدهر محتفل وباقي في خموله مرتجيا طالع صعوده ومنتظرا للأخبار وتداول الأيام فيأخذ بالثأر .

وكان صاحب مملكته تونس حين سمع بفرار ابن عمه من القيروان ، واستقر عند باي قسنطينة في الإكرام والإحسان ، تخير وتغير من أجله وأيقن أنه سيكون له شأن ويقف في ضره وكان من بعد زمان دارت الأفلاك ، وتكوت الأكوان ، فوقع بين الجزائر وتونس الدوشمان .

هذا الوقت جاء الأمر من عند الباشا بالجزائر إلى الباي زرق عين قائلا له إن صاحب ولاية تونس نكل وظهر في شروطه الخلل . فوجب أن نعملوا معه الدوشمان ، ولازم تمشي أنت وابن عمه المستقر عندك وتقابلوه بالافتتان . إما يوفي بملزوماته وإلا يحل به ما حل بأوائله من قبله . فلما وصل هذا الأمر إلى الباي المذكور قام على ساق الجد ، بالعزم والفور ، ورتب عساكر وجنود ، ونظم آلة الحرب من مدافع ، وكور ، وبارود ، فلما قضى وطره كان مدد العساكر من الجزائر وصله ، فحيثما تقدم هو وصاحبه واستفتحوا سفرهم بالعزم والاجتهاد قاصدين إلى تونس بالجند والأجناد⁽³⁸⁾ ولما وصلوا

38 (الذي قرر إعلان الحرب على تونس هو الداوي بابا علي عام 1755 م بعد أن رفض باي تونس دفع الجزية السنوية المطلوبة منه ، وكلف باي قسنطينة زرق عين بذلك ، وجد للأمر التونسي اللاجئ ، عنده . بقسنطينة علي باي بن حسين باي بن علي قوات اتجهوا بها مدينة تونس يوم 5 ذو الحجة 1169 هـ (31 أوت 1756 م) وقتلوا علي باشا وابنه محمد باي أكبر أبناء حسين بن علي علي العرش .

مدينة الكاف الذي عمدة مدينة تونس وأساسها ، فكانوا ستين يوما وهم مقيمون عليها بالحرب العظيم ، والقتال العميم فلما طالت إقامتهم وبدأ الضعف في قوتهم ، كان الباشا بالجزائر مدغم بزيادة العساكر ، فحين وصل ذلك المدد إليهم فتح الله بالنصر عليهم ، ودخلوا مدينة الكاف من بعد الحروب المديدة ، والمقاتلة الشديدة ، فوقع الخلل في مدينة تونس ، وتلاشوا ناسها ، وهربوا ، البعض من أقارب صاحب ولايتها ، فلما وصلوا إلى الباي زرق عينو طلبوا منه الأمان ليكونوا له أدلة وأعوان فأمنهم وقابلهم بالإحسان ، فعند ذلك تقدموا بين يديه ، وفتحوا له الطريق ، وسهلوا عليه كل صعب وضيق ، وجلبوا إليه شيوخ ذلك الأوطان ، وصاروا معه أصدقاء وأعوان ، فلما وصلوا إلى مدينة تونس تصعب عليه الحال ، وضاق بهم الرحب والمآل فتراهم دبروا في الحيلة وخمموها في تحصيل النتيجة ، فجعلوا مراقي وسلم ، وداروا بمدينة تونس كدوار السوار بالمعصم ، وصعدوا مع ذلك المراقى فوق الأصوار (كذا) وكان ذلك آخر الليل قرب النهار ، فمات في ذلك الهجمة من العساكر بظاها ، واندخلت مدينة تونس في حينها . ومات صاحب ولايتها وصار النهب والسلب في أرزاقها ، واستولى الباي زرق عين ورفيقه على خزائنها وذخائرها وركضوا الخيول بالبشائر إلى الباشا بالجزائر ففرح بذلك البشائر الذي زفت إليه واغتنم بتلك الغنيمة التي حقت لديه .

وأما الباي زرق عين فإنه رجع رفيقه الذي جاء معه في قسنطينة وولاه مملكة تونس ونزلت العاقبة العميمة ، ورتبوا العمال وأسسوا الأحوال وجردوا عقيدة الشروط ، وأنبتوها إثباتا منوط⁽³⁹⁾ ثم إن الباي المذكور من بعد قضاء أوطاره عيى (كذا) من ذلك الأموال والذخائر وما حب خاطره ، ورحل من مدينة تونس راجعا إلى قسنطينة ،

(39) كان حسين باي بن علي قد نجا بأولاده إلى القروان بعد أن تغلب عليه ابن علي باشا بدعم من الجزائر كما مر ، وبقي هناك بقاوم عدة سنوات حتى استشهد جنوب القروان عام 1153 هـ (1740 م) ففر أبناؤه الثلاثة إلى الجزائر ، واستقر اثنان منهم بمدينة الجزائر وهما محمود وعبد واستقر الثالث وبسى علي باي في قسنطينة ، وأكرمته الباي بوختك ومن بعده زرق عين ، وعندما تقرر غزو تونس جند هؤلاء الأبناء في تلك القوات الجزائرية ، وساروا معها إلى تونس حيث تم قتل علي باشا وابنه ، وتصيب محمد باي في مكانه ووقف إلى جانبه أخوه علي باي . انظر فاييت . المصدر نفسه ص 310 - 322 . حسن حسني عبد الوهاب . المصدر نفسه ص 151 - 154 . وكذلك A.devoux : les archives du consul de france : à alger

في سطوة وشهرة عظيمة فلما صار في أثناء طريقة أصابته في جسده أكلة أذهبت روحه بالعجلة . فحين وصل إلى قسنطينة أدركه الموت بسبب ذلك المصيبة رحمة الله عليه ومات عام ألف ومائة وسبعين⁽⁴⁰⁾ .

أحمد باي القلي 1756 - 1771 م :

ومن بعده تولى أحمد باي رحمه الله . هو جدّ حاج أحمد باي ، وكانت ولايته في العام المذكور⁽⁴¹⁾ وهو تركي صاحب ديانة . وله في الحروب شجاعة . وهو الذي كان لحقّ مدد العساكر إلى باي زرق عين حين كان في الحرب مع مدينة الكاف . فوافق وصوله بذلك المدد دخول مدينة الكاف ولذلك رجع الباشا من بعد الباي زرق عين وكانت⁽⁴²⁾ .

(40) بعد أن عاد زرق عين من غزوة تونس ، مرض في الطريق وعندما وصل إلى قسنطينة توفي في الشهور الأولى لعام 1170 هـ الموافق لنهاية عام ، 1756 م .

(41) المقصود بذلك السنة عام 1170 هـ الموافق لعام 1756 م .

(42) يبدو أن النسخ لكتاب العتري أخطأ وترك جانباً من سورة أحمد القلي ، وانتقل هكذا إلى الحديث عن سيرة صالح باي . وهذا سنوّر هنا المعلومات التي أوردها فاييت في دراسته . فذكر أن أحمد القلي كان أغا على مدينة القل عدة سنوات قبل أن يصاحب زرق عين في حملته على الكاف وتونس ، ولذلك لقب بالقلي ، حارب عدة قبائل عاصية حتى غادر حدود الباهليك داخل الباهليك الجزائر إلى قبضة بحال جرجرة . وغزا أهل الشافية ، وأولاد سلطان بالأوراس ، وكان من ضمن من قتل له خلال هذه المعارك : الأغا الوغليس ، وشيخ العرب الحاج بن قانة ، وشيخ بلزمة فرحات بن علي من عائلة القائد الشريف بن منصور ، وبلقاسم بن مراح زعيم الزمالة ، وكرتيش بن سلامة قائد الزمالة .

تمكن أحمد القلي من قهر العصاة ، ووطد الأمن في الباهليك وفرض هيبة الدولة على الجميع ، وشجع الفلاحين على غراسة الحضر والأشجار والمشمرة ، وغيرها وشجر منطقة الحامة بكيفية مكثفة ، وغير مكان الزمالة ونقل معسكرها إلى عقبت الجمالة على بين طريق باتنة ، وشرع في بناء برج الفقية ، وأحب السكان واستحسنوا حكمه وعهده الذي دام خمسة عشر عاماً . وتوفي عام 1185 هـ الموافق لعام 1771 ، وخلفه صالح باي انظر قايسات . المصدر نفسه ص 323 - 329 . وقد رجعنا إلى الترجمة الفرنسية ووجدنا أن ما سها النسخ عن كتابه شيء قليل ، ولا يختلف عن المعلومات التي أوردها فاييت ولخصناها هنا ولا تزيد على نصف صفحة . انظر :

صالح باي 1771 - 1792 م :

وأنقذ بنياتها⁽⁴³⁾ فكان فيها منفعة للعباد ومصلحة ، وحصنا للبلاد وأسس المساجد للديانات ، وأجرى للضعفاء والفقيلين الصدقات فبذلك كانت أحواله في غاية الاستقامة والرعية طائعة إليه ومنقادة . وقد أعطاه الله من صلبه كثيرا من الأولاد ، وملك الأملاك في كل البلاد ، وعم الخير كل العباد . وكان صالح باي المذكور يخرج إلى الوطن بخلص مطالبه بالتام في مدة قليلة من الأيام . وهو الذي أسس مرسى سكيكدة وشهرها ، وصاروا كل الأجناس يأخذون الوسق منها . وقد انجرت له من تلك المرسى فوائد عديدة وذخائر من نفيسة . وتمهدت كل الأوطان في عصره ، ونال من الخيرات ما لم يناله (كذا) واحد البايات قبله ومن بعده . وداس كل الأوطان العامرة والفقراء ، وكان وصل إلى نقرت اقضاء (كذا) وطن الصحراء لم يصلوا إليها البايات السابقين (كذا) ولا أدركوها المتأخرين (كذا) إلا صالح باي وصلها وأقام عليها سبعين يوما حتى طوعها . وتحصل بيده الفوائد الكثيرة منها ورجع إلى قسنطينة من بعد اغتنامه بذلك الغنيمة ، وعاش في زمانه عيشة محضية وأحواله سديدة مرضية . ولما قرب أجله وحانت وفاته تبدلت سيرته وانعكست حقيقته ، وصار يظلم ناس الزاوية حتى أفضى به ذلك إلى الهلاك والهاوية . هذا الوقت جاء الخبر من الجزائر بموت الباشا الذي كان رجَّع صالح باي ، ورجَّع البايات الذي قبله ، وتولى باشا آخر فما كان من أيام قلائل إلا وقد أمر بعزل صالح باي وانتقاله إلى الجزائر بأولاده وأهله ، ورجَّع باي آخر وبعثه من الجزائر .

(43) إن الناصح أخطأ فترك القسم الأخير من سيرة الباي أحمد القل والقسم الأول من سيرة صالح باي ، ولذلك فإننا أعدنا دراسة موجزة له اعتمادا على قابليت ، وسعيدولي ، وتوفيق المدني ، ودورنون ، وأيتناها في الماش كلها نغيزا لها عل نص العتري : ولد صالح باي في مدينة أزمير بتركيا في شبه جزيرة آسيا الصغرى من أب تركي اسمه مصطفى وذلك عام 1739 م تقريبا . وعاش سنواته الأولى بصفة عادية . وفي عام 1755 تسبب في مقتل أحد أقربائه خطأ ، فهجر إلى الجزائر حتى يفتادى العقاب ، واشتغل في إحدى مناهي مدينة الجزائر ، وتعرف على الكثير من الأتراك في مجلس الأرحاق . وسكنه ذلك من الانتحاق بفرقة الميلشيا العسكرية للعمل بها قبل أن يرسل إلى مدينة قسنطينة لدعم الفرقة التركية العسكرية بها كذلك . فبرزت شخصيته وشجاعته واشترك في حملة الباي زرق عينو ضد تونس وأبدي مقدرة وشجاعة في الحرب أثارت انتباه أحمد القل فقربه إليه وزوجه ابنته =

ثم لما أصبح باي على رأس الباهليك ، عينه قائدا على عرش الحراككة بالأوراس عام 1762 م لمدة ثلاث سنوات . وعندما توفي خليفة الباي في قسنطينة استدعاه صهره أحمد القل ، وعينه خليفة عام 1765 لمدة ست سنوات . وفي عام 1771 توفي أحمد القل ، فعين صالح باي في مكانه على رأس الباهليك واستمر في منصبه قرابة ربع قرن لغاية صيف عام 1792 م .

أبرز صالح باي أعمالا كثيرة عسكرية ، اقتصادية ، عمرانية وثقافية واجتماعية ، كان لها آثار بارزة في حياة السكان ، والباهليك بصفة عامة .

ففي بداية عهده تمرد أولاد نايل وشقوا عصا الطاعة في وجه الداي بالعاصمة فقاد ، حملة عسكرية ضدهم ، واقتحم الجلفة ، وبوسعادة وقتل بالكثير منهم وأدينهم ، وعاقبهم حتى أذعنوا ، وفي خلال عودته مر على المنستير لتسوقج ، بأراضي زمور جنوب قسنطينة وعسكر به وعاقب بعض العصاة من أولاد زايه ، الذين حاولوا اقتحام معسكره للسرقة والنهب . وكان ذلك حوالي عام 1772 م .

وحصلت وحشة بينه وبين حسن باشا ابن الباي بوجنك ، فحاول أن يعتقله وفر إلى تلمسان والتحق بالباي محمد بن عثمان الكبير حاكم باهليك وهران في معسكر ، واحتسب به وطلب منه أن يسعى لاستقدام أسرته ، فتدخل لدى الداي محمد عثمان باشا واستقدم له أسرته ، ووطنه بميلانة لمدة عشرين عاما تقريبا ، حتى تمكن من العودة إلى قسنطينة على رأس الباهليك وقام بقتل غريمه صالح باي الذي قتل صهره إبراهيم بوضيع المتزوج مثله إحدى بنات بن قانة .

وفي عام 1773 غزا صالح باي أولاد عمور واقتحم قرى : زعينة ، وأفلو ، والأغواط ، والنيلة ، وعاقب العصاة ضد داي الجزائر ، وقتل مائة رجل ، وأرسل رؤوسهم إلى قسنطينة لتعلق على الجدران والأبواب .

وفي عام 1775 حمل صالح باي الدنوش إلى العاصمة ، واشترك هناك في مقاومة حملة الضابط الإسباني أوريلي ، وعسكر بين الحمير والحراش ، وطبق استراتيجية مهمة كان لها دور فعال في إلحاق الهزيمة المذكرة بالحملة الإسبانية رغم ضخامة عدتها وأعداد جنودها ومراكبها البحرية ، وعندما عاد إلى قسنطينة أسس في السنة نفسها مسجد ومدرسة سيدي الكناني .

وفي عام 1776 م هاجم صالح باي أولاد بن عاشور فرجيوة ، وكرر هجماته ضدهم لغاية عام 1781 بسبب عصيانهم وامتناعهم عن الاعتراف بسلطة الباهليك ودفع الضرائب .

وكان لجهوده العسكرية هذه آثار حميدة فركن الجميع إلى الهدوء لسنوات طويلة . وفي عام 1783 اقتحمت بعض القبائل التونسية حدود الجزائر في منطقة تيسة ، ودخلت إلى الجزائر فارة أمام قوات علي باي ، واختارت الجزائر موطنها لها ، وقبل صالح باي رغبها ، وكتب حمودة باشا وطالبه بدفع تعويضات مالية لتلك القبائل التي اختارت الجزائر وطنا لها وحدد مبلغ 40 ألف سكين لذلك ، وعندما وصل رسوله إليه في نهاية نوفمبر 1783 م رفض الاقتراح ، وكتب الداي محمد عثمان باشا واحتج لديه على صالح باي ، وقاد قواته إلى الجريد ليفاجيء ، تلك القبائل وبماقبا ، ولكن صالح باي كان بالمرصاد له فخلفه بقية المغامرة وعدل عن الحرب وكتب صالح باي وأرسل إليه الهدايا ، والتقى معه على دفع تعويض بمبلغ 25 ألف سكين وذلك في جوان 1784 م . وبقي الأمر هادئا بين البلدين لغاية مطلع عام 1787 ثم هاجر عدد من سكان قسنطينة فجاء إلى تونس ، وانهم

صالح باي حمودة باشا بتحريرهم على ذلك وألف جيشا من ستة آلاف رجل لغزو تونس ، وفعل مثله حمودة باشا وجند محبة آلاف تركي وكرغلي ، وعددا من الأعراب ، غير أنه تخوف من مغبة الأمر ، وفضل الدخول في مفاوضات مع أوجاق الجزائر . ووافق على دفع تعويضات عن خسائر الحرب . مرغبا لأن البنادق كانوا يهددونه كذلك بالمحجوم على بلاده .

وفي عام 1788 م قاد صالح باي حملة كبيرة إلى الجنوب الصحراوي القسنطيني لمقاتبة شيخ التواودة محمد الدباح ، وشيخ تقرت فرحات بن جلاب ، لرفضهما دفع الضرائب للبايليك . وفي طريقه إلى تقرت مر على واحات : طولقة ، وبوشقرون ، ولباشه ، والزعاطشة وسيدى غليل (سيدى عبالد) بوادي جدي ، ودفع له سكانها الضرائب المطلوبة ومن هناك واصل طريقه إلى الزيان ووادي ريخ ، وفرض الحصار على تقرت حوالي سبعين يوما حتى أرغم شيخها على الاستسلام وقبض أيوان المدينة له وقبل دفع الضرائب المطلوبة منه ، وغرامة الحملة وخسائرها وأتاعيا .

وقد تعددت حملات صالح باي على الجنوب أربع مرات ، واستعمل خلالها القوة والديبلوماسية ليستميل إليه رجال الصفيين : بن قانة ، وأولاد بوعكاز وشرع للناس نظام تقسيم المياه لسقي أشجار التخليل ، والمخضراوات .

وفي عام 1789 م بنى مدرسة بجوار جامع سيدى لحضر بقسنطينة ، ومسجداً بعناية وأهم بالتعليم وقرب إليه العلماء ، ورجال الدين ، والفقهاء أمثال : المفتي الحنفي الشيخ عبد القادر الراشدي ، والقاضي الحنفي الشيخ شعيب بن جلول ، والقاضي المالكي الشيخ العباسي . وتوفرت قسنطينة في عهده على خمسة مساجد كبرى ، وسبعين مسجداً صغيراً ، وثلاث عشرة زاوية ، إلى جانب الكتابات القرآنية الكثيرة . وأول اهتمامه بالتعليم الديني ، وغيره ، وعيّن للمعلمين والفقهاء والوعاظ ، والأئمة أجوراً سنوية فارة من أموال الأوقاف الإسلامية التي أهم برعايتها وصيانتها . وعين وكلاءا وتعيين لذلك . واستحدث في كل مدينة قاعة للصلاة وبيناً لقوضوء ، وأخرى للتدريس ، وأربع غرف لسكنى الطلبة القادرين وحدد عشر سنوات للتخرج وإنهاء التعلم ، ووضع عقوبات زجرية للذين يخلون بالآداب العامة ومنها الطرد .

ونظم اقتصاد البايليك الزراعي ، والصناعي ، والتجاري ، وأهم بالعمران والإدارة فشجع غرامة الزيتون ، وفلاحة الرز ، وباق أشجار الفواكه ، واستحدثت شبكة من قنوات الري لإيصال المياه إلى المزارعات المسقية خاصة بالحامة وسيوس ، واتخذ لنفسه مزرعة نموذجية لمزرلة الريفي المعروف باسم سيدى محمد الغراب ، وأمر باستصلاح مستنقعات ضفاف وادي سيوس لاستغلالها في الزراعة .

ونقل جنود الزمالة إلى سهل عين مليلة على طريق باتنة ، وأسكنهم هناك ، وملكهم أراضي خصبة في عين كرشة وبرج القسقا ، وأمرهم باستصلاحها ، وزراعتها ، وممارسة تربية الخيول بها لصالح إدارة البايليك . وهذا من ضمن الأغراض التي دفعته إلى إنشاء برج القسقة الذي شرع أحمد الفل قبله في تشييده . ومن ضمن مهام جنود الزمالة في سهل عين مليلة ، مراقبة أعمال الحرث ، والحصاد ، وجمع المحصول ، واستغلال الشعور لعلف الحيوانات والقمح للتجارة في الأسواق ، وتزويد جنود الزمالة بما يحتاجهم الغذائية .

أهم صالح باي بالصناعة ، وشجع أصحابها على اختلاف مهنتهم وحرفهم وأصبحت قسنطينة في عهده تعج بالورش المختلفة والأسواق المزدهرة العامرة ، فهناك 28 سوقا وسوفا و 21 سباطاً (ممر تجاري) و 7 تربية لصناعة النسيج ، و 3 رحاات لعرض السلع ، و 3 أفران لصنع الخبز ، و 27 مطحنة للحبوب منها 5 داخل المدينة والباقي خارجها ، تطحن 484 كيسا من

الدقيق ، ومن ضمن المصنوعات المزدهرة بقسنطينة في هذه الفترة : الحلود ، والنحاس ، والحداة ، والخل ، والنسيج ، والخشب ، وأدوات الطين ، والخياطة والأدوات الحديدية ، والطينية ، والخشبية ، وغيرها .

شجع صالح باي التجارة الداخلية والخارجية وتحوّلت قسنطينة إلى ملتقى للقوافل التجارية الكبرى القادمة من طرابلس ، وغدامس ، وتونس ، وسكرة ، والجزائر والمغرب الأقصى . وكان البعض منها يضم 200 حمل وزيادة نشحن بضائع الباهليك المختلفة الزراعية والحيوانية ، والصناعية ، إلى مختلف الجهات الإفريقية والمشرق العربي ، وأهم كذلك بالتجارة الخارجية فأُصلح مواني : عنابة ، والقالة ، وسكيكدة و سطورة ، والقل ، التي تُفد إليها السفن والمراكب التجارية الأوربية ، من إيطاليا ، وفرنسا ، وغيرها . للغرض التجاري فتبع بضائعها الأجنبية وتشتري بضائع الباهليك . وقد وضع لها صالح باي وكلاء لمراقبة هذه التجارة الخارجية واستخلاص ضريبة الجمارك على البضائع التجارية الصادرة والواردة .

وأصلح نظام جباية الضرائب ، وقسم الباهليك إلى قسمين : شرق ، وغرب ، يفصل بينهما وادي الحمام ، ويشرف على كل منهما فابيد جيري الذي يخضع بدوره لفائد الدار بقسنطينة ، ويتقاضى مقابل قيامه بهذا العمل ، ضريبة الزمام مقابل قيامه بخرجين في العام إحداهما في الحريف لمراقبة أعمال الحرث ، والأخرى بعد الحصاد لاستخلاص ضريبة الجيري التي قدرت بـ 5 و 12 صاعا قمحا ، ومثلها شعيرا ، مع عشر شبكات من التبن كعلف للحيوانات .

كذلك أهم صالح باي بإصلاح جسر القنطرة ، واستقدم مهندسا إسبانيا من ماهون بالليبار يدعى دون بارتولوميو : don bartholomeo وكلفه بمعاينته وتقرير ما يمكن عمله لإصلاحه ودفعه ، وتم الاتفاق على استعمال المواد المحلية بدلا من المستعجلة التي تكلف نفقات باهظة ، وشرع هذا المهندس في الإجراءات المطلوبة لذلك ، غير أن صالح باي عزل ثم قتل ، وتوقف العمل في الجسر إلى ما بعد .

لم يعمل صالح باي عمران مدينة قسنطينة ، وتجميلها ، فجعل حي سيدي الككائي وبني إلى جواره منازل الخاصة قرب الجامع والمدرسة وأنشأ دكاكين عديدة في سوق الجمعة الذي أصبح يعرف بعد ذلك بسوق العصر . وألحق بها مجموعة من الفنادق والدكاكين خارج باب الجديده قبالة كندية عتي .

عصم لليهود ، المنطقة المحصورة بين باب القنطرة وحافة الحايوة التي كانت مهجورة لبنا فيها منازلهم ودكاكينهم ، فاجتمعوا بها ، وتقلص وجودهم بحومة باب الجاية ، وسيدي الككائي ، وظهرت إلى الوجود حومة رحبة الصوف ، والشارع الرئيسي الممتد بين باب القنطرة وباب الوادي .

في أواخر أيامه تغيرت صورة صالح باي ، وسلوكه ، تجاه الناس فأخذ يظلمهم دون حبر ، ويفرض عليهم الضرائب المزعقة ، ولا يراعي أوضاعهم وظروفهم المعاشية والاقتصادية والاجتماعية ، بل وحتى السياسية . فظهر ضده معارضون وعصوم كثيرون ناصبوه العداة ومنهم : الشيخ محمد الغراب ، والشيخ أحمد الزواوي ، وبورنان بن زكري ، والشيخ سيدي عبيد من الحناشنة ، وعدد آخر من الحناشنة . واشتكوا إلى الداي حسن باشا بالعاصمة فقام بعزله في ذي الحجة عام 1206 هـ الموافق لشهر أوت 1792 م وعوضه بإبراهيم باي بوصف كاسياتي ، وعن صالح رابح تمكن العودة إلى المصادر التالية :

أ) ناصر الدين سعيدوني : دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (الجزائر 1984) ص 59 - 80 ، 347 - 355 .

ب) أحمد توفيق المدني : مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر (الجزائر 1974) ص 25 - 63 .

ج) حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس - (تونس 1373 هـ) ص (156 - 160) .

د) فاهيت . المصدر نفسه (1868) ص 329 - 375 . و 379 - 392 .

- annales tunisiennes pp.116 -222.

- annuaire archeologique . annee 1856 - 1857. p.118.

إبراهيم باي بوصبع 17 أوت 1792 م :

واسمه إبراهيم باي بوصبع رحمه الله ، وكان صالح باي حين وصله الخبر بعزله وانتقاله إلى الجزائر بأولاده وأهله ، تغيرت له الأحوال وما حبّ العزل ولا الانتقال ، فاستغاث وطلب الانتصار من ناس البلاد ، فانقادوا إليه يظنون أن ذلك وقع له من بعض الأضداد ، فلما تبين لهم الخبر الصحيح ، وتحققوا أن الأمر جاء من عند الباشا صريح ، تراهم سلوا أيديهم منه ، وفكوا أقدامهم عنه ، وباقى هو وحده حيران ، ومهموماً كثير الأحزان ، فلما وصل بوصبع المذكور إلى قسنطينة واستولى على مملكتها ، تراه اجتمع مع صالح باي وتعاهدوا على أن لا تكون بينهما خدعة وانفصلوا على أن صالح باي ينتقل إلى الجزائر بأهله وأولاده ، ويرفع جميع أرزاقه من غير معارض له في ذلك . وكان صالح باي أضمر في نفسه الخدعة فلما كان في الليلة الرابعة هجم صالح باي في الليل ودخل على الباي بوصبع وقتله في فراشه وقتل جميع خدامه الذين أتوا معه من الجزائر وهم مائة أنف بالعدد ، وما نجا منهم أحد . وصارت فتنة عظيمة بين صالح باي وناس قسنطينة آل الأمر إلى أن وقع الفتن بالبارود من الجانبين ، فعند ذلك اتفقوا كبار البلاد وعلمائهم وكتبوا إلى الباشا بالجزائر وأخبروه بكل شيء فلما وصل الخبر إلى الباشا المذكور غضب واستغاض وبعث باي آخر بالفور ، قرغلي اسمه حسين وحرضه على قتل صالح باي ولا يمهله طرفة عين فلما وصل إلى قسنطينة اجتهدوا وسعى في الحيلة حتى تمكن بصالح باي وقتله وبسبب هذه الجريمة صارت عادة جارية بموت البايات المتأخرين . وكانت مدة ولاية صالح باي اثنين وعشرين عاماً . وأما بوصبع المذكور فإنه مكث ثلاثة أيام لاغير (44) .

(44) نصب إبراهيم بوصبع بايا يوم 28 من ذى الحجة 1206 هـ الموافق ليوم 21 أوت 1792 ، وفي ليلة في محرم 1207 هـ الموافق ليوم 21 أوت 1792 هجم عليه صالح باي ورفاقه وقتلوه هو والرجال الذين جاء بهم من الجزائر ، وعاد صالح باي إلى السلطة مرة ثانية ولكن لمدة عشرة أيام فقط .

فقد حضر من العاصمة غزمية السابق حسين بن حسن بوجنك الذي كان متفيا بمليانه منذ عشرين عاما وقام بقتل صالح باي في محرم 1207 هـ ، الموافق لأول يوم من سبتمبر 1792 .

وقد سلحت جسده إلى أسرته ، فدفنته في مدرسة ميدي الكتاني ، وخلف وراءه أولاداً كثيرين تمكن واحد منهم أن يتولى منصب أبيه ذاتاً على قسنطينة وهو حسين بن صالح باي عام 1806 م لمدة عامين . انظر فايست : المصدر نفسه (1868) ص

حسين باي بن حسن بوحنك 1792 - 1795 م :

ومن بعده ولاية حسين باي رحمه الله في سنة اثني عشر ومائة (45). هو المقدم ذكره وهو ابن الباي بوحنك المذكور في السابق ، وكان حسين باي المذكور ولد في قسنطينة ونشأ فيها ، وكانت بينه وبين صالح باي مودة ومصادقة فدخلوا بينهم الوشات (كذا) حتى وقع بينهم الضد والشتات فقر حسين المذكور إلى الجزائر وبقي هناك مستوطناً إلى أن وقعت تلك الفارطة من صالح باي ، كان الباشا نجم في عقله أنه ما يأخذ بثأره إلا ضده فبعثه وقتل صالح باي كما ذكرنا أولاً ، ثم شرع في قتل خدامه وكل من تبعه في ذلك الفتنة ومن بعد ذلك ما صنع شيئاً قط من كون الوطن منتهى والرعية طائعة من قبله . ومن بعد زمان قليل أصابه مرض حتى تعطلت أحكامه فأمر الباشا بقتله فمات من حينه سنة اثنتي عشرة مائة وتسع (46) .

مصطفى باي الوزناجي 1795 - 1798 م :

ومن بعده تولى وزناجي باي رحمه الله في السنة المذكورة (47) واسمه مصطفى وهو

45 (هذا التاريخ الذي أورده الناسخ غير صحيح وغير واضح كذلك ومبهور . والصحيح هو سنة 1207 هـ الموافق لعام 1792 . استقال إليه خصوم صالح باي وقرهيم منه وعين محمد الشريف والد أحمد باي خليفة ، ورضوان قائد الدار ، وكان يشغل المنصب نفسه في عهد صالح باي ، ومن جلل ومن سالم ، كل منهما باش كاتب ، ومن زكري باش سيار ، وعين في منصب باش ماسين أعوانا آخرين من العائلة نفسها . وفي أواخر أيامه أصيب بمرض في رجله عاقبة عن ركوب الحصان ، وقيل إنه أصيب في عقله كذلك ، فأمر الداي بابا حسن بعزله وإعدامه ، ودفن في مسجد سيدي لحضر بجانب أبيه . وسيدفن ولده حسونة إلى جانبهما كذلك عام 1799 م انظر فاهيست . المصدر نفسه ص 453 - 458 . وكذلك شربونو . المصدر نفسه ص 125 .

46 (الموافق لعام 1795 أمم عمل قام به هذا الباي هو تجديد جسر الفنطرة الذي بدأ صالح باي المحاولة فيه كما ذكرنا .

47 (عام 1209 . الموافق لعام 1795 م وكان يحترف صناعة البارود ، وتولى منصب الباي في المدينة بباهليك التيطري لمدة عشرين عاماً وعندما عينه الداي بابا على قسنطينة صحب معه حاج حميدة وعينه باش كاتب . وعين اتفليز خليفة ، ومن فرغني ، أغا الدائرة ، ورضوان قائد الدار ، وآخرين في مناصب أخرى عديدة . ورغم كبر سنه فإنه قام بعدة غزوات ضد العصاة في المناطق الجبلية الوعرة ، وهاجم النباهة أو الحمويين في الحدود . وصادر عنهم قطعانهم ، وهدد عدداً من منازلهم ووصل حتى إلى مدينة القالة على الحدود ، وهاجم أهل زارد بساس ، وفعل لهم مثل ما فعل بالحمويين ، واعتقل زعيمهم الشيخ الأكمحل ، وعاد إلى قسنطينة ومن هناك انجم إلى الجنوب وهاجم أولاد بوعون في سهل زانة وحاصر العصاة والثائرين في جبل مستنواة قرابة نصف شهر ، وقتل الكثير منهم ، وشرذ الباقي وبعد ذلك غزا أولاد سعيد في الأوراس ، وأعدم عدداً من رجال أولاد عززارة المؤيدين للثوار . وغزا أولاد موسى من قبيلة عشاش قرب باتنة ، وصادر قطعانهم وأهلك كثيراً من رجالهم . وفرض على الجميع احترام السلطة ، وحكم بيد من حديد ، وفرض سلطة الأتراك على كل الباهليك .

تركى في الجزائر له شجاعة ورهبة وكان متولعا بالخروج إلى الوطن ، ويفرى ، (كذا) على الجبال الشمخ ولا يبالي بمن هو قريب أو نائي . ومن هذا الوقت صاروا الترك يأخذون الجور ، ونبذوا الحقوق المشروطة وبدى (كذا) منهم الفجور . وبالجملية أنه من حين موت الباشا الذي اسمه باب محمد⁽⁴⁸⁾ ومات صالح باي ، تبدلت أحكام الترك وانقلبت حقائقهم وصار صغيرهم لا يواقر (كذا) كبيرهم . وبد (كذا) النقص في ملكهم ، ومن ذلك كلام الحكماء ، وإشارة العقلاء : الدولة بستان ، وثمرته العدل والإحسان ، فملكها مسدد ، وسلطانها قدير . ويرجع الكلام إلى وزناجي باي أنه عاش زمانا ، وأمر الباشا بقتله من غير سبب فمات من حينه سنة ألف ومائتين واثنى⁽⁴⁹⁾ عشرة رحمه الله .

حاج مصطفى انفليز باي 1798-1803 م :

ومن بعده تولى انفليز باي رحمه الله في السنة المذكورة⁽⁵⁰⁾ اسمه حاج مصطفى وهو

48 (يقصد به الداي محمد عثمان باشا الذي حكم ربع قرن من 1766 إلى 1791 م .

49 (الموافق لعام 1798 م . والسبب في عزله وقتله عكس ما زعم العتري هو تأمر التجار الفرنسيين ضده فقد كان يرفض بيع الحبوب إلى الشركة الإفريقية بالقالة امتثالا لتعليمات الداي محمد عثمان باشا . وعندما توفي هذا الداي تحاليل التجار الفرنسيون واغتصبوا عدة ظروف دولية معقدة ، وتمكن القنصل الفرنسي جان بون سانت اندري : Jean bon saint andre من إقناع الداي الجديد حسن باشا بعزل الباي الوزناجي . وإعداده شقاً وتعريضه بظيفته حاج مصطفى انفليز عام 1798 . انظر فايست . المصدر نفسه (1869) ص 459 - 463 .

50 (عام 1212 هـ - الموافق لعام 1798 م . وبعد أن تم تعيينه ألف عزته على الشكل التالي :

محمد بن صالح رئيس خليفة ، رضوان قائد الدار محمد بن جلول ، وكوتشوك علي باش كاتب ، محمد بن مرتضى أغا الدائرة ، ثم بلفاسم اليوكى ، ثم دحمان بن زكري ، وعين كلا من أحمد طبال ، ومحمد شاكر ، وقارة مصطفى ، شواشا . ترقوا كلهم فيما بعد إلى منصب الباي . وسبب تسمية بانفليز وفوقه في أسر الإنجليز ، وبقاؤه في بلادهم 10 إلى 12 عاما ، وقيل لتكون طباعه تشبه طباع الإنجليز في برودة الدم ، والمكر ، والخداع ، والقتل . أدار البابليك بحزم وجد ، وامتلأ لأمر الداي بالعاصمة قطع العلاقات مع فرنسا بعد أن غزا نابليون الأول مصر ، فأرسل إبراهيم شاوش إلى عنابة لاعتقل الممثل الفرنسي العامل في المركز التجارى الفرنسي هناك . واتخذه إلى فسطاطه حيث وضع في السجن بدار القونسي بجوار ثكنة الصباغية ، وأمر بتخريب مركز الشرطة الإفريقية الفرنسية بالقالة . واستمر الوضع هكذا إلى أن تم إبرام معاهدة السلم بين الداي مصطفى باشا وديبوا نانفيل dubois thainville عام 1802 ورغم أن الباي مصطفى انفليز لم يشارك في غزوات خارج فسطاطه لضعف صحته إلا أنه «

تركي قديم في قسنطينة وهو رجل عاقل متوصف بأوصاف العرب ، وكان يخدم مع صالح باي ، وفي زمن انقليز المذكور رخاء كبير في كل الأشياء إلى أن صار الصاع من القمح في زمانه يسوى (كذا) فرنك . وهو الصاع الذي يسوى في هذا الزمن (51) عشرون فرنك . وكانت ولايته تشبه زمان ولاية صالح باي في الرخاء والعافية ، وتمهيد الوطن ، وكان سبب انقضاء ولايته هو أن واحدا من أولاده اشتهر بالفسق والفساد ، وانجرت اذيته إلى ناس البلاد فلما شاع أمر فساده وتبين قبح صنيعه أمر الباشا بعزله . وانتقاله إلى الجزائر بأولاده وأهله وكان السبب في حياته وعدم قتله كانت مصادقة ومودة بينه وبين وزراء الباشا فتشفعوا فيه وعزل في سنة ألف ومائتين وثمانية عشر (52) .

عصمان باي 1803 - 1804 م :

ومن بعده ولاية عصمان باي رحمه الله في السنة المذكورة (53) وهو قرغلي من أولاد قار محمد كانوا أوائله بابات في وهران ، وكان عصمان باي المذكور رجل حزم في أموره

= وجه حملات ضد أولاد عل بن يحيى العوامي في الحناشة ، الثاثرين والمتسربين ، فقاد الحملة الأولى بلقاسم البوي أغا الدائرة وقل هو وابنه ، وقاد الحملة الثانية سي عمار بن شريف وتعرض هو الآخر لحزيمة ثقيلة وفقد عددا من رجاله ، وعندئذ سيطر الباي أولاد سي يحيى بن طالب برعاية شيخهم يونس الشجاع والمخارب عل الثوار والعصاة ، وهم يجاورون لهم في السكن فأغاروا عل الحناشة وقتلوا لهم شيخهم أحمد بن بو عزيز ، وأخاه ، وأرسلوا رؤوسهم إلى قسنطينة . فهدأت الأحوال انظر فاهيت : المصدر نفسه (1869) ص 463 - 470 . وكذلك :

A. devouls : les archives du consulat general de france a alger .pp.132 et 142

(51) يعني عام 1846 وهو التاريخ الذي تم فيه طبع كتابه .

(52) الموافق لعام 1803 م وقد وضع في إقامة جبر مدة ثم فر إلى تونس ، والتحق بمحمدة باشا وكان سببا في اندلاع الحرب بين الجزائر وتونس في عهد الباي عبد الله .

(53) عام 1218 لعام 1803 م هو ابن محمد بن عثمان الكبير باي وهران ، خلف أباه عل باي بك وهران خمس سنوات . وفي عام 1799 عزل ، ونفي إلى البلدة لمدة عامين ثم أعفي عنه وعين عل باي بك الشرق قسنطينة ولكن المليون خليفة ، ومن كوجوك عل ، باش كاتب ، وحاج أحمد الأبيض قائد الدار ، ومن شاندولي إبراهيم أغا الدائرة ، وأبناء بن زكري باش سيار وباش شلوش .

وطبعه يكره الترك من أجل ظلمهم . ويجب العرب لنصحهم ، وكانت سيرته مليحة مع أهل الوطن ، والبلاذ وحكمه بالعدل والساداد . لكن في زمان ولايته ظهر الشريف بواد زهور ، وبعد زمان جاء الشريف المذكور ، وجاء معه كل القبائل كالجراد المنتشر من كون الشريف طمعهم بكلامه . وغرهم بخنقصرته وافترائه قائلا لهم امشوا معي إلى قسطنطينة كي ندخلوها فنضموا أرزاقها ، ونسكنوا ديارها ، فما وصلوا إلى قسطنطينة تكلموا مع ناسها ، قائلين يا أهل البلد هذا الشريف قدم إليكم ونحن قدمنا معه في جنود كبيرة ، وجيوش عريضة لا تقدرنا على مقاتلتنا ولا تنجوا إن فررنا منا . فإن أسلمتم لنا البلاد فلا حرج عليكم وإن امتنعتم نقاتلكم وندخلوا بلادكم بقوتنا . فأجابوهم ناس البلاد قائلين : يا معشر القبائل المغترين نحن لا نسلموا في بلادنا ونقاتلوكم حتى نهزموكم (كذا) أو نموتوا بأجمعنا فعند ذلك هجموا القبائل هجمة شديدة وانتشروا من كل جانب وجبهة (كذا) حتى وصلوا إلى أبواب البلاد وهم يصيحون الجهاد ، الجهاد ، فانضمرت نار الحرب وصار النهار كالليل وتراكمت الأحزان والويل .

وكان سيدى الشيخ بن الفكون هو الواقف في البلاد عند هذه المصيبة وتمادى القتال من الجانبين يوم وليلة ، ثم فتح الله بالنصر القوى وانهزموا ذلك القبائل أصحاب الفتنة والبغي ، وولوا هاربين على أعقابهم لم (يدر) أولهم ما حل بأخبرهم وانقضت آلاف من موتى وأضعاف ذلك جرحى .

وأما عصمان باي كان ذلك الوقت في المحلة بناحية سطيف يستخلص مطالب المصيف فلما وصلوا إليه ذلك الأخبار جاء مسرعا غوار ، فوجد الأمر قد وقع ، ومضى وانقطع ، يلزمه أنه يخبر الباشا بشأن قدوم الشريف إلى قسطنطينة ، وبما حل به وبجيوشه من القتل والهزيمة ، فلما وصل الخبر إلى الباشا وتحقق بكل ما كان رد الجواب إلى عصمان باي قائلا له أنت باي ذلك الأوطان وهذا الشريف ظهر في حكم عمالتك فواجب عليك تمشى إليه بنفسك وتأخذ منه ثارك ، واقصده أينما كان فاقتله أو اطرده من ذلك الأوطان فلما اتصل بيد عصمان باي ذلك الجواب وعلم ما تضمنه ذلك الخطاب نهض وبادر في الحال وشرع في ترتيب العساكر وتنظيم الأمحال ، ثم تقدم بذلك النظام قاصدا إلى الشريف المذكور . وكان في ذلك الوقت هو مستقر في وادى زهور من كونه موضع

حصين لكثرة أشجاره وعظم جباله وتشعب طرقاته لما وصل قريبا منه فخم ودبر في عقله بأن بقي المحلة والأثقال في مكانها ، وجرد الجيوش والعساكر بأسرها ورفع آلة الحرب من مدافع وغيره ، وقصده إلى الشريف بنفسه ، فلما انفصل من محلته وصار في أثناء طريقه وقع عليه الفتن من أمامه ومن خلفه . وكانوا القبائل ناس ذلك الوطن جعلوا من ورائه أمكار وخديعة وقطعوا الطرق بينه وبين المحلة . فلما أراد عصمان باي الرجوع على أعقابهم لم يجد سبيلا ولا مسلكا لرجوعه وانقطع بعساكره وجنوده . وصار في الهلاك والهوان ، وتحقق بعدم الحياة ، ووقعه في الخسران فلما شاهدوهم القبائل في حالة الفرق ، وحلت بهم الندامة والقلق ، بادروا إليهم في الحال وقتلوا الباي المذكور من غير إمهال ، وقتلوا من ذلك العساكر والجيوش رغم أنفهم وما نجى (كذا) إلا القليل منهم ، واستولوا القبائل على ذلك الأمان واحتوا على تلك الخزائن وما فيهم من السلاح والأموال .

فلما وصل الخبر إلى قسنطينة بوقوع ذلك المصيبة العظيمة والداهية الشنيعة ارتفعت الأصوات بالبكا والصراخ وضجت العباد بالنحيب والصياح ، وقد اجتمعوا مصيبتان : موت الأمير ، وفناء العباد ، وخوفا من رجوع الشريف إلى البلاد ، فعند ذلك اجتمعوا أهل الرأي والمشورة وهم سيدي الشيخ ، والعلماء ، وديوان النوبة ، وكتبوا إلى الباشا بالجزائر وخبروه بموت الباي وفناء العساكر وتشيت الخزائن والأمان ، وخوفهم من رجوع الشريف إلى البلاد في الحال ، فلما وصل ذلك الجواب إلى الباشا بالجزائر ، وتحقق بموت الباي ، وفناء العساكر ، تعلق ونحير وخم في عقله أنه يمشي إلى الشريف بنفسه ، فأشاروا عليه بعض وزرائه ببطلان ذلك ، فتبع رأيهم وأصغى لكلامهم ثم أنه رجع باي آخر تركي وألزمه يمشي إلى الشريف بالعجل من غير مهلة ولا وجل . وكتب الباشا المذكور جوابين : أحدهما إلى سيدي الشيخ بن الفكون ، والآخر إلى ناس البلد كافة خاصة وعامة ، وأرسل ذلك الجوابين مع الباي الجديد ، واسمه عبد الله باي رحمه الله . مات عصمان باي في سنة ألف ومائتين وتسعة عشر (54) وكانت مدة ولايته عامين ونصفا .

54 (الموافق لعام 1804 م . ولم يتم عثمان باي إلا بغزوة واحدة ضد حمامة ، والبراعة على الحدود التونسية ، وصادر منهم قطعان حيوانات ضخمة لم يسبق لأبي باي أن صادر مثلها ، من جمال وأغنام وأبقار وأحصنة ، انظر فاهيت : المصدر نفسه (1869) ص 470 - 479 ، وعن ثورة بلحشر هذه انظر المصادر التالية : محمد بن يوسف الزبالي : دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران تقديم وتعليق المهدي البوعبدل (الجزائر 1978) 293 ص . وكذلك :

عبد الله باي 1804 - 1806 م :

وأما عبد الله باي المذكور فإنه حين وصل إلى قسنطينة تلقوه ناس البلاد ففرحوا به وكان في وصوله استراحة وهناء العباد ، فاستكثروا هو من خيرهم وناولهم الجوابين الذي أرسل الباشا إليهم .

مضمّن جواب سيدي الشيخ الفكون :

الحمد لله ، إلى العالم الأشهر ، الخير الأنور ، مأوى القليلين وملجأ الضعفاء والمساكين ، العارف بجميع العلوم والفنون ، سيدي الشيخ بن الفكون السلام على مقامكم الرفيع وشخصكم الرائق البديع ، ورحمة الله تعالى وبركاته ما دام الفلك وحركاته . أما بعد فرانا نستكثروا (كذا) خيرك من شأن وقوفك وصياتك للبلاد ، ونصحك وحمايتك للعباد ، فإن ذلك منك معروف ، وأنت بكمال الإحسان موصوف ، إذ خيرك معنا سابق ، فبالأحرى أن يكون بالزيادة لاحق . ثم نلتبس منكم الدعاء الصالح الجالب لنا ولكم كل المنافع والمصالح . وما أنت إلا حبيبنا وصديقنا ، وإلينا والسلام .

كتب بأمر الباشا بالجزائر

ومضمّن جواب ناس البلاد :

إلى العلماء الأبرار وأكابر ناس قسنطينة الأخيار ، من الخاصة والعامة ، أما بعد السلام عليكم والسؤال الكثير عنكم وعن أحوالكم فقد كنتم خيرتمونا بموت عصمان باي وفناء العساكر وتشيت الخزان والأعمال ، وخوفا من رجوع الشريف إليكم فاعلموا يا أولادنا وأحبابنا ، أن كل ذلك تقرر في علمنا ، والآن نعلمكم ويكون متحقق عندكم إن كان مات الباي فرانا رجعنا باي آخر أحسن منه ، وإن كان ضاع العسكر فإن البحر ما زال

= Le capitaine sander rang : tableau des établissements français année 1840 p.560 et suivant. Berbrogger: les époques militaires de la grande kabylie R.A.F.T.3.P.17 ET 209. walsinesierhazy: la domination turque p.204 charles feraud: un cherif en 1804. akhbar (mai 1853) l'oued etkebir et collo R.A.F.T.3p.202. l'univers pittoresque T.7.PP.254 et suivant.

يولد عساكر ، وإذا تشتتوا الخزائن فإنه عندنا من تعميرهم نظائر ولا تخموا من رجوع الشريف إليكم فرانا ببال منكم ، وكونوا هائنين مطمئنين ثم نستكثروا من خيركم ونقر بإحسانكم من كونكم وقمتم وفوق الجد والاجتهاد حتى دفعتم العدو عن البلاد فنعم الصنيع المستفاد . وثم نوصيكم أن تكونوا حالا واحدة مع السيدى الشيخ بن الفكون فإنه عصبتكم في مهامكم ومرشدكم في نوائيك وهذا ما منا إليكم وأنتم أحببنا وأولادنا والسلام . كتب الباشا بالجزائر .

— هذه الورقة استبشروا كل الناس ، وتنحي عليهم الخوف والوسواس وأما الشريف فإنه أخذ من ذلك الخزائن الحظ الجزيل ومضى في حاله عابر سبيل فلم يبق له في ذلك الوطن أثر ولم يظهر له خير .

وأما عبد الله باى فإنه مكث في قسنطينة زمان قليل ، وخرج بالهولة لأجل أن يهني الأوطان من كونهم تحيروا من أجل موت الباي عصمان . وكان الباشا أرسل إلى عبد الله مدد العساكر والمال لتكون له القوة ، ويستقيم الحال ، وباقى في الوطن يدور منذ عشرة من المشهور وعمل بكل الاجتهاد حتى نزلت العافية في الوطن والبلاد . لكن بعد ذلك أنزل الله القحط على الخاص والعام ، حتى صاروا العباد يأكلون لحوم بعضهم من شدة الجوع وانقطاع الطعام واستمر ذلك مدة سنة كاملة . ثم عفى (كذا) الله تعالى وزالت تلك المجاعة الواجعة ، وفي زمانه وقعت الفيرة⁽⁵⁵⁾ بين الجزائر وتونس ، وكان عبد الله باى صاحب حرب وإقدام ، إلا أن امرأته تشاركه في الأحكام وذلك أمر قبيح

(55) يقصد بالفيرة ، الحرب من الكلمة الفرنسية : La guerre . وسبب هذه الحرب هو أن الحاج مصطفى باى انفليز ، الباي السابق هرب إلى تونس فاحتضنت حمودة باشا ، وقبل لجوئه السياسى ورفض دفع الضرائب المطلوبة منه إلى الجزائر وهي الزيوت ، والأصواف ، والشواشي ، وعندما طلب داي الجزائر منه دفع ذلك بالنقود إن تعلم عليه دفع البضائع امتنع ، وأخذ يتأهب للحرب ، مستغلا النجاء انفليز باى إليه الذى أعطاه بستانا بجنوبة ووعد أن يعينه إلى منصب بايا على قسنطينة وعندما علم الداي أحمد باشا بالأمر استعد هو الآخر وأمر بحارته بالتعرض للمراكب التونسية في البحر فاستولوا على حوالي ثلاثة مراكب كضغطة على حمودة باشا حتى يقبل بدفع ما عليه من الإتاوات عن هذه الحرب . انظر حسن حسنى عبد الوهاب : المصدر نفسه ص 158-159 ، توفيق المندلي : مذكرات نقيب الأشراف . ص 95-101 . ابن أبي الضياف : انحاف الزمان (تونس — 1963)

عند العرب والأعجام ، فهذا السبب عزله الباشا وأمر بقتله فمات عام اثني عشر مائة
واحدى وعشرين⁽⁵⁶⁾ .

حسين باي ولد صالح باي 1806 - 1807 م

من بعده تولى حسين باي رحمه الله في العام المذكور⁽⁵⁷⁾ قرغلي وهو ولد صالح باي
الذي تقدم ذكره وكان في أول ولايته خرجت عمارة الفيرة من تونس ، فلما وصلت
قريبا من قسنطينة خرج إليها الباي المذكور بعمارة قليلة فتقابلوا الضدين (كذا) ونشأ
الحرب بين الفئتين ف وقعت الهزيمة على باش قسنطينة وهرب إلى ناحية جميلة ، فحينئذ
تقدمت عمارة تونس ونزلت مقابلة للبلاد ، فوقفوا ناسها على ساق الجد والاجتهاد ،
وكانت عمارة تونس ثلاثين يوما وهي مقيمة بالحروب والقتال مع ناس قسنطينة ،
وتمادى القتال في الليل والنهار يرمى المدفع من الجانبين وطال الحصار .

وأما الباي المذكور حين كان هرب تراه خبر الباشا بشأن عمارة تونس النازلة بطرف
قسنطينة وبمحاصرتها بالقوة والجنود الغزيرة . فلما وصله الخبر وتقرر عنده ذلك الأثر ،
أنشأ عمارتين من فرسان وعسكر فبعث عمارة العسكر في البحر وبعث عمارة الفرسان
في البر ، وأميرهما باش أغا المتولى أمور العرب من كونه هو المتعين دائما للحرب . وكان
الباشا المذكور كتب جوابا إلى باش قسنطينة وأخبره بخروج العمارتين ليجمع هو أمره .

56 (في هذه الظروف التي تعكرت فيها العلاقات مع تونس ، قطعت العلاقات بين الجزائر وفرنسا وقام الداي أحمد باشا بإعطاء
مراكز القادة للإنجليز ليصطادوا به المرجان بدلا من الفرنسيين ، فتأثر سكان البابليك من ذلك لأن النشاط التجاري كان حيويا
مع الفرنسيين أكثر من الإنجليز على ما يبدو . فأحسن الباي عبد الله بذلك وتحوف من عدم استجابتهم للتجديد في حملة تونس .
وكتب الداي في الجزائر بذلك ويقال بأن زوجته الدايكرا بنت حسن باي أثرت عليه في موقفه وتحوفه ، وشاع بين الناس أنها
تدخل في إدارة البابليك وتحكم في سياسة زوجها وسلوكه . وعندما وصلت رسالته وأخبره إلى الداي بالجزائر غضب عليه
وأمر بعزله وجلبه بالعصا ألف جلدة ، وإعدامه شفا هو وزوجه ، ونفذ ذلك عام 1806 وكان عبد الله باي قبل نشوب الحرب
مع تونس اشتغل بأمر التأثير باللاحرش وغاضض معه معركة الراجعة بأحواز سطيف عام 1806 وقاوم أيضا نائرا آخر هو محمد
بن عبد الله له صلة باللاحرش . انظر : فابيت . ص 479 - 482 .

57 (عام 1221 هـ (الموافق لعام 1806 م) .

فما كان أيام قلائل إلا وقد وصلوا (كذا) تلك العمارتين وقابلوا عمارة تونس بطرف قسنطينة فركبوا آلة حربهم وصارت بينهم مقتلة عظيمة ثم بعد ثلاثة أيام كانت الهزيمة على عمارة تونس ما أعظمها هزيمة من موت عساكرهم واغتنام الناس أرزاقهم من كل نوع شيء متكاثر وباتت قسنطينة في حكم الجزائر . ثم إن باش أغه وباي قسنطينة خبروا الباشا بشأن هزيمة عرضي تونس وتشيت شملهم واغتنام الناس من أرزاقهم فاستبشروا بذلك الخير وفرح ، وزال عناءه واستراح (كذا) وبعث إلى باش أغا وباي قسنطينة بعناق الخيول وهدايا نفيسة إحساناً لهم ومكافأة (كذا) لنصحهم وحسن صنيعهم وأمرهم ينشئون عمارة قوية من عسكر وجيوش عروسية ، ويمشون إلى تونس بالعجلة ويبادرهم بانتهاز الفرصة فما كان منهم إلا الامثال ، فتراهم نهضوا في الحال واجتهدوا اجتهد الكمال ورتبوا من الفرسان والعساكر عمارتين ، وقدموا بهما إلى تونس دون مين وصاروا يطوون الأرض ويمشون مسافتين إلى أن وصلوا عرضي التوانسة وتقابلوا مع بعضهم فأوقدوا نار حربهم وانتشر القتال بينهم مدة أيام وليالي متواليين فكانت الهزيمة على عرضي الجزائريين ولوا هارين وعلى أعقابهم منهزمين ، ولما حلت بهم ذلك الفضيحة كان باش أغه صاحب حيلة فتراه مكر بباي قسنطينة وكتب جوابا إلى الباش بالجزائر خفية وخبره بأن باي قسنطينة هو الذي هرب بجيوشه حتى صارت تلك الهزيمة ، ولولا هروبه لكان النصر معنا ، واستشهد ببعض أصدقائه ووافقوه على مكره وافترائه فلما وصل إلى الباش ذلك الجواب ، وتحقق بما فيه من الخطاب تفلق وتحير ، واستغاض وأمر بقتل حسين باي فقتل مخنوقا رحمة الله عليه وكانت موته عام ألف ومائتين وثلاثة عشر (58).

58 () قائد الجيش التونسي سليمان كاهية وتأخر الداي في إرسال النجدة على وجه السرعة لكونه كان منشغلا بالقضاء على قرد سكان فليسة بجبال جرجرة ، وعندما بلغه خبر حصار التونسيين لقسنطينة أسرع في إرسال النجدة التي تمكنت من الإحداق بالجيش التونسي وإلحاق هزيمة ساحقة به ، واستولت على كل ما لديه من المؤن والذخائر وقتلت الكثير ، والتحق 600 جندي تونسي بالجيش الجزائري بأسلحتهم وكان عدد الجيش التونسي خمسين ألف رجل . ويقال بأن هذا أعظم انتصار حققه بابليك الشرق على أرض الجزائر ضد التونسيين . وبعد هذا الانتصار جاءت الأوامر من الجزائر بالزحف على تونس فقاد الباي حسين باي والباش أغه 18 ألف رجل إلى تونس في شهر جويلية 1807 واستطاعوا بالجيش التونسي الذي كان يقوده يوسف صاحب الطابع في وادي صراط قرب مدينة الكاف ، وجرت معارك كبيرة طوال ثلاثة أيام ، وهزم فيها الجزائريون ونشعوا ولم ينج منهم إلا عدد قليل من الأتراك وقيل إن سبب هذا الانكسار هو تعاون بعض الجزائريين مع التونسيين وتزويدهم بالأخبار النافعة لهم في الحرب ،

علي باي بن يوسف 1807 - 1808 م :

ومن بعده تولى علي باي رحمه الله في تلك السنة (59) وهو تركي من عسكر الجزائر له شجاعة ومهابة دائما حكمه يكون مستويا بين الترك والعرب خلافاً لغيره من البايات وكان علي باي المذكور حين رجعه الباشا شرط عليه أن لا يد يمشي إلى تونس ويأخذ الثأر ، فالتزم بذلك وشرع في ترتيب ما يخصه . وتوجيه ما يحتاج إليه ويلزمه ، فلما كان في الوقت الذي يلزم فيه المشي خرج باش أغا من الجزائر ويده عمارة منتظمة من كل شيء . فلما وصل إلى باي قسنطينة تلقاه بعسكر وجنود كثيرة ، وكانوا قد اتفقوا على الرحيل والإقدام إلى ذلك السبيل ، وإذا بذلك العساكر دخلهم الوجع ومازجتهم الحيلة والملل فتكلموا بينهم واتفقوا على قتل أمرائهم ، وزعموا أنهم يرجعون

= ومن هؤلاء قائد فرجوة مصطفى بن عاشور الذي أخذ رشوة عن ذلك . واستعمل الباش أمة تلك الحيلة التي أشار إليها العتري ، والتي كانت السبب في النهاية المؤلمة لحسين باي كما حصل لأبيه صالح باي قبله ، وذلك عام 1223 هـ وليس 1213 كما ذكر العتري ويبدو أن النسخ هو الذي أخطأ في ذلك . ويوافق ذلك عام 1807 م . انظر فاهيت المصدر نفسه (1869) ص 482 - 488 وكذلك :

Dureau de la malle : l'algerie p.42. et suivante. n rousseau : allales tunisiennes p.252 et suivante.

59 - اسم قائد القوات التي قدمت من مدينة الجزائر ، حسين أغه ، وكان هناك شائوش قديم يدعى بوترتوش ويسمى أحمد الشائوش ، يعيش في قسنطينة خلال هذه الفترة . وكان يعمل بدار القبايل في الجزائر العاصمة . وينتسب بالقبايل لكونه عاش بجبال القبائل عدة سنوات . وفي عام 1802 اتهم بالمشاركة في مؤامرة لقتل الداي مصطفى ، ففني من الجزائر . وزار خفية نجاية ، وحيجل ، والفيل ، وأخيراً استقر في قسنطينة بجوار ثكنة الانكشاريين في راحة الجبال ، وتقرب من الجنود الأتراك ، وأخذ يدير مؤامرة لقتل الباي والاستيلاء على منصبه ، وراقب عروجه إلى معسكر القسطنطينة بحيل فريون للاغارة حسين أغه القادم من الجزائر بقوة . ولاحظ استقرار الجيوش هناك خارج المدينة ، وقلوب الباي وحسين أغه إلى داخل المدينة للاستعداد للرحيل إلى تونس ، فذهب هو إلى معسكر الجيشين بوادي الرمال بين السفينة وزمول ، وتكلم مع البعض منهم ، وزعم لهم أنهم ذاهبون إلى موتهم وحضهم ، وذكرهم بالفرجة السابقة التي حصلت للباي حسين وجنوده ، فقال من معنوياتهم واتفقوا على العصيان والتمرد . وأخذت مجموعات منهم بهاجم الدكاكين في المدينة وتهد وتسرّف ، وفي يوم الجمعة ذهب الباي والأغا للصلاة ، وجماع الخطية ، والدعوة بتحقيق النصر ، قبل انطلاق القوات نحو تونس ، فأعد أحمد الشائوش القبائل والمتآمرون معه مؤامرة ، وحاصروا المسجد ، وهاجموا المصلين داخله ، وقتلوا حسين أغه هناك فرباها إلى منزل سي العبدى المجاور للمسجد في حي غدير بلخرارة ، واستجار بالنساء ليخفوه ، ولكن المتمردين اكتشفوه ، وفي رواية أخرى : هرب إلى منزل باب الدروج واعتبأ عند نعمون صهر مصطفى عوجة ، واكتشفه أحمد الشائوش وتعاون مع صهره مصطفى عوجة ، فأخرجوه بمعهده ، وغدروا به وأعموه وعاش بقية أيامه في قسنطينة معدماً يعيش على صدقات الحسين . انظر فاهيت ص 488 - 496 وكذلك :

Cherbonneau : revue orientale (octobre - 1852) p.398.

أميرا من تلقاء أنفسهم ، فتراهم نصبوا خدائع وأمكار (كذا) وقتلوا باش أغا وعلي باي ومن بعد موثهم قدموا واحد تركي من كباثرهم واتفقوا بأن يكون هو أميرهم ، وكان التركي الذي اتفقوا عليه اسمه أحمد شاوش .

أحمد شاوش القبائلي 1808 م :

فلما رجعوه واستولى على تلك الخزائن احتوى ، تراه فرق الأموال على ذلك العسكر من سكة المحبوب ، والدنانير ، ولا زال في كل يوم يبذل الأموال بالفرط مدة ولايته وهي خمسة عشر يوماً (47) فقط ، وكان تحدث في ذلك الأيام مع العساكر وطلبهم يمشون معه إلى الجزائر لأجل أن يقتل الباشا ويسكنه في رمنه فيستولي هو على مملكته . وكانوا ناس قسنطينة كتبوا جواباً إلى الباشا بالجزائر وخبروه بموت باش أغا وعلي باي ، وبكل ذلك الوقائع (كذا) فلما وصل إليه ذلك الخبر استغاض ونحير ، وأرسل جواباً مختصراً .

مضمن ذلك الجواب :

الحمد لله جوابنا هذا يتصل بيد أحبائنا وأولادنا أولهم سيدي الشيخ بن الفكون ثم العلماء ثم كبار الديوان ثم ناس البلاد ، السلام عليكم والرحمة والبركة في حالتي السكون والحركة . أما بعد فقد اتصل بطرفنا جوابكم ، وخبرتمونا فيه بموت باش أغا وعلي باي وقتلوهم أصحاب الفساد والبغي . ولكن نعلمكم ويكون متحقق عندهم (كذا) أن ذلك العساكر حين ظهر فسادهم وانعدمت نيتهم فلا خير فيهم ولا حاجة لي بهم . وإني قد أهدرت دمهم فبادروهم واقتلوهم واقطعوا أثرهم والسلام وكتب بأمر الباشا بالجزائر .

فلما وصل ذلك الجواب إلى ناس البلاد وعلموا بما فيه من الخطاب تكلموا أجمعين بلسان واحد قائلين نحن ما نرضوا ببقاء هذا العسكر لأن عقوبة الله شديدة ، ومن قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً ، فاستصعبوا الأمر في هذه الكلفة وعجزوا عن تحصيلهم من تلك الورطة فتراهم التجأوا إلى سيدي الشيخ بن الفكون وطلبوا منه التدبير والرأي المصون فأشار عليهم بالقول الواضح والرأي المصيب الناجح قائلًا لهم تعملوا كل الجهد في قتل ذلك التركي الذي هو شق العصا وجاوز الحد ، ورجع باي من تلقاء

نفسه وبأشر تضييع الخزائن بيده ، فلازم من قتله لأنه صاحب فساد وفتنة ، وهو المضرر
لنار هذه الحيرة ومن بعد أن نقتلوه نكتبوا جوابا إلى الباشا بالجزائر نستعطفوه ونطلبوه
بأن يعفوا على هذا العساكر ويسامحهم ، ويكون قتل ذلك التركي وهو أحمد شاوش
فداء لهم ، فعند ذلك بعثوا إلى كبار العساكر وأخبروهم بالجواب الذي جاء بقتلهم
وإهدار دمهم ، فتلاشت عقولهم ، ونزل الرعب فيهم من شدة الخوف كادت تزهق
أرواحهم . فأجابهم سيدي الشيخ الفكون بكلام هين لا تحزنوا فإننا لا نسلموا فيكم
ولكن نطلبوا عليكم تقتلوا أحمد شاوش ويكون في قتله حياتكم . وإن أيمن فلا تلوموا
علينا إذ لا نقدرنا على مخالفة سلطاننا . فهضوا ذلك التركي في الحين وقتلوا أحمد شاوش
في لحظة عين ، فحيثما اجتمعوا أكابر البلاد وسيدي الشيخ بن الفقون وعمال الوطن
وكتبوا جوابا إلى الباشا قائلين له نحن أولادك وفي طاعتك فنطلبوا فضلك ونلتصموا
إحسانك بأن تعفوا عن هذا العساكر وتسامحهم فإنهم ندموا على صنعهم واستدركوا
زلتهم بقتل كبيرهم فذلك هو عقوبتهم ويمكن أن ذلك الفتنة وقعت من أفراد لا من
الكل . ونحن طلبنا إحسانك ورجونا عفوك ، والسلام من المذكورين أعلاه . ولما وصل
ذلك الجواب إلى الباشا بالجزائر استحسنه وعفا على (كذا) ذلك العساكر ورجع باي
آخر في سنة ثلاثة وعشرين مائتين وألف (60) .

(60) بعد أن تم إعدام علي باي نزل أحمد الشاوش السلطة ، وحدثت في المدينة فوضى كبيرة وتعرض السكان للمصادرات والنهب
والسرقة وفر من سجن القصبة بعض الخازنة مثل مصطفى بن عاشور قائد فرجيوة ، ومحمد بن القرية قائد عزب البقر . وذهب
أحمد الشاوش إلى معسكر الجيوش برادى الرمال وتسلم منهم أموال الأغا ووزعها على الناس . وكان يحزنه على الشكل التالي :
أحمد طوبال خليفة ، عباس بن جلول باش كاتب ، الشيخ الطاهر التوريسي مفتي المالكية ، مصطفى بن باش نارزي مفتي الحنفية .
سي أحمد بن العلمي قاضي المالكية ، الشيخ فتح الله قاضي الحنفية . وهذا الأخير نفى إلى عتابة وقتل في الطريق قبل وصوله
إليها . وبعد هذا عزم أحمد الشاوش على الذهاب بنفسه إلى الجزائر العاصمة لاسترضاء الداي والحصول منه على تعيين رسمي وعين
المجلس الذي صوبه في غيابه واختار أعضاء من الأتراك المخلصين له وهم الباش آغا والخزناجي والباش شاوش ، ووكيل الخرج ،
وطلب من الرماة أن يصاحبوه إلى العاصمة ، وفي يوم السفر أعدم آغا الدائرة ، والباش حمار بن الفندوز ، وعندما وصل إلى
بئر البقيرات عسكر هناك حتى توافيه دواير : أولاد بوضلاح ، والصرافية ، والزناي ، والتلاغة ، وبني عبد النور ، والرمول ،
ليصاحبوه إلى العاصمة . وكان خليفته قد فر إلى الجزائر وأخبر الداي باستعداده ومقتل علي باي ، فحصن باب عزون ، وأمر

أحمد طبال باي 1808 - 1811 م :

واسمه أحمد طبال باي رحمه الله ، وهو تركي قديم في قسنطينة وكان أحمد باي طبال المذكور رجل عاقل سيرته مليحة ، مع أهل الوطن وله شفاعاة على الرعية وفي زمانه وقع الصلح بين الجزائر وتونس . عاش زمانا وأمر الباشا بقتله من غير سبب ، فمات سنة ستة وعشرين ومائة وألف⁽⁶¹⁾ وكانت مدة ولايته عامين ونصف .

= باي البيليك أن يتجه بقواته إلى البيان لاعتراضه إذا ما قدم وكسب رسائل إلى أعيان قسنطينة مثل أغه التوبة ، وشيخ البلد ، والعلماء ، وجنود الميليشيا المتعاونين مع أحمد الشاوش ، وطلب منهم محاربة الثائر العاصي ، وأعلن لهم تعيينه لأحمد طوبال بايا على البابلليك ، ووصلت هذه الرسائل إلى معسكر بير البقرات مساء اليوم الذي وصل فيه إليه أحمد الشاوش . وفي صباح اليوم الموالي شرع أحمد الشاوش في التحرك ، وأخذ العرب حول المعسكر يرمون نيرانهم ويحترشون بجنود الميليشيا ، فاتصلوا بهم وأكثدوا فم بأنهم مثلهم لا يشاطرون الثائر عمدته وصنيعه ، وتلقوا رسائل الداي بالعاصمة وأُقيم في طاعته . وعند ذلك اشم أحمد شاوش رائحة المؤامرة وانفق مع أصحابه على العودة إلى قسنطينة فعادوا وعسكروا في وادي الرمال بمعسكر الشتاء ، والعرب يلاحقونه من بعيد ، وعندما اقترب من المدينة وجد أبوابها مغلقة في وجهه ، فعسكر في عيمة اللاجئين . بينما ذهب الأغا تخفية إلى المدينة مع جماعة من القوم وأخبروا أحمد طوبال بالحالة الصعبة التي عليها أحمد الشاوش ، وفي الحين أرسلوا شواشا معتقلوه وأعدموه وعلقوا رأسه على باب المدينة . ولم تزد أيام حكمه على 15 يوما ودفن في مقبرة الوزناجي غرب كدية عتي . ولقبه الناس بباي راسو ، وبباي ذراعو ، وبباي رُوخو . انظر : قايسيت ص 497 - 509 .

61 (تول أمر البابلليك في ظروف صعبة جدا لأن الخزنة خاوية ، ورجال الخزن مضطربون متفرقون والحالة العسكرية مهزوزة ، والسكان مشوشون . ومع ذلك عاجل أحمد طبال الأمور بحكمة وحزم ، وقضى على زعماء الفتنة بأمر من الداي أحمد باشا ، ونظم الخزن ، وضم إليه رجالاً ذوي خبرة وعقل واعتم بالخزنة ، وجمع الأموال الضرورية واللازمة ، ووجه خليفته إلى الجزائر العاصمة لحمل الدتوش عام 1225 (17 ماي 1810) .

وفي عهده تمت مفاوضات مع باي تونس ، وتم التوصل إلى إبرام صلح بين البلدين وقبل باي تونس أن يدفع المبالغ المالية المطلوبة منه كالمعادة .

وحكم أحمد طبال البابلليك بحكمة وعقل وورائة مدة عامين ونصف ، ثم تسلط عليه اليهودي دافيد باكري . وأقنعه بأن يبيع له كميات من القمح خلالا لأوامر الداي ، حاج على فأمر بعزله وقطع رأسه ، فنفذ فيه في الحال ، وعين بدله محمد نعمان باي عام 1226 هـ (فيفري 1811 م) . انظر قايسيت : ص 509 - 511 .

محمد نعمان باي 1811 - 1814 م :

ومن بعده تولى نعمان باي رحمه الله في تلك السنة (62) واسمه محمد ، وهو تركي قديم في قسنطينة وهو رجل عاقل ، وفي زمانه العافية موجودة في الوطن ، والبلاد ، وكان باش أغا المتولي . أحكام العرب بالجزائر هو بالضد معه فما زال يسعى في هلاكه حتى قطع نخبه وجاء الأمر من عند الباشا بقتله . مات رحمه الله عليه في عام تسعة وعشرين ومائتين وألف .

(62) عام 1226 هـ الموافق لعام 1811 م . وقد كان نعمان باي هذا خليفة لعبد الله باي ، وصهر الباي زرق عينو ، سلك سياسة سلفه في البلبليك ، ووطئ الأمن وطلب من الأوحاف الإذن له بأن يضغط على تونس حتى ترضخ لدفع الضرائب المفروضة عليها . وجاءت القرصة عندما تمكن الرئيس حميدو من أسر فرقاطة تونسية عليها 38 مدفعاً ، وقادها إلى ميناء الجزائر فعجل الداي في إعلان الحرب ضد تونس ، غير أن رسولا عثمانيا حضر إلى الجزائر لإصلاح ذات البين بين البلدين ، وهدد الجزائر باعتبارها عاصمة إذا رفضت قبول الصلح . فأرسل الداي حاج علي رسولا إلى تونس ليطلب من حمودة باشا قبول دفع الضرائب كالعادة وربط صلات حسنة ، وتخريب قصر الكاف ، وجعل ارتفاع فسطاط تونس لا يزيد على النصف كما اتفق على ذلك سابقا . رفض حمودة باشا ذلك ، وأعلنت الحرب بين البلدين في شهر جويلية 1813 . وقاد الرئيس حميدو القوات البحرية ، وأغا الجزائر ونعمان باي القوات البرية إلى هناك . واغتمت حمودة باشا ثورة باي وهران المسلوح واستعان بالفرنسيين في تدعيم قواته بالأسلحة والذخائر والرجال . وتعرضت القوات الجزائرية لصعوبات عدة ، وكتب الباي نعمان الباشا بالجزائر وأبلغه ذلك وجرث محاولات للصلح لم تنجح ، وعندئذ هاجم الجزائريون مدينة الكاف وانهمزوا ، ومات لهم رجال كثيرون والنسحوا ، وعاقب الأغا عدداً من الشيوخ العرب بتهمة توادعهم مع حمودة باشا ، وقتل حوالي 260 شخصاً ، وفي 15 شوال 1227 هـ (16 ماي 1812) أرسل نعمان باي إلى الداي عمر هدايا ثينة تمثل في 200 محبوب ذهبي ، و 125 بوجو ، وبرلوسين ، وحائكين بسكريين ، وحمولتين قمرا ، وحمولتين كسكسي ، وقتنين زيتونا ، و 15 غروفا ، وبغلاً ، وطريزة من الشواشي وفارورة غار سائل (نفض) فرحب بها الداي وأجابه برسالة شكر . وكانت هناك حزازات بين نعمان باي وباش أغة الجزائر ، عمر أغة ، عضو الديوان الذي شاركه في الحملة العسكرية على تونس ، وأثر الباش أغة على الداي فقرر عزل نعمان باي وتعيينه بمحمد شاكر . واستعمل الحملة حتى لا يقوم بمرد ضده ، واستدعاه للمشاركة بقواته في مقاومة ثورة سكان بوسعادة وأولاد ماضي عام 1229 هـ (جانفي 1814) الذين هاجموا أولاد سلامة ، والعداورة ، وأصبحوا يهددون بالبلبك التيطري . وعندما وصل نعمان باي إلى مكان الحوادث تم الاتفاق على مهاجمة العصاة في ثلاثة محاور : أولاد ماضي ، وأولاد سيدي إبراهيم في الديس شمال بوسعادة ، ونظرا لكثرة الرياح والثلوج اضطرت القوات أن تتجمع في المسيلة شمالاً ، وهناك وجد نعمان باي نفسه في إحدى الصعبيات محاصرا في تيمته ، وقبض عليه الشواش وأعدموه حتفا في الحال بأمر من عمر أغة . ولم يسمحوا له حتى بالاستفسار . وذلك عام 1814 ، ودفن في قبّة سيدي بوجملين بالمسيلة ، وقبض على خليفته مصطفى عوجة ولكنه لم يعدم . انظر فايسيت ص 512 - 518 وكذلك :

محمد شاکر باي 1814 - 1818 م

ومن بعده تولى جاقر باي رحمه الله في تلك السنة (63) واسمه محمد وهو تركي قديم في قسنطينة وسبب توليته باي أنه كانت محبة ومصادقة بينه باش أغا المتولى أمور العرب بوطن الجزائر فتسبب في ترجيعه ، وكانوا الترك في سابق زمانهم مايرجعون واحد لوظيفة الباي إلا الذي يكون معروفا بالشجاعة وله خصال كثيرة في الحرب والبراعة ، لكن من زمان صالح باي وما بعده وقع الصف . فالذي يكون له صاحب متوصل عند الباشا يسعى لصاحبه حتى يرجعه لأجل المعاملة والمودة .

ويرجع الكلام إلى جاقر باي فهو رجل صاحب بطش غالب عليه صلابة المعجم فيسلك الدعاء في الحق والباطل ، يأخذ أرزاق الناس بالغزو ، ولا يبالي بمن هو طائع أو عاصي . وفي زمانه اشتهروا الترك بالظلم وجاروا إلا أن يده مطلوقة في الصدقات ويكرم الناس بالمعاملات والأصل في ذلك من أرزاق المخلوقات . وفي هذا المعنى قول الناس الفضلاء ، رجل سرق وتصدق ياليت له لم يسرق ولم يتصدق .

وفي هذا الوقت كان الباشا بالجزائر اتفق هو ووزرائه (كذا) على سكتهم عشروها ونقصوا ربع من كل ريال لتكون لهم الزيادة في المال . وفي ذلك تكلموا الأولياء وأهل الفضل الأتقياء قائلين في الزمان السابق لا بد من الترك . يتملكون بوطن العرب ويتوغلون فيه ، وحين ينقضوا من سكتهم ينعدم نتيجتهم وينخرب ملكهم ، فكان الأمر كما تكلموا إلهاما من الله تعالى لأوليائه وكرامة لهم منه سبحانه وتعالى ، وإلا فالغيب لا

63 (1229 هـ الموافق مارس 1814 . أصله من أزمير وأبوه اسمه عبد الله . اشترك في الحملة مع نعمان باي إلى بوسعادة وأولاد ماضى ، ألبس قفطان التولية في المسيلة ، وتولى عدة مناصب قبل ذلك واحتفل به هناك ثلاثة أيام ثم التحق بقسنطينة بعد أن سبقه إليها رسائل تعيينه بها . وكتب إلى يوسف قائد الدار ليحتفل بأمران نعمان باي وهم : الكاتب أحمد السابع ، وأخوه الطيب قائد عزب البئر ، وأخوهما الثالث عيسى ، وكل أفراد عائلتهم ومصادرة أملاكهم العقارية ووضع حراسة على قصر الباي ، ومنزل مصطفى خوجة ، وقد مر في طريقه إلى قسنطينة على بير سويت ، وحمامة قصر الطير ، واستقبل ببرودة من السكان لأن له سوابق غير مرضية ، وحال وصوله أمر بقتل بن هني رئيس اصطبلات الباي ، وذلك برمية من أعلى البرج إلى الساحة . وفعل الشيء نفسه بتائب أغا الزواوة بن عرووز ورعى من أعلى باب الواد إلى الحامية بعد 16 يوما من الحادث الأول ، وبعد أن استقر في دار الباي كون منزله على الشكل التالي : عثمان خوجة خليفة ، يوسف قائد الدار ، الطاهر بن عون أغا الدائرة ، معمر بن الأحروش

— باش سراج ، محمد بن الساسي باش كاتب ، سليمان بن دالي قائد الزمالة ، أحمد بن زكري باش سيار ، وبعد ذلك شرع في ممارسة الغزو ضد العصاة والمتمردين حتى بلغت غزواته وخرجاته أكثر من 100 غزوة خلال حكمه الذي دام أربع سنوات . وكان عمره عندما تولى البايليك ستين عاما ، واشتهر بسفكة للدماء كما ذكر العنترى لدرجة أنه لا يرتاح قبل أن يقتل ما بين 15 إلى 20 شخصا في اليوم . وهذا بسبب عمله في فرقة المليشيا سنوات طويلة ، أول من غزاهم أولاد بورنان وأولاد مقران بمجانة خلال فصل الشتاء فمر ببر البقرات على طريق سطيف ، ثم ذراع الطوبال ، وكارب ، والمجاز ، وسطيف ، وعين تاغروط وفي الطريق أعدم عددا لا بأس به من الرجال ، وحاول أن يقتل بأولاد مقران فراسلهم وأكد لهم بأنه خرج في عمل تفشي عادي ، واغتر الذواودة بكلامه فحضر إليه 12 رجلا منهم وقبض عليهم وأعدمهم في الحين ماعدا واحد يسمى للمورقانيين تمكن من الإفلات على فرسه ، وأرسل رؤوس القتلى إلى قسنطينة لتعلق للإرهاب ولم يحصل على طائل في غزوته هذه وعاد صفر اليدين ماعدا البهضاء وعداء السكان له .

وكان له ابن اسمه محمد عيه قائد العواسي وهم أهم منصب في المراكمة ، وجند حوله عددا من الأتراك الرعاغ ليدعموه ، وتعاون معه المدعو العقرون من أهالي القنينة الذي سيصبح فيما بعد باش خزناجي .

في ماي 1816 طلب الداي عمر من الباي شاكرا أن يحتفل كل الإنجليز المقيمين في مركزهم التجاري بعناية بعد أن تأكد بأن اللورد إيكسموث سيحاجم الجزائر فنفذ الباي شاكرا الأمر وقتل وجرح البعض منهم ، واعتقل حوالي 800 شخص وخرب مركزهم التجاري ، وكان ذلك سببا وحافزا لا يكسموث في أن يقدف مدينة الجزائر ويهدم جزءا من منازلها في السنة نفسها . وبعد ذلك قام شاكرا باي بقتل أحمد بن الحنلاوي قائد الجابري الغربية ، وعدد آخر من الخدمة والأعوان ، والفائدة عمار ، والباش كاتب محمد المكي بن الساسي ، والقاضي ، الحنفي الشيخ محمد العشي ، ومصطفى بن عاشور قائد فرجيوة ، وهذا مما يؤكد تعاطفه لسفك الدماء .

وفي آخر سنواته غزا شاكرا باي الحمامة ، وهاجم مجموعهم في فج طراد ، ولم يحصل على طائل وانقلب على أولاد سيدي عبيد ، واستول على قطعانهم الحيوانية ، وساقها أمامه ولكن الرياح والثلوج ضيعتها عليه ، وتفرقت عنه ، ولاحقه أصحابها وضابطوه فاضطر إلى إعادة ما تبقى لديه إليهم كما اضطر إلى إعادة بناء فية جدهم وشيوخهم قبل أن يعود إلى قسنطينة ، لأنه شعر على ما يبدو بالذنب والحرج ووجد الضمير .

وفي شهر فيفري 1817 غزا شاكرا باي أولاد دراج ، وعسكر بقواته في ذراع القيور بين تافة والزانة ، وبلغه الخبر بأن أولاد دراج نقلوا عيائهم وقطعانهم إلى التكواك فلاحقهم ليلا ، وفاجأهم ، ولكن الحمامة كانوا أكثر استعدادا منه ، فهاجموه هجمة قوية ، وقتلوا كثيرا من قواته ، وأسروا الباقي ، ومن بينهم : محمد بن الزموري وحامد بن عون شقيق الأغا ، والحفصي بن عون ، ولم يكتفوا بهذا فأنهبوا إلى مسكر شاكرا باي ، وأخذوا بقتلونه بالأحجار ويرمونه حتى بالبارود ، حتى اضطر إلى التفاهم معهم على أساس مغادرته للبلاد دون شرط أوقيد ، وإطلاق سراح الأسرى من الطرفين هو وهم ، وبذلك عاد شاكرا باي إلى قسنطينة دون نتيجة ماعدا عداء السكان له كذلك .

وفي يوم 8 أكتوبر 1817 قام رجال المليشيا في الجزائر بقتل الداي عمر باشا الذي أوصى شاكرا باي إلى حكم البايليك ، وعرضوه بعل عوجة الذي اتبع سياسة تخافة له ، ولذلك طلب من شاكرا باي أن يقتل خليفته ويعرضه بياكير عوجة .

انظر فاهيت : المصدر نفسه (1869) ص 518 - 546 .

يعلمه إلا الله تعالى ثم يرجع الكلام إلا جافر باي أنه تبقى زمانا على سيرته الأولى جاء الوقت فمات الباشا بالجزائر هجم عليه العسكر فقتلوه ورجعوا باشا آخر اسمه حسن باشا⁽⁶⁴⁾ وكان من طبعه يكره الترك من أجل قبيح صنعهم ، ومن بعد أيام قلائل شرع في قتلهم ولا يبالي بالكبار والصغار ، ولوطال لفناهم وخلي منهم الديار ، وكان حسن باشا المذكور وهو الذي شهّر القصبة بالجزائر وجدد بنيانها ، ورفع كل الخزائن إليها . وصارت أحكامه تخرج منها . هذا الوقت كتب حسن باشا المذكور جوابا إلى جافر باي قائلا له يلزمك تقتل كبار الترك الذي في بلاد قسنطينة عن آخرهم ولا تبقهم واقطع آثارهم ، والسلام ، فلما وصل إلى جافر باي هذا الجواب تحير وتقلق وضعف عليه الخروج من هذا الباب ، وخاف على نفسه أن يكون الختام به اش يعمل ، من بعد ما ختم تراه بعث إلى كبار الترك كلهم وأخبرهم بالأمر الذي جاء في قتلهم فاقشعرت جلودهم وطاشت عقولهم ، ثم تكلم معهم جافر باي قائلا لهم اسمعوا كلامي فإني منصح إليكم ولنفسي هذا الباشا يريد فناء الترك عن آخرهم وأنا وأنتم محسوبون منهم . فانظروا في الحيلة التي نخلصنا من هذه الورطة ودبروا في الدواء الذي نعالجوا به هاته القصة فأجابوه ذلك الترك بلسان طليق وقول من قلب صديق نحن بين يديك طائعين ولأمرك متبعين .

فحينئذ جمع العلماء وسيدى الجد الشيخ بن الفكون ، وأكابر البلاد ، فلما استقر المجلس بهم تكلم جافر باي معهم قائلا لهم : يا علماء الفضل والإرشاد ، ويا أهل البلاد ، إن هذا الباشا عازم على فناء الترك وفطام آثارهم ، ويريد العرب من بعدهم ، وإننا ما نرضى بهذا الحكم يجرين علينا ولا عليكم لأنني نشأت بينكم وصرت كواحد منكم فأجابوا كل الحاضرين (كذا) نحن لطاعتك متقادون ولكلامك موافقون ففرح جافر باي بكلامهم واطمأنت نفسه لجانبهم قائلا حيث وقع بيننا الاتفاق فلا حرج علينا ولا شقاق ، ولكن نحصنوا بلادنا وإن جاءنا ظلم من قبل ذلك الباشا ندفعوه على أنفسنا ،

(64) الباشا المقتول هو الداي عمر باشا (1814 — 1818) والداي المايح هو حسين آخر دايات الجزائر الذي ضيع الجزائر في أيدي الفرنسيين .

إلا سيدي الشيخ المذكور لن يوافقهم ولم يرض بصنعهم قاتلاً : لا تفتروا بهذا الكلام ولا تأمنوا لما تظهروه الأيام . لو أن الجزائر انعدمت ودولة انقطعت لكان في ذلك كلام وتدير . واليوم الجزائر لا زالت موجودة وأحكام الباشا المذكور جارية منفردة في كل البلدان ، وتدير . واليوم الجزائر لازالت موجودة وأحكام الباشا المذكور بيده زوج جوابات إحداهما إلى دوان النوبة بمسكون جافر باي ، ويقتلونه ، والجواب الآخر إلى ناس قسنطينة ومضمونه باختصار :

الحمد لله جوابنا يصل بيد ناس قسنطينة من العرب خاصة أما بعد فقد سمعنا بذلك الأمر الذي هو جافر باي يصنع ففة وتحقق عندنا الكلام الذي غرّم به ، فاعلموا يا أولادنا أنا ما عندي بغض في جانبكم ، ولا قصدي بالشر إليكم ، وإنما قصدي في الترك نقتل منهم أولاد الحرام ، ونقطع الزنادقة اللثام ، وحتى يستقيم حالهم ، وإلا نقتلهم عن آخرهم . وأما أنتم يا أولادنا العرب إن كنتم في طاعتنا فما عليكم إلا الأمان والإحسان منا ، وإن كنتم في طاعة جافر باي ختموا في عقولكم ، وانظروا فيما يليق بكم والسلام . كتب بأمر الدولة باي الباشا بالجزائر .

وجواب آخر إلى سيد الشيخ بن الفقون يستكثر من خيره ويتعجب من سياسته وحسن صنيعه ونصحه ، فترى الناس من بعد قراءة الجوابين انفكوا عنه وسلموا أيديهم منه وما بقي جافر إلا وحده فحينئذ تقدم الديوان إليه ومسكه وفي الحين مات مخنوقاً في سنة ثلاثة وثلاثين ومائتين وألف⁽⁶⁵⁾ .

(65) في أواخر أيامه أصبح شاكراً باي يشعر بالذنب ، وبأنه لم مما ارتكبه من الجرائم وذات يوم حضر إليه أحد الأتراك وقال له بأن قارة مصطفى أغا المسيلة قد عين باباً على قسنطينة ، وبعد ذلك ذهب إلى قارة مصطفى الذي كان موجوداً بقسنطينة آنذاك وأخبره بأن شاكراً باي يستعد لقتله . ففر في الحين وغادر قسنطينة إلى زاوية مولاي الشقفة بأحواز جيجل . ومن هناك أخذ مركباً واتجه إلى مدينة الجزائر بمرأته أن يلتحق في الحال بقسنطينة ويقضي على شاكراً باي ويثول مكانه . وعندما علم شاكراً بالحبر جمع إلى دار الإمارة كل رجال القزون ، وأغلق الباب عليهم جميعاً ليربط مصيرهم بمصيره . وكلف ابنه محمد بن شاكراً بأن يقود قواته إلى بير البقيرات ليحترق قارة مصطفى ويقتله أو يعتقله ويحضره إليه حياً . ولكن هذا الإجراء لم ينفذ لأن قارة مصطفى تمكن من الدخول إلى قسنطينة دون صعوبة فاستجار شاكراً باي بالشيخ الفقون فأجاره ، غير أن قارة مصطفى انتزعه منه انتزاعاً وقتله ، ودفن في قبعة سيدي عبد القادر قرب مقبرة سيدي مسعود الساج . انظر فلهيت ، نفس المصدر ص 540 - 546 وكذلك مذكرات نقيب الأشراف ، ص 117 - 140 .

قارة مصطفى باي (جانفي 1818 م) :

ومن بعده تولى قارة مصطفى باي رحمه الله وهو تركي قديم في قسنطينة مكث ثلاثين يوما في ولايته فقط ثم جاء الأمر من عند الباشا المذكور بقتله فمات (66).

أحمد باي المملوك (فيفري 1818 م)

ومن بعده تولى المملوك باي رحمه الله اسمه أحمد باي ، ولم يكن واحدا (كذا) من الماليك تولى باي في زمن الترك إلا هذا المذكور لأن حسن باشا قصد بولايته نقمة في الترك لكونه من غير جنسهم . ومن بعد ذلك حكم الله على حسن باشا المذكور مات بالطاعون ، وتولى حسين باشا رحمه الله الذي هو موجود حين دخول الفرانصيص في الجزائر . ومن بعد أيام قلائل جاء الأمر من عند الباشا الجديد بعزل المملوك وأمره ينتقل إلى الجزائر وعفى (كذا) عنه من الموت ، وكانت مدة ولايته ستة أشهر (67) .

66 (لم يبق هذا الباي بأي عمل ، ولم يدم في الحكم سوى شهر واحد أوائل عام 1818 م ، قرب إليه اليهود والنساء ، وجمعهم في قصره وأخذ يعاطي معهم شرب الخمر ، والدعارة تاركاً أوضاع البابليك للإعمال ، اقتصر من رجل من بني عامر استقدمه إليه وقتله ، واعتقل أبناء ابن العطار وقتلهم كذلك ، وهم أعضاء ديوان الأوجاق أو الخزن .

ونظرا لهذه الحالة المتدهورة أرسل الباشا بالعاصمة صهره محمد بن مالك والباش أغا وحققا في الحالة المالية بعد موت شاكرك باي ، ووجدوا الخزينة فارغة ، واكتشف أن ابن شاكرك باي محمد سرق أكياس المالية بالخزينة وعددها اثنا عشر كيسا ، وأعطاهما ففتشا عليها حتى اكتشفاها ، واستعاداهما ، واعتقلا محمد بن شاكرك وأعدماه وتأكدوا أن قارة مصطفى ليس أهلا لتسيير البابليك ، فأرسلوا رسولا إلى الداي على خوجة أحاطه علما بالأمر ، فأمر بعزله وإعدامه ، وعين مكانه مملوكا من أصل إيطالي أسلم وحسن إسلامه يدعى أحمد . انظر : فاهيست . ص 547 - 549 .

67 (نصبه بمعونة الباشا السابقان ، وبقي معه شهرا كاملا حتى نظم أموره ، ثم قفلا راجعين إلى الجزائر ، ومعهما أكياس من النقود ، وسبع نساء ، يهوديات كهنية للداي على خوجة ، وكان أحمد المملوك متقفا ، حيويا ، عادلا ، ألف مخزنه على الشكل المثالي : الحاج أحمد بن محمد الشريف خليفة ، بوزيان بن العلي أغا الدائرة ، عبد الله بن زكري باش سيار ، مصطفى بن الأبيض قائد الدار ، الحاج عبد الرحمن بن نعمون باش كاتب ، وطلب من الجميع أن يقوموا بواجباتهم لصالح البابليك العام .

وفي بداية عهده مات الداي على خوجة بالطاعون يوم 1 ماي 1818 م ، وخلفه الداي حسين آخر دايات الجزائر . فكتب إلى الحاج أحمد خليفة ، وطلب منه أن يتخلل عن منصبه لصالح بن زكري ، ويذهب هو إلى البلاد المقدسة لحمل أموال الحرمين الشريفين فسافر من عنابة بصحبة عبد الرحمن بن نعمون ، والشيخ محمد بن بوديرهم . اتبع أحمد المملوك سياسة سلفه قارة مصطفى قتل محمد بن بورقة ، وإبراهيم بن التواقي ، ومي . عبد بو القرية وآخرين ، وأحدث تغييرات في مخزنه فعين عمار بن عون أغا الدائرة ، والعربي بن العلي سراج ، وعلي المملوك قائد عزب الجمال ، والخيوي قائد التلاخمة ، وسليمان قائد عبد النور ، ومصطفى بن كوشوك على باش كاتب ، والحاج عبد الكريم المملوك قائد الدار :

وفي فصل الصيف خرج لغزو بني عامر ، غير أنه فوجيء برسول من الباشا بالعاصمة يحملون رسالة إلى الأغا قائد الحملة بطلب منه فيها أن يعتقله ، فأوقفه وسلمه لأوثك الرسل فادووه إلى الجزائر العاصمة ، ومن هناك تفادى الداي إلى مازونة ولم يدم حكمه سوى ستة أشهر ، ولكنه سيعود إلى حكم البابليك مرة أخرى . انظر فاهيست . ص 549 - 551 .

محمد باي الميلي 1818 - 1819 م :

ومن بعده تولى الميلي باي رحمه الله في أواخر سنة ثلاثة وثلاثين ومائتين وألف⁽⁶⁸⁾ واسمه محمد باي ، تركي قديم في قسنطينة ، وهو رجل قليل العقل يظلم الناس ويأخذ أرزاقهم بالباطل ، وكان مشى إلى وطن الصحراء فصدر منه الظلم والجور على ناس ذلك الوطن ، فرفعوا شكاياتهم إلى الباشا بالجزائر فحينئذ عزله بهذا السبب ولم يقتله وأمر ينتقل إلى شرشار⁽⁶⁹⁾ قرية بغرب الجزائر ، وكان وقت عزله سنة أربعة وثلاثين ومائتين وألف⁽⁷⁰⁾ .

إبراهيم باي الغربي 1819 - 1820 م :

ومن بعده تولى إبراهيم باي رحمه الله في السنة المذكورة⁽⁷¹⁾ وهو تركي من وهران

68 (هجيرة الموافق لنهاية عام 1818 م وكان محمد باي الميلي هذا قد عين قائد العواسي في الحراكمة ولكنه قبل أن يلتحق بمنصبه هذا عين باي على قسنطينة وهو عشن جاهل ، سىء الإدارة والتنظيم لا يفهم إلا منطق القوة ، وبالع في ابتزاز أموال التجار خاصة اليهود ، الذين يقدم بأسعار خاصة محددة ، وأرغسهم على تغيير قيمة العملة أكثر من مرة ولا يفتح أبدا بما يقدمونه له من الأموال . وألف عزته على الشكل التالي : الحاج أحمد بن الشريف خليفة ويوسف قائد الدار ، ومعمر بن الأحرش أغه الدائرة ، ونصه الله شفيق الداي قائد العواسي ، وسي بلقاسم بن المرحول باش سراج ، وسي محمد بن الزولوي بن جلول باش كاتب . وسي علي بن مرقي باش سيار . وفي نهاية فصل الصيف قام بغزوة ضد سكان أو غلال إحدى قرى منطقة الزاب ، بسبب ثرودهم تحت زعامة ذباح بن بوعكاز . ولكنه فشل في هجومه الأول عليهم وقتل له أغا الدائرة مصر بن الأحرش . وجدد هجومه عليهم مرة ثانية وصادر أموالهم ، وانته بعد ذلك إلى طوافة وقطع الكثير من أشجار الخيل عقابا للسكان . وبعد ذلك عاد إلى قسنطينة وقام بإعدام عدد من الناس ومنهم : مرجان قائد الزربية وهو عبد أسود كان يقوم بوظيفة حماية نساء قصر الداي ، وسي الطاهر الزموري نائب قائد الدار ، والباش سيار ، وسليمان بن دالي ، وأغا الدائرة ، وقائد الزمالة وعدد آخر من العرب ، وفي ربيع عام 1819 ذهب إلى الجزائر العاصمة حاملا الدنوش وبعد ثمانية أيام من إقامته غادر العاصمة عائلا إلى قسنطينة ، فأرسل الداي حسين شواشا من ورائه اعتقاله واقتادوه إلى مليانة ، وقيل شرشال ، وبقي بها حتى توفي الحاج أحمد باي منصب الباهليك ثم عاد إلى قسنطينة وبقي بها حتى سقطت في أيدي الفرنسيين عام 1837 . فالتحق بولاية أو ضريح سيدي عبد القادر الجيلال وأصبح وكيلا لها ومقدما . انظر فاهيست . المصدر نفسه (1869) ص 551 - 554 .

(69) اسمها شرشال باللام في الأخير ليس بالراء . وقد يكون التاسخ هو الذي أعطى .

(70) هجيرة الموافق لعام 1819 .

(71) عام 1234 هـ الموافق لعام 1919 وكان في الأصل بابا علي باهليك التيطري في مدينة المدية وصادف وجوده بمدينة الجزائر =

رجل عاقل لا يبدى شيئا ولا يهيه ولا يرم حكما ولا يمضيه ، وكان حاج أحمد خليفة عنده وكل التصريفات بيده أعني حاج أحمد . فبعد أيام من ذلك دخلوا الشياطين بينهم وانعكس أمرهم وصار في ضد بعضهم . فلما بلغ إلى الباشا بالجزائر استقبح صنيعهم وأمر بعزل الخليفة ، فانعزل من وظيفته والحال أنه خاف على نفسه فهرب إلى الجزائر طالب الأمان من الباشا وباقي (كذا) هناك إلى الوقت الذي تولى فيه باي . وأما إبراهيم باي المذكور فإنه زاد من بعد عزل الخليفة زمانا ثم جاء الأمر من عند الباشا بقتله فمات رحمة الله عليه في سنة خمس وثلاثين ومائتين ألف (72) .

أحمد باي المملوك مرة ثانية 1820 - 1822 م :

ومن بعده تولى المملوك باي رحمه الله في السنة المذكورة (73) وهو أحمد باي المتقدم

« عندما حضر الباشا ، الباي محمد الميلي بوشطانية ، بالدنوش . فعينه الداي حسين بايا على قسنطينة خليفة حتى لا يطلع الباي الميلي على ذلك . وبعد أن تم اعتقال الباي الميلي ظهر والتحق بالقافلة التي كان يقودها الميلي ، وذهب على رأسها إلى قسنطينة وصحب معه حوالي 60 خيمة من الرجال ، وجمع في الطريق ضرائب الصيف مما سبب تأخره في الوصول حوالي شهرين ، وعندما وصل استقبله الناس بفرح ومحاسن . وعين أحمد أقربائه قائد العواسي على الباور ، وسليمان بيع المملوك قائد الدار ، وأبقى الباقي في مناصبهم وكان عادلا حازما حليما في موطن الحلم ، شديدا في غيره ، اهتم بالإدارة وسيرها . وعندما اختلف مع خليفته الحاج أحمد باي طلب من الداي أن يعزله فعزله ، وعرضه بمحمود بن شاكرك باي .

وكانت أوضاع إبراهيم باي الغربي في البداية حسنة ، ثم تعرض لمشاكل ، وعجز عن توفير الأموال اللازمة للدنوش ، بسبب تلاعب خليفته محمود بن شاكرك باي ، الذي قاد قافلة الدنوش وزعم للداي عند وصوله بأن الخزينة فارغة ، وكتبه الداي وطلب منه إكمال المبلغ المطلوب منه فعجز ، وظهر ضده خصوم بمجلس ديوان الأوجاق وأثروا على الداي حسين فقام بعزله وعرضه بأحمد باي المملوك للمرة الثانية الذي كان منفيا بمدينة مازونة ، وقد تم عزله عام 1820 م واقيد إلى سجن القصبة في قسنطينة في انتظار مصيره . انظر فايست ص 554 - 557 .

(72) هجرة الموافق لعام 1820 م .

(73) 1235 هـ الموافق لعام 1820 ، عندما وصل إلى قسنطينة نصب خيمة لفصلاة قرب كدية عتي وانجه إليه هناك كبار البلد وهتفوا على تعيينه من جديد بايا على قسنطينة وقرأ عليهم فرمان التولية ، ثم دخل إلى دار الإمارة وأمر بإعدام الباي السابق إبراهيم الغربي ، وسجن كل من لم يهتبه من رجال القزن مثل : باربار علي قائد العواسي ، وصهره أحمد بن نوة وآخرين ثم نقاهم إلى المدينة ، وعزل محمود بن شاكرك ، وعرضه بأمين خوجة ، وألف محزنه الجديد على الشكل التالي : أحمد بن الحسلاوي أغا الدائرة ، وأمين خوجة خليفة ، وعبد الله بن زكري باش سيار ، وعلي بن الحاج رابع سراج ، والحاج عبد الرحمن بن نعمون باش كاتب ، ومصطفى الأبيض قائد الدار ، وإبراهيم الفريتي قائد العواسي ، وفرحات بن سحنون قائد الرمال ، وقام بعدة غزوات إلى الأوراس ، وواد سوف ، ونفرت ، وأدب العصاة ، وأعدم الكثير من الأعوان . وبعد عامين حمل الدنوش وانجه إلى الجزائر فعزله الداي ونفاه إلى مازونة حسب فايست وإلى مليانة حسب العتري . انظر فايست ص 557 - 569 .

ذكره ولم يكن واحداً من الترك تولى مرتين باي في قسنطينة إلا المملوك المذكور ، والسبب في ذلك أن باش أغا المتولى أمور العرب بالجزائر وهو صاحبه وحبيبه باي (كذا) يسعى له عند الباشا حتى رجع مرة ثانية ، وكان أحمد باي المملوك سيرته مليحة وسياسته حميدة مع أهل الوطن وناس البلاد وأحكامه بالعدل والسداد . ومتولع بركوب الخيل ، والاصطياد وأما السبب في انقضاء ولايته أنه عزم على المشي إلى وطن الصحراء لاكتساب منفعة فاستأذن من الباشا بالجزائر في ذلك فلم يأذنه بل نهاه عن المشي هنالك ، وكان من عادة البايات لا يمشون إلى الصحراء إلا بمشورة وإذن من عند الباشوات . فتراه يخالف الأمر ومشى إلى الصحراء داس أرضها واكتسب المال الكثير من وطنها . فلما رجع من سفره وافاه زمان دنوشة فحين وصل إلى الجزائر ، عاقبه الباشا وعزله ، وعفى عن قتله ، وأمره ينتقل إلى مليانه قرية في وطن الجزائر ، وكان عزله سنة ألف ومائتين وسبعة وثلاثين (74) .

إبراهيم باي الكريتلي 1811 - 1824 م :

ومن بعده تولى إبراهيم باي رحمه الله في السنة المذكورة (75) ويسمى نسيب بن قارة علي وهو تركي قديم في قسنطينة رجل عاقل ما فعل الشر في زمان ولايته قط ، له

(74) هجرة الموافق لعام 1822 م .

(75) عندما عين بايا على قسنطينة كان موجودا في بلاد القبائل ، وهو قائد سابق للحراكمة فالتحق بالعاصمة ونسلم من الداي ققطان التولية ، والتحق بالقافلة المتجهة إلى قسنطينة وزار في الطريق كل جهات البايليك لإبلاغ الناس بآية تعيينه بايا ، وتفقده الأحوال . وعندما وصل إلى قسنطينة ألف نفره على الشكل التالي :

الحاج حسين خليفة ، ومن زمان بن العلمي أغا الدائرة ، وسي محمد الزواوي بن جلول باش كاتب ، وسي إبراهيم بن قارة علي صهر الباي قائد الدار . وأحمد بن الحملاوي قائد الزمالة ، وحمو بن معطي سراج ، وإسماعيل ابنه قائد العوراسي تحت رعاية الشيخ أحمد المعالي . غزا الحمامة والمعامرة وبنى وجانة ، وعاقبهم على التمرد ورفض دفع الضرائب ، بقي على حكم البايليك عامين ونصفا ، ثم عزل ونفي إلى المدية حتى تولى الحاج أحمد باي منصب البايليك فعاد إلى قسنطينة وتولى منصب الخليفة له مدة من الزمن ، وقد خلفه في منصبه محمد منامان أنظر فاهيسيت . ص 569 - 578 .

حنانة وشفافة على الرعية أحكامه بين الناس بالعدل مستوية . وكانت مدة ولايته عامين ونصف ثم جاء الأمر من عند الباشا بعزله وعدم قتله ، وأمره ينتقل إلى المدينة قرية بقرب الجزائر وكان زمان عزله سنة ألف ومائتين وأربعين⁽⁷⁶⁾ .

محمد باي مناماني 1824-1826 م :

ومن بعده تولى مناماني باي رحمه الله في السنة المذكورة⁽⁷⁷⁾ اسمه محمد باي وهو تركي قديم في قسنطينة وتولى كثير الوظائف في قسنطينة لكن حين ترجع باي صار لا يفهم ولا يعقل كالجماد ، واشتهر ظلم الترك ، وصاروا يقتلون الناس في داخل البلاد ، وانحلت الأحكام وتصعب الوطن وضعفت الرعية ووقع الصف بين المخازنية وعظمت بينهم الفتنة فعجز أن يفصل بينهم بشيء ، وآل أمرهم إلى أن فروا إلى الجزائر شاكين (كذا) إلى الباشا هذا الوقت عزله الباشا المذكور وأمره ينتقل إلى القليعة دشرة قرب الجزائر ، وكان زمان عزله سنة ألف ومائتين وواحد وأربعين⁽⁷⁸⁾ ومن بعده تولى حاج أحمد .

(76) هجرة الموافق لعام 1824 م .

(77) عام 1240 هـ الموافق لعام 1824 تولى أمر البايليك وهو عجوز هرم قليل القوة ، ضعيف الذكاء وكان قد تولى قبل ذلك وظائف : قائد جلب الغنم ، وقائد الشعر ، والخليفة ، لا يحسن العربية ولا يتحدثها إلا بصعوبة رغم كونه عاش بقسنطينة سنوات طويلة ولم يظهر أية حيوية أو جدارة في إدارة البايليك ، ألف عزله على الشكل التالي : بكر عوجة خليفة ، ومصطفى بن الأبيض قائد الدار ، وعبد الله بن زكري باش سراج ، والسماري باش مكحاجي ، وبوزيان بن العلمي آغا الدائرة ، وحاج عبد الرحمن بن نعمون باش كاتب ، ومحمد صدراي شوش ، ومحمود بن شاكر قائد العواسي . قام بخرجة واحدة إلى صدراته الشراقة بين قالة ، وسوق أعراس وأوقف أحمد بن الحملاني ، وأعدم بن عمر أحد قادة الحملة . ثم عاد إلى قسنطينة ، وأرسل عدة حملات إلى أولاد نايل في واد اللحم صادرت أربعين ألف رأس غنم .

وفي أيامه الأخيرة سادت الفوضى وعمت الاضطرابات في قسنطينة وانعدم الأمن وكثر اللصوص وعجز عن توفير أموال الدفوف المطلوبة منه ، وحصل خلاف بينه وبين خليفته فاستدعى إلى العاصمة وحمل معه أموالا زهيدة ، والتزم بدفع الباقي حال عودته . وخلال رجوعه إلى قسنطينة أرسل الداي حسين شواشا اعتقالوه في حمزة (برج البويرة) واقتاده إلى القليعة في أحواز العاصمة نتيجة ، ووضع في إقامة جبرية حتى احتل الفرنسيون الجزائر العاصمة . وعاش بعد ذلك سنوات أخرى حتى توفي . بقي علما وثمانية أشهر من ديسمبر 1824 إلى جويلية 1826 م . انظر فاييت . المصدر نفسه (1869) ص 578 - 586 .

(78) هجرة الموافق لعام 1826 .

الحاج أحمد باي بن محمد الشريف 1826 - 1837 م :

في سنة ألف ومائتين وواحد وأربعين⁽⁷⁹⁾ ولما توقع الفساد في الوطن وانحلت الأحكام في زمان منافي باي واشتهر ظلم الترك كان حسن باشا في هذا الوقت ختم في عقله وظهر له في تدبيره أنه رَجَعَ حاج أحمد باي في قسنطينة ومن بعد ترجيعه عين له باش أغا المتولي أمور العرب بالجزائر وخرجوا معا بجوسون الوطن وينظرون في شأنه وأش هو السبب في تخليطه وفساده فتراهم خرجوا من الجزائر بالأحمال ونزلوا في وطن يتسمى عقبة عمّال . ثم رحلوا من هناك ونزلوا في وطن يتسمى ونوغه هو أول ابتداء وطن قسنطينة أقاموا فيه أيام (كذا) عملوا نظرهم فيما يخصه وأخذوا مطالب البايليك . ثم رحلوا من هناك نزلوا في وطن زمورة عملوا بنظرهم فيما يخصه وخلصوا مطالب البايليك . ثم رحلوا ونزلوا قصر الطير ويتسمى بوطن ريفّة أقاموا فيه أيام عملوا نظرهم يخصه وخلصوا مطالب البايليك . ثم رحلوا من هناك ونزلوا في وطن اصطيف وهو وطن عامر عملوا نظرهم فيما يخصه وأخذوا مطالب البايليك ، ثم رحلوا إلى جبل أولاد سلطان متوسط بين وطن قسنطينة ووطن الصحراء وهو جبل كثير الشعاب وناسه صعاب ، فنزلوا عليه بالفتن وأخذوا من عند ناسه شيء قليل على وجه الصلح .

وأما سبب تسميتهم بأولاد سلطان قيل بأنه زوج نساء أختين واحدة اسمها فاطمة والأخرى اسمها سلطانة وكانت فاطمة عندها أربعة أولاد ، وسلطانة عندها سبعة أولاد ، فوقع بينهم عداوة وصار بينهم قتال فمات من أولاد سلطانة ثلاثة وتبقى أربعة ثم من بعد ذلك تفرقوا . أولاد فاطمة سكنوا في جبل ، وأما أولاد سلطانة تبقوا في جبلهم . ولا زال إلى الآن جبل أولاد سلطان وجبل أولاد فاطمة ، وهما قريب من وطن باتنة . ثم رحلوا من هناك وقصدوا عناية أقاموا فيه أيام عملوا نظرهم فيما يخصه واستخلصوا

(79) هجرة الموافق لعام 1826 م . والذي رافقه إلى قسنطينة هو الأغا يحيى صديقه .

مطالب البايليك وكان باش أغا وحاج أحمد باي مهمي (كذا) ينزلون في وطن يسألون عن شأنه فيجدون سبب فساد من جور البايات ، وظلم الترك فتراهم يجعلون لناسه تأويل وهكذا كل وطن ينزلون فيه إلى آخره . ومن بعد رجوعهم من وطن عنابة دخلوا بلاد قسنطينة فتراهم عملوا نظرهم في شأن البلاد ودبروا فيما يصلح ويليق من أمور العباد ، فقتلوا من الترك أصحاب الظلم ونفذوا عقوبتهم في البعض من العرب الذين هم أصحاب الشيطنة والفجور ثم إنهم رتبوا عشور القمح والشعير على الوطن ومن قبل ذلك أبدا لم يكن ، وكانوا من بعد قضاء حوائجهم وترتيب أشغالهم وتأسيس أحوالهم ، سافر باش أغا إلى الجزائر من كون زمان الشتاء أدركهم ، إذ لا يمكنهم نحويس الوطن كله ، ولم يقدرُوا يستوعبوه بأسره لأنه لا يحتاج (كذا) إلى زمان طويل ، على حسب ماسبق لهم من الترحيل ، وكان الوطن الذي حوسو في ذلك الأيام العديدة ، إنما هو قطعة في الناحية الغربية من وطن قسنطينة .

ومن بعد ذلك تبقى حاج أحمد باي في البلاد هذا الوقت أحكامه بالعدل والسداد وعلى نمط الشريعة والرشاد . وقد زال الظلم والجور ، وذهبوا أصحاب البغي والفجور فيما بينهم قائلين حيث تمكن الفرنسيين بـرج مولاي حسين فلم يبق ينفعنا معه فتن ولا طراد وإن تبعا كلام أحسن باشا كان الضرر علينا وتضيع تجارتنا الذي في البلدان والذي هي بين أيدينا ، ولكن تعملوا تأويل الذي يليق بنا ويكون به حياتنا هذا الوقت تراهم تكلموا مع الماريشال بورمون الذي هو كبير الرمادة⁽⁸⁰⁾ الفرنسيون فسلموا له البلاد بشرط على أن لا تكون ضرورة من الفرنسيين إلى ناس الجزائر ويكونوا محترمين في أنفسهم وحرمتهم وأرزاقهم فقبل منهم الماريشال المذكور هذا الشرط وانفقوا على هذا المنوال ، فحينئذ تقدم عسكر الفرنسيين ودخل الجزائر فقاموا العامة وأراد يفتنوه فمنعهم الناس الذين كانوا تقدم كلامهم مع الماريشال بورمون قائلين لهم كفوا أنفسكم وأمسكوا أيديكم وابقوا في احترامكم وخلفوا الأمر بيد الفرنسيين والباشا . فخرى ذلك

80 (الماريشال دو بورمون : De bourmont هو قائد الحملة الفرنسية ضد مدينة الجزائر عام 1830 م والرمادة هي الأسطول الفرنسي الذي قاده في هذه الحملة .

انكفت ، وكان أمر الله المحتوم الصابر قدره ، وحكم سبحانه بدخول الفرنسيين في الجزائر ، فدخل في الحين إليها وتمكن بسلطانها واحتوى على خزائنها فعند ذلك تفرقوا الجنود ، ورجع كل باي إلى وطنه مكمود وكان ذلك في أول عام ستة وأربعين ومائتين وألف (81) .

وأما حاج أحمد باي لما رجع أنكره ناس وطنه وخرجوا على طاعته وما وصل إلى قسنطينة إلا بالفتن والقتال من كل الأعراش الذي خرج فيه الفرنسيين على الجزائر ففري حسن باشا بعث إلى كل بايات الأوطان وأمرهم يأتوا بالجنود والقومان (82) لأجل مقاتلة الفرنسيين ومدافعتهم فلما وصل كل باي بخبره واستقل كل واحد بمحلته كان الفرنسيين نزل في البر بمسالكه وآلة حربه فعند ذلك اتسع الميدان واشتد القتال مدة من الأيام والليال (كذا) فكان الفرنسيين أول فرصة نالها حين تمكن بمحلة باش أغا واستولى عليها ، وانفكت يد المسلمين منها فلما وصل الخبر إلى الباش (كذا) تحير ، وتقلق ، وتلاشا (كذا) فتراه خرج محلة أخرى وجدد في الفتن وانضمرت نار الحروب وعظمت المحن ، فكان من هندسة الفرنسيين وتحيله أنه يحفر المتارزات بالليل ويفتن بالنهار ، ولا زال كذلك إلى أن تمكن بـرج مولاي أحسن وصار له قرار . هذا الوقت تحقق للمسلمين أن الجزائر انعدمت ، ومديد الترك انفكت وانتزعت ، فلما سمع حسين باشا بتمكين الفرنسيين في برج مولاي حسن عظم عليه الأمر وغاب عنه الفكر تراه بعث إلى ناس الجزائر من العلماء فقدموا إليه واجتمعوا كلهم لديه ، فقال لهم ختموا ودبروا فإن الفرنسيين أخذوا برج مولاي حسن وهذا البرج هو قاعدة الجزائر وحصنها ، فقالوا له نحن نقاتلوا بأنفسنا وأولادنا حتى نموتوا بأجمعنا ولا نسلموا في بلادنا فاستحسن كلامهم وشكر صنيعهم وقاموا على هذا الوفاق . فلما انفصلوا من عنده تكلموا على أحوال الرعية الكائنة في تلك الناحية . فمكت في ذلك الوطن حتى قضى حوائجه ، وخلص مطالبه ومن بعد ذلك جاء في قسنطينة وقد تجمع بيده الأموال والفوائد الكثيرة ،

(81) هجرية الموافق لعام 1830 م .

(82) يقصد بالقومان ، جنود الغوم أو الصابحية ، وكلام القنرى هنا فيه اضطراب كثير بحيث يتحدث عن أشياء بعد الحملة الفرنسية ثم يعود إلى ما قبلها من الأحداث ، ويربط قسنطينة بالجزائر في قضائها لم يستطع أن يفصلها ، ويوضحها ، والدونش التي يتحدث عنها حملها الحاج أحمد إلى العاصمة عام 1827 م .

هذا الوقت طلب الإذن من عند الباشا لأجل بدنش إلى الجزائر ويبدل إليه من ذلك الأموال والذخائر وكان ذلك الوقت ليس هو زمان دنوشة وإنما قصد بذلك تحصيل مرغوبه والمفازة بالمفاخر والمضاهات (كذا) وليكون له الصيت دون البايات ، فلما جاء الإذن بالمشى نهض في الحال وأخذ مايلزمه من الهدايا والأموال وقصد إلى الجزائر ، ومشوا معه عمال الوطن والناس الأكابر ، فحين وصل إلى الباشا وسلم له ذلك الأموال الذي بيده ، ثم أعطى بالزيادة إلى وزرائه ففرح به الفرح التام واستكثر من خيره وشكره شكراً عام (كذا) وفوض له في جميع الأحكام .

وكان حاج أحمد باي له أصدقاء وأعداء من أكابر أناس قسنطينة وأسماؤهم : أولاد بن زكري ، ثم أولاد بن نعمون ، ثم أولاد بن الأبيض ، هذا الوقت تكلم مع الباشا في شأنهم وطلب منه الإذن في قتلهم . فأطلق يده عليهم وأعطاه الإذن فيهم . فلما رجع من دنوشة وظفر بمقصوده احتوى على تلك الناس وقتلهم بأجمعهم وماجى (كذا) إلا واحد منهم⁽⁸³⁾ فكان حاج أحمد باي في هذا الوقت نال مرغوبه ويقتل أصدقاءه تحصل مقصوده فاستقامت له الأيام ، وباقى على هذا النمط مدة أربعة أعوام جاء الوقت والعمال وكانوا الترك الموجود من ذلك الوقت في قسنطينة حين تحققوا بدخول الفرانسييس في الجزائر تكلموا مع كبارهم وانفقوا بينهم قائلين نحن ما نحبوا حاج أحمد باي يبقا (كذا) علينا ، وما نرضوا به يكون هو المتولى أمرنا فتراهم عملوا محلة وخرجوا خارج قسنطينة بموضع يتسمى رأس الحامة وأرادوا يقاتلوه ويمنعوه من الدخول في المدينة⁽⁸⁴⁾ فحينئذ اجتمعوا ناس البلاد والتجأوا إلى سيدى الشيخ بن الففون وتكلموا بينهم قائلون (كذا) لما كانت دولة الترك صائلة ، وجب علينا طاعتهم ، وما نقدرنا نتعرضوا لأموارهم ، واليوم قد انقرضت دولتهم واستولى الفرانسييس على مملكتهم وإن نحن سلمنا أنفسنا إليهم وبقينا في حكمهم فربما يمحروا بنا ، ويطرودونا من بلادنا . فتراهم خمموا في عقولهم وانفقوا في كلامهم بأن حاج أحمد باي يبقا هو باي من كون سيرته حسنة وأحكامه مرضية مستحسنة لكن إذا كان باقى على سيرته فذلك المقصود ، وذلك هو

83) قتل كلا من محمد بن زكري ، وأخاه عبد الله بن زكري ، ومن الأبيض ، والشيخ الزواوى ، وتمكن العربي بن نعمون من الفرار والنجاة فبقى حيا حتى تولى عام 1856 .

84) الذى تزعم هذا التمرد ضده هو محمود بن شاكور .

الرأى المحمود ، وإن تبدلت سيرته وانعكست حقيقته ، لازم نتكلموا معه ونعملوا تأويلا لأنفسنا ، وعلى الله اعتمادنا ، فبعد اتفاقهم على ما ذكروه وانبرم الرأى الذى زبروه ، تراهم تقدموا إلى حاج أحمد باي وسيدى الشيخ بن الففون أمامهم قائلين له بصدق كلامهم : يا حاج أحمد أنت من قبل صاحب ولايتنا ، ونعلموا سيرتك مليحة معنا فنحبوك تبقى أنت باي علينا ، ونحن دائما نكونوا معك ونقفوا في حماك وعونك ، فاستكثر من خيرهم وتحقق النصيح منهم ، فحينئذ ذهب حزنه وسكن روعه ودخل في قسطنطينة بعد ما كان في حيرة عظيمة فتراه بعد دخوله للبلاد نهض في الحال ورتب عسكر من زواوة بالاستعجال وبعثهم إلى الترك الذين خرجوا على طاعته ووقفوا في ضده ، فوقع القتال من الجانبين واشتد الحرب بينهم دوم مین فظهر في جانب الترك الخلل ، وطلبوا الأمان ونزل بهم الوجل فشرط عليهم حاج أحمد باي أنه ما يكون لهم الأمان والعصمة حتى يسلموا بيده الترك الذين هم سبب ذلك الحيرة وأوقدوا نار تلك الفتنة ، فتراهم امتثلوا وسلموا له الترك المشروطين وانقادوا فلما تمكن بهم قتل بعضهم وبقي بعضهم . وباقي الأتراك دخلوا في الأمان إلا أنهم في الذل والهوان ، وكان حاج أحمد باي مجتهد في ترتيب عسكر زواوة وتأسيسه ، وتسوية الحرب وتنظيمه ثم تصدى إلى أوصار البلاد فجدد بنيانهم (كذا) وبالمدافع حصنهم وحكم إلتقانهم .

قضية الباى إبراهيم الكريتلى وعناية ابن رفوطة :

ثم نذكر قضية إبراهيم باي مع حاج أحمد باي رحمه الله وذلك أنه بعد دخول الفرنسيين في الجزائر ، ورجوع حاج أحمد باي إلى قسطنطينة وصار ما صار به من ناس الوطن والترك ، كما ذكرناه سابقا . فكانوا البعض من عمال الوطن بعثوا إلى إبراهيم باي نسيب بن قارة على المتقدم ذكره ، وهو ذلك الوقت في المدينة من حين عزله الباشا في السابق ، وطلبوه يقدم إليهم ويكون هو الباى والمتولى أمرهم فحين وصل إليه ذلك الخبر جاء مسرعا ولم يكن في عاقبة الأمر متفكر ، فلما وصل إلى سطيف تلقوه ذلك العمال بالفرح والمضيف ، وتكلموا معه قائلين له نحن بعثنا إليك لما نعلموه من حسن سيرتك وشفافتك وكامل عقلك فنحبوا نعلموا معك كل جهدنا وتكون أنت هو الباى علينا ومتولى أمورنا . ولكن نمشوا إلى حاج أحمد باي نفائسوه حتى نقتلوه ونطردوه ، فلما سمع كلامهم استكثر من خيرهم ووافقهم على مرادهم .

وكان حاج أحمد باي وصل إليه ذلك الخبر ففراخ خم في عقله ودبر ورتب محلة من فرسان وعسكر ، ومشى إلى إبراهيم باي بقصد فتنه فلما وصل بقربه ففراخ بذل المال إلى شيوخ ذلك الوطن والعمال ، وتكلم معهم في شأن إبراهيم باي بمكرهوا به فيقتلوه ، ويطرده ، فلما كان وقت المبارزة ونشأ الحرب والمقاتلة ظهرت من ذلك الشيوخ الخديعة فانهم إبراهيم باي وجيوشه هزيمة كبيرة وولوا على أعقابهم هاربين ، وماتوا منهم ناس كثيرين ، ومن بعد ذلك رجع حاج أحمد باي إلى قسنطينة فافرحا بنصرته مفتحا بهزم أعدائه وظفره ، وفي هذا الوقت تسمى باسم حاج أحمد باشا ، وأما الترك الذين كان أعطاهم الأمان لم يطمأن (كذا) بهم ولم يأمن من مكرهم ، ففراخ بطش بهم وأخذ أرزاقهم وأباح نهبهم ففترقوا في كل البلدان وتشتت شملهم في كل الأوطان ، وانقطع رسمهم في مدة قليلة من الزمان ، وأما إبراهيم من حين حلت به ذلك الهزيمة وما بقي معه إلا رفقة قليلة ففراخ قصد وطن الصحراء وجمع جيوشا لأجل أن يولى مرة أخرى . وكان الحاج أحمد باي وصله ذلك الخبر فنظم في الحين فرسان وعسكر ، وخرج من قسنطينة بالعجلة فما زال يطوى الطريق قطعة بعد قطعة حتى وصل إبراهيم باي وصار بقربه ، رتب عساكر وخيلة وتقابلوا الصفين ونشأ القتال بين الفئتين من أول النهار إلى آخر وقت الاصفرار فكانت الهزيمة على إبراهيم باي وصفه ودخل حاج أحمد باي إلى الصحراء بقوته ورجعوا ناس ذلك الوطن إلى طاعته ، وقد تحصل بيده من وطن الصحراء فوائد جمّة من أنواع الذهب والفضة ومن بعد قضاء مشاربه ونيل مرغوبه وهزم أعدائه ، رحل من وطن الصحراء ، وكانت مدة إقامته بها أربعة من الشهور (85) فلما وصل إلى قسنطينة مفتحا مسرور ، هذا الوقت ضرب سكة الدراهم ونقش عليهم سكة قسنطينة (86) وتمهد له الوطن ، وصارت أحواله مستقيمة وباقي في سيرة طيبة وأحوال مرضية جيدة ، ينصف المظلوم ويقهر الظالم الغيثوم (كذا) ومهمى وكذا يشكل عليه أمرا أو يعزم على قضائه إلا ويشار أهل العقول فيرشدونه لصلاحه ولا زال على هذا المنوال برهة من الزمان ، ولما توغل وتمهد له الوطن وانقادت له الرعية ، وصارت أحواله

(85) تم هذا في أواخر عام 1830 م .

(86) تم هذا عام 1831 م .

غير مرضية انعكست حقيقته وتبدلت سيرته .

وأما إبراهيم باي حين حلت به ذلك الهزيمة في وطن الصحراء صار يمشى من جبل إلى جبل ويقصد الأرض القفراء حتى وصل إلى عنابة ، فدخلها واستقر بها ، فاجتمعوا أهلها لديه واستغاثوا به قائلين له أنت كنت باي في قسنطينة ، وعنابة في حكمك لا محالة ، واليوم دولة الترك من وطننا انقرضت ، ودولة الفرنسيين تحكمت ، ونحن الآن لا عندنا حاكم نعتمد عليه ولا جانب تلجؤ (كذا) إليه وقد حالوا بيننا وبين قسنطينة الموانع ، وانسد الطريق بالقواطع ولكن نحبوك تبقى أنت معنا وتكون مواليا لأمرنا ، فاستحسن كلامهم ، واختار المقام معهم⁽⁸⁷⁾ فلما وصل إلى حاج أحمد بذلك وتحقق باستقرار إبراهيم باي هناك ، تراه في الحين جهر محلة ونظمها بالمدافع والعسكر ، وبعثها إلى عنابة بالعجلة لأجل محاصرتها وتطريد إبراهيم باي منها وكان المتقدم على المحلة المذكورة الحاج عمار بن زفوط . إنه رجل كبير من قديم الزمان ، وله معرفة بذلك الأوطان ، فلذلك قدمه ، ولهذا الأمر اختاره . فلما وصلوا إليها ونزلوا بطرفها وقع الرعب والخوف في ناسها ، فاجتمعوا وتكلموا بينهم واتفقوا وكتبوا جوابا إلى حاج أحمد باي معربا على لسان مقاهم ، طالبين منه الشرع والإنصاف وراجين منه الصفح والعفاف .

وصورة جوابهم ، بعد التعظيم والتفخيم إلى سيدنا حاج أحمد باشا في قسنطينة نعلمك بالأمر الذي هو سابق ومتحقق في علم سيادتك ، إنه حين كانوا الترك صائلين نحن رعيتهم ولطاعتهم نحن منقادين ، وممثلين ، واليوم قد انقضت دولتهم واستولى الفرنسيون على مملكتهم ونحن ناس ضعفاء لا قدرة لنا على المقاتلة ولا قوة لنا على المدافعة ، وهذه العمارة التي أرسلت إلينا أفجعت أولادنا وأحرقت أكبادنا . إن كنت أرسلتها إلى إبراهيم باي فإنه جاء إلينا برأسه طالب النجاة (كذا) لنفسه ، لا عنده حرب يقويه ولا عسكر

يحتسب به وإن وإن كنت أرسلتها إلى الفرانسييس نحن رعية لمن غلب ، وهذه عنابة هي الآن في حكم الفرانسييس ولا محالة نحن لا طاقة لنا على نزاعها من يده ولا قدرة لنا على تسليمها إليك . ولكن نطلبوا معك الشرع بأن تعمل لنا تأويل الذي يكون فيه حياتنا . ويثبت به استقرارنا في بلادنا . فلما وصل إلى حاج أحمد باي ذلك الجواب وفهم مضمونه والخطاب ، لم يقبل كلامهم ولا رق لحالهم وتراه زادهم مدد آخر من مدافع وعساكر ، وحث على مقاتلتهم وأكد على محاصرهم وكان المتقدم على ذلك العمارة والمدد بن عيسى الذي هو باش حانبه ومعه لاغنه بن الحمالوى ومشوا في سطوة عظيمة وأعطاهم الباي طبول وصار غزوهم مثل ما يغزون البايات .

وأما حاج عمار بن زفوطه فإنه أصابه مرض شديد وهو مقيم بالمحلة على بلد عنابة وتعطل أمره بذلك المرض فحيث بعث إليه حاج أحمد باي وأمره بالرجوع إلى قسنطينة فلما وصل ذلك الأمر إلى ابن زفوطه خلف المحلة هناك بناحية عنابة وقدم بنفسه فلما صار في أثناء الطريق تلاقى مع بن عيسى فربطه من غير إذن حاج أحمد باي وكانت بينهما عداوة كبيرة . وسبب ذلك أنه في عام 1245 هـ (88) وكان حسين باشا بعث إلى حاج أحمد باي قائلاً له اختار (كذا) لنا رجل كبير عاقل من ناس قسنطينة لأننا أردنا نجعلوا وكيلا علينا وعليك . ولما تعينه ويرضاك ، فأرسله لنا لنظروه وتكلموا معه فإذا وجدناه يليق إلى ما أردناه فترجموه فكان حاج أحمد باي أول مرة عين بن عيسى المذكور لأنه خدعة ومن جانب ، فأنكروا عليه البعض من المخازنية قائلين له لا يليق بن عيسى إلى هذه الوظيفة لأنه لم تسبق له خدمة في أمور المخزن ، وهذا وضيع كبير لا بد له من رجل يكون صاحب معرفة بخدمة المخزن ، فعند ذلك عين له حاج عمار بن زفوطه وبعثه إلى حسين باشا فلما وصل إليه تكلم معه واستخبره فأعجبه وظهر له من سياسته وعقله ما يليق بوظيفة وكالة تونس . ثم رده إلى حاج أحمد باي وأمره يلبسه لأن من عاد وكيل تونس يلبس على يد باي قسنطينة .

فهذا سبب وقوع العداوة بين حاج عمار بن زفوطه وبين عيسى ، وأما حاج أحمد باي لما سمع برباط بن زفوطه تحير واستغاض وأراد أن يسرحه من رباطه لكن ختم ربما إن سرحه ينشأ له الضرر والعناد من بن عيسى لأن بيده المحلة والعساكر ، فحينئذ بقاه مربوطا حتى يتعين له أش يكون من أمر بن عيسى . وكان بن زفوطه لما طال به السجن توسل في سي الحاج محمد ابن الحاج بن فالة شيخ العرب ليتكلم عليه عند الباي يسرحه ، فتكلم عليه ووعدده الباي بتسريحه ، هذا الوقت جاء الخبر أن بن سعيد الذي كان شيخ العرب في السابق غزي (كذا) على البعض من ناس الصحرى (كذا) الذين هم من جانب سي محمد بن الحاج شيخ العرب فعند ذلك تحير حاج أحمد باي لأنهم صف أحواله فتراه جعل محلة ، ورتب عسكر وركب ذلك العسكر كله على البغال وخرج من قسنطينة قاصدا ابن سعيد المذكور إلى وطن الصحرى فما زال يسير الليل والنهار حتى وصل قريبا من الوطن الذى نزل فيه بن سعيد بمجنوده وهو يتسمى بادس قريب من الخنقة فهجم عليه حاج أحمد باي بالعسكر هجمة عظيمة ، وغارت إليه القومان غارة طويلة فانهزم بن سعيد وفر هاربا بنفسه ، وخلف أرزاقه ونسائه (كذا) فاحتوى عليهم حاج أحمد باي وقام في تلك الناحية أيام قلائل إلى أن خدموا ناس ذلك الوطن وأعطاهم الأمان ثم رحل من هناك راجعا إلى قسنطينة . وأما محمد بن الحاج شيخ العرب المذكور فتراه وسوسوه الشياطين من المخازنية قائلين له أنت شيخ العرب وكنت تلبس القفطان ويضربون الطبول عليك مثل البايات ، والآن نقص من حظك وصاروا الطبول يضربون على رأس بن عيسى وليس من شأنه ذلك . فحينئذ استغاض ووقع الغيار في قلبه وصار الضر بينه وبين حاج أحمد باي وتعاضم الأمر بينهما إلى أن رفع قياطنة⁽⁸⁹⁾ وزمالاته من طرف محلة الباي وفروا معه المخازنية منهم : بن بشير السراج ، وسي أحمد بن الغضبان كبير أولاد سي داود ، المكى بن الاجليلي قائد النمامشة ، وسي الحفصي بن عون ، وابن الاشتر قائد العشور ، وسي أحمد التونسي قائد دريد ، وما تبقى حاج أحمد باي إلا وحده ، فتراه تحير وتقلق وصار يبعث إلى سي محمد بن الحاج شيخ العرب مع أخيه سي بوعزيز الذى هو الآن شيخ العرب ، ويقول له أنت

(89) المقصود بالقياطنة الحيام المصنوعة من الشعر ، أو قماش القلوع ، ومفردعا قيطون ، باللهجة العامية طيعا .

ابن خالي كيف تعمل معي الشر الكبير وتفسد علي وتنفق الخازنية معك ، فما سبب ذلك فأجابه محمد ابن الحاج المذكور قائلا له يغيظني خالي منك لأنك نقصت من حصتي وقدمت علي الغير وجعلت له شأن الذي كان لنا ولأبنائنا وأجدادنا ، وأيضا كلمتك علي بن زفوطه لأجل أن نسرجه من السجن فلم تقبل كلامي فلذلك وجب الفرار منك . فعند ذلك استغاض حاج أحمد باي وقتل بن زفوطه . فهذا سبب موته ظلما وعناد . ومن بعد ذلك رجعوا الخازنية إلى الباي بالأمان وبقي شيخ العرب المذكور ماسك رجله عن القدوم إلى الباي ومقابلته زمانا نحو نصف عام فعاتبوه أحبابه ، وصار أخوه سي بو عزيز يمشي بالكلام بينه وبين الباي ويسعى بينهما بالخير إلى أن زال الغيظ بينهما وقدم شيخ العرب إلى قسنطينة فاجتمع مع الباي ووقع بينهما الملام وتراضيا ثم إن شيخ العرب بعد أيام قلائل مشى إلى الصحري كعادته ومن بعده هذا الوقت كان حاج أحمد باي قتل الخازنية المذكورين الذين كانوا نافقوا مع شيخ العرب أول مرة إلا سي أحمد التونسي فإنه عفى عليه لأنه رجل براني ، وكذلك سي الحفصي بن عون الذي هو الآن قائد السقنية ادعى أنه مشى معهم بالسيف ، لما سمع شيخ العرب بموتهم نافق مرة أخرى ومسك رجله عن القدوم إلى حاج أحمد نحو تسعة أشهر ولا زال كذلك إلى أن خرج حاج أحمد باي بالرحلة إلى المسيلة كما سنذكره إتياء . هذا الوقت قدم إليه شيخ العرب وهو محمد بن الحاج وكان قدومه بواسطة أخيه سي بو عزيز الموجود هذا الوقت . فلما وصل وتلاقا مع حاج أحمد باي بطرف المسيلة لبسه القفطان وضربوا عليه الطبول كعادة مشايخ العرب ، ومكث خمسة عشر يوما وهو صحيح ثم وقع به مرض نحو خمسة أيام ومات ورفعوه ميت إلى قسنطينة ودفن بالكدية قبالة البلاد . قيل إن الباي أعطى الدراهم إلى قائد السبسي خديم شيخ العرب وجعل له السم في الدخان ، وكانت موته في جمادى الأول عام سبعة وأربعين ومائتين وألف⁽⁹⁰⁾ . فقد انتهى الكلام علي قضية موت بن زفوطه وموت الشيخ العرب . ثم نرجع في الكلام إلى الأصل الأول إنه حين توجه بن عيسى بذلك المدد إلى عنابة هذا الوقت تكلم سيدي الشيخ بن الففون مع حاج أحمد باي والبعض من أكابر قسنطينة منهم قائد الدار بن البجاوي ، والسيد

مصطفى بن جلول قاضي الحنفية والسيد أحمد العباسي قاضي المالكية ، والسيد محمد بن جلول باش كاتب ، وسي محمد بن الحاج شيخ العرب ، وسي محمد العربي بن عيسى ، الناظر والمفاتيح : سيدي عمار الغربي ، وسيدي مصطفى بن الشاوش ، واحتجوا عليه بالدليل الأصح ، والقول المفيد الموضح قائلين له يا حاج أحمد باي الحق مع ناس عنابة من كونهم مواليين البحر ، وما عندهم قدرة يدفعون بها الضر ، وعنابة في يد الفرنسيين فلا يمكنك نزاعها من يده ، ولا قوة لك على مدافعتهم وأيضا قسنطينة لازالت في الحرب فانظر وخم قبل وقوع الغضب وكان الأحسن عليك ، والمليح إليك ، أنك لو تتكلم مع الفرنسيين وتكاتبه وتطلب مدهاتته فبذلك تكون مستريح ويبقى أمرك متضمن صحيح ، وتنظم إليك عنابة من غير قتال ولا حرب ولا معاندة ولا تعب ، فتراه لم يعمل بكلامهم ولم يلتفت إلى مقالهم .

ولما وصل ابن عيسى إلى البلد المذكورة حاصرها حصارا شديدا بمدفعه ونزل عليها بالحرب ليالي وأيام . فلما طال الحصار على ناسها ساء حالهم وضاق مناهم وانقطع مدد الطعام عنهم ، تراهم اختاروا الحياة (كذا) على الممات . وفوضوا أمرهم إلى خالق المخلوقات فسلموا البلاد وفتحوا أبوابها واندخلت بلد عنابة في حينها ، وذلك في أول عام ستة وأربعين ومائتين وألف⁽⁹¹⁾ . وصار ما صار بناسها من نشيت شملهم ، والنهب في أرزاقهم ، وصارت عنابة قفار وما بقي فيها إلا الناس العاجزين على الفرار .

هذا الوقت جاء يوسف إلى عنابة ودخل في القصبة وتمكن بها من غير حرب ولا قتال ، ولا هرج ، ولا نكال ، وكان من أمره ما كان إلى أن قدم إلى قسنطينة ونزل عليها بالحروب ، والافتتان وأما بن عيسى فإنه لما رأى يوسف دخل في القصبة تحقق عنده أنه لا بد من تمكنه ببلد عنابة فحصل له الخوف الكبير فتراه رحل وقدم إلى قسنطينة⁽⁹²⁾ .

(91) هجرة الموافق أواخر عام 1830 .

(92) يوسف المملوك هذا أصله من جزيرة إلب ، أخذ أسيرا إلى تونس ، وعين خادما في قصر الباي ، وارتكب جريمة غريبة ففر إلى الجزائر عام 1830 وقدم نفسه لضباط الحملة الفرنسية في سيدي فرج ، فاحتضنوه ولعب دورا بارزا مع القوات الفرنسية في محاربة الجزائريين سنوات طويلة ، وألف عليه الضابط تروملي كتابا من جزئين بعد وفاته بعنوان : الجنرال يوسف .

وأما حاج أحمد باي ما تحصل بيده إلا ذنوب العباد ، ولا اتصلت بيده تلك البلاد
وكان من سابق زمانه أنه ما يعمل شيئا إلا بمشورة الناس الكبار ، وأصحاب العقول
الفضلاء الأخيار فيسهل عليه كل شيء صعب (كذا) ويدنو إليه البعيد والقريب ،
ومن هذا القبيل كلام الحكماء الأولين : من شاور ساد ونال كل المراد ، ومن اعتمد
على نظره لم يصب في تديره .

وصار حاج أحمد باي من بعد قضية عنابة أموره ناقصة ، غير معتادة ، وكان في عام
1247 هـ (93) سبع وأربعين ومائتين وألف ، أنه جعل جيوش كثيرة وقصد بهم المسيلة
وهي قرية صغيرة في طرف وطن الحضنة ، فلما وصل إليها استولي على أرزاق ناسها
بالظلم والجور ، وشتت شملهم بالبغي والفجور ، ثم رحل وقصد بلد المدية بوطن الجزائر
فلما وصل بقربها قابلوه ناس وطنها وتكلموا معه اختبار الحالة ، ويعلمون أش هو في
مراده ، فتراه استظهر إليهم بالنصيحة وعاملهم بظاهر المودة وحسن السريرة ، قائلا لهم
غاضني من حالكم لما بلغني من إهمالكم فقدمت إليكم لنجمع شملكم وننظم جمعكم
ونجعل لكم تأويلا تقفون به في عين أصدادكم فحيث استأنسوا لقدمه وفرحوا بنزوله ،
وتقدموا إليه بالهدايا من الأموال والخيول المسومات وطلبوا منه أن يرجع باي عليهم
ليكون عمدة إليهم ، وواسطة فيما يخصهم فأجابهم إلى ذلك الرأي ، ورجع ولد بومزراق
في بلد المدية باي .

وكان حاج أحمد باي بالخيلة مع ناس ذلك الوطن ، والخديعة حتى قضى حوائجه
منهم ومن بعد ذلك خدعهم ، وربط مائة رجال من كبارهم فرفعهم مرهطين وفر هاربا
من وطنهم فلما وصل إلى قسنطينة قتل ذلك الناس كلهم وفناهم عن آخرهم وقد اشتهر
ظلمه ، وكثر جوره ، وبغيه ، وصار يقتل الناس ظلما وعدوانا ، ويتخدع بالأمان فمن
ذلك أنه قتل ستين فارس في يوم يقال لهم أولاد مثلة وقتل مائة وعشرة رجلا يقال
لهم أولاد عمر من ناس الحضنة في يوم واحد . لكن أولاد عمر لما أراد السيف يقطع
رأس واحد منهم طار بين يديه ولا عرفوه أين مشى . فهذا غريبة من الغرائب ، ومن

هذا الصنيع مجوه كل الناس وصار أمره في الانتكاس ، ثم من بعد رجوعه من وطن المدينة جهز عسكر وفرسان وبعثهم سرية يعني غازية يغزون على من يجدونه بطرف عنابة من الرعية ، وذلك في عام ثمانية وأربعين ومائتين وألف (94) . والمتقدم على تلك السيرة (كذا) بن عيسى باش حانبه ، وابن الحملاوى الذى هو أغا في ذلك الوقت .

وكان يوسف ذلك الوقت هو باي في تلك الناحية ، فلما وصلت السيرة المذكورة ونزلت على البعض من تلك العروبة فاحتوى عليهم ، وأخذت أرزاقهم ، وطردوهم عن خيامهم ففروا هارين ، والتجؤوا إلى يوسف مستغيثين فلما تحقق يوسف بثبتيت أرزاق رعيته تراه في الحين ركب هو وسبائسه (95) ولحق بأصحاب السرية فأدركهم وفك أرزاق رعيته وطردهم وقتل البعض منهم وسلبهم فولوا أصحاب السرية مهزومين وعلى أعقابهم هارين .

فلما وصل الخبر إلى حاج أحمد باي بهزم سيرته (كذا) تغير وتحير في أمره وكانوا البعض من الناس المنصحين أصحاب العقول الكاملين تعرضوا في ذلك السيرة قبل إرسالها قائلين يا حاج أحمد باي ليس لك فائدة فيها وربما تنشأ لك الضرورة (كذا) منها لأن الفرانسييس مستولى على عنابة ووطنها . وقسنطينة لازالت في الحرب ولم يصفى (كذا) لك مشربها فكان المليح عليك أن تطلب منه مهادنته وأصفح عن الفرانسييس ومناقشة ، وفك قدمك من موضع قدمه ، فتراه لم يعمل بذلك المقالة حتى آل أمره إلى التلف والخسارة .

وفي عام إحدى وخمسين ومائتين وألف (96) خرج حاج أحمد باي بالحلة إلى ناحية أوراس ونزل على فرقة منهم اسمهم أولاد سعيد ، فغزى عليهم وأخذهم ومسك منهم ستين رجلا قطع لكل رجل يده اليمنى وأطلقهم كلهم مقطوعين اليد ، وأرسل أيديهم إلى قسنطينة فكان يد وزعم بتفطيع يدهم أبطال حركاتهم ، ونقض قواعهم .

94 (هجرية الموافقة لعام 1832 - 1833 م .

95 (المقصود بالسبائس ، العبايجية ، والمقصود بالسيرة ، السرية ، ولكنه صحفها

96 (الموافق لعام 1835 م .

وفي هذا العام المذكور وقع الطاعون في بلد قسطنطينة والوطن حتى بلغوا الموتى في اليوم الواحد قريب من الخمسة عشر مائة نفس نحو ثلاثة أيام وهو على هذا النمط ثم نقص وزال .

ومن بعد ذلك أيضا في عام اثني وخمسين ومائتين وألف⁽⁹⁷⁾ جهز عرضي ونظمه من عسكر وجنود وفرسان وقصد بهم محلة الذرعان فكان أول نزوله بذلك العرضي في موضع يسمى عقبة العشارى من كونه موضع عالي ، وهو الحد بين وطن قسطنطينة ووطن عنابة أقام فيه أيام يختم ويدبر ، ثم رحل وتقدم إلى موضع يسمى بالحمام قريب من فالمة ، فرتب جيوش من العامة وأمرهم يقابلوا محلة الذرعان ليختبروا من أمر يوسف ، إيش كان فلما أشرفوا عليها وقابلوها خرج إليهم يوسف بجنده وتبارزوا مبارزة الجدد ، فكانت الهزيمة على جيوش حاج أحمد باى وولوا هاربين وماتوا منهم أبطال نحو العشرين فلما وصلوا إلى حاج أحمد باى على هذه الحالة تغير وتخير ، وصار يختم . إيش هي الدبارة تراه رحل وتقدم إلى موضع يسمى قلعة بوضيع قريب من فالمة ، وهو موضع رفيع ثم جمع من أبطال جيوشه وعسكره ، وتقدم معهم هو بنفسه وداروا بمحلة الذرعان من كل جهة وكل مكان وطلبوا يوسف للبراز فلم يخرج إليهم ، وقد امتنع من الفتن في ذلك اليوم معهم فتحير حاج أحمد باى وختم في عقله وما عرف إيش هو السبب في عدم خروج يوسف إليه .

أعيان في قسطنطينة يرسلون يوسف المملوك

وكان في ذلك الوقت كتبوا البعض من أكابر وطن قسطنطينة إلى يوسف منهم أحمد الشريف شيخ ريفة ، وفرحات ابن سعيد ، والبعض من عامر الغرابية فرقة أولاد نابت والأخضر بن سليمان من دائرة واد بوضلاح ، وأولاد بن يلس ، ومحمد بن سحنون من الزمول وأولاد مقورة ابن عاشور ، وفرحات بن عولي من أولاد عبد النور ، ومحمود ولد محمد الطيب العساسي من أولاد عبد النور ، والبعض من مشايخ أمية (كذا) . وطلبوا يقدم إلى قسطنطينة وينزل عليها بالفتن وهم يكونون في عونهم إلى أن يتمكن بها . وأما حاج أحمد باى فتراه في الحين رحل ، ومن ذلك الموضع تحول ، ورجع إلى عقبة العشارى إلى منزله الأول . أقام فيه أيام قليلة ثم دخل في قسطنطينة ،

وبعد مدة يسيرة خرج يوسف من عنابة ، ومعه عمارة فرانسيس وهي عمارة ظريفة ، فحين تحقق حاج أحمد باي بقدوم ذلك العمارة إليه خرج خارج البلاد بعسكره وزعم أنه يلاقي في ذلك العمارة يفتنها ومن الوصول إلى قسنطينة بمنعها ، وكان يوسف أسرع في قدومه ونزل على قسنطينة بعمارته . فنشر عساكره وقابل ناس قسنطينة بحروبه ، فانتشر الحرب من الجانبين ، وانضمرت النار مدة ثلاثة أيام ليل ونهار ، ثم هجم عسكر الفرانسيس في الليل من جهة باب القنطرة وراموا الدخول بالقوة والفرصة ، وصار في تلك الليلة حرب كبير ، وقتال شهير ، برمي الكور والبونية حتى تكسر باب البلاد ، وتقوى الحرب والطراد ، وصاحوا ناس قسنطينة الجهاد ، الجهاد ، فانهزم عسكر الفرانسيس وفر هاربا من تلك البقعة ثم هجموا مرة أخرى من جهة الرحبة فانقلبت عليهم الهزيمة كأول مرة⁽⁹⁸⁾ فلما انقطع الفتن اجتمعوا من ناس البلاد أنفار ، واتفقوا على أنهم يكتبوا جوابا إلى يوسف بالاعتذار منهم سيدي الشيخ بن الفقون ، وسي محمد بن البجاوي قائد الدار وسي الحاج المكي بن زفوط ، وسي اعمر الفشي ، وسي علي بن حجوج ، وسي الحسين ابن سي سليمان التاجر ، والمرابط العربي ، وسي محمد ابن العتري ، وهو الذي كتب الجواب بيده طالبين الكلام معه فيما يليق العباد ، قائلين إن وجدنا شرط الوفاق فذاك هو المراد وإلا فنقاتلوا على أنفسنا وأولادنا بالجد والاجتهاد . وكان يوسف رحل في تلك الليلة راجعا إلى عنابة ، فما وجد الصبح إلا ولم يبق له أثر ولا علامة ، ومن بعد انفكاك يوسف من قسنطينة ووصوله إلى عنابة فحينئذ دخل حاج أحمد باي قسنطينة تراه قبل كل شيء قتل المرابط العربي وسي الحسين المذكورين وتجري (كذا) على قتلهم ظلما وعناد ، وزعم أنهم مع أصحاب الفساد ، وأنهم كانوا اتفقوا وأرادوا يدخلوا الفرانسيس إلى البلاد .

كان سيدي الشيخ بن الفقون هذا الوقت تكلم قائلا له يا حاج أحمد أنت أميرنا والواجب على الأمير يحمي بلاده ، ويدفع الضرر على رعيته ، وأنت ما حميتنا ولا نصرتنا ولا دفعت بشيء علينا ، فكيف لا نتحيلوا على أنفسنا ولا نسعوا في العافية لنا ولأولادنا ، وقد جرى في السابق حين ظهرت الشريف في واد زهور ، وقدم إلينا ومعه كل القبائل

(98) يشير بذلك إلى الحملة الفرنسية الأولى ضد مدينة قسنطينة في نوفمبر 1836 وكان مصورها القشل الرابع .

في عرضي عميم فوقفنا ضدهم ، وقاتلنا عظيم (كذا) ولم يحظر معنا خليفة ولا أمير ، فهزمناهم ومات منهم عدد كثير . وأيضا كان عرضي تونس قدم إلينا بالعساكر الكثير ، والجنود الغزيرة ، ونزلوا علينا ثلاثين يوم برمي البومبة والكور ، فما سلمنا بلادنا ولكن عندنا فتور ، ومسكننا على الصبر والصراير حتى ظهرت النصرة من الجزائر . واليوم ما عندنا نصرة نتظروها ولا لنا قدرة على الفرنسيين تدفعوه بها . وقد كان الفرنسيين أخذ الجزائر الذي هي عمدةنا ، وقاعدة وطننا وملكنا ، فكيف نحن لا نعتزروا على أنفسنا ولا نطلبوا المهادنة لتكون العافية لنا ولأولادنا ، وكان اتفاقنا معلنك بإحاج أحمد باي على العدل وعدم الظلم ، ونحن الآن لا نرضوا بهذا الحكم فتراه كف يده على قتل العباد ، وخشي أن تقوم عليه فتنة من بعض ناس البلاد ، وما فعل شيئا بعد ذلك قط .

ومن بعد زمان قليل ختم في عقله وظهر له في رأيه أن يجعل محلة من عسكر وجيوش عامة ويعيئهم إلى قالة لأجل أن يفتنوا الفرنسيين الساكنين بها ، ويهدموا بنيانها ، ويحرقون زرع العروبة النازلين بطرفها . وكانوا أشاروا عليه أصحاب العقول بالتأني والنظر في عواقب الأمور وقد نكلموا أيضا بعض الصالحين في ذلك الوقت على أن الفرنسيين لا بد من دخوله في بلد قسنطينة وتملكه بوطنها ، منهم سيدى أحمد دوردن يقول :

الأحمر جاني هداد سرجو ما فيه الباد
على راسو باد نجالا وأين الهروب يارجالا

وكان هذا الكلام قاله المذكور قبل مجيء الفرنسيين إلى قسنطينة بنحو العامين وأما سيدى بلقاسم بوحجر فإنه كتب إلى حاج أحمد باي وابن عيسى بنهاهم عن فعلهم القبيح من أخذ نساء الناس ، والزنى بهم ، وأكل أموالهم بالباطل وقال لهم إذا لم تنتهوا فإن الله يسلط عليكم وعلى هل البلاد بسيكم مصيبة سوداء وكان كما قال . ومن كلام سيدى الزبوشي الساكن رجاحى يقول أيضا في حياته : التل بخلا وبجلا ، وانزل منه الذخاير ، تعود الخلا برخلا ، والشك تخلا (كذا) الجزائر . ومن كلام سيدى فشوال يقول على بلد قسنطينة : حصنت عليها سبع أقال ، وتفلفت من جنبها كيف الرمانة . عيلي وارجعي لأصلك يا المرتدة .

ثم نرجع إلى كلام سيدى أحمد دوردن : الأحمر معناه صاحب اللون الأحمر ، والظاهر أنه عني بذلك الفرنسيين فإن غالبهم كذلك لأن قوله بعد سرج ما فيه الباد . وقوله على راسو بادنجالا وهي البرنيطة ، لأن لونها إذا كانت مغلقة كذلك ، يدل على ما قلنا وقول سيدى الزبوشى التل بخلا وبجلا المراد به ما قابل السرة ، وقوله بخلا يعنى : من أهله ، وقوله بجلا أى يحصل لأهله انجلاء وهو طردهم وقوله تزل منه الذخاير معناه يذهب عنه كل ما يدخر بسبب الفتن ، وقوله تعود المخلا برخلا ، معناه إن ملاً (كذا) المخلاة من الطعام يصير بقيمة الرخلا ، وهي الصغيرة من أنثى الضان في عرف أهل البادية ، إشارة إلى أنه يقع الغلا في الوطن بسبب الفتن والأهوال . وقوله والشك تخلا الجزائر الشك هنا المراد به القطع والجزم . وإنما عبر به تعمية وكان الأمر كما ذكرنا والله أعلم . وقد تكلم المذكور بهذا الكلام قبل دخول الفرنسيين إلى بلاد الجزائر بنحو ثلاثين سنة بل أزيد من ذلك . وقول سيدى فشوال حصنت عليها سبع أقال وتفلقت من جنبها معناه أن الأعداء لا يدخلون قسنطينة من بابها بل من جنبها وهو إشارة إلى واقعة الفرنسيين بأنهم دخلوا من غير باب وقوله عيلى وارجمي لأصلك إشارة لك أن أهلها وإن فعلوا من الشر ما فعلوا فإنها ترجع لأصلها وهو الكفر ، وكان كما قال (99) .

الحملة الفرنسية الثانية على مدينة قسنطينة :

ثم نرجع من الكلام على حاج أحمد باي أنه رتب عسكر وجيوش وقدم عليه لاغته بن الحملوى المذكور ، وبوزيان ابن العلمي الذى كان أغه في السابق وقصدوا إلى فالمة فلما وصلوا نزلوا عليها بالفتن والحريق وأقاموا عليها ثلاثين يوماً بالتحقيق وانجرح بوزيان بن العلمي المذكور ، ومات من العسكر والجيوش بالفتن في ذلك المدة . ولما طال بهم الحال وما تحصل بيدهم شيئاً (كذا) من أمر فالمة رجعوا بالعسكر إلى قسنطينة وتفرقوا ذلك الجيوش .

هذا الوقت خرجت عمارة الفرنسيين من عنابة وهي عمارة كبيرة ما أعظمها من عمارة ومعها ولد سلطان فرانصة وهو دوك دوغور والماريشال داريمون (100) نزلوا

(99) ليس من شك في أن العتري أراد أن يتقرب أكثر من الفرنسيين باستعراضه لكل هذه الأقاويل التي تبشر حسب زعمه ، بالاحتلال الفرنسي ، وهي أقوال من قبيل المهاترات .

(100) Le duc de nemours et damremont;

بوادي يتسمى مجاز عمار وهو واد كثير الأشجار فلما نزلوا بالواد المذكور شرعوا في بنيانه وتقطيع ذلك الشجور (كذا) لأجل توسيع الطريق وتسهيلها .

وكان حاج أحمد باي وصلت إليه تلك الأخبار بنزول عمارة الفرانسييس في مجاز عمار ، فنهض كذا في الحال ، وجهاز محلة من عسكر وفومان ، وخرج من قسنطينة فنزل بموضع يتسمى فج سيلة ، وكتب إلى ناس الوطن يأتوا إليه بالجنود وأرسل الرقباء والجواسيس إلى مجاز عمار خفية يسعون إليه بالأخبار ، ويعرفونه بأحوال تلك العمارة هل هي قوية أو ضعيفة ، فيعضهم يقول له قوية من عساكر وآلة الحرب وبعضهم يقول له ضعيف ولك قدرة عليها (101) .

فبينما هو كذلك وإذا بجواب أتى من عند ولد السلطان والمارشال المذكورين وصورة ما في الجواب : يا حاج أحمد باي نحن قدمنا بعمارتنا وقاصدين بلد قسنطينة من غير شك وريب ، وأنت كنت في السابق طلبت الصلح والآن هذا هو وقت الكلام فخمم وانظر صالحك ، وأما الفرانسييس فإنه دائما يحب يعمل الخير وما يرضى بموت العباد لأننا حين نزلوا على قسنطينة لازم يموتوا الكبار والصغار ويتفجع النساء وتهدم الديار . فإن كنت صاحب عقل انظر ونحم في مصالح المخلوقات والسلام .

قضية مقتل محمد بن العتري :

وكان السائر الذي أتى بذلك الجواب هو ولد بو جناح من كبار يهود الجزائر فلما وصل إليه الجواب وفهم مضمونه وتحقق بما فيه من الخطاب ، تراه تحدث مع الرسول المذكور وبعث معه الكلام من غير كتاب ومشى بينهم الكلام بعد ذلك مراراً ، فكان

(101) يتحدث العتري هنا عن الحملة الفرنسية الثانية ضد مدينة قسنطينة في أكتوبر 1837 التي تمكنت من احتلالها والسيطرة عليها .

ولد سلطان فرانصة والماريشال يتكلمون بطريق الريقلة⁽¹⁰²⁾ الفرانصويه ، وحاج أحمد باي يتكلم معهم بطريق العادة العربية فلم ينتج شيء من ذلك الغاطية ولا اتصلت بينهم موافقة . فحينئذ هم حاج أحمد باي أنه يبعث واحدا من أصحاب الوضائف يأتيه بالأخبار الصحيحة وينظر عمارة الفرانسييس هل هي قوية أو ضعيفة فتراه عين سي محمد بن العنتري وهو في ذلك الوقت كاتباً عنده واختاره من كونه رجل عاقل وثقة وصاحب سياسة بليغة ، وقد أوصاه يتكلم مع الماريشال وولد سلطان فرانصة على أن الصلح لا يكون إلا بارتفاع حكم الفرانسييس من عنابه وفالمة إلى آخر ما أوصاه وما أسره به وأخفاه ، فلما انفصل من عنده ووصل إلى ولد سلطان فرانصة والماريشال المذكورين فأنزلوا منزلة الإحسان وفرحوا به ثم تكلموا معه في شأن قدومه إليهم واختبروه لعله وروده عليهم ، فأجابهم بلسان مقاله أن سيدى حاج أحمد باي أرسلنى لتبلغكم ما أوصالى به من غير زيادة ولا نقصان وهو أنه يسلم عليكم ويستكثر من خيركم ، وقد أعجبه صنيع الصلح إذ فيه حقن دماء العباد وثمام العافية للوطن والبلاد . وقبل بالشروط الذى كانت وقعت بينكم كما هو مقرر في علمكم . لكن يحكمكم (كذا) ويطلب منكم أن ترفعوا حكمكم وتنقلوا عساكركم من فالمة ، ومجاز عمار وتسلموا عناية بيده . فإن رضيم بذلك فنعقدوا الصلح ونبرموه ، فلما سمع الماريشال وولد السلطان كلامه ، استفاضوا وقالوا له كنا نظنوا حاج أحمد باي أنه صاحب عقل وسياسة والآن تحقق عندنا بخلاف ذلك لأن فالمة ومجاز عمار استولينا عليها بالذراع⁽¹⁰³⁾ وهما الآن في تصرفنا ، وتحت حكمنا وكان كلامنا معه على قسنطينة فقط ، والآن وقع الأمر وانقطع ما بغينا نسمعوا كلاماً أبداً ونحن قدمنا بقصد قسنطينة فلا بد لنا من وصولنا إليها ولازم من نزولنا عليها فارجع إلى حاج أحمد باي وقل له بهذا الكلام وما عندنا كلام غيره .

(102) يقصد بها المسطرة من الكلمة الفرنسية : LA REGLE

(103) أى بالقوة .

فحينئذ رجع ابن العتري المذكور إلى حاج أحمد باي وخبره بالكلام الذي سمعه من الماريشال وولد السلطان ، وخبره أيضا بقوة العمارة من عساكر وآلة الحرب فلما تحقق حاج أحمد باي بذلك تحير في أمره فأجابه بن العتري قائلا له ياسيدي إن القوة التي رأيته بعيني لا ينفع فيها إلا الصلح ، لو أنك تترك أمر فائلة ومجاز عمار ، وتطلب الصلح على قسطنطينة فقط وبعد ذلك لمن (كذا) تكون مليح معهم يعمل الله دليلا . فلما سمع كلامه وتأمل مقاله ظهر له فيه النصيح وأمره بالقدوم إلى قسطنطينة والاجتماع مع قايد الدار ابن البجاوي وسیدی الشيخ بن الفقون ، وبين عيسى ، ومحدثهم بالكلام الذي سمعه من الماريشال وولد السلطان فرانصة بقوة العمارة والحروب ومراده ليشيروا عليه بالرأي النافع .

فلما وصل ابن العتري المذكور إلى قسطنطينة واجتمع مع المذكورين وحدثهم بما سمعه وما رآه . أما سیدی الشيخ بن الفقون ، وقايد الدار ، صدقوا وأذعنوا وصاروا يدبروا في عاقبة الأمور ، وأما بن عيسى أصابته حماقة وأنوفة (كذا) وزعم أن بن العتري أخذ الدراهم من عند الماريشال وولد السلطان قرانصة لأجل أن يشيع قوة الفرانصيص فيحصل بذلك الخوف إلى ناس البلاد ، ولم يقم بن العتري إلا يوما واحدا في قسطنطينة ورجع إلى الباي .

فكتب ابن عيسى في أثره إلى حاج أحمد باي قائلا له أنت كنت بعثت بن العتري يسعى في صالحك وتحسبه أنه من خدامك فإذا هو بخلاف ذلك وصار يتكلم بقوة الفرانصيص بين الناس فأرهب أهل البلاد بذلك ، فلما وصل ذلك الجواب إلى حاج أحمد باي تغير خاطره على بن العتري وساء ظنه به فمكث بعد ذلك نحو ثمانية أيام ومات . وقد تحقق عند الناس أن حاج أحمد باي قتله خفية بالسم ، ولما مات رحمه الله تعالى ترك أولادا منهم العبد الفقير إلى رب الأرباب محمد الصالح الناسخ لهذا الكتاب . وإني الآن كاتب بالبيرو (104) بالدرب . وكان الذي ولاه القبطان بوسنه (105) المثولي أمور العرب وأنا أقول إن أباي تكلم الحق ونصح حاج أحمد باي كما ظهر له قبل سماع

(104) يعنى المكتب العربي من الكلمة الفرنسية : Le bureau arabe .

(105) Le capitaine boissennet .

كلام الشياطين . ولما بلغه كلامهم مكر به وقتله وهذا ظلم عظيم وأنا لا أنساه أبدا ، وأخدم الدولة بنية صالحة لما علمت من حب أبي لها لأنه لو عاش لكان أول من سارع إلى خدمتها بنصح وجد رحمه الله رحمة واسعة بمنه آمين ولجميع المسلمين .

سقوط مدينة قسنطينة في أيدي الفرنسيين

ثم يرجع الكلام إلى المارشال وولد السلطان فرانصة أنهم بعد قضاء حوائجهم في مجاز عمار من بنيان وغيره رحلوا وتقدموا إلى قسنطينة فرحل أيضا حاج أحمد باي من فج سيله ، وتقابلوا في ناحية عقبة العشارى ومن هناك بدأ الفتن بين المسلمين والفرانصيص فمات رجم شيخ الحراكنة ومات محمد الشريف بن الحمالوى قايد عامر الغرابية في ذلك الوقت ، ومات سيدى عبد الله بن الأحرش ، كانوا أوائله في المخزن ، ومات من الجيوش غير معروفين في ذلك اليوم ومات أخو سي مقران في خنيقة الزناد ولا زال الفتن من الجانبين إلى أن نزلوا على قسنطينة وقابلوها من ناحية سطح المنصورة ، ومن ناحية الكدية ، فركبوا آلة حربهم ورتبوا عساكرهم ونشأ الطراد بين الفرانصيص وناس البلاد وتمادى القتال من الجانبين فكان ذلك ثمانية أيام . وكان في اليوم السادس مات المارشال المذكور⁽¹⁰⁶⁾ بكورة نزلت عليه من الصور ، ومن بعد موته ترجع مريشال آخر الذى اسمه كونت قاله⁽¹⁰⁷⁾ فكان صاحب حرب وفطانة . فحين ترجع أمر بحفر الخنازرات . وجعلهم صفا بعد صف ، إلى أن وصلوا قريبا من صمعة سيدى بو قصبة ثم رجع المدافع وقابلهم للصور ، ونزل عليه برمي البومية والكور حتى انهدم وصار في العدم .

هذا الوقت قدم رسول من عند المارشال وولد سلطان فرانصة ويده جواب إلى ناس قسنطينة وهو هذا بنفسه : الحمد لله ولا شريك له في ملكه ولا يعبد سواه سبحانه جل شأنه وتبارك ، من سعادة كبير الجنرالية المأمور المحال الفرانصوية إلى قضات (كذا) ومفتى وعلماء ومرابطين وأعيان ، وكل واحد من سكان مدينة قسنطينة كبير وصغير يليه أعلامكم أعلمكم

(106) يقصد به دانريمون Le maréchal danremont .

(107) المارشال فالى Le maréchal vally .

أن مدافعنا تراها على أساس أصواركم فلا بد أننا نهدمها وندخل مدينتكم إن شاء الله السميع العليم . وهو على كل شيء قدير ، فإذا شئتم تمنعوا عنكم ورود هذه الداهية البلية العظيمة فلا بد منكم أن تبعثوا لي قبل دخولي إلى بلادكم آية (كذا) رجل من كبرائكم الحكماء العقلاء لأجل أن نتحدث معهم مشافهة على ذلك وعلى ما فيه خيركم وصلاحكم ، ما دام معكم الوقت وإذا فعلتم ذلك فما أنى أقسم لكم بالله العظيم وتعالى الله الكريم أن نحرم جوامعكم ونسائكم وأولادكم وأرزاقكم وأملاككم وتبقوا مقيمين وساكنين في دياركم براحة سر وبال وهناء واطمئنان ونعطى طابعنا للذين ترسلونهم لعندنا لأجل مفاوضتنا معهم وأمان الله وأمان أنبياء ورسول الله عليهم وأنتم تعلموا جيدا أننا قط ما نخذع بوعدنا وأماننا (كذا) وهذا الشيء مشهور على جنسنا عند جميع الملأ . هذا ولا زايد والسلام بتاريخ يوم الأربعاء 13 من شهر رجب الفضيل (كذا) عام 1253 هـ (108) رقم في كدية عاتي كتب عن إذن وأمر المذكور أعلاه .

فلما وصل ذلك الجواب واتصل بيد بن عيسى الذي هو باش حانبة ، وابن البجاوي الذي هو قايد الدار ، فقرؤوه وتحققوا بكل ما فيه فظنوا أنه ليس ذلك هو مقصودهم وإنما لما كادهم أمر الدخول في قسنطينة واستصعب عليهم الحال ولم يجدوا لذلك حيلة فحينئذ أرسلوا هذا الجواب ليختبروا به ناس البلاد ولعل يتمكنون بالدخول في قسنطينة من غير مقاتلة ولا إنكار فعند ذلك ظهر في عقل بن عيسى وتخمينه أنه يمسك الرسول ويتأخر برد جوابه حتى يبنوا الصور ويشدوه من خلله ، ففعل ذلك ، وبعد ما قضوا أمرهم في الصور سرحوا ذلك الرسول وأرسلوا معه جواب ليس فيه فائدة ولا صواب (كذا) وصورة ذلك الجواب :

الحمد لله من عند كافة ناس قسنطينة ، وعلمائها وكبايرها إلى سعادة كبير الخيرالية أما بعد فقد اتصل بيدنا جوابك فتصفحناه وفهمنا خطابك وتقرر عندنا معناه ، واليوم نحن لم يكون معنا كلام وإن كنت تريد الكلام فيها هو مولى البلاد وهو حاج أحمد باي نازل بقربك فأرسل إليه وتكلم معه ولا زايد غير هذا والسلام .

وأما هذا الجواب المذكور لم يحضرون فيه ناس البلاد ولا أعيانها سوى بن عيسى باش حابه فقط لأنه المتولي علي البلاد في ذلك الوقت . وقد جرى في السابق لما أتى يوسف إلى قسنطينة كاتبوه أهل البلاد ، وهو لم يتمكن بدخولها ، كان حاج أحمد باي في ذلك الوقت قتل البعض من الناس الذين كتبوا كما هو مذكور سابقا . فلذلك تمنعوا أهل البلد ولم يحضروا (كذا) لعل يصير لهم مثل المرة الأولى . فلما وصل الرسول إلى ولد السلطان فرانصة ، والماريشال بذلك الجواب استغاضوا واجتهد كل الاجتهاد ، وتقوى من جانبهم الرمي بالكور والطراد ، فانهدم الصور مرة ثانية وعظمت المهن وحلت الداهية ، وزحف عسكر الفرانسييس في المتارزات إلى أن وصل جامع سيدي بركات العروسي وزدم من ناحية الصور .

هذا الوقت نزل بناس البلاد الرعب ، والفتور فهرب بن عيسى المذكور من ناحية الطاية ، ولحقوه الكثير من ناس البلاد العامة وتبقى ابن البجاوي قائد الدار ومعه من ناس البلاد الأعيان الذين ليس لهم نسبة في البيدوان . فتقوى من الجانبين الطراد ، واشتد ذلك بين أبواب البلاد فانزعج قائد الدار المذكور ورفعوه إلى داره مجروحا فعند ذلك هجم عسكر الفرانسييس من كل جهة ودخل إلى البلاد ، وصارت مقتلة عظيمة ومعركة شهيرة بقرب الموقف ، وتخلطوا مسلمين وفرانسييس وبطل البارود فصار المسلم يضرب بالسيف والفرانسييس يضرب بالشفرة ، ولا يزالوا كذلك حتى يقعان في الأرض ميتين متعانقين ، ومات في تلك الساعة من ناس البلاد المعروفين منهم : السيد علي بن سيدي عمر الوزان ، وسي علي بن المسبح ، وإمام جامع سيدي الدني ، وسي بلقاسم بن المغلاوي وسي إسماعيل بن الذيب ، وبوذن ، وابن السبكي ، والهاشمي خديم قائد الدار ، وسي أحمد بن صالح السراج ، وابن العموري كان قائد الباب ، وحاج حسن الجيجلي ، وغيرهم .

وأما قائد الدار لما رفعوه إلى داره ودخلوا إليه بعض أطباء الفرانسييس وعالجوه وقد مات في يومه بعد العصر ، ولما انجرح قائد الدار ورفعوه إلى داره فروا المسلمون والتجأوا إلى سيدي الشيخ بن الففون مستغيثون قائلون (كذا) كيف يكون خلاصنا وأين السبيل إلى فرارنا وفي أي مكان يكون استقرارنا فأشار عليهم بتعليق بنديرة (109) طلب الأمان

التي هي علامة الدخول في الطاعة وانقطاع الافتتان ، وكتب جوابا في الحال وأعطاه للبعض من أعيان البلد وأمرهم بمشون بالفور لأجل مقابلة السلطان والمارشال فيطلبون العفوة (كذا) ويتوثقون منهما بالأمان فلما انفصلوا من عنده وصاروا في أثناء الطريق وجدوا عسكر الفرنسيين بركة الجمال والناظر عليه والمتولي أموره كمانده (110) اسمه يبدو ، فلما رأهم قاصدين له وهم في غاية الرعب والدهشة تحقق أنهم أتوا الأمر يطلبونه فحيث أمر العسكر بعدم الرمي فامتلأوا ولما وقفوا بين يديه أول ماسأهم عن طريق القصة وأين محلها فقالوا له نحن نوصلكم إليها ثم سأهم عن سبب قدومهم فأخبروه أنهم يطلبون الأمان لأنفسهم ولأهل البلد على أولادهم ونسائهم وأملأهم فأجابهم إلى ذلك كله وأعطاهم الأمان وكان عنده الإذن في ذلك الشأن لكن بشرط أن يدفعوا السلاح في القصة ليكون العفو والسماح فامتلأوا لذلك الأمر طائعين . ثم أمر برجل من ذلك الناس بمشى مع البعض من الفرنسيين ليعرفهم بطريق القصة ، والبعض أرسلهم إلى ولد السلطان والمارشال . فلما بلغوها طلبوا منهما الأمان على ما تقدم فأجابهما بذلك وفرحوا بهما . ثم رادوهم (كذا) إلى الكماندة يبدو .

ولما وصلوا ذهب معهم إلى دار سيدى الشيخ بن القفون ليظمن أهل البلاد في الأمان على ماتقدم ليسكن خوفهم فلما وصلوا قام سيدى الشيخ إلى الكماندة المذكور واستكثر من خيره وقال له إن هذه البلد لم تدخل عنوة من قديم الزمان إلا هذه المرة فقد مكنكم الله تعالى منها فيجب عليكم أن تعملوا الخير وتعطوا الأمان إلى ناس البلد ، فبذلك يتمهد لكم الأمر وتذعن إليكم الرعية والعباد .

فأجابه الكماندة المذكور قائلا له ما يكون لكم إلا الأمان التام ، وما عليكم من الدولة الفرنصوية إلا العافية والاحترام لكم ولأولادكم وحرمتكم ، ودياركم ، وأرزاقكم . فلما تكفل لهم بذلك وسمعوا كلامه الخاص والعام فرحوا أهل البلد فرحا شديدا وطمأنت نفوسهم وسكن روعهم والكماندة يبدو أهل أول من أدخل السرور والفرح على أهل البلاد ، فله عليهم مزية كبيرة ثم تكلم معه بوزيان بن العلمى قائلا له حيث أعطيتمونا

الأمان نحن أهل البلد أعطينا الأمان لأهل الوطن ليحصل لهم الهناء ، وتكون لنا القدرة على جلبكم (كذا) لخدمتكم ، ويصير الحال حسن مما كان في زمان حاج أحمد باي ، فقال له عندي الإذن تؤمن أهل البلد دون البادية ولكن نستأذن ولد السلطان والمارشال في ذلك ونخبركم بما يأذناني به . فذهب إليهما وأخبرهما أن يعطى الأمان للرعية ، فرجع الكمائدة المذكور إلى دار الشيخ وأخبرهم بالواقع ، وأعطى الأمان لأهل الوطن فبذلك زاد الفرح والسرور عند ناس البلد ، وزال عنهم الخوف والنكاد وكان ولد السلطان والمارشال من بعد ما رجعوا من عندهم ذلك الناس بالأمان تراهم تقدموا ، ودخلوا في قسنطينة ومعهم كل الجنيرالات وأرباب الدولة الفرنسية ونزلوا في الدرب الذى هو محل سكنى حاج أحمد باي فاستقروا فيه واحتوا على ما كان من ذخائره ، وكان ذلك يوم الجمعة وقت الضحى الثالث عشر في أكتوبر عام 1837 سبع وثلاثين وثمانمائة وألف بالحساب الفرنجى وأما حساب أهل قسنطينة ، أنهم يقول دخول الفرنسيين يوم الرابع عشر في رجب عام 1253 هـ . ومن بعد دخولهم خرج التنبيه على السلاح إلى ناس البلد أن من يخفي سلاحه ولم يدفعه في القصة تلزمه العقوبة فترى كل الناس بادروا بدفع سلاحهم واختاروا العافية لهم ولأولادهم فحيث استقر كل واحد من أكابر الفرنسيين بما يناسبه من المنازل ، فكان منزل الكمائدة يبدو في دار باي خزناجي متاع أحمد باي .

تهين حمودة بن الشيخ الففون حاكما على قسنطينة

وبعد ذلك اشتغل بتفريق المساكر على ديار الناس الذين هربوا وقرهم فيها وأمر لهم بما يحتاجونه من مأكل ومشروب وفراش وغيره لأنه الناظر على البلد في ذلك الوقت لما يشق عليهم أمر من الأمور يمشون إليه ولما يحضروا عنده يتكلم معهم بكلام لين حسن ويأمرهم بما يقدرون عليه فاستحسنوه ناس البلد وصاروا يركنون إليه في جميع أمورهم . ولم يزل واقفا وقوف الجذ والحزم في أيام الضيق ويسكن الناس ويمدهم بالخير وأنهم لا يخلفون .

وأما ولد السلطان والمارشال ومن معهم من أرباب الدولة الفرنسية ختموا في عقولهم ودبروا بما اقتضاه نظرهم في شأن تهينة البلاد وتمهيد الوطن وجلب العباد فاتفق

رأيهم أنهم يجعلوا حاكم في قسنطينة كما كانت العادة القديمة حتى يستقيم الحال ، وينتظم الأمر ويطيب المآل . ثم إنهم اتفقوا على سي حمودة ولد سيدى الشيخ واختاروه ولذلك الوظيفة يقدموه لكونه ذو أصل قديم ونسل شائع كريم . فعند ذلك نهضوا أكابر الفرانسييس منهم الكماندة بيدو وترجمان الماريشال ، والقبطان فليس وغيرهم من أرباب الدولة ومشوا جميعا إلى دار سيدى الشيخ بن الفقون واستقروا بالجامع الكبير لأجل أن يلبسوه وحضروا ناس البلد والعلماء وذلك يوم السابع من يوم دخول الفرانسييس في بلد قسنطينة . فلما سمع أبوه وهو سيدى الشيخ تحير وبكى قائلا ولدى صغير ونحن زاوية ملجأ القليلين نطعم الطعام لوجه الله رب العالمين وما نحتاجوا من الدولة الفرانصوية إلا الاحترام مثل ما كانوا الدول الأولين . فأجابوه قائلين : لا بد من ولدك يخدم في سريسن⁽¹¹¹⁾ وما يكون لكم ولزاويتكم إلا الاحترام منا . لأن دولة فرانصة دائما تحب تعمل الخير بالزيادة ، فترى سيدى الشيخ سلم في أمره وقدم ابنه بطيب نفسه ، فحيث لبسوه ، ولما شاع خبر ولايته انقادوا مشايخ الوطن ودخلوا في خدمة الفرانسييس بواسطته ، وانعطفوا عليهم ناس البلد العامة الذين كانوا هربوا مع بن عيسى باش حانبه ، واستقروا في منازلهم وصاروا مطمئنين ، ومن خوفهم هائنين .

وأما ولد السلطان حين نزل على قسنطينة بقصد دخولها وكان أخوه دوك دوجو نفيل⁽¹¹²⁾ في البحر ومعه سفائن عديدة مشحونة بالعسكر يطوف به بقصد ما وجه إليه من جانب الدولة فلما بلغه الخبر وأن أخوه (كذا) مقيم على قسنطينة بالفتن أتى إلى بلد عنابة بما معه من السفن وأرسى بها وأقام هناك أياما يستخير عن أخيه وعن ما وقع له مع أهل قسنطينة فلما طال عليه الحال وتغيب عنه الخبر نزل بعسكره ولحقه بقصد إعاقته فلما وصل وجده دخلها قبل وصوله بسبعة أيام فاجتمع بأخيه وحصل له الفرح والسرور وبملاقاته وبقي معه إلى أن سافروا جميعا .

ثم إن سي حمودة المذكور طلب لإلادن من ولد السلطان بأن يجعل ترتيب المخازنية في

(111) يعني مصلحتنا الإدارية من الكلمة الفرنسية : Notre service .

(112) Le duc de Joinville .

وضائفهم ويحريهم على عاداتهم لأجل جلب الرعية وتمهيد الأوطان ، فأعطاه الإذن وفوض له في ذلك الشأن فولي كل واحد لما يناسبه من الوظيفة على حسب المادة القديمة فبذلك الترتيب استقام الحال ، وطاب المآل .

ثم يرجع الكلام إلى ولد سلطان فرانصة والماريشال أنهم من بعد قضاء حوائجهم وترتيب أشغالهم سافروا إلى الجزائر وتبقى جنرال الذي هو اسمه برنيل⁽¹¹³⁾ حاكم كبير في قسنطينة وكل الأحكام بأمره وينظره . ومن بعد ذلك كان سي حمودة ابن الشيخ واقف مع الفرنسيين بخالص نيته . ولم يقصر في خدمته وكان يكتب إلى شيوخ الوطن ويحلبهم ، فأول من انقاد من الشيوخ ودخل في خدمة الفرنسيين الشيخ بوعكاز بن عاشور شيخ فرجيوة . وثم بن عز الدين شيخ زواغة ، وثم أولاد بن مذكور ، مشايخ الحركة ، وثم شيخ أمية ولا زالوا الشيوخ ينعطفوا ويكونوا في طاعة الفرنسيين واحدا بعد واحد .

ثم مشى الجنرال برنيل ، وجاء بعده الجنرال نيفريه⁽¹¹⁴⁾ فمكث زمان وما ظهر على يده شيء من أمر تمهيد الأوطان ، إلى أن جاء الماريشال الذي هو كونت فالي⁽¹¹⁵⁾ وكان رجل صاحب تدبير وسياسة فتراه جعل ترتيبا مريح وتديرا لايقا صحيح ، بأن بطل اسم الوظائف القديمة واستنبط وضائف جديدة ، وهو أنه رتب خلفوات وجعل على كل وطن خليفة ، وجعل شيوخ وقياد صغار من تحت كل خليفة وبقي سي حمودة المذكور حاكم في داخل قسنطينة وكل التصريفات المذكورين تجرى بنظر الجنرال الكبير ، فصار الأمر مستقيما بهذا الترتيب ، وانقاد الناس لذلك التدبير المصيب .

وكان الماريشال المذكور من بعد ترتيب ذلك الوظائف وتأسيسها على النمط المستأنف ، سافر إلى الجزائر وتبقى الجنرال المتسمى فالبوا⁽¹¹⁶⁾ حاكم كبير في قسنطينة وعمالتها وهو رجل كامل العقل بالغ السياسة فجلب الناس إليه بعقله ومهد البعض من

(113) هو الجنرال تريزيل : Le general trezel وقد نطقه محرفا تولي عام 1837 م .

(114) Le general negrier عام 1837 م .

(115) Le marechal comte vatee عام 1839 م .

(116) Le general de galbois عام 1838 م .

الأوطان بسياستها وكان المعين له في أموره وأسبابه ترجمانه موسيو أربان⁽¹¹⁷⁾ وهذا الاسم تفسيره بالعربية أديب الزمان . وهو المتسمى عند العرب سي اسماعيل لأنه صاحب عقل وتدير في مصالح العباد بالخير الكثير . فبذلك استفاد حال الجنرال المذكور ، وصار أمره مستحسنا مبرور ، ونزلت العافية في وقته إلا أن البعض من الأوطان القاصيين باقين ممنعين لا تناههم الأحكام ولا يؤدون مطالب البايليك بالتمام ، ومنهم وطن الصحري وطم وطن الحراكمة وطم جيل أولاد سلطان ، وغيرهم حسبما نذكره آتيا مفصلا ومبيناً .

قدوم الدوك دور ليان إلى قسنطينة

وفي زمن الجنرال فالبوه جاء ولد سلطان فرانصة الذي هو دوك دور ليان⁽¹¹⁸⁾ ومعه الجنرال فالي ، وجنيرالات وكان قدومه على السكيدة فلما سمع الجنرال فالبوه بقدومه خرج من قسنطينة ومعه أصحاب الوضائف وشيوخ الوطن بقصد ملاقاته ومشوا جميعا للسكيدة فلما وصلوا أقاموا هناك يوما إلى أن وصل ونزل من المرسى فوقفوا بين يديه وفرحوا كل الفرع بقدومه فاستكثروا من خيرهم وشكرهم على حسن صنعهم ، ثم بعد نزوله واستقراره في داره تقدموا إليه أصحاب ذلك الوضائف المذكورين ، وشيوخ الوطن المتعينين ويدهم الهدايا من الخيول المسومين ووقفوا بباب دار نزوله فلما سمع بهم خرج بنفسه إليهم وأعرضوا عليه ذلك فأعجبه ثم تكلم معهم على لسان الترجمان الذي هو موسيو أربان المتقدم ذكره قائلا لهم قد تحقق عندي أنكم قدمتم إلي فارجحني ويديكم الهدايا من الخيول المسومين فإني قد فرحت بكم وأعجبنى حسن صنعكم وقد زاد عندي تحفيقا بأنكم خدام الدولة الفرانصوية . ولكن ما قدمت لأجل أن تأخذ منكم ، وإنما قصدى في قدومي هذا لنشوفكم ونشوف بلادكم ونعطوكم من عندي لما بلغ عنكم وأنكم منصحين في خدمتكم ، ويكون متحقق عندي أن كل من أتى بهدية فإني قبلتها منه ورديتها (كذا) إليه بخالص نيتي . ثم أمرهم بالدخول إلى داره فدخلوا فلما استقروا أنعم عليهم بالعطايا الثمينة من السلاح المذهب ، والمصوغ ، والسوايع وغير

117) George thomas ismail urbain .

118) Le duc d'orlean وذلك عام 1839 م .

ذلك لكل واحد ما يناسبه . وخرجوا من عنده مكرمين فرحين ثم إنه أقام يوما هناك لأجل الاستراحة ، ومن الغد توجه إلى قسنطينة بقصد الفرجة والنزهة فلما وصل خرجوا إليه العلماء وعامة الناس البلاد . ولاقوه بالفرح والسرور ، فاستكثر هو من خيرهم وفرح لفرحهم ، ثم أقبل عليهم بالإحسان وأعطى للعلماء بما يناسبهم مثل الأولين وإجراء الصدقات للفقراء والمساكين ، والضعفاء والقليلين ، وكانت مدة إقامته في قسنطينة نحو خمسة عشر يوما وفي تلك المدة يحظر العلماء عنده ويتكلم معهم بكلام حسن ويطلب خواطرهم ويحرضهم على حكم الشريعة . ثم من بعد خروج العلماء من عنده يدخلون إليه أصحاب وضائف الخزن وشيوخ الوطن كذلك يتكلم معهم بطيب الكلام ثم يوصي كل واحد منهم بالسيرة المحسنة والعدل مع الرعية التي هو متوضف عليها . ومن بعد خروجهم يدخلون إليه أعيان البلاد وأمناء الصنائع فيرحب بهم ويعددهم بالخير فيما يستقبل . ولا زال على هذا المتوال من فعل الخير والصدقات بالطعام وبذل الأموال إلى أن سافر إلى الجزائر . ولما أراد الرجوع إلى بلده تأسفوا الناس على فراقه وتمنوا بقاءه لخيرهم معهم وإحسانه فكان صفه (كذا) للجزائر في البر على طريق البيان والحال أن تلك الطريق صعبة فسلكتها من غير فتن ولا هرج وذلك من سياسة الماريشال فالي وتديره وحزمه في أموره (119) .

وأما الجنرال فالبوه المذكور فإنه مكث حاكم في قسنطينة نحو عامين وزيادة وفي أيامه نشأت السكيكدة وظهرت وكذلك سطيف أسس بنيانه واشتهر ، وكذا غيرها من الأماكن الذي أسست وجعل فيها عسكر فرانسيس لتمهيد الوطن وعمارتها ونزول عافيتها ، ثم بعد الجنرال فالبوه جاء الجنرال نيقرية (120) مرة ثانية وهو رجل طبعه حار وكان مشى إلى تبسة وهي قرية قرب عمالة تونس فخدموا البعض من ناسها وبعد رجوعه من عندهم نكلوا (كذا) وبقوا كما كانوا ونقضوا أمره ولم تكن خدمتهم كاملة . وفي زمانه جاء الخير بموت سلطان فرانسوا دوك دورليان المتقدم ذكره أنه مات بالكروسة

(119) لقد كان عبور دورليان وفالي لمضائق البيان في أوائل نوفمبر 1839 سببا في نقض معاهدة نافنة وعودة الحرب بين الأمير عبد القادر وفرنسا في الشهر نفسه .

(120) Le general negrier مرة ثانية عام 1841 م .

لفراقه وتأسفوا عليه كثير . وفي زمانه أيضا ظهر شريف في ناحية الساحل وفسد على الفرنسيين ولا زال كذلك إلى أن جاء الجنرال برافيدلية المسمى عند العرب بوذراع⁽¹²¹⁾ وهو رجل صاحب شجاعة في الحروب وكان مشى بالحقلة إلى بعض الأوطان فمهدهم ، ورتبهم وخدموا ناس ذلك الأوطان على وجه مليح وقتل الشريف الذي كان يفسد على الفرنسيين في زمان الجنرال نيقرية فبذلك تمهد الحال .

وفي هذا الوقت ظهرت وظيفة بيرو عرب في قسنطينة وكان المتولي حكومتها قبطان اسمه بوسني والعرب يسمونه بوسنه⁽¹²²⁾ وهو رجل عاقل له سياسة مليحة وفطانة بليغة وله معرفة بأحوال العرب لأنه يحسن التكلم بالعربية ومطلع على الكتب الإسلامية كثير النظر فيها ويفهمها مليح ويحب العلماء والأولياء ويفضلهم على غيرهم لكونهم دائما يكونون واسطة خير بين الناس .

ومن عادته أن من يأتيه شاكيا يسمعه في الحين ولا يتراخى عنه ويقضي حاجاته بما يناسبه ومن جملة سيرته الحسنة أنه لا يبادر بتعجيل العقوبة لمن يستحقها خوفا من الغلط في الحكم بها بل يتروى في ذلك وينظر حتى تظهر ظهروا بينا . والحاصل أنه يعجل في فعل الخير ويتأني في العقوبة ، ومن هذا الصنيع استحسنوه ناس الوطن وناس البلاد وضرخوا لذلك مثل فصاروا يقولون : هذا زمان القبطان بوسنه ، كول كسيرتك واتهنى ، ومعناه أنه رجل صاحب عدل وسياسة ما عنده حمية مع واحد ولا حماسة (كذا) ، وكانوا القياد والمشايخ قبل ذلك يأخذون الجور من ناس الوطن ولما تولى القبطان المذكور حكومة العرب تراه مشى الأحكام بسياسة مليحة ونظر في أحوال العرب بسيرة مستحسنة ظريفة حتى فهم الناس كلهم أحكامه واستقام بالعدل والحق نظامه ، وزال بسبب ذلك الجور والظلم الصادر من كبراء العرب قبل رجوع القبطان المذكور للدرب .

(121) Le general baraguay d'hilliers وتولى عام 1843 م .

(122) بيروعرب هو المكب العرفي ، وبوسنه هو : Boissennet والذي أولاه هذا المنصب هو الجنرال بارغوي ديلبي في أوت 1843 . وهو الذي كلف صالح بن العتري بتأليف هذا الكتاب من تاريخ قسنطينة فألفه وطبعه له الطبعة الأولى عام 1846 ، والثانية عام 1852 م .

العودة إلى حاج أحمد باي :

ثم نرجع إلى قضية حاج أحمد باي رحمه الله تعالى فإنه حين دخل الفرنسيين في قسنطينة واستولى عليها كان هو خارجها ، فبكى واستبكى ، وندم على ما فرط حين كان وقع الكلام بينه وبين ولد سلطان فرانصة ، في شأن الصلح والمهادنة فصار له مثل حكاية : آه على ما فات . فحصل له الإياس ، وتفرقوا من عنده كل الناس . فتراه جمع كل ما له وضم إليه المتقربين من خدامه وقصد وطن الصحراء فلما وصل مدينة بسكرة نزل بها واستغاث بناسها قائلًا لهم كل الفرنسيين أخذوا الجزائر ، واستولى عليها من كونها مؤسسة بطرف البحر ، فسلمنا أمرها ثم التجأ إلى بلادنا قسنطينة وظهر في عقولنا أنها بلاد عروبة لا يقصدها الفرنسيين ، ولا ينجح إليها ، واليوم يحكمه وجاء إليها الفرنسيين بعساكره وتمكن فيها بقوته . أما تتحققون أن قسنطينة هي بلادكم تتسوقون إليها بأرزاقكم وتبيعون وتشترون فيها . ولكم فوائد كثيرة منها لأجل ذلك قدمت إليكم ونزلت في وطنكم فنزيد منكم تجمعون جيوشا من ناسكم ، وخيولا من أبطالكم وتقدموا جميعا إلى قسنطينة نحاصروا الفرنسيين ، الذي في داخلها ، ونقطعوا عليه الطريق خارجها . وإذا كان هذا التأويل لازم يضيق الحال به ، ويظهر الكلام من عنده عسى يكون في ذلك صلاحنا ، وتنظم إلينا بلادنا .

فلما سمعوا كلامه وفهموا مقالة امثلوا إليه وجبروا خاطره ووعدوه بأن يوفوا له مراده . وكان من بعد تخميم ظهر منهم الملل وكاد هم البعد ، ونزل بهم الوجمل ، فلما نظر حاج أحمد إلى حالهم ، وتحقق له تخلف وعدهم ، وعدم تحصيل ما أرادوه منهم ، تراه رحل من عندهم وقصد موضع بطرف أوراس يسمونه منعه . فحزن فيه الكثير من ماله وبقي هناك البعض من حريمه من كون ذلك الموضع حصين وناسه بالخير معروفين .

ثم انتقل إلى وطن الحراكتة من كونه وطن عريض وناسه طبعهم غليظ ، فلم تكن لهم سياسة يدركون بها عاقبة الأمور ولا عندهم فطانة فيتخلصون بها من المخذور ، فلما نزل عندهم وتكلم معهم مثل ما تكلم مع ناس الصحراء ، فأنقادوا لقوله وامثلوا لكلامه بعد ما أكرموه وبأحسن الضيافة ضيفوه . ثم شرعوا في الفساد وتمادوا على الظلم ونهب

أرزاق العباد ، وكان ذلك في زمن الجنرال البوه ، فمشى إليهم بالعسكر والسرور⁽¹²³⁾ وغزى (كذا) عليهم فهزمتهم هزيمة كبيرة وهربوا من وطنهم . وكان حاج أحمد باي مستقر عندهم فلما وقع بهم ذلك الأمر انتقل من وطنهم وقصد وطنا آخر يسمى بالدير ، وهو قريب من عمالة تونس فلما نزل عندهم فرحوا به ناس ذلك الوطن وأكرموه غاية الإكرام ، وأقاموا بحقه أتم القيام فتراه مكث عندهم زمان في العز والإحسان إلا أنهم لم يوافقوه على الفساد فلما تحقق منهم عدم الموافقة مكر بهم وقتل كبارهم وأراد أن يستولي على وطنهم فقاموا عليه عامة ذلك الوطن وأرادوا يقتلوه ففر هاربا إلى موضعه الذي كان بقا (كذا) فيه حريمه وماله المتسمى منعة ، فمكث هناك زمان ثم ظهرت منه فارطة وقتل البعض من ناس ذلك البقعة ظلما وعدوانا فقاموا عليه عامة ذلك ، ولولا كبارهم منعه لقتلوه العامة (كذا) .

ثم انتقل من هناك بجميع حريمه وقصد نجع أولاد دراج في وطن الحاضرة ففرحوا به وأحسنوا إليه لكن البعض من ناس ذلك الوطن أرادوا يمحروا به فيمكوه وبأتوا به إلى الفرانسييس فلما أحس بالخدعة انتقل من عندهم وقصد إلى جبل أولاد سلطان من كونه جبل حصين الملجأ إليه واستقر فيه . لكن صار له مثل ما صار إلى ناس غرناطة ، حين جاء إليهم الإسبانيول وكانوا ناسها دائما مشغولون باللهو والطرب ، فحين نزل عليهم جاءهم النذير وقال لهم تيقضوا (كذا) وأوقفوا على أنفسكم فإن السبانيول استولى عليهم فقالوا حتى نكملوا هذا الشغل ، ثم جاء إليهم مرة ثانية وقال لهم وصل أبواب مدينتكم فقالوا له أيضا حتى نكملوا الشغل الآخر ، فما زالوا يفرغوا من شغل ، ويدخلوا في شغل آخر حتى دخل عليهم الإسبانيول واستولى على وطنهم⁽¹²⁴⁾ كذلك حاج أحمد باي صار ينتقل من وطن إلى أن وصل إلى جبل أولاد سلطان وصار به ما صار من التشتيت والهوان حتى نزل ولد سلطان فرانسة على ذلك الجبل كما سذكروه آتيا .

(123) المقصود بالسرور عل ما يظهر من القافلة العسكرية ، وقد ردد هذه الكلمة عدد من شعراء الملحنون في أشعارهم .

(124) إن هذه المقارنة مخطئة من أساسها لأن الحاج أحمد لم يتهاون كالاندلسيين ولكن الظروف التي كان يواجهها صعبة جدا ، إن العتري يبحث عما ينقص من قيمته فقط ، وإلا فلا وجه للمقارنة .

ذكر قدوم ولد السلطان الذى هو دوك دومال : Le duc daumale :

وكان وصوله إلى قسنطينة يوم الأربعاء الثالث والعشرين في ذى القعدة عام 1259 ألف ومائتين وتسعة وخمسين (125) ففرحوا الناس بقدومه فرحة عظيمة وخرجوا إليه أعيان البلد وكبرائها (كذا) بقصد الملاقات . وانقادوا إليه شيوخ الوطن والقياد والخلفوات وقابلوه بالهدايا من الخيول المسومات ، فقابلهم بالأمان والإحسان وقائلا لهم على لسان الترجمان إنى قدمت إلى هذا الوطن نشوف في ناسه وندبر في شأنه وأسبابه ، ونأمل الخير في قدومي إليكم ويكون السعد القوي عندكم ، فبذلك زاد عند الناس فرحا كثيرا واستكثروا من خيره استكثارا جزيلا ، وكان ترجمانه موسيو أربان الذى ، هو سي إسماعيل المتقدم ذكره لأنه صاحب سياسة بليغة ، ثم إن ولد السلطان المذكور من بعد استراحته تصدى للأحكام لسمع شكاية الخاص والعام ويحضر العلماء في مجلسه ، يفصلوا القضايا الشرعية ليتصل صاحب الحق بحقه ، فهذه سيرة من سير الملوك السابقين ، ومن تمام عقله وإرادته بالخير لأهل الوطن وناس البلاد أنه أسقط الامكاس الذى كانت تلزم البائع والشارى من الزمان المتقدم ، فبإسقاط ذلك الامكاس وإبطالها كثرت السلع ورخصت (كذا) الأسعار .

ثم إنه زاد مصلحة أخرى بأن قسم البلد شطرين وعين شطرا يسكنون فيه المسلمون والشطرا الآخر يسكنون فيه الفرانسييس ، وكان قبل ذلك سكناهم مختلط . وظهر إلى ولد السلطان في ذلك التقسيم صلاح المسلمين ويحبوه ولهم في ذلك حظ ومنفعة وهو لما أن كان بقرب ديارهم بعض وكاندات (126) فرانسييس فإنهم ييطلون بسبب الأمر الذى صدر . فهذه فائدة لا أحسن منها . وثانيا يرخص الكرى (كذا) عن الضعفاء والمساكين بانحياز المسلمين في شطريهم ، فكان لفاعله مزية وأجر كبير .

ولما فرغ من تدبير ما يصلح بالبلاد اشتغل بأمر الوطن فكتب أوامر عديدة بالعربية وفرقهم على مشايخ الوطن والقياد ، فأول ما أمرهم باتباع أحكام الشريعة ثم بالسيرة الحسنة مع الرعية وجعل لكل قائد ولكل شيخ قدرا معينا يأخذونه مما يستوجب الخطية

(125) الموافق ليوم 4 ديسمبر 1843 م .

(126) بقصد بها قتادى على ما يظهر أو خانات .

أيضا قدرا حتى خدمتهم يأخذونه في وقت سلاك⁽¹²⁷⁾ مطالب البايليك . وكذلك أيضا جعل قدرا خفيف للأعراش والعزل في شأن الزوايل⁽¹²⁸⁾ الذين يحملون الحلاس وهو قش البايليك⁽¹²⁹⁾ وغير ذلك فكان في هذه القوانين صلاح للوطن والبلاد ورفقا بالرعية والعباد .

ثم إن ولد السلطان المذكور من بعد ترتيب ذلك القوانين وتنظيمها شرع في تجهيز حملة قوية من قوم وعساكر فرانسوية ، وقصد وطن الصحراء فلما وصل إلى بسكرة تلقوه ناس ذلك الوطن بالطاعة والامثال ، ودخلوا في خدمة الفرانسييس من غير مراجعة ولا نكال ، إلا بعض قليل تمنعوا وهربوا إلى شاهق جبل اسمه أحمر خدو وهو جبل حصين فلحق بهم ولد السلطان بمن معه ففتنهم فتنا كبيرا فهزمهم وفروا جميعا ثم رجع إلى بسكرة فرتب فيها نوبة من عسكر ، ورجع فيها قايد من أولاد بن فانة . وأقام هناك أياما حتى قضى حوائجه وأثبت تلك النوبة بجميع ما ينوبها ودفعوا ناس ذلك الوطن مطالب البايليك بالتقام . ثم من بعد ذلك رحل ولد السلطان من بسكرة وقصد جبل أولاد سلطان وهو جبل حصين لكثرة شعبه وتصب طرقاته وشجاعة ناسه . وكانوا في زمان الترك لا تنالهم الأحكام ولا يعطون مطالب البايليك بالتقام⁽¹³⁰⁾ .

وكان حاج أحمد باي هذا الوقت نازل عندهم بخيامه وحريمه ، فلما نزل عليهم ولد السلطان المذكور تراه صعد إلى جبلهم بالعساكر والسرور ، وجعل جيوش العرب من وراء الجبل ، ودوروا به الفتن من كل جهة فانهزموا أولاد سلطان هزيمة كبيرة وانهزم حاج أحمد باي معهم ، وضاع له رزق كبير ومال كثير ، وما نجى (كذا) إلا بنفسه ومات البعض من حريمه في ذلك الهزيمة . وما حل به ذلك إلا من قلة عقله لما أن جعل رأيه في يد غير العقلاء ، ولو اتبع كلام الناس العقلاء أول الزمان لم تجر عليه هذا الامتحان ، ولكن الأمر مقدر ولا ينفع الحذر من القدر⁽¹³¹⁾ .

(127) يعني وقت استخلاص ضرائب البايليك المطلوبة .

(128) يعني الخيول والأحصنة التابعة للبايليك أى الدولة .

(129) يقصد بالقش الأمتعة والحوائج التابعة للبايليك والتي عبر عنها بالحلاس كذلك .

(130) يشير بهذا إلى حملة الدوك دومال إلى بسكرة في فيفري ومارس 1844 م .

(131) هذا من قبيل التحامل والاستغفار للحاج أحمد باي والتغريب من الفرنسيين .

وأما أولاد سلطان من بعد هزيمتهم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى وطنهم ويكونوا
خدام كصائر الرعية التي هي تحت حكم الفرانصيص فعند ذلك عفى (كذا) عنهم ولد
السلطان وآمنهم ، ورجع عليهم مشايخ ، ومن بعدهم خدموا ناس ذلك الأوطان والجبال
من غير فتن ولا قتال ، وهم : جبل أولاد علي ، وجبل أولاد سلام ، وجبل أولاد
قاطمة ، وغيرهم من الأعراش النازلين بجيامهم في الوطن⁽¹³²⁾ . الاخطر الحلقاوى
وأولاد زيان ، والحراكنه عرب المعذر ، وأولاد شليح ، وأولاد فضل ، وأولاد فضالة ،
والعشاش ، والبعض من أوراس .

ولما خدموا الناس المذكورين وظهرت طاعتهم وكل فرقة استولي عليها شيخ يتولي
أمرها ، هذا الوقت خمم ولد السلطان في عقله أنه يجعل تأويلا يدوم به تمهيد ذلك
الأوطان وتثبيت العافية فيهم مدة الزمان فاقتضى نظره الرشيد أن جعل نوبة من عسكر
فرانسيس في باتنة الذى هي واسطة ذلك الأعراش وواسطة طريق الصحرى (كذا) .
وأسس بنيانا لاستقرار ذلك النوبة ورجع قائد في باتنة من أولاد بن القاضي وصار أمرها
مشهور يستريح فيها القادم من الصحرى ، ويلجأ إليها الوارد من الأرض القصوى ، وكان
هذا الوطن في السابق محل صميب (كذا) لا يجوزه المسافرون إلا بالقوة الكثيرة
والقفول⁽¹³³⁾ الغزيرة .

ثم إن ولد سلطان من بعد قضاء حوائجه في وطن الصحراء وترتيب نوبة بسكرة
ونوبة باتنة على الوجه الأحصى (كذا) تراه رجع من سفره مسرورا ، وبنيلا مرغوبة
مسرورا . ودخل إلى قسنطينة ففرحوا ناس البلد بقدومه وشكروه على حسن صنعه ودعوا
له بخير على ما ناله من التعب والافتنان في ترتيب الأحوال وتمهيد الأوطان فأجابهم هو
على لسان الترجمان : إني قد أبذلت المجهود لأجل أن تكون العافية في الأوطان فيها تنبسر
الأرزاق ، ويكثر بيعكم وشراؤكم ، وتبقون في الهناء إني دائما نفرح بكم لأن خدمتكم
مع الفرانسيس خدمة مليحة وسيرتكم معه مستحسنة ظريفة .

(132) يعنى السهل أو منح الجبل المنبسط .

(133) يعنى القوافل .

ومن بعد ذلك دولة فرنسا تثنى عليكم بالخير لما بلغها من حسن طاعتكم ونصحكم ومرادى تخلفكم في العافية إلى آخر ما تكلم معهم . فاستكثروا من غيره وفرحوا بحسن كلامه وانفصلوا من عنده على حسن حال ، وأتم منوال .

وبقى ولد السلطان مشغلا بأموره مدة أيام فلما تعين له السفر إلى باريس اجتمعوا عنده العلماء ، وأعيان البلاد ، والخلفوات ، والقياد ، فلما حضروا بمجلسه أكرمهم وفرح بهم ثم أخبرهم أنه مسافر إلى باريس ، بلاده لقضاء مآربه ويرجع بعد مدة قليلة . فلما سمعوا كلامه تغيروا لفرقه وقائلين لا نرضوا بفراقك ونحبوا أن تبقى معنا مدة حياتك لما رأينا من إحسانك معنا وجزيل خيرك معنا ، فأجابهم إني خلقت لكم رجل كبير صاحب عقل وسياسة وتدير وهو الجنرال بيدو ونوصيه عليكم بأن يبقى معكم بالسيرة الحسنة وما يكون معه إلا الخير إن شاء الله ثم وادعوه ودعوا له بالخير والسلامة (134) .

ولما عزم على السفر طلبوا منه البعض من أصحاب الوظائف يمشون معه إلى باريس بقصد الفرجة والتنزه فأجابهم لما أرادوه وأعطاهم الإذن فيما رغبوه ، وبعد ما سافر لحقوه إلى باريس وهم : سي علي بن باحمد ، وسي الأخضر بن وان ، وسي البوروني ، وسي بوالأخراص ولد شيخ العرب ، وسي أحمد ولد سي مفران ، وسي أحمد ولد أحمد بن محمد خليفة مجانة ، وسي محمد الشاذلي قاضي في فلسطين ، والعالم العلامة الداركة الفهامة صاحب العقل والمشهور بالفضل السيد الحاج محمد بن الخروني وهو من ذرية العلماء المشهورين . فأقاموا بها أياما في عز وإكرام وتفرجوا في باريس وما فيها من العجائب المستحسنة والغرائب المستظرفة وشاهدوا دولة فرانصة وملكها ، وترتيب عساكرها ، وآلة حربها . ولما قابلوا سلطانها تلقاهم بالفرح والسرور وخاطبهم بكلام يليق مع الرفق واللين . ومن بعض كلامه لهم : أنا فرحت فرحا كثيرا لما رأيتمكم مجتمعين قدامى في داري بين أهلي وأولادي فالآن أنتم عندي مثلهم وأنا لا أنساكم كأنكم أنتم الذين دبرتم العافية مع أولادي في وطنكم . وقاتلتم المفسدين تحت طاعتهم ونظرهم ، وأنا نحمد الله الذي ملك أرضكم للجنس الفرانصوي دون غيره من الأجناس ليكون لكم الخير

(134) غادر الدوق دوماق فلسطين يوم 3 أكتوبر 1844 وخلفه الجنرال بيدو مدة ثم تغيب وناب عنه مؤقتا الجنرال رانديون حاكم الكنائس بعثابه إلى أن عاد .

والعافية . ولا تظنون أنا نمسك بلادكم بالفتن بل نملكوها بالعافية الكاملة ولا نقصدوا أحد بسوء إلا الذى أراد الفساد . وإنا نبذل جهد في حفظ دينكم وشريعتكم ، وبقاء مساجدكم وتعميرها وإحياء مدارسكم وعلومها حتى يحسبونا العرب أحيابا لهم ويظهر لهم أن لا غرض لنا في إفساد دينهم وشريعتهم ونطلب من الله جل جلاله أن يعيننا على مصالحكم كلها ، إنه على كل شيء قدير .

ولما سمع الجماعة المذكورين كلام سلطان فرانصة فرحوا بذلك فرحا شديدا وشكروه شكرا جميلا وقالوا له بما قلته تكون أرضنا طيبة وسنخبر بكلامك أهل أرضنا ليفرحوا . ثم ودعهم وانصرفوا بعد ما أعطى كل واحد عطية تليق به . وأقاموا بباريس بعد ذلك أياما ورجعوا لقسنطينة فرحين مسرورين إلا ابن الخروبي فإنه بقى بداره بالجزائر ، ولما دخلوا قسنطينة استراحوا يوما واحدا ، وقابلوا السيد الجنيرال بيدو الذى تركه ولد السلطان بعده حاكما وسأله عما رأوا بفرانصة فأخبروه . وهذا الجنيرال لما خلف ولد السلطان سار في الناس بسيرته ، وأمضى قوانين ولد السلطان وأتبعها فازداد عند الناس أهل الوطن حبا ، ومع ذلك يعرف اللسان العربي ويحدث الناس بلسانه ويفهمون كلامهم ويفهم كلامهم من غير واسطة ترجمان .

وهذا الجنيرال هو الذى تقدم الكلام على فعله الخير مع الناس وقت دخول الفرانسييس البلد وهو إذ ذاك كانده⁽¹³⁵⁾ . وهذا سبب كثرة الفرح به حين خلف ولد السلطان وقد كان وعدهم ألا يكون بعده إلا الذى يفعل الخير مع الناس فصدق في كلامه ووعدده ، ولما تولى الحكم في رمضان سنة 1260 هـ⁽¹³⁶⁾ قام بقسنطينة نحو الستة أشهر وذهب إلى أرض أوراس ليدخل أهلها في طاعة الدولة . وهي أرض صعبة لكثرة الجبال بها وخشونة أهلها وعدم معرفتهم لسياسة الأحكام والحكام لأنهم لم يدخلوا من سابق الزمان تحة ولاية الترك ولا ينالون منهم شيئا إلا بغارة عليهم في بعض الأحيان ، فأقام عليهم مدة حتى أدخلهم في الطاعة بسياسته ودفعوا ما جعلوه عليهم من اللوازم والمطالب وتابوا من عصيانهم وفسادهم ، فعند ذلك جعل

(135) أى حاكم من الكلمة الفرنسية : Le commandai .

(136) الموافق لشهرى سبتمبر وأكتوبر 1844 م .

عليهم قائدا يسمى مي محمد ولد سيدى بلعباس صاحب منعة . ومنعة هذه كما سمها قلعة بأوراس ، وهذا القائد من بيت كبير أهل علم وصلاح وكل أهل تلك الناحية يحبونهم من قديم الزمان . ثم رجع إلى قسنطينة من بعد فراغه من حاجته مسرورا . وقابله أهل البلد وهنوه بالسلامة . ثم أقام بقسنطينة زمانا وسافر إلى باريس قاعدة ملك الدولة وأقام بها أربعة أشهر ورجع . ولما رجع إلى قسنطينة وجد رجلا من أصحاب الفساد قام بناحية سطيف بأرض عموشة يسمى مولاي محمد ودعى (كذا) الناس إلى حرب الفرنسيين ، ورغبهم في ذلك وقال لهم أنا صاحب الوقت نخرج الفرنسيين من هذه الأرض فأجابوه إلى ما طلبه منهم ، واجتمعت عليه الجموع من أخلاط الناس ، وصار يغير على رعية الدولة يأخذ أموالهم ويقتلهم ووقع بذلك هرج كبير ، ولما بلغ ذلك السيد الجنرال بعد رجوعه من فرانصة أراد أن يخرج إليه بالعساكر الفرنسية ثم دبر بعقله أن العسكر الفرنسي إذا خرج إلى العدو يغلبه ولا يقدر على مقابله ويهرب أهل الفساد بأنفسهم ويبقى ضعفاء الناس مثل الشيوخ والصبيان والنساء الذين لا دخل لهم في الفساد فتهلكهم العساكر وقت الحرب ، وفرار المفسدين ، فأدركته الشفقة فكتب الكتب إلى أعراش القبائل القائمين مع هذا المفسد وأخبرهم فيها بحاله من أوله إلى آخره وأنه يكذب عليهم مثل كذبه على من قبلكم وذكر لهم فيها أيضا أن الخير كله في العافية لأن بها يكون ميسرة العيش وأنذرهم أنهم إن لم ينتهوا عن فسادهم تخرج إليهم العساكر الفرنسية ، فتهلكهم عن آخرهم ويكون وبال فسادهم عليهم . وفرق الكتب على الأعراش المتقدمة ، ولما بلغتهم وتأملها عقلاؤهم ظهر لهم أن كلام سعادة الجنرال جيدا وصوابا (كذا) فتفرق عليه أكثر الجمع بتدبير عقلائهم وبقي أمره في وهن حتى تفرق عليه الكل وفر بنفسه⁽¹³⁷⁾ وانظر إلى هذه السياسة العظيمة والتدبير الحسن كيف حقق دماء الناس وكف الفتنة بين العرب والعساكر وفعل بكلامه ما لم يفعله الإنسان بحسامه ، فشكر الناس فضله واستحسنوا فعله . ومن سياسته أيضا أنه لما رأى المسلمون (كذا) يحبون شريعتهم مثل غيرهم ويحبون دوامها بينهم ، وبلغه أن البعض من أصحاب الوظائف من كبار العرب لا يوصلون الناس إلى حقوقهم ، ويتعرضون لهم لأغراض لهم في ذلك

(137) مولاي محمد حارب مع الناصر محمد بن عبد الله بومعزة في جبال الوشرس ، والظهرة ثم انتقل إلى بني بعل غرب سطيف وأسس هناك زاوية واستقطب حوله أنصارا عديدين وشارك في عدة انتفاضات قبل أن يختفي . انظر دراستنا : المجهولون من زعماء المقاومة في الشرق الجزائري . مجلة الأسئلة عدد 34 / 33 (الجزائر — فيفري ، مارس 1978) ص 31 - 38 .

خصوصا الفقراء والضعفاء ، وإذا طلبوا الشرع تعرضوا لهم ، ومنعواهم من ذلك وربما بعثوا إلى القاضي ويأمرونه أن لا يدخل نفسه في قضيتهم ، وهذه عادتهم في السابق مع الترك ، جعل كتبها ذكر فيها أن القضايا (كذا) يلزمهم أن يحكموا بالحق ولا يخافون من شيء أصلا ولا يستحون من قائد ولا غيره ، وأمر كل قائد أن ينبذ حكم القاضي ولا يتعرض له وذكر ما يلزم القاضي وما يلزم القائد مع القاضي ، ومع رعيته ، وما يلزم الرعية معه ، وفرق ذلك على القضايا ، والقياد ، وقرئت كُتبه على عامة الناس وفهموها غاية الفهم ففرحوا بذلك فرحا شديدا حيث بطل التعرض للشرعية . وشكروا سعادة الجنرال المدير لهذه الأمور حتى حلمها الناس كلهم ، ومن ذلك الوقت وهن المتعرضون للشرعية .

وفي رجب عام 1262 اثنين وستين ومائتين وألف (138) رجع ولد السلطان حاكم قسطنطينة المتقدم إلى قسطنطينة بقصد الفرجة . ولما سمع بقدمه أعيان البلد والقياد وكبراء الأعراس اجتمع الكل بقسطنطينة بقصد ملاقاته إلى سكيكدة وساروا إليها ومقدمهم السيد القبطان بوسنة متولى أمور العرب بقسطنطينة وهم في غاية الفرح والسرور لأنهم لم ينسوا ما فعله معهم من الخير زمان ولايته ، والقبطان المذكور يسير بالناس ويرتبهم في السير ترتيبا حسنا بحيث جعل كل قائد يسير أمام قومه لا يفصلهم غيرهم عن بعضهم بعضا . فإذا فرغ قوم القائد الأول تقدم قائد آخر بقومه وهكذا . والكل سائرون بالطريق لا يعدل عنها أحد ويأتوا بحروش (كذا) وفي الليل ركب السيد الجنرال بيدو في خاصته وسار إلى السكيكدة واجتمع فيها بولد السلطان ، ولما خرج ولد السلطان من السكيكدة وبلغ واد الصفصاف وجد القوم مرتبين ترتيبا حسنا بإشارة السيد القبطان المذكور ، وحين بلغهم ولد السلطان سلم عليهم وسلموا عليه وهنئوه بالسلامة . وكلما مر بفريق يضربون البارود وهكذا . وكان يوما مشهودا ، وشكر الناس سياسة القبطان المذكور وترتيبه لهم على هذه الهيئة بحيث لم يسقط منهم أحد على فرسه . ولم يصب أحد منهم بالبارود ولو كانوا على غير هذا الترتيب لوقع بهم ما ذكر حتى دخل قسطنطينة يوم الاثنين الخامس من رجب من السنة المذكورة . وأقام بها يومين ، وفي اليوم الثاني دعى كبراء

البلد من العلماء وغيرهم وقت الغذاء وأكلوا معه على مائدة واحدة بعد ترتيبهم في الجلوس عليها بحسب مراتبهم من القرب والمقابلة والبعد والمقابلة ، وتكلم معهم كلاما حسنا ووعدهم بكل خير ولما رجع إلى السكيكدة رجع معه وسائره كل من لقيه من الناس أولا على الترتيب المتقدم حتى بلغ ولد السلطان إلى السكيكدة فوجد نحو الثلاثة آلاف من الفرسان مرتبة يمينا وشمالا ، ترتيبا حسنا من باب قسنطينة أحد أبواب السكيكدة إلى ستورة آخر المرسى ونزل بالأوطيل⁽¹³⁹⁾ لينتظروا (كذا) ونزل معه كبراء الفرانسييس إلا السيد القبطان المتقدم فإنه اشتغل بترتيب القياد وقومهم من باب المرسى إلى ستورة كل قائد مع قومه حتى فرغ ولد السلطان من غذائه وأتى ليركب البابور وجد الناس مرتبين يمينا وشمالا وكل ما مر بفريق سلموا عليه وودعوه ودعوا له ولأبيه ولأهل الدولة . ولما فرغوا من السلام عليه ركب الفلوكة ذاهبا إلى البابور فأمر السيد القبطان الناس بضرب البارود فضربوا ولم يزالوا كذلك حتى صعد ولد السلطان البابور واستقر به فحينئذ رجع الناس حازنين على ولد السلطان .

ومما قيل في مدح السلطان المذكور حين قدومه في هذه المرة ، من الأشعار ما أنشده العالم الأجل السيد محمد بن القاضي والفقير النزيه السيد محمد الشاذلي القاضي .

فمن إنشاد الأول قوله :

بشرى لنا بقوم هذا الوالي	ولكل ذي فضل فضل من المعالي
بجميعه سعد الزمان قسمه	سعد الأنعام خليفة المتعالي
يحمي الإمارة سيفه متجردا	من غوره للحكم لا للمال
محبوب أهل العلم مثل حبه	لهم فيا سعد رضى الحال
فرح الفؤاد به لكونه يكرم	ذا الفضل بالتعظيم والإقبال

وله أيضا :

بسعادة دوك دوما تعرف	تل ما تبغي ولا تتوقف
يعطى من ماله جزىلا يولف	وفي الحكم بين الرعية منصف
له ميز برايج ومزيجه	وبمن يستحق أن يستشرف

ومن إنشاد الثانى قوله :

قدم جميل لا يفارقه السعد	ويصحبه التعظيم والعز والرشد
--------------------------	-----------------------------

طلعتكم كبدر الأفق من بعد غيبة وأنتم بدور العز أنتم لنا القصد
لغيبنتكم قد فارق الجفن نومه وصار قذى فيه كجفن به رمد
وكيف وفيكم للرعايا منافع بها تشكرون الدهر ليس لها جحد
صنعتكم جميلا وقت تقليد أمرها بعد لكم إذ ناله الحر والعبد
ونام مرید الخير في ظل عدلكم ألا ليت شعري هل يكون لكن عود
فأهلا بكم إذ زرعتمونا ومرحبا فوزرتكم فيها لنا الفخر والمجد
ولو طالت نال الناس فيها مناهم وأبكاهم إذ لم تطل عنكم البعد
خليفتمكم ذو العدل يسلي همومهم ويقفوا طريق الخير والرشد من بعد
وأطلب منكم إن رجعت لأهلكم وفزتم بجمع الشمل صاحبكم رشد
يلوغ سلامي للجميع ونجلكم وذكرى فيهم بالجميل هو القصد
وقائلها يرجو المودة منكم وفي مدحككم حكم بالشعر كان هو الود

انتهت القصيدة بحمد الله تعالى .

خاتمة الكتاب رزقنا الله حسن الخاتمة وحسن الصواب :

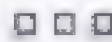
اعلم أيه (كذا) الناظر في هذا الكتاب المشتمل على ولات (كذا) الترك ، وبعض
سيرهم مع رعيتهم وأحكامهم ، وعلى الكلام على بعض ولات (كذا) الفرانسييس
المالكين بعدهم . وعلى سيرهم مع الرعية . أنك إذا تأملت ذلك حق التأمل وجدت
بين الدولتين في الأحكام والسياسة ، فرقا كبيرا ، وذلك أن الأتراك في بدء أمرهم حتى
لم يتمكنوا من الوطن كل التمكن عدلوا بين الناس ولم يظلموا أحدا . وحين تمكنوا صاروا
يظلمون الناس ويسفكون دماءهم ويأخذون أموالهم بغير حق ويعدون ولا يوفون
ويؤمنون ، ويفقدون كما يعلم ذلك مما تقدم . ولم يزل ظلمهم يزداد حتى تم وجاوز
الحد في ولاية حاج أحمد باي بن محمد الشريف الذي أخذت قسنطينة زمان ولايته فإنه
بلغ في الظلم وسفك الدماء وأخذ أموال الناس بالباطل الغاية . وأما غدره وعدم الوفاء
بوعده فأمر معلوم عند كل الناس حتى صار لا يأمنه أحد ولو حلف له الأيمان المغلظة
كما يعلم فعله كله مما تقدم .

ومن جملة غدره والرجوع عن الوفاء بوعدده أنه لما أخذ الفرنسيين الجزائر ورجع هو إلى قسنطينة وخاف من قيام الناس عليه وعزله . جمع العلماء وأرباب دولته وكبراء البلد وأعيانهم وقال لهم ما تقولون في أمرين (كذا) فقالوا له إذا أردت تبقى حاكما ونيابعتك أن تقبل شروطنا وهي أن تزيل الظلم على الرعية والمغارم السابقة ولا تأخذ منهم الزكاة والعشور لأن الظلم السابق كان سببه الجزائر وهي الآن أخذت . فأجابهم إلى ذلك وقبل شروطهم وكتبوا في ذلك كتابا ووضعوا فيه خواتيمهم (كذا) شهادة عليهم . فأول الخاتم خاتم الحاكم المذكور وبعد خاتم الشيخ مصطفى بن باش تارزي قاضي الحنفية . وبعد خاتم الشيخ العباسي قاضي المالكية وبعد خاتم السيد محمد العربي بن عيسى الناظر ، ويليهِ خاتم الخليفة السيد مصطفى ، ويليهِ خاتم بن البجاوي قايد الدار ، ويليهِ خاتم الشيخ العربي بن أحمد بن الحاج ويليهِ خاتم محمد بن العربي قايد الزمالة ، كما يعلم ذلك من يقف عليه . وبقي على ذلك مدة قليلة ثم شرع في نقض الشروط حتى أبطلها كلها وتمرد في الأحكام حتى أنه لما تكلم معه في ذلك بعض العلماء القاعدين معه للشروط المتقدمة ونهاه عن فعله هم بقتله وبقي على ظلمه وضاق الأمر بالناس حتى تمنوا الناس ولاية الفرنسيين وكان الأمر كذلك .

وأما ولات (كذا) الفرنسيين فإن عدم الظلم والمساوات (كذا) بين الناس في الأحكام شاهدا . يوم دخول البلد فإنهم دخلوه عنوة بعد موت كثير في رجالهم ، وحين طلب منهم أهل البلد الأمان أمنوهم على أنفسهم وأرزاقهم كأنهم لم يكن بينهم فتنة . وبعد أمان أهل البلد أمنوا أهل البادية ووعدوهم بإزالة المظالم عليهم فنصروا أول مرة وظنوا أنهم يغدرون مثل الترك ولما تحققوا صحة أمانهم ووفاء عهدهم دخلوا تحت الطاعة وأزالوا عنهم المظالم وكثرة المغارم وسووا بين الناس في المطالب كلها ، وعمرت البلاد بالفلاحة أكثر من الزمان والسابق وخصوصا ولد السلطان فإنه فعل الخير مع الناس أكثر من غيره وأزال عنهم الامكاس (كذا) وجعل قوانين حسنة لمديرها بكمال العقل . والخليفة بعده سعادة الجنيرال بيدوا فإنه وقف مع الحق واقتضى طريق ولد السلطان في السياسة والنظر في مصالح الناس حتى شكره الناس ، ووعدهم بكل خير مثل ولد السلطان ونحن نرجعوا الوفاء بذلك إن شاء الله كما يعلم كل ذلك مما تقدم .

وهذا فرق ظاهر بين الدولتين ، فإن ظلم الترك ليس مخصوصا بمحل بل هو عام في أرضهم الأصلية وفي غيرها ، فما تحت أيديهم كما يعلم ذلك من سافر إليهم وشاهد أحكامهم بخلاف الفرنسيين فإن أرضه الأصلية أهلها في غاية العافية بسبب العدل بينهم ، وعدم الظلم فسار هذا إلى كل محل تحت أيديهم ومن لم يعلم ذلك يسئل العارفين (140) .

وقد تم ترتيب هذا الكتاب المسمى بتاريخ قسطنطينة المحروصة ، وهو ثاني كتاب رتب وطبع بقسطنطينة على يد مديره ومرتبته على هذا الترتيب ومحسنه الفاضل الأجل محب الخير وأهله ومن شهد الناس بفضله وعدله السيد القبطان بوسنه متولي أمور العرب بقسطنطينة ويدلك على كمال عقله ترتيب هذا الكتاب فإنه ذكر أولا دولة الترك ، وسيرتهم وأتبعها بدولة الفرنسيين وسيرتهم ليتبين للناظر الحسن من القبيح والصحيح من السقيم فيختار لنفسه ما يحلو ، انتهى بحمد الله تعالى .



(140) إن هذا محامل واضح من العنصرية ، وليس غريبا أن يكون سيده وولي نعمته الضابط (بوسنه) بواسولي هو الذي أملى عليه مثل هذه الأفكار . لأن الفرنسيين كانوا شديدي الحرص على إظهار مساوى الأتراك حتى يبرروا غزوهم واحتلالهم لهذه البلاد ، ويفتخروا أمثال العنصرية بحسن نواياهم ، إذ مهنا يكن ظلم الأتراك وتجهيرهم فإنه لا يصل إلى واحد في المليون من ظلم الفرنسيين وجبروتهم . والتاريخ شاهد على ذلك .

عند جيلنا بعد هذا السعد ويحسد لتفكير العز والسر
 كل من كبد الامم من بحر غيرة وانتم به در العز انتخ لنا انت
 لغيت في دار الجبر نوم وطرفه فيه كجبره
 وكعبه وبيع للروا بانامع بها تفكره الله عز وجل
 صنفتم حكمة وثق تفكيركم بعد لغ انه ناله السر العبد
 ونام من يد الغنى في كل عجب الا ليت شحني كل يكون لغ
 بما جلاكم اذن زيمونا ومرحبا فنور نور فيه لنا العز والسر
 ولو كان لنا الناس منكم وابكاهم اخرج نكل عنك البصر
 خليفتم في العمل بيبسهموس وبغير الكرم والسر الرشد
 والحبيب من ارجعكم لا طم ومنزله منج المشعل طم
 يلوغ سكام الجميع ويخلص ونكره فيهم بالخير من العبد
 وفا بكم رجوا الودة منكم وبعده عنك بالشر كل عول
 : اشقت / تفكيركم :

كتاب رزقنا الله حسن الخاتمة وحسن الحساب

علم ايد الناس في هذا الكتاب المستعمل على كل حالات الترك
 وبعثت سيرهم مع رعيهم واحكامهم وعلى الطالع على يده
 وكالات ايعال نبيهم اليهم بغيرهم وعلى سيرهم مع الرعي
 انك انما ملكت في الدار والدار وحدهم مع الله واليتيم
 في الاحكام والعلامة برفاههم اولئك انما لا تراهم في مفرهم
 حتى يتمكنوا في الوك - التمسك عند لواس الناس ولم يكن
 احدا وحير فكشوا حاروا بكم الناس ويصنعون :

الملاحق

1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32	33	34	35	36	37	38	39	40	41	42	43	44	45	46	47	48	49	50	51	52	53	54	55	56	57	58	59	60	61	62	63	64	65	66	67	68	69	70	71	72	73	74	75	76	77	78	79	80	81	82	83	84	85	86	87	88	89	90	91	92	93	94	95	96	97	98	99	100
---	---	---	---	---	---	---	---	---	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	-----

1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32	33	34	35	36	37	38	39	40	41	42	43	44	45	46	47	48	49	50	51	52	53	54	55	56	57	58	59	60	61	62	63	64	65	66	67	68	69	70	71	72	73	74	75	76	77	78	79	80	81	82	83	84	85	86	87	88	89	90	91	92	93	94	95	96	97	98	99	100
---	---	---	---	---	---	---	---	---	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	-----

1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32	33	34	35	36	37	38	39	40	41	42	43	44	45	46	47	48	49	50	51	52	53	54	55	56	57	58	59	60	61	62	63	64	65	66	67	68	69	70	71	72	73	74	75	76	77	78	79	80	81	82	83	84	85	86	87	88	89	90	91	92	93	94	95	96	97	98	99	100
---	---	---	---	---	---	---	---	---	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	-----

□ الملحق الأول :

نص العقد بين الحاج أحمد باي وأعيان قسنطينة :

هذا ظهر كريم وخطاب واضح أمر مبارك عظيم ، وإعلام صالح عظيم ، وأمر مبارك جسيم فيه مصلحة تامة ، ومسرة شاملة عامة ، بحول الله وقوته وعزته ، وإرادته ، قد صدر ذلك وانبرم عندما هنالك من جانب أمير البلد المعظم الأكرم الهمام الأفخم ذي الرأي السديد والتدبير الصائب السيد الحاج أحمد باي حفظه الله بسر السور والآي ، والعلم الجليل الخطيب الأصيل أبي عبد الله السيد محمد شيخ البلد ، والعالم العلامة الفهامة السيد مصطفى مفتي السادات الحنفية ، والعالم العلامة التحرير السيد أحمد العباسي قاضي السادات المالكية والعالم الأمثل السيد مصطفى مفتي السادات الحنفية ، والعالم الفقيه السيد عمار مفتي السادات المالكية ، والعلامة الأكمل السيد محمد العربي ناظر الأوقاف ، والمعظم الأنجل السيد مصطفى الخليفة ، والمعظم الأنجل السيد الحاج محمد قائد دار الإمارة السعيد ، والمعظم الأقبل السيد محمد بن الحاج شيخ العرب ، والوجيه المبجل السيد محمد بن الحملأوى أغة الدائرة ، والزكي المكرم سي محمد بن العربي قائد الزمالة ، وأعيان البلد والكبراء والأمناء وكافة أهل الحرف من العرب ، والأجناد سدد الله الجميع ، ووفق الكل إلى صالح العمل وحسن الصنيع آمين .

ليعلم الواقف على هذا المكتوب الأعظم والمنشور المبارك الأفخم الجالب للخير والسرور المضاعف بحول الله وقوته للبركة ، والحبور ، وبه تكون إن شاء الله عافية البلاد ، وهناء العباد ، وعمارة الوطن ، وذهاب البؤس والحن ، وهو أن الأمير المتفق على إمارته ، والنظر في كافة المصالح وعامة المطالب والمآرب ، هو السيد الحاج أحمد باي المذكور لا خلاف عند أحد في ذلك ، وأنه حرر الرعية من كافة المظالم السابقة لا بطالبون بمغرم ولا محتمة ولا حلاس ولا جابذة⁽¹⁾ ولا غير ذلك من التكاليف الفارطة ، ولا يأخذ منهم شيئا سوى ، الزكاة والعشور بوجه ما حكمه قانون الشرع العزيز للاستعانة على جهاد الكفرة دمرهم الله تعالى .

(1) يعني بالحلاس تجهيزات الخيول والأحصنة ، وبالجابذة الزوج من الأبقار أو الثيران التي تستقل في حرث الأراضي فتجد الحراث لحث الأراضي وقلب تربتها .

أعلم الأمير وشيخ البلاد والعلماء ، فهذا إعلاماً تاماً شاملاً عاماً ، ومن أجل أن يكون هذا المكتوب للرعية أصلاً في رفع المظالم عنهم يعتمدون عليه ، وأمرنا منبرما ممن ذكر ، عند المهمات يرجعون إليهم والقصد بذلك إدخال السرور على المسلمين والجرىان على سنن سبل المهتدين وعمارة الناس ، وإذهاب الالباس ، والله الموفق للصواب ، وإليه المرجع والمآب ، لا رب غيره ولا خير إلا خيره ، وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . فحسب الواقف عليه الوقوف عنده وعدم المخالفة .

وكتب بإذن السادات والأمير كما ذكر بتاريخ أواخر جمادى الأولى عام 1246 (2) هـ .

1. The first part of the paper is devoted to a discussion of the general principles of the theory of the structure of the crystal lattice. The author shows that the structure of the crystal lattice is determined by the balance of the forces of attraction and repulsion between the atoms. The forces of attraction are due to the electrostatic interaction between the positive and negative ions, while the forces of repulsion are due to the Pauli exclusion principle. The author shows that the equilibrium structure of the crystal lattice is determined by the minimum of the total energy of the system.

2. The second part of the paper is devoted to a discussion of the specific properties of the crystal lattice. The author shows that the specific properties of the crystal lattice are determined by the specific arrangement of the atoms in the lattice. The author shows that the specific properties of the crystal lattice are determined by the specific arrangement of the atoms in the lattice. The author shows that the specific properties of the crystal lattice are determined by the specific arrangement of the atoms in the lattice.

□ الملحق الثاني :

هذه قصيدة في مدح قسطنطينة وأهلها :

إن رمت طيب هواء أرض لم يحل
أكرم بها بلدة للحسن قد جمعت
نسي الغريب دياره وأوطانه
فكل من أمها ألقى عصاه بها
كأنها في استقرارها على جبل
تنفي بأنسها وحشة المقيم بها
كم فقير أتاه وهو مكتئب
كم من جبار أذاقته كؤوس الردى
كم ردت كبير ملوك الغرب في نحرهم
وكم من جيش أتاه غازيا فائتني
دهت أمواله نهباً وأبطاله
لأهلها خلق في الحسن فائقة
يحمون ساحة من أقي بلادهم
كان نهرهم لحسن أخلاقهم
كم فيها من عالم لعلمه ضربت
يعلي الشريعة ويحمي جوانبها
وكم من عابد أضنى الخوف مهجته
وزاهد طلق الدنيا بيهجتها
وكم بها من ولي عارف ظاهر
وكم بها من خفي ليس يعرفه
بلدة شمس السعود فيها طالعة
دع اعتراضك يا من كان ذا فطنة

فمن قسطنطينة الحسناء لا تمث
فشمس حسننا في الآفاق لم تأفل
وتلهيه عن تذكّار الأهل والحوّل
وودّ أنه منها غير متقلّ
ذو تاج فوق سرير ملك ممثّل
نسيمها مرهم يرى من العلل
فصار يزمل في جمع من الحلل
فكل من رامها بسوء لم يصل
وسقت تونس من مناهل الحنظل
من بعد شرته في غاية الخجل
قتلا ونحسه عند غير منعزل
نالوا بها شرف الثناء المكتمل
ويغفرون عظيم الذنب والزّلل
يجري لذا ماؤها أحلى من العسل
من الآفاق أكباد الخيل والإبل
من قول مختلق وحكم مفتعل
تراه مجتهدا في ليله الأيل
ليس له بدار الذهب من أمل
إليه المفزع في الشرات والوجل
إلا القليل وهو كنز لم يزل
والعزّ عن أرضها ليس بمترحل
فإن أحوال العطف جاءت بالبدل

□ الملحق الثالث :

ومما قاله بعض المداحين غير الطلبةاء⁽⁴⁾ عن بلد قسنطينة حين قدموا التوانسة إليه بقصد دخولها :

بسم الكريم نبدا قولنا يا هـ يزين
على ما طرا على قسنطينة في ذا السنين
الشر والفتن والاسعار العالين
حتى التوانسة راهم جاونا حاركين
خرج محلة حمودة ذاك اللعين
علي وابن عباد وهاذك الضايعين
حلف لسيدهم حمودة باكر يمين
راه نجوعهم ودوايرهم خايرين
ويعود لك رعية من غير مراد
مع التوانسة يا معتاه نهار ياريم
يده من البلاد على ثلاثة دوار ياريم
فومان راكبه شيء لا يحصار (كذا) ياريم
ويسير من وراهم عسكر جرار ياريم
علي وابن عباد والكلب الغدار ياريم
ووديان حامل كالبحر الزخار
وآخر يقول نسعى منها الأيكار
ونهدموا المدينة وتعود قبار
والروح إلى حمودة في خنار
وانساو حكم رب الحي القهار

انرتب الغنا وانديد الانشاد ياريم
قصة متورخة وخبرها يعاد ياريم
في كل عام تظهر فتنة وانكاد
قومان والعساكر في مثل جراد ياريم
وابعث خليفة هاذوك الأزفات
سليمان كاهية واجوانب تزداد
لن ندخلوا المدينة من غير طراد ياريم
بالمال نجلبهم من غير طراد
ما صار في البلاد الدهما باثبات
خرج محلة حمودة واثبات
فرع جميع العرب أهل الخيمات
والكور والمدافع فوق العجلات
وابعث خليفته هاذوك الأزفات
رحلوا وجاوا ، بانواجههم صفات
آخر يقول نأخذ منها خودات
وأما رجاهم ما فيهم شفعات
المال والسعاية لنا ياثبات
هذا حسابهم ما حسبوه الأزفات
هذا حسابهم ما حسب قوم الطحين

(4) يعني بهم غير المتفقين لأن شعره من نوع الشعبي الملحون الذي لا يخضع لقواعد اللغة .

وانساو حكم رب الحي الجواد
أمر ينجد في رمشت (كذا) الاثماد
أعمات ابصارهم واتخطوا المعتاد
ما صار في البلاد الدهما باثبات
ما صار في البلاد الدهما ياناس
خطوا على البلاد ونصب مرجاص
جرح عساكر للزدمة دعاس
وانتصبت المشالي فوم وتراس
احما الطراد بكور ومدافع وارصاص
قعدت عساكر موتى تعفاس
على وابن عبادو قطع الاياس
ركب امدافع وجنود بو. الأخراص
البونية تشرشف فيها مقباضي
شهر ويوم لا من يهواه انعاس
شهر ونهار كامل الناس محيرين
انهدمت الجوامع وامصار رايبين
لا يفعل افعاليهم حتى الكافرين
لو كان ما الطفشي رب والصالحين
انخرقت المدينة ولات ارماد ياوالدى
اسمع لي ما اطرا واسمع كيف يصير
أهل البلاد بعث حكم الأمر
سيار بالعزم واقصد بلد الحجر
أمر على العساكر والقوم اتسير
أعلى بلاد عنابة جيش غزير
أهل السيوف تلعب من هند ذكر
أبطال شعتهم في الراى والتدبير

مدور الفلك بالقدره في كل حين
لا حبر عقوبة لا هاب صالحين
حتى أكلوا زنده بضرب البلاد
مع التوانسة يامعناه نهاري ريم
مع التوانسة جاونا جند أكثر
انحصرت المدينة في يوم عسير
على كل باب تسمع ضجا واهدير
أهل البلاد فزع شايب وصغير
نيران شاعلة ياويله يوم كبير
على كل باب وارجع كاسر واحقير
سليمان كاهية صاد ضم أكثر
اللي يرمي تسمع ليه ازهر
سبعين فرد ليلة ارمها الخنزير
والخلايق صابر لا من يدبر تدبير
نسوان محيرة وكذلك - الأولاد
حتى الصلاة قطعوها على العباد
كفار اخوارج انصارت حلق الواد
نغد على بلادهم هيا الاسياد
ياسامع الغنا وابنى على الساس
لمن طغى علينا عرت الأجناس
اكتب بربه ودأها رقباس
وصلت لسيدي وقراها ياناس
في البر والبحر جابوهم رياس
عرب الفراقيط شارين الكاس
قياد راكبين أعياد أن توساس
ارحل وجاى بهم مالو برياس

تلاقاه سيدى وأفرح به كثير
برية البشارة وأخبار الخير
واقراوا على الناس بصوت شهر
بالفرح والهناء من بعد التغير
بالفرح والهناء من بعد التغير
يقدم العساكر جات من الأبعاد
انجرت الصناجق للفتن اعداد
من قبل لا يحط نال المراد
بارود من يديهم يشعل وقاد
خلاوهم بظاين على جرع الواد يا والد
ركح يفتنهم على غار الحداد
بالبنية والكور ومدفع غراد
هاذوا الصابحية من فوق اعياد
رجعوا لسيدهم في ذل وانكاد
وعرضوا لهم قبائل عكر مداد
نسوان هاملا يركوا على الأولاد
في الأرض بارك ماعنهم نشاد
باصناجق ترقرف طبول اعداد
واسعار نجوع مايلها اعداد
اشتات ووزايع على كل بلاد ياريم
ضاقوا الركاب النقرى براني الازناد
ويستضر عليهم رب العباد
في مدينة الهوى ظاهر ولد بلاد
انظم الغنا وانتورخ الانشاد
زيد لهم يكمل الاعداد تو السلام

بعث رسول إلينا عاقب الأدماس
جاء المشايخ يدور على الاعراس
فرحت رجالتنا وزالت الأوكاس
شهرت رجالتنا وانزاحت الأوكاس
شهرت رجالتنا بالكل باتت زاهين
رحلوا الصباح جملة وتلاقوا العسكرين
قالوا التوانسة نبادوهم راحلين
لمن ألقى وهذا العسكر متغششين
لن صارت الطواغن بالدم مخصين
أهل البلاد خرج بالكل محزمين
أولاد طيحية في الرمي معلمين
هاذوا الخناشة والقومان مخلطين
حملوا على الخوارج ردوهم كاسرين
ركبوا خيولهم في الليل غدا وهارين
خلاو محال باعساكرهم مايين
خلا مدافع في المنصورة مطيشين
والباي هاد بالقوم وراهم غايرين
الحق انجوع بالليل مهجـمـين
ما راح اخلاف اسباق العالفين
وارجع بينا في شدة سيدى احسين
الله ينصر من عين الحاسدين
قال الأديب عمر اسمي حاذق فطين
شاعر أديب قولي يعجب العارفين
في عام ألف ومائتين وعشرين⁽⁵⁾
لأهل العباد يـاريم

(5) المواقف لعامي 1805 - 1806 م . وهي الحرب التي واجهها حسين باي بن صالح باي كاتمر .

كملت بحمد الله وكمل جميع الكتاب بحمد رب الأرباب اللهم احکم لنا بالحسنى
والزيادة وحسن الصواب ، واهزم لنا كل الأعادى وارمهم منك بشهاب ، على يد كاتبه
المستعجل في نسخه عبده المكي ابن علي بن الفكون غفر الله ذنوبه وستر عيوبه . وبلغ
بفضله مرغوبه وأسرع بعونه مطلوبه ولكافة المسلمين آمين . وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا . ١ هـ

□ الملحق الرابع :

الحمد لله وحده لا رب غيره⁽⁶⁾ .

ومما وجد في بعض عقود الأملاك والظهوراوات ما هو صحيحا وتحقيقا (كذا)
الكتاب المشار إليه من دار سيدى الشيخ بن الفكون ، ومن دار بن كجك علي ، وعلى
يد سي الحاج أحمد ، وعلى يد السيد الحاج أحمد بن المبارك المفتي ، وعلى يد أولاد سيدى
معمر ، وخلاف ذلك غير ما هو سطرناه من تقديم وتأخير بايات قسنطينة حسبما
نذكرهم مجردين . وبالله أستعين .

وأما دخول الأتراك في قسنطينة عام 1052 هـ فأول من تولى في دولتهم :

فرحات باي 1052 هـ .

محمد باي بن فرحات 1063 هـ .

رجم باي 1077 هـ .

خير الدين باي 1083 هـ .

دالي باي 1087 هـ .

باش أغا باي 1090 هـ .

شعبان باي 1099 هـ .

علي شُوجة باي 1104 هـ .

أحمد باي بن فرحات 1112 هـ .

إبراهيم باي العليج 1114 هـ .

حمودة باي 1119 هـ .

علي باي بن حمودة 1120 هـ .

حسين شاوش 1121 هـ .

عبد الرحمن باي بن فرحات 1122 هـ .

حسين دنقرلي باي 1122 هـ .

علي بن صالح باي 1122 هـ .

(6) يبدو أن هذه القائمة وما جاء معها من الكلام قبلها وبعدها ليس من كلام العتري وإنما من ناسخ الكتاب المكي بن علي بن الفكون كما
يضح ذلك في آخر الصفحة الثالثة قبل بداية كلام صالح العتري وهذا ما جعلنا نؤخرها إلى هنا ونضعها ضمن الملاحق .

قليان حسين بوكمية 1125 هـ .

حسين باي بوخنك المتسمى حسن باشا 1170 هـ .

صالح باي 1185 هـ .

براهيم بوصبع 1206 هـ .

صالح باي ثانيا 1206 هـ .

حسين ولد حسن باشا بوخنك باي 1207 هـ .

مصطفى باي الوزناجي 1209 هـ .

حاج مصطفى باي انقليز 1212 هـ .

عثمان باي 1218 هـ .

عبد الله باي 1219 هـ .

حسين باي ولد صالح باي 1221 هـ .

علي باي بن يوسف 1223 هـ .

أحمد شاوش القبائلي 1223 هـ .

أحمد باي طبال 1223 هـ .

محمد باي نعمان 1229 هـ .

محمد باي جافر 1229 هـ .

قارة مصطفى باي 1233 هـ .

أحمد باي المملوك 1233 هـ .

محمد باي الميلي 1233 هـ .

براهيم بن الغربي 1234 هـ .

أحمد باي المملوك أيضا 1235 هـ .

براهيم باي الفريتلي 1237 هـ .

محمد باي مناماني 1240 هـ .

حاج أحمد باي بن محمد الشريف الذي آخر البايات 1241 هـ .

وأما حكام الفرانسييس بعد ما كان دخولهم بالعساكر في قسنطينة 13 في أكتوبر سنة

1837 ، فأول من تولى منهم سعادة الجنرال نيفريي⁽⁷⁾ في أواسط دى صامبر 1837 م ،
وبعده سعادة الجنرال بارون ، دوفالبره⁽⁸⁾ وتولى يوم 28 فى جويلية 1838 م . وبعده
سعادة الجنرال نيفريي أيضا وتولى يوم 24 فيفرى 1841 . وبعده سعادة الجنرال
بوفراع⁽⁹⁾ يوم 25 دى جنبر 1842 م . وفى ولايته تولى أمر العرب سعادة السيد القبطان
بوسنه⁽¹⁰⁾ فى غشت 1843 م . وبعده تولى الحكم السيد ولد السلطان سعادة السيد
دوك دومال⁽¹¹⁾ ودخل قسنطينة يوم 4 فى دى جنبر 1843 م . وبعده سعادة الجنرال
بيدو⁽¹²⁾ .

وكان خروج السيد ولد السلطان من قسنطينة يوم 3 فى أكتوبر 1844 م وأما الجنرال
بيدو فإنه تأخر أياما من بعد ولد السلطان وبقا (كذا) الحكم فى ذلك الأيام بنظر
سعادة الجنرال راندون⁽¹³⁾ حاكم عنابة المعروف بالعدل وبكمال العقل إلى أن قدم
الجنرال بيدو . ثم رجع سعادة السيد ولد السلطان سعادة السيد دوك دومال إلى قسنطينة
مرة ثانية على سبيل الضيافة فى 29 يونيه . ولما رجع كان ركوبه 1846 فى شقف النار
يوم 3 فى يوليه فتعلقت به قلوبنا والسلام .

قال ناسخ هذا الكتاب وهو المكى بن على بن الفكون أردت أن نضم هنا نصيب
كلام لأجدادنا منهم سيدى عبد الكريم الفكون على ، ما وضعه فى أهل قسنطينة وشهد
عليهم بالحسد والبغض والبطالة وعدم الوفاء بالعهد والخيانة الملازمة لهم ولمن قوى جاهه
يظهر حقه وغير ذلك وجعل عليهم قصيدة بليغة فتركت ذلك لعدم الأوراق . قال رحمه
الله وهو القول الذى قلته بتقوية الحجج على سبيل واد النصيحة لأن الدين نصيحة عسى
يكفون على ما هم عليه والسلام .

أصلح الله الجميع ووقاهم من سوء الصنيع .

7) Negrier.

8) Le baron de galbois.

9) معنى به بارا قوى ديل : Baraguay d'hilliers مكذا يلقبه الناس آنذاك .

10) Le capitaine boissennet.

11) Le duc d'aumale.

12) Bedau.

13) Randon .

□ الملحق الخامس :

معارك الحاج أحمد في جبال أولاد سلطان من خلال ثلاث وثائق جزائرية

بقلم : د. يحيى بو عزيز

استمرت مقاومة الحاج أحمد باي للاستعمار الفرنسي في بايليك الشرق ، ثمانية عشر عاما كاملة إلا شهرا واحدا . ومع ذلك لم يقدر لها حتى اليوم أن تدرس ، كما درست مقاومة نظيره في الغرب الأمير عبد القادر ، رغم صلابته مواقفه ، وبعد نظره وذكائه ، وصبر أيوب الذي أوتي به إلى آخر لحظة من وجوده بالجبال .

فقد كان يدرك تمام الإدراك تفوق الفرنسيين عليه عسكريا ، ولذلك تجنب مواجهتهم في معارك عسكرية ضخمة ، وجها لوجه ما عدا معركتي قسنطينة عامي 1836 و 1837 التي مثل فيهما دور الدفاع ، وليس الهجوم ، وحاول أن يصل معهم إلى حل سلمي مشرف عن طريق المفاوضات التي تواصلت بينه وبينهم منذ حملة الاحتلال عام 1830 إلى ما بعد سقوط قسنطينة عام 1837 . ولكن اتضح أن الفرنسيين غير مخلصين في مفاوضاتهم له ، وأنهم يفوتون عليه الوقت والفرض لينتمكنوا من تخطيطه وهو ما فعلوه وصنعوه في النهاية .

وكان يعلق آمالا كبيرا على مساعدة الدولة العثمانية له عسكريا ، وتأييده سياسيا وبقي على هذه الآمال حتى بعد سقوط مدينة قسنطينة وضياعها منه ولم يستطع أن يدرك أن هذه الدولة غارقة إلى الأذقان في مشاكل عسكرية وسياسية بشرق أوروبا ، وغرب آسيا . من أبرزها : الأزمة اليونانية بمنطقة البلقان ، والأزمة المصرية التي أثارها ضدها واليها محمد علي ، والذي اضطرها في النهاية أن تستنجد بروسيا ألد أعدائها على الإطلاق منذ نشأتها إلى نهايتها بعد الحرب العالمية الأولى . وعلى هذا الأساس والاعتبار اكتفت الدولة العثمانية بتقديم الوعود تلو الوعود له وحثته على عدم إبرام أى اتفاق مع الفرنسيين إلا بعد العودة إليها والحصول على موافقتها .

ويمكن أن نخصي المشاكل التي حالت دون نجاحه في الأمور التالية :

أولاً : المعارضة التي أثارها ضده كل من باي التيطري مصطفى بومزراق ، والباي السابق لقسنطينة ، إبراهيم الكريتلي ، ومساعدتهما الفرنسيين على احتلال مدينة عنابة ، وذلك لأغراض وقضايا شخصية وليس وطنية ، ولعب فيها يوسف المملوك أدواراً قدرة معهما ، وبعدهما .

ثانياً : معارضة شيخ العرب السابق فرحات بن سعيد وتعاونيه مع الفرنسيين أولاً ، والأمير عبد القادر ثانياً ضده وذلك لأغراض شخصية كذلك ، بعيداً عن القضايا الوطنية .

ثالثاً : المتاعب الكثيرة والمتنوعة التي أثارها ضده خاله وصهره بوعزيز بن قانة . والتي ذكر الحاج أحمد نفسه ، وأكد في مذكراته ، أنها أكبر مصائبه التي أدت به إلى النهاية المؤلمة .

رابعاً : عدم تعاونيه مع نظيره في الغرب ، الأمير عبد القادر الذي صادف نجاحات كبيرة ، ويبدو أن الغيرة والكبرياء لعبا دورهما في العداء ، والجفاء ، الذي ظهر ، ونما ، وكبر ، بينهما ، على مر الشهور والأعوام . ولكل منهما وجهة نظره في هذا الميدان ، ولكننا نحن كباحثين ، ومحققين ، نلومهما ونحملهما وزر النتيجة المؤلمة التي انتها إليها معاً ، إذ لو قدر لهما أن يتعاونوا لانتبت قضية الاستعمار الفرنسي لبلادنا ، وصفت في عقد الثلاثينات أو الأربعينات على الأكثر من القرن الماضي التاسع عشر .

خامساً : معارضة بايات تونس له واتفاقهم منذ البداية مع الفرنسيين على تعيين أميرين تونسيين لحكم بايليك قسنطينة (مصطفى باشا شقيق الباي) ، وبايليك وهران (خير الدين باشا) . ونفذت العملية على وهران بحيث بقي خير الدين باشا بوهران ستة أشهر كاملة معتصماً بقصبتها وسط مشاكل وصعوبات كبيرة اقتصادية وسياسية وعسكرية ، وهذا يكشف أطماع بايات تونس في شرق الجزائر على الأقل (1) .

ولم يكتف بايات تونس بهذا فقاموا بحجز المساعدات العسكرية التي أرسلت إليه بحراً إلى تونس ، وأرغموا الجنود الأتراك على العودة من حيث أتوا عام 1836 .

(1) عبد الجليل التميمي : مغامرة فرض الحماية التونسية على وهران عام 1831 . المجلة التاريخية المغربية عدد 5 (تونس - جافني 1976) ص 19 .

وموقف بايات تونس هذا من الحاج أحمد باي ، لا يختلف كثيرا عن موقف سلطان المغرب الأقصى من الأمير عبد القادر في غرب البلاد أو بابليك الغرب .

مراحل مقاومة الحاج أحمد باي :

إن مقاومة الحاج أحمد باي في بابليك الشرق مرت بمرحلتين اثنتين : أولاها من حملة الاحتلال الفرنسية لمدينة الجزائر عام 1830 إلى سقوط مدينة قسنطينة في أيدي الجيش الفرنسي عام 1837 . وثانيهما بعد ذلك إلى استسلامه عام 1848 .

وقد ركز الدارسون والباحثون على المرحلة الأولى وسلطوا عليها الأضواء ، وعالجوا أحداثها ومشاكلها من وجهة النظر الفرنسية في الأعم الأغلب ، باستثناء دراسة التميمي التونسي الحديثة ، التي لم تخل هي الأخرى من الثغرات والفجوات ، ولكنها أحسن دراسة عنه حتى الآن (2) .

أما المرحلة الثانية فما تزال حوادثها غامضة ومجهولة ومشتتة هنا وهناك ويحتاج الباحث إلى تتبع كل الكتابات الفرنسية للتعرف عليها واستخلاصها ، كما يحتاج إلى العودة إلى كل دور المحفوظات في فرنسا ، تركيا ، وتونس ، حتى يطلع على المزيد من الوثائق ، والرسائل ، والتقارير ، المختلفة . وإلى كل الكتابات الفرنسية ليجمع ما بها من المعلومات المشتتة هنا وهناك .

ومنذ استعادة الاستقلال إلى اليوم تم كشف ونشر عدد لا بأس به من الرسائل والوثائق عن مقاومة الحاج أحمد باي ، ملأت الكثير من الثغرات والفجوات بالنسبة للمرحلة الأولى ، أما الثانية فما تزال كما هي . وتوضح بعض الوثائق ، والرسائل التي تم الكشف عنها ، غناها بالحوادث ، ودحضها للمزيد من الادعاءات الفرنسية ، ولدينا في هذه المحاضرة معكم ثلاث رسائل جزائرية اكتشفناها في أرشيف الوزارة الأولى بتونس ، تتحدث عن معارك أولاد سلطان في ربيع عام 1844 وعن غيرها ، سنعود إليها بعد قليل .

2) Abd el-jelil temimi: le beylique de Constantine et hadj ahmed bey. 1830 -1837 (tonis - 1878) 302 p.

بعد سقوط مدينة قسنطينة في أيدي الجيش الفرنسي خلال يومي 13 و 14 أكتوبر 1837 ، فكر الحاج أحمد في نحو الهزيمة وجمع رفاقه ، واقترح عليهم تكوين زمالة من عائلاتهم وأطفالهم وأموالهم ، وتوجيهها إلى الصحراء لتكون في مأمن من الأخطار ، ثم قيامهم بمحاصرة قسنطينة ، وقطع الطريق بينها وبين عناية لمنع الامدادات الفرنسية عنها ، وتحريرها بعد ذلك ، ولكن خاله بوعزيز بن قانة عارضه في ذلك ، بدعوى أن فرحات بن سعيد يهددهم من الجنوب ، ويستعد لمهاجمتهم واقترح عليه التوجه له أولا لمحاربته والتخلص منه ، ثم التفرغ بعد ذلك للفرنسيين ولم يجد الحاج أحمد بُدًا من الامتثال لرأيه ، واعترف في مذكراته بأن خاله هذا بن قانة هو الذي ضيعه وقضى عليه ، وهو السبب في كل المشاكل التي تعرض لها ، والصعوبات التي واجهته ، وأكد أن هدفه هو الاستيلاء على أمواله ، وأمتعته ، وأنه بمثابة امرأة إلى جانب فرحات بن سعيد الذي يستطيع أن يقاتل وحده مائة رجل ، وجرب الحرب ضده سبع سنوات كاملة⁽³⁾ .

بعد يومين من ضياع مدينة قسنطينة وبينما الحاج أحمد يستعد للانسحاب إلى الصحراء وفق خطة خاله ، اتصل به في معسكره بأمر الاضتاب على طريق باتنة ، رسول من قبل قائد القوات الفرنسية عرض عليه أن يستسلم سرا ، ويرحل إلى فرنسا ، فرفض ، وبعد ثلاثة أيام من ذلك ، اتصل به ابن العطار القسنطيني والحاج الباي العنابي موفدين من قبل نفس القائد ، وعرضا عليه نفس الاقتراح السابق ، فأعلن لهما استعدادهما للاستسلام ، ولكنه رفض الذهاب إلى فرنسا ، وطلب أن تترك له الحرية في أن يذهب إلى أي بلد إسلامي ، أو إلى البلاد المقدسة .

غير أن خاله ابن قانة ، اعترض سبيل وذكره بالتزامه السابق في التوجه إلى الصحراء لمجابهة فرحات بن سعيد ، فرفض له ورفض العرض الفرنسي ، وأخذ طريقه إلى بسكرة بعد أن عاقب أولاد عمر . وقد أرسل أفراد عائلته ، وأمتعته إلى القنطرة ثم إلى الأوراس ، وبالضبط إلى قرية منعة ليكونوا في أمن وطمانينة .

(3) مذكرات أحمد باي وحمدان غنوجه وبوضربة ، ترجمة محمد العربي الزبيري (الجزائر - 1973) ص 76 - 78 .

وعندما وصل إلى الوطاية علم بأن فرحات بن سعيد غادر أحواز قسنطينة ليلاحقه وأنه هاجم مدينة بسكرة بمجموع غفيرة من أولاد عبد النور ، ويلزمه ، والحضنة ، وأخذ عدة أسرى ، وكاتب قائد قسنطينة حمودة بن الشيخ ، وأبلغه بأنه سيرسلهم إليه ، وأوضح له بأنه لا يريد الاتصال والمراسلة إلا مع الماريشال فلي ، مباشرة دون واسطة⁽⁴⁾ .

ومن الوطاية اتجه الحاج أحمد باي إلى زاوية سيدي رحال بين فوغالة والعمرى ، وعسكر هناك بعض الوقت واعترض أتباعه من البوازيد ، حوالي 500 رجل من أولاد نايل كانوا في طريقهم لتجدة ودعم فرحات بن سعيد ، الذي يعسكر في واحة ليشانة 6 وقتلوا منهم حوالي 50 رجلاً ، وعزم الحاج أحمد على مهاجمة فرحات بن سعيد قبل أن يتقوى أمره ، ولكن ابن قانة أثناء ذلك وطلب منه أن ينتظر وصول أهل سلمية ، وأهل رحمان ، الذين كانوا ما يزالون في واد السفلى ، ثم القيام بعد ذلك بهجمة قوية على ليشانة ، والزعاطشة معا حيث يتمركز فرحات بن سعيد⁽⁵⁾ .

وفي خلال شهر ديسمبر 1837 اصطدمت قوات الحاج أحمد وفرحات بن سعيد في معركة ضارية بواحة صحيرا وقتل لفرحات أكثر من 600 رجل ، وقتل لأولاد بن قانة من أتباع الحاج أحمد أكثر من 100 رجل كذلك ، وكانت من أعنى معارك الطرفين بالزيان ، وصمم أولاد بن قانة والحاج أحمد على مهاجمة كل واحات الزاب الغربي⁽⁶⁾ .

بعد هذه المعركة بعث فرحات بن سعيد رسولا إلى الفرنسيين طالبا منهم الدعم والمساعدة لملاحقة الحاج أحمد وأولاد بن قانة ، فمأطلوه ولم يجيبوه إلى ما طلب لأن ظروفهم في الشمال لا تسمح بذلك . وفي الوقت نفسه علم بخبر تعيينهم لابن عيسى خليفة الحاج أحمد السابق قائدا وخليفة لهم على المنطقة الساحلية للشمال القسنطيني فساورته الشكوك في موقفهم نحوه . واستغل قيام الأمير عبد القادر بمراسلة زعماء العائلات القسنطينية كابن يلس ، وابن عبد السلام المقراني ، وأحمد الشريف ، وابن قندوز ، وبوعكاز بن عاشور ، ليستميلهم إليه فأخذ يتقرب منه هو الآخر على استفيد

(4) شارل فيور : صحراء قسنطينة (الجزائر - 1887) ص 287 - 289 .

(5) نفس المصدر . ص 290 - 292 .

(6) نفس المصدر . ص 292 - 293 .

بمنصب من طرفه⁽⁷⁾ . وقد سبقه إلى هذا كاتبه السابق الحسن بن عزوز فأرسل إليه رسولا سرى يدعى سي السنوسي يطلب منه أن يعينه خليفة على الصحراء الشرقية مقابل قيامه بمحاربة الحاج أحمد والقضاء عليه . وبعد مدة توجه الحسن بن عزوز بنفسه إلى الأمير عبد القادر صحبة الحاج الباي شقيق فرحات بن سعيد ، رسولين من طرفه للغرض نفسه . وكشفت هذه الرحلة على أنه سافر ليخدم أغراضه الخاصة ، وليس أغراض وأهداف سيده السابق فرحات بن سعيد ، الذي كان خوجة لديه عدة سنوات . وقد مال الأمير عبد القادر إليه وعينه خليفة له على بسكرة ومنطقة الزيان ، وكلف خليفته البركاني الذي كان في بوسعادة بأن يرافقه لينصبه فأخذ معه حوالي 1700 فارس ، ومدفعين ، وعدداً من الأسلحة والذخائر وانجهوا إلى بسكرة ، فانسحب منها ، الحاج أحمد وأولاد بن قانة ، وطلب البركاني من فرحات بن سعيد أن يرافقهم إلى هناك فرافقهم على مصص ، وقال للحسن بن عزوز هكذا ذهبت رسولا ، وعدت خليفة ، ووعدته بأن يؤيده شريطة أن يعمل على تحطيم وتخريب الحاج أحمد باي وأولاد بن قانة ، وتم هذا التنصيب أواخر عام 1838 . واضطر البركاني أن يعود بسرعة إلى عين ماضي بأمر من الأمير لتشديد الحصار على التيجاني في قصره . ويذكر فيرو بأن الأمير عبد القادر لم يقم بهذه الحركة التوسعية في الصحراء الشرقية إلا بعد أن كاتب الماريشال فالي ، وأبلغه بأن ذلك يخدم السيطرة الفرنسية كذلك ، لأن ترك الحاج أحمد حراً طليقا ، سيسمح له بتكوين قوات تمكنه من محاربتهم جميعا هو ، وهم ، وأن فالي ، كاد أن يفتتح بوجهة نظره لولا معارضة الجنرال نيفري negrier له وتأكيده على عدم التضحية بفرحات بن سعيد على الأقل⁽⁸⁾ .

وقد عاود فرحات بن سعيد الاتصال سرا بالفرنسيين وراسل الماريشال فالي ، والحاكم العام العسكري بقسنطينة ، ولكن رسوله إلى الجزائر قتل ، ووقعت رسالته بأيدي الحسن بن عزوز الذي حولها في الحال إلى الأمير عبد القادر . وتمكن رسوله الآخر من الوصول إلى قسنطينة ولكن رسالته لم تسلم للمسؤولين الفرنسيين ، لأنها وقعت في أيدي أناس يكرهونه فأخفوها وأبقوها عندهم ثم أرسلوها إلى خصمه ابن قانة بالصحراء الذي حولها

(7) نفس المصدر ص 293 - 294 .

(8) نفس المصدر . ص 293 - 294 : 296 - 298 .

بنفسه إلى قريه بن أحمد بلحاج في سيدى عقبة ، فحوّلها بدوره إلى الحسن بن عزوز ، فانكشف أمره ، وتعاون ضده الرجلان لدى الأمير ، وسار في المنطقة المثل السائر : « ضبع الميدة القارة ومعه ثعلب الغيران ، تغامزوا على صيد الغابة » ، فأعطى الأمير أوامره باعتقاله فاستدرجه البركاني باللفظ والحسنى إلى المدية ، ثم اعتقله واقتاده إلى تآكدمت حيث سلمه إلى الأمير . فوضعه تحت الرقابة الشديدة مدة من الزمن⁽⁹⁾ .

بعد أن انسحب الحاج أحمد باي من بسكرة التحق بواد سوف ، وكاتب من هناك سلطان اصطنبول ليذكره بوعوده السابقة وبتأخر نجده . كما كاتب باي تونس وطلب منه أن يرأف بأتباعه ورفاقه الذين تضطربهم الظروف إلى الالتجاء إلى هناك ، واعتذر له عن عدم قدرته هو الالتجاء إلى تونس . ثم التحق ببوحصيف على أطراف التل ، وأذن لأصحابه بالذهاب إلى تونس لشراء الحبوب ، والمواد الغذائية بعد أن اشتد حصار الفرنسيين لهم ، وتخريبهم لأملأهم ومزارعهم ، ومطامرهم ، وقطعان حيواناتهم وتأسف بعد ذلك عندما علم بأنهم لم يحترموا تقاليد الضيافة . وأغاروا على زاوية عبد الكريم التي كانت بمثابة مخزن للحبوب ، واضطر أن ينقذ من جيبه 50 ألف ريال كتعويض عما اقترفوه ، رغم أن الكاهية التونسي طلب منه ألا يفعل ذلك بعد أن تفهم الوضع . وأكد الحاج أحمد في مذكراته بأن الاقتراح كان من خاله بن قانة ، وأنه كان يهدف من ورائه أن يفسد العلاقة بينه وبين الرسميين التونسيين .

ومما ثبت حث وخيانة ابن قانة ، استسلامه للفرنسيين على أثر هذه الحوادث زاعما أنه سيكون واسطة بينهم وبين الحاج أحمد باي الذي رفض ذلك ولكنه لم يشه على الاستسلام حتى يتخلص من مشاكله على ما يبدو . فعينه الفرنسيون شيخ العرب على الجنوب بمقتضى قرار 18 جانفي 1939 . ولم يقنع بذلك فطلب أن يخلعوا عليه لقب الخليفة ولكنهم لم يلبوا رغبته ، وتوانوا ليجربوا مدى إخلاصه .

(9) الضبع : هو الحسن بن عزوز والميدة القارة : رهبة صغيرة أمام واحة الزعاطشة . وثعلب الغيران : هو بلحاج في سيدى عقبة . وصيد الغابة هو الأسد ، ويحتنون به فرحات بن سعيد الذي يلقب كذلك بتجان الصحراء . انظر : شارل فيرو ، المصدر نفسه . ص 298 - 299 .

بقى الحاج أحمد باي عند الحراكتة بالتمامشة حوالي شهرين ، وفي شهر ماي 1838 قاد الجنرال نيقري حملة عسكرية ضده وضد أنصاره ، وراسله وعرض عليه الاستسلام فأجابه بأنه ينتظر جواب السلطان العثماني ليقرر ماذا سيفعل ، وانسحب إلى وادي ريغ ليكون في مأمن من مفاجأة القوات الفرنسية له ، وقضى هناك فصل شتاء عامي 1838 - 1839 . وفي فصل الربيع اتجهت إليه حملة فرنسية لملاحقته واستعملت حتى وسائل الخداع لاعتقاله بواسطة ولد يونس ، وأولاد سيدي يحيى والزغالة من رعايا تونس .

وحكى ذلك بنفسه ، وذكر أن الفرنسيين سلموا لهم مبالغ مالية ليوزعوها على بعض أنصاره القريبين منه ، والذين يأوونه حتى يدلّوهم على مكانه ويسلموه . وذهب إليه ولد يونس هذا وأبلغه الخطة وقال له بأنها وسيلة للإيقاع بالفرنسيين ولكن الحاج أحمد لم يصدق الرواية ، أو علم ببعض خلفياتها ، فاعتقله هو وابنه ، وقتلها وعين في مكانهما أحمد بن الزين في وظيفتهما التي لم يذكر كنهها وطبيعتها ويبدو أنها استخبار واستعلام عن أعدائه وخصومه الجزائريين والفرنسيين معا .

وفي عام 1840 قاد الجنرال فالبوا حملة عسكرية أخرى ضده ، وهاجم الحراكتة الذين يؤيدونه ويزودونه بالمال والمأوى ، وقتل عددا كبيرا منهم ، وسلب لهم 80 ألف راس غنم ، فاستنجدوا بالحاج أحمد ، ولّتي دعوتهم وتمكن من استرجاع جزء من قطعانهم المسلوبة ثم عاد إلى وادي ريغ مرة أخرى ، وحاول أولاد يونس أن ينتقموا منه فأدبهم . وقتل لهم عددا من الرجال .

وفي أواخر شهر مارس من العام نفسه هاجم بن قانة الحسن بن عزوز وأتباعه في صالسون غير بعيد من الدوسن وأولاد جلال ، وقتل عددا كبيرا من الناس وقطع 500 زوج من آذان القتلى وأرسلهم إلى الجنرال فالبوا فأكرمه على صنيعه وقلده وسام ضابط الشرف وزوده بمبلغ 50 ألف فرنك⁽¹⁰⁾ وكانت هزيمة بن عزوز هذه سببا في

قيام الأمير عبد القادر بعزله⁽¹¹⁾ ، وتعويضه بفرحات بن سعيد الذي أطلق سراحه وكلفه بالالتحاق بمنطقة الزيان لملاحقة الحاج أحمد ، وأنصاره البنفانيين ، وأبقى عنده أسرته حتى يضمن عدم خداعه ، واستسلامه للفرنسيين ، وقد وقع فرحات هذا ضحية لأولاد بن قانة ، فغدر به البوازيد في سبتمبر 1841 وقتلوه بأولاد جلال ، ودفنه أنصاره في ضريح (النبي) خالد ، بقرية سيدي خالد ، بعد أن قطعت أذناه ولحيته وانتزع منه خاتمه ، من قبل قاتليه وأرسلوها إلى الفرنسيين بقسنطينة . مما يدل على عمق العداء بين الطرفين وتأصله .

وفي عام 1842 انتقل الحاج أحمد من واد ريغ إلى الخناشنة بالأوراس لجمع شمل عائلته ، وأملاكه ، فاتجه إليه طابور فرنسي ليلحقه ، ولم يستطع أن ينال منه ، وعاد أدراجه . وفي العام الموالي 1843 استنجد به أولاد دراج ليساعدهم ضد خليفة الأمير عبد القادر الجديد ، محمد الصغير بن أحمد بلحاج . بمنطقة المسيلة ، وبسكرة ، فلبى رغبتهم واشترك معهم في مهاجمة بسكرة ، وقتلوا 40 رجلا ، وانتزعوا منه 30 بندقية . فعادوا إلى الحصنة ، وعاد الحاج أحمد إلى مكانه ، وأرسله زعيم ربيعة الشيخ مسعود بأحواز سطيف ، وأعلمه بأن طابورا فرنسيا يتجه إليه من سطيف ليهاجمه حتى يأخذ احتياطاته ، وأعلن استعداداه بأن يتعاون معه ، وعندما اصطدم بالفرنسيين فقد ستة من رجاله ، وبعض الأحصنة وعاد إلى الحصنة وبقي بها حوالي أربعة أشهر ، ثم اتجه إلى أولاد سلطان وبقي عندهم عاما ونصفا واتجهت إليه عدة طوابير فرنسية لتحاصره وتقاتله ، فلم تستطع أن تنال منه كثيرا لأن المنطقة جبلية صعبة التضاريس قاسية المناخ ، وسكانها مخلصون له كثيرا في أغلبهم . وخلال إقامته بأولاد سلطان توفيت أمه الحاجة رقية ودفنها بمقاوس .

معارك أولاد سلطان عام 1844 :

بعد مقتل فرحات بن سعيد في خريف عام 1841 تمركز محمد الصغير بن أحمد بلحاج خليفة الأمير عبد القادر في مدينة بسكرة على رأس 400 جندي منظم برأسهم

(11) عن الحسن بن عزوز : انظر مقالنا : جهود الأمير عبد القادر وعطفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية . مجلة الأصالة : عدد 48 . (الجزائر - أوت 1977) ص 2 - 42 .

أحمد بن عمر أحد ضباط الأمير في الحضنة . وتصارع مع ابن قانه وأتباعه في عدة معارك قتل في إحداها سي علي بن عمر شيخ زاوية طولقة الذي كان يحاول إصلاح ذات البين بين الطرفين . وعمت الفوضى كل منطقة الزيان ، وقطع الكثير من نخيل واحاته . وعندما حاول ابن قانه أن يثار من محمد الصغير بلحاج في واحة سيدي عقبة هزم أمامه . وقتل له 20 رجلا ، و 20 حصانا ، وجرح 45 رجلا ، و 12 حصانا ، فأرسل إلى الفرنسيين بقسنطينة يطلب النجدة والمساعدة .

وصادف طلبه هذا حسن الاستجابة من الدوك دومال : Le duc d'aumale ابن الملك الفرنسي لويس فيليب الذي رأى أن يغتنم الفرصة ويقوم بحملة كبيرة إلى الصحراء ليحطم قوات محمد الصغير بلحاج خليفة الأمير عبد القادر في بسكرة والزيان ويصفى الحساب إن أمكن مع الحاج أحمد باي الذي يعتصم بجبال أولاد سلطان ، وكان أومال هذا قد عين قائداً عسكرياً على منطقة الشرق الجزائري منذ أواخر عام 1843 من طرف الجنرال بيجو حاكم الجزائر العام .

غادر الدوق دومال قسنطينة أوائل عام 1844 وعندما وصل إلى باتنة في أوائل شهر فيفري ركز بها مركزاً عسكرياً للتصوين والاستعلامات . وهاجمه أتباع الحاج أحمد باي ، ورموا حراسه ليلتي 19 و 20 من الشهر . وحاول فرسان أولاد سلطان ولخضر الحلفاوية ، احتلال القنطرة ، واعتراض قافلة الجمال التي أرسلها بن قانه من الصحراء لتحمل أمتعة الجيش الفرنسي وأثقاله من باتنة إلى بسكرة . واصطدموا بقوات فرنسية منجدة وفقدوا 15 رجلاً .

وفي الوقت نفسه خرجت قوات عسكرية أخرى من سطيف إلى جبال أولاد سلطان غرب باتنة لمحاربة الحاج أحمد باي وأتباعه وأنصاره المعتصمين هناك ، وفق خطة مدروسة . وعندما علم محمد الصغير بلحاج بأخبار هذه الحملة غادر مدينة بسكرة قبل خمسة أيام من وصولها إليها ، وذهب إلى واحة مشونش ثم إلى جبال الأوراس . وعندما وصل الدوق دومال إليها دخلها بسهولة دون أي حادث يوم 4 مارس وكلف أربعة ضباط يحسنون التحدث بالعربية بزيارة كل القرى المجاورة للتعرف على أوضاع سكانها والاستعلام عن يودون البحث عنه خاصة الحاج أحمد ، ومحمد الصغير . وهؤلاء

الضباط هم : طوماس Thomas ودونوفو De Neveux وديفو Desvaux وفورني Fournier .

وعندما علموا باعتصام محمد الصغير بالحاج في مشونش هاجموه ، فخاض ضدهم معركة كبيرة خارج الواحة دخلها وأبدى رفاقه بطولة وشجاعة فائقة اعترف بها دومال في تقرير إلى الحاكم العام ييجو وقتل للفرنسيين ستة ، وجرح لهم ستة عشر⁽¹²⁾ .

بقي الحاج أحمد باي لدى أولاد سلطان في أعماق جبالهم وتحول منزله إلى مأوى للمجاهدين الذين أكثروا من هجوماتهم ضد القوات الفرنسية بيانة وأحوازاها .

وفي يوم 21 أبريل 1844 ، توجهت ستة ألوية عسكرية و 500 حصان ، إلى مفاوس على أقدام أولاد سلطان وشرعت يوم 24 في الهجوم على الجبل ، واصطدمت بجموع أولاد سلطان أنصار الحاج أحمد باي . وجرت معركة مهولة طوال اليوم وعجز الفرنسيون عن التقدم وسقط عدد كبير من رجالهم ، وعزوا ذلك إلى كثرة الضباط ، وقتل من أتباع الحاج أحمد 100 رجل بينهم 17 من طلبة العلم . واستعمل الفرنسيون أسلوب الأرض المحروقة ، وعسكروا في الأراضي المزروعة بالحبوب والمفروسة بالأشجار المثمرة فأفسدوها كالجراد .

ونظرا لهذا الفشل طلب الفرنسيون نجدات عسكرية أخرى من سطيف قادها الجنرال سيليق : Sillegue يوم 26 ووصل إلى مكان المعارك أواخر الشهر . وفي أول ماي جدد الفرنسيون هجومهم على أولاد سلطان . وتمكنوا من الوصول إلى قمة الجبل التي تعرف باسم « البر » فأبعد الحاج أحمد الذي كان مريضا ، إلى مكان آخر على نمش ، وقتل من أتباعه حوالي 40 رجلاً ، فوضعوا خطة جديدة للهجوم على معسكر باتنة ، واضطرت القوات الفرنسية أن تنسحب بسرعة وتعود إلى باتنة لتحميها⁽¹³⁾ .

وفي يوم 8 ماي تجددت المعارك للمرة الثالثة في جبال أولاد سلطان وتمكنت القوات الفرنسية من الاستيلاء على معظم خيام وأمتعة الحاج أحمد باي ، وعدد من البغال

(12) نفس المصدر . ص 346 - 359 .

(13) نفس المصدر ص 360 - 364 .

والأحصنة وقطعان المواشي وقتل لها خلال المعارك الثلاثة 23 رجلا وجرح 92 بينهم 13 ضابطا⁽¹⁴⁾. تلك هي الروايات الفرنسية عن أحداث أولاد سلطان. فما هي روايات الوثائق الجزائرية عنها. ذلك ما نوردته في الفقرة التالية :

رواية الوثائق الجزائرية عن معارك أولاد سلطان

في شتاء عامي 1973 - 1974 اكتشفت بأرشيف الوزارة الأولى بنونس ثلاث رسائل جزائرية تحدثت عن أربعة أحداث بكيفية وأسلوب يختلف بين هذه وتلك ولكنها كلها تجمع على خلاصة الحوادث :

- الأولى : للمدعو بلقاسم بن عبد الكريم القسنطيني .
- والثانية : للشيخ محمد الحسناوي بن بلقاسم الحناشي الأوراسي .
- والثالثة : لمحمد الصغير بن عبد الرحمن بن أحمد بلحاج خليفة الأمير عبد القادر في بسكرة وسيدى عقبة .

والحوادث الأربعة التي تحدثت عنها هي :

- قصة امرأة فرنسية قدمت من فرنسا بهدية كبيرة إلى الأمير عبد القادر لتفدى ابنها الأسير عنده .
- تنظيم مؤامرة لاعتقال الحاج أحمد باي في جبل أحرر خدو بالأوراس .
- تأمر حاكم وجدة المغربي مع القوات الفرنسية ضد الأمير عبد القادر .
- الخطة العسكرية التي مكنت محمد الصغير بن عبد الرحمن بن أحمد بلحاج من اقتحام مدينة بسكرة ، والسيطرة على كل ما بها من مؤن وذخائر وأموال ونقود ، وذلك ليلتي 13 و 14 ماي 1844 م⁽¹⁵⁾ .

(14) نفس المصدر . ص 365 - 366 .

(15) في هذه الوثائق الثلاث انظر مغالنا : أربعة أحداث في ثلاث وثائق . المجلة التاريخية المغربية . عدد 2 (نونس جويلية 1974) ص 94 - 102 . وكذلك مجلة الثقافة عدد 45 (الجزائر - يونيو ، يوليو 1978 م) ص 9 - 24 .

والذي يهمنا نحن هنا هو إيراد رواية هذه الرسائل حول أحداث أولاد سلطان لنفازن ذلك مع الروايات الفرنسية ، ونرى ما بينها من فروق .

فيلقاسم بن عبد الكريم القسنطيني في الوثيقة الأولى قال مخاطبا كاهية الكاف : « ونحبركم على الحاج أحمد باي وخليفة سي محمد الصغير خليفة سيدي عبد القادر وهو شيخ سيدي عقبة فلما أتاهما ولد الربي إلى الصحرة فترك سي محمد المذكور بسكرة وسيدي عقبة ، وخرق البيبان ، وذهب هو والناس الذي عنده في البلاد إلى الجبل الأحمر خدو ، ثم إن ولد الربي دخل بسكرة وخلف بها نوبة عسكر وخيالة من النصاري والمسلمين وذهب ولد الربي إلى أولاد سلطان الذي عندهم الحاج أحمد باي وتكلم معهم أن يمكنوه بالحاج أحمد باي ، فلما بلغ ذلك للحاج أحمد أرسل لكبار العروش وذبح لهم أربعمائة كبش وأكلوا الطعام ثم قال لهم إن هذا فرقي اقتلوني ولا يقتلني النصاري وبكى فبكت الناس لبكائه واتفقوا إما يموتوا جميعا مجاهدين وإلا ينصهرهم الله تعالى فتقابلوا مع العدو ثلاثة طرق فنصروا المسلمين في الثلاثة نصرا عزيزا أخذوا لولد الربي في المرة الثالثة سبعمائة بغلة رافعين العوين ، وأزيد من مائة خباء و ثلاثة مدافع ، وعلجية فراشة لولد الربي ، وأما الأثاث فلا يحسب وتمكنوا بأسرى كثيرة نصاري ومسلمين فقتلوا جميعهم فهرب ولد الربي وحط محل يقال له باتنة وبعث للجزائر وبلدانها بأتوه يريد الرجوع إلى المسلمين » (16) .

— والشيخ الحسناوي ذكر في رسالته إلى كاهية الكاف ذلك « إن التراسمة الذي بعثناهم إلى الغرب قدموا وحكوا لنا كسرة الرومي دمره الله ونحن في ذلك الحال وإذا به قدم حاج حسين صاحب الحاج أحمد باي الذي كان سابقا يسير فيه إلى بر الترك فحكى لنا سورة الواقع كما أنزل حكى لنا على المحلت التي أخذها الحاج أحمد باي وأولاد سلطان وأخذ لهم المدافع وغيرهم وبعد ذلك روح ولد الربي وأخيه إلى قسنطينة وحذر أخيه (17) وجمع أمحاله وقصد إلى جبل أولاد سلطان ولما وصل إلى طرف الجبل فرق محلة حشر هو بها إلى الجبل وبعض خلها في الوطي خلوه حتى حط وحده من العصر يطاردوا فيه إلى بعد العشي وبات عليه الغلب وشطر الليل الربي حذر بالعسكر ، وبقي

(16) أ. د. ت. : ملف 929 . صندوق 78 . وثيقة رقم 45 .

(17) يقصد به أخاه الأمير موبونسي : Mohponcier .

المحلة بما فيها وفاقوا به وطاروا معه وحكموا منه مائة وخمسين سبايسي ، وخمسة نصارى ، وحكم منهم أربع روميات ، والمدافع والجراى على ما فيها (18) .
وقال محمد الصغير بن عبد الرحمن في رسالته الثالثة إلى إبراهيم بن عون باختصار :
« إلحاق خير وعافية وكذلك ولد الربى لعنه الله قصد إلى جبل أولاد سلطان فقاتلوه قتالا عظيما فهزموه وأخذوا بعض محلته ، ثم جمع لهم ثانيا وثالثا فهزموه أيضا وانصرف مذموما مخذولا ولم ينل ما هم به والسلام » (19) .

اقتحام محمد الصغير بلحاج لمدينة بيسكرة

كان الدوق دومال قد ركز بيسكرة بعد أن دخلها في مارس 1844 قوة صغيرة تتألف من جنود القوم بينهم ثمانية من الفرنسيين .

وبعد حوادث أولاد سلطان بأقل من أسبوع دبر محمد الصغير بن أحمد بلحاج خليفة الأمير عبد القادر خطة لاقتحامها ونفذها ليلتي 12 و 13 ماي 1844 . وقتل معظم من بداخلها من القوم والفرنسيين ما عدا الطباخة ماري التي تزوجها فيما بعد ، والضابط بيليس : Pilisse الذي تمكن من الفرار إلى طولقه واحتفى بشيخها ، وأرسل من هناك من أخبر أومال في باتنة بالحادثة .

وقد تخوف محمد الصغير من أن يعاجله الفرنسيون وأنصارهم فطلب من الناس أن يمدوه بالمزيد من البغال لحمل غنائمه فرفضوا ، واكتفى بالبغال التي وجدها بقصبة المدينة ، وحمل عليها الأسلحة ، والذخائر ، والألئسة ، والنقود ، ومدفعين خفيفين ، وانسحب يوم 17 ماي إلى الأوراس ومن هناك إلى نقطة التونسية عبر نقرين . وعندما اندلعت أحداث الزعاطشة عام 1849 اشترك فيها على رأس 700 فارس ، ثم عاد إلى نقطة وتوفي بها عام 1856 وخلف ولدين اثنين من الطباخة الفرنسية ماري حسب رواية فيرو الذي ذكر عام 1887 أنهما ما يزالان يعيشان في القيروان (20) .

(18) أ . د . ت . صندوق 212 . ملف 239 . وثيقة 24 .

(19) أ . د . ت . صندوق 212 . ملف 239 وثيقة رقم 19 .

(20) فيرو . المصدر نفسه ص 366 — 368 .

وعن هذا الحادث أورد بلقاسم بن عبد الكريم في رسالته أشياء مفصلة وشائقة فقال :
« وأما خبر سبي محمد الصغير فلما دخلت النوبة بسكرة تكلم مع مائة من العسكر
الذى في الجبل على أن يهربون من عنده أفذاذا إلى بسكرة ويذموه فعند تمامهم هناك
يرسلوا إليه يأتيهم ويحلوا له البيبان للدخول إلى النصارى ففعلوا ذلك فلما بلغوا بسكرة
نحو الخمسة والعشرين رجلا أرسلوا إليه فأتاهم بعسكره لسلا وفتحوا باب بسكرة
ودخلوها وقتلوا جميع ما فيها وأخذوا خزنتها إلى الجبل والخزنة بها مليونان دور واثان
وعشرون مكحلة كبرى وخمسة عشر مائة كسوة ملف للعسكر . وأربعمائة حصان
وخزنتين بارود ، وخزنة كور ودوبلي ، وأربعة مدافع ، وأما القمح والشعير لا يحصى .
ولم يمنع من النصارى الذى ببسكرة إلا واحدا هرب لرجل مسلم من عرب الخيام فأمنعه
الرجل خفية وأخذ منه مأخذ إلى أن بلغ الرومي إلى ولد الرى وأخبره بالخبر .

وأما الرجل الذى منع الرومي سمعوا به المسلمين فقتلوه ، وولد الرى أرسل إلى
قسطنطينة على ألفي شاقور يريد الرجوع للمسلمين وقطع نخيلها وربنا يلطف بنا وبهم .
أما محمد الصغير بلحاج الذى نفذ العملية قال في رسالته : « إنا هجمنا على عسكر
عدو الله الذى تركه بقصبة بسكرة ومكنا الله منهم وظفرنا بجميع الخزنة من مدا
وسلاح ، وكور ، وبارود ، وأما الأطعمة من بر ، وشعير ، وروز ، وأنواع الخبز ،
لا تحمله ذوات الأربع ، ولا يحصى عدده إلا الله ومسكنا علجية ونحو الستين قرصا
وقلنا القباطين . وأما بقية عسكرهم كله بقي لنا والحمد لله ذلك من فضل الله علينا
والله ينصر دين الإسلام . »

وقد خلد أحد شعراء الملحنون أحداث أولاد سلطان فقال ضمن ما قال :

باسم الله بدين نقول	ياناس صلوا على الرسول
الى مات للجنة والقصور	وسيعين من بنا الحور
ياناس انصروا الدين	وموتوا بالماية والألفين
بركانا من موت الشين	على الشهوة والدنيا الاثنين
يانجمي النفخات	الأبطال أبدوا الزدمات
	والنار شعلت رقات

كف ايطيحوا في الماية أو أكثر
أهل الله تلقى تحضر
الأحرام والمجاهدين
ذاك النهار طاحوا سبعين
أهل الجهاد ياخوقى الاحرار
رايحين للجنة والنار
ما عتا هذا يوم الطراد
الذى طاح شهيد
يضرب المدفع والكور
آخر ميت آخر منكور
النهار الأول لهم كسرة
ذاك النهار عنا نصره
قلموا تل وزيبان
ما لاة يا جبل السلطان
قلموا تل وصحرَاء
ما لاة يا جبل القيام
مغلوب وبجشد الاسلام
ما لاة يا جبال المنافق
ما لاة يا جبل الواعرين
آه محكيه ياناس
على أهل الحرب والقرطاس
كيف غلبونا فرائص والنجوم
ما لاة يا نجع المسطوع
خلای وخلا عرشي

هذاك فن قدر
والضباب ولا من ينظر
للزدمة كيف هادين
غير الي هو نقض العين
طاحوا في مثل الغمار
غير في الحور يختار
بولدون في مثل الجراد
غير في الأبطال يصطاد
الجنة له تريد
والموت عنا بالدور
والبعض طايح مفقور
وطاحوا الأبطال يا حصرة
والغيم على الجبال رسي
جاونا ترس وقومان
شوايفك وصلوا وهران
ما عظم ذاك اليوم ما جرى
والحال عليه تلام
ياناس راحوا الأيام
جات عليه النجوم تشاف
كيف عدتم مذا للين
جرات مع جبل أوراس
الي غلبوا الترك والتشركاس
عيني ماخية بدموع
كيف عاد للخدمة مطبوع
ما بقى لي باه نعاشي

وما بقي في ساحتى غاشي
والحال ثم بئى تدور
وبعيني فيهم نظـور
على الأيسار ما خذ ضربة
هذا الضيف راه ما يدوم
والذى خلف أخيه يندم
وانا ضرير لا صبت تفوز
والضيم جاءنا محفور
وأنا مقسوم على لتصاف
عطشان وربقي يابس
وفي الليالي نبات نباصر
وعساكرهم الكفار
وفي الوطا مشت لخبار
والحب بطير تطيار
ما يعرفوا غير الـيدار

نرغى في مثل الحاشي
راني ثم مكسور
أنا طايح مكسور
يا ناس راني في غلبة
أنا ضرير لا صبت قوام
نعي نتفكر مع اللـم
خلوني خوتي العـروز
غير اللي يقول أنا أـمي عجوز
خلوني طايح في الكاف
خلوني قاعد حابس
راني في الكاف حاضر
ولد الراي مع جـنار
في الجبال طلقوا النار
ولد الراي مع جـنار
ما يعرفوا إلا النار

إلى أن يقول :

استوت الفيران مع القطوطة
في دولة بو برنيططة
ليهون الظلم عن المظلوم
وطريق الحق دايـم معلوم
والذى ينكر الحق مذموم
عند الله الحي القيوم
كذا حكموا شرق وغرب
ما خلوا حتى مضرب⁽²¹⁾

(21) فيرو : المصدر نفسه . ص 376 - 381 . إن هذا الشاعر الذي لم يذكر اسمه جرح في هذه المعارك وعالجه الفرنسيون ، وهذا على ما يظهر هو السبب في إعادته بهم في آخر القصيدة .

وخلال عمليات الدوق دومال في جبال أولاد سلطان غرب الأوراس ، كان الجنرال راندون يقوم بعمليات عسكرية شرق الأوراس على الحدود التونسية ، ووصل حتى إلى تبسة على مشارف الصحراء . وذلك في إطار عملية حصار للحاج أحمد باي وأتباعه على ما يبدو (22) .

كان الحاج أحمد خلال معارك جبال أولاد سلطان يتوفر على حوالي 700 فارس من أولاد سلطان ، هم الذين تولوا مواجهة هذا الجيش الاستعماري المتفوق عدة وعددا . خلال المعارك الثلاثة الكبرى أيام 24 أبريل ، و 1 و 8 ماي 1844 التي كانت تبدأ دائما يوم الأربعاء كما ذكر ذلك الحاج أحمد ، وأكد أنها من أكبر المعارك التي خاضها في حياته (23) .

وكان مريضا جدا يحمله أصحابه على نعش وينقلونه من مكان إلى آخر ، والرصاص يمر على جنبه أو فوق رأسه . وتأسف على عدم قدرته المشاركة في المقاومة . وقد حملوه من المكان الذي يغرف بالبر في قمة الجبل إلى غربه ، ومن هناك حملوه إلى جبل مثلي ، ثم إلى الضاية ، فبني فراح ، وأخيرا إلى قرية منعة ، حيث آواه الشيخ بلعباس لمدة عام كامل وقدم له كل الإسعافات ، وواجبات الضيافة . وهناك في منعة فقد اثنين من أبنائه وهما محمد وعمره 13 عاما ، ومحمود ، وعمره خمسة أعوام (24) .

وفي عام 1845 هاجم الجنرال بيدو سكان واد عبدى فاستنجدوا بالحاج أحمد ، وذهب إليهم ووجدتهم مختلفين ومنقسمين على أنفسهم ، وحذرهم من مغبة ذلك عليهم ونصحهم بالاستسلام ما داموا لا يستطيعون تجاوز خلافاتهم لأن مواجهتهم للقوات الفرنسية على تلك الحالة بمثابة انتحار . فرفضوا الانصياع لرأيه وعندما اصطدموا بتلك القوات تشتتوا وفروا هاربين واكتسحت القوات الفرنسية قرى واد عبدى مثل نارة ، ومنعة ، وعيدوسة ، وهدمه ، واستسلم لها أولاد عبدى ، وأولاد داود ، وبني وجانة وبني بوسليمان ، وسكان الخنفة ، وأولاد يعقوب ، وبني معافة ، والولجة ، وصادرت

(22) نفس المصدر . ص 372 - 374 .

(23) مذكرات ، ص 197 - 198 .

(24) فخر . ص 391 .

منهم آلاف الأغنام والأبقار ، ومئات من البغال ، وكميات كبيرة من القمح والشعير في المطامير .

وعندما عاد الحاج أحمد إلى منعة لاحقه الفرنسيون إلى هناك يوم 22 ماي 1845 فانسحب إلى قرية الكباش بجبل أحمر خدو واحتفى بأولاد عبد الرحمن وبقي هناك حوالي عامين آخرين .

وفي عام 1847 عاد سكان واد عبدى إلى الثورة ضد القوات الفرنسية . وتولى حاكم بسكرة الجديد سان جرمان : Saint german ملاحقتهم ومحاربتهم ، وزحف الجنرال هيريون Herbillon على واحة أولاد جلال لملاحقة الشريف بومعزة الذى انسحب من جبال الظهرة والونشريس إلى هناك ، واصطدم مع أتباعه أولاد زياد ، وأولاد الساسي ، ابتداء من 10 جانفي 1847 .

وجرت بين الطرفين معركة كبيرة في غياب بومعزة الذى انسحب قبل وصول القوات الفرنسية إلى هناك ، وقد قتل للفرنسيين 35 رجلا ، وجرح 110 مما يدل على هول المعركة وشراستها⁽²⁵⁾ .

نهاية الحاج أحمد باي :

عندما اعتصم الحاج أحمد بقرية الكباش في أحمر خدو بقي على صلة بالكثير من أتباعه في التل والصحراء . وتخوف الفرنسيون من أن يستعيد نشاطه ويجدد قواته فأخذ كانروبير : Canrobert الحاكم العام الجديد على بآنة في الاستعلام عنه في مطلع عام 1847 ، وكان يوجد في قرية الكباش بأحمر خدو كما ذكرنا ، لدى أولاد عبد الرحمن . ووصل إلى علم كانروبير بأن بعض الناس يسعون لتسليمه لهم ، فكلف الضابط سان جرمان بالبحث عنه وعن مكانه . وألح عليه بأن يفلق كل الطرق والمسالك الجنوبية في وجهه حتى لا يفلت إلى الصحراء ويصعب عليهم بعد ذلك اعتقاله .

قاد سان جرمان مجموعة من قوات القوم والجنود وتوجه إلى قرية الكباش ، فغادرها الحاج أحمد تحت رعاية عدد من رجال أولاد عبد الرحمن وأخذ اتجاه شرق الأوراس فاعترضه بنو ملكم ، وأقنعوه بضرورة العودة إلى الكباش ، وذلك بأمر من الفايذ بن ناصر شقيق أحمد باي بن شنوف ، وبتنسيق من سان جرمان حاكم بسكرة ، فأغلقت في وجهه كل الأبواب ووجد نفسه محاصرا من كل جهة بالضبط كما فعلوا بالأمير عبد القادر بغرب البلاد أواخر عام 1847 .

فكتب رسالة إلى سان جرمان حاكم بسكرة بتاريخ 2 جوان 1848 قال له فيها بأنه كتب إليه سابقا رسالة شرح له فيها بالتفصيل ما يهمه ، وأرسل له هذه الرسالة مرة أخرى مع الشيخ مسعود ، ولكنه مرض فتأخر إرسالها . وطلب منه الأمان كما وعده سابقا وهو عمل الحكام ، وخاصة من الفرنسيين الذين يفون بالوعود . وأوضح له بأنه يعلم منذ مدة طويلة بأنهم أصحاب كلمة وعند وعودهم . وطلب منه أن يكتب له بالسرعة الممكنة ليعطى له الأمان التام ويحدد له المكان الذي يجب أن يقود إليه نساءه وأتباعه دون خوف ولا حاجة لأية واسطة ، ويعرفه أين يذهب ليلتقي به مع أتباعه . وأوضح له كذلك بأنه كان سلطان هذه الولاية ولكن إرادة الله ناجزة ، وهو سيد الكون والأرض وهو الذى يرزق النصر من عنده ، وقال له : أجبني بسرعة عن إعطائى الأمان وضمان حلمكم وعطفكم لأن الغدر هو ضد عاداتكم ودينكم ، ولا تحبون المخادعين والخائنين . وباختصار أطلب الأمان التام إلى كل من هم في حوزتي وعندما تصل رسالتي هذه أرسل إلى ضابطا فرنسيا ليسلم لي أمانكم ، ومنصحيه إليكم . ولا ترسلوا معه أى شخص مسلم (26) .

بمجرد أن اتصل سان جرمان بهذه الرسالة استدعى الجاويش عمر بن عبد الله وأعطاه ساعته ، وختمه ، وكلفه بالاتجاه إلى الحاج أحمد وإبلاغه الأمان الذى يطلبه وعندما وصل إلى مكانه اعترضه حارس وحال دون تقدمه نحوه ، واشتدت المشادات الكلامية بينهما وكادت أن تتطور لولا أن الحاج أحمد أسرع إلى المكان على ظهر حصانه ، وييده مسدسة

(26) المصدر نفسه ، ص 393 . ولم يوضح فور أين يوجد النص العربى لهذه الرسالة . وأورد هو الترجمة الفرنسية وعليها اعتمادنا نحن ، والمهلة عليهم بالنسبة للأفكار التي وردت فيها .

شاهرا إياه فأسرع الجاويش إليه وارتمى على أقدامه يسلم عليها فتزل على فرسه وقاده إلى شجرة مجاورة وجلسا معا بعض الوقت فأبلغه الجاويش الرسالة الشفوية لسان جرمان فطلب يومين للتفكير وأخذ القرار النهائي ، وقال له الجاويش ، إن الوقت سيكون قد فات آنذاك لأن القوات الفرنسية تحاصرك من كل جهة . والأحسن لك أن تسلم حالا بإرادتك بدلا من أن يلقي عليك القبض دون شروط ، فنهض واقفا وأعلن له باستعداده الذهاب معه في الحال فانقسم أولاد عبد الرحمن إلى فريقين ، فريق أراد أن يمنعه من ذلك ، وفريق رأى أن تترك له الحرية ليتخذ ما أراد ، فعزم على الرحيل وبكى فبكى معه كل الحاضرين وسار مع الجاويش عمر بن عبد الله حتى أوصله إلى سان جرمان . فتقدم الأخير لمصافحته باليد . وعندما شاهد غير بعيد من المكان بعض رجال أولاد بن فالة تقطب وجهه ، ووقف وقال له : لم تأخذ ولم تعمل بما قلته لك في رسالتي (ويعني بذلك عدم اطلاع أى أحد من المين) ، إن أولاد بن فالة هددوني وأتعبوني ، وسيهددونكم ويتعبونكم ، أنتم كذلك ، إنهم السبب في كل المآسي ولا أحب أبدا أن أراهم بعيني هذه ، وكان ذلك يوم 5 جوان 1848 .

فأمر سان جرمان في الحين بأبعادهم . وهذا عندئذ حاله ، فاستراح بعض الشيء ثم كلف 30 صبايحيا قاده إلى ديدية Didia حيث قضى ليلته هناك وفي اليوم الموالي حمل الجاويش عمر بن عبد الله أمتعته وحوائجه وأفراد عائلته على 60 بغلا الذين قدمهم إليه أولاد عبد الرحمن بالكباش وساقه إلى قارته : Garta حيث قضى الليلة الثانية بها . وفي اليوم الثالث وصل إلى بسكرة . ووضع في حي عسكري حتى يستريح ، ومنع أى واحد من الاتصال به بطلب منه . وكلف الضابط بوثمان Bonnemain (مصطفى) الذى يحسن العربية بالاتصال به والتحدث معه ، فظن أنه عربي وغضب وكاد أن يطرده من مكان إقامته إلى أن ذهب سان جرمان ، وكانروبير ، إليه ، وأبلغاه بأنه ضابط فرنسي وليس عربيا ، ولكنه يحسن العربية فهذا حاله وانشرح باله ، وطلب أن يكون مرافقا له من بسكرة إلى قسنطينة⁽²⁷⁾ . فأخذ طريقه من بسكرة إلى باتنة

ومنها إلى قسنطينة حيث قضى بها ثلاثة أيام ، ثم سافر بجرا إلى الجزائر العاصمة وخصص
له مرتب شهرى ، وبقي ينتظر الإذن له بالسفر إلى البلاد المقدسة ولكنهم خدعوه كما
خدعوا قبله نظيره الأمير عبد القادر . ولم يطل به الأمر إذ توفي في شهر أوت عام
1850 ودفن في مقبرة ضريح سيد عبد الرحمن الثعالى .

د . يحيى بوعزيز

جامعة وهران

□ □ □

مراجع الكتاب

در این کتاب که در این کتابخانه است
 و در این کتابخانه است و در این کتابخانه
 و در این کتابخانه است و در این کتابخانه
 و در این کتابخانه است و در این کتابخانه

کتابخانه

بعض المراجع ذات الصلة بالموضوع بالعربية

— أحمد باي (الحاج) : مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة ترهة الزبيري (محمد العربي) . (الجزائر 1973 م) 201 ص .

— بوعزيز (يحيى) :

- 1 - الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري . ط 3 (تونس . 1983) 366 ص .
- 2 - ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين (قسنطينة دار البعث 1980) 550 ص .
- 3 - الموجز في تاريخ الجزائر (الجزائر 1965) 220 ص .
- 4 - ثورة 1871 دور عائلي المقراني والحداد . (الجزائر 1978) 471 ص .
- 5 - كفاح الجزائر من خلال الوثائق (تحت الطبع) .
- 6 - علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500 . 1830 م (د . م . ج . 1985) 206 ص .

— التميمي (د . عبد الجليل) : بحوث ووثائق في التاريخ المغربي . تونس والجزائر وطرابلس . 1816 . 1871 م (تونس 1972) 358 ص .

— خوجة (حمدان بن عثمان) : المرأة . تقديم وتعريب وتحقيق الزبيري (د . محمد العربي) (الجزائر 1982 م) 310 ص .

— الزبيري (محمد العربي) : التجارة الخارجية للشرق الجزائري . (الجزائر — بدون تاريخ) 351 ص .

— الزهار (الحاج أحمد الشريف) : مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائري (تحقيق ونشر المدني — أحمد توفيق) . (الجزائر 1974) 196 ص .

— الزباني (محمد بن يوسف) : دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران تعليق وتقديم المهدي البوعبدللي (الجزائر 1979 م) .

— سعيدوني (د . ناصر الدين) :

أ (النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800 - 1830 م) (الجزائر 1979) 341 ص .

ب (دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر) (الجزائر 1984) 355 ص .

— ابن شبيب (محمد المهدي) : تاريخ قسنطينة أم الحواضر في الماضي والحاضر (قسنطينة

1980) .

— ابن عبد الكريم (د . محمد) : أحمد بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته . (دار الثقافة بيروت

1972) 255 ص .

— ابن العتري (صالح) : سنين القحط والمصيبة ببلد قسنطينة : نشر وتحقيق ربيع بونار ، تحت

عنوان مجاعات قسنطينة (الجزائر 1974) 76 — ص .

بعض المجلات والجرائد :

المبشر (1847 - 1899) .

الأصالة (1971 - 1981) .

الثقافة (1971 - 1985) .

المجلة التاريخية المغربية (1974 - 1985) .

الأخبار (1845 - 1880) .



المصادر الأجنبية

- Achille (Robert) : Autographe d'el- Hadge Ahmed Ben Mohamed Cherif, dernier bey de constantine, en R.N.M.S. A.C. (Constantine — 1919) pp 147-157.

— ANONYME :

a) Journal de L'Expedition et de La Retraite de Constantine en 1836 par un officier de l'Armée d'afrique (Paris - 1837) 92p.

b) Recueil de Document sur L'expedition et La Prise de Constantine par les français en 1837 pour servir à l'histoire de cette campagne atlas (.Paris - 1838) 5 planche.

c) Constantine , son passé , son centenaire (1836 - 1937) en ; R.N.M.S. A.C.(Constantine 1938) vol. 64 p 492 p.

- Badja (Abdelkrim) : La Bataille de Constantine 1836, 1837 (Constantine imr el Baath S.D.) 64 P.

— Baudens (dr.) : Journal d'un Medicine de l'expidition de constantine (rev. Paris 1838) t.I.II.pp. 5 — 37,89 - 124 repris sous le titre, relation de L'expedition de Constantine (bailliere 1838) 73p.

— berbrugger (auguste);

a) Les Epoque Militaire de La Grande Kabylie. R.A.F.T.U. (1860)

b) Le Pegnon d'Alger ou les origines du gouvernement Turc en Algerie. Raf (1856 — 1857)

c) Notes Relatives à la revolte de Ben Sakheri R.A.F. (1866) pp 337 — 352.

d) Un cherif kabyle en .R.A.C.T.3. (1858) pp.

— Biconet (e.) : Une lettre de bey de Constantine en 1827 .R.A.F. (1889) pp 172 - 181.

— Bonnafont (dr);

a) Reflexion sur l'Algerie particulièrement de la province de Constantine (Paris 1846) 59p .

b) Douze ans en algerie (1830 - 1842)(Paris 1883) 441p .

a) Buisson d'Armandy (general) : La prise de Bon en 1832 . extrait des mémoires de M. le general d'Armandy .

— .rev. de bretagne et de vendée (1882) 6 em série T.I.pp 405 —422 . T 11.
pp.29 — 45/181 — 197. (à part nantes forest et grimand) S/D/ (1882) 48p.

— **Cadart** (général .ch .r) : Souvenirs de Constantine, journal d'un officier du génie
redijet en 1838 — 1839 et coordonnée en 1839 .par le general ch . Cadart (Firmin
Didot - 1894) in 18 VIII- 385 p.

— **Carrette** : Etude sur La kabylie (exploration scientifique de l'Algerie).

— **Carrette et warnier** ; Discription et division de l'Algerie (Alger 1847) .

Cherbonnet (A) ;

inscription arabe de La province de constantine .IN.R.N.M.S.A.C. (Constantine 1854)
1855 pp. 70 — 139.

Delphin (G.) : Histoire des pachas d'Alger de 1515 a 1745. extrait d'une chronique
indigène.

Traduit et annoté in journal asiatique. 1 er partie (Avril ? juin? 1922) pp 161 233 2eme
partie (Janvier — Mars — 1925). 15p

— **De Paradis** (venteure.) alger au XYIII seicle (alger 1898).pp.

— **De Voisins (V.)** : Expedition de Constantine (Pares 1840) 148 p.

— **De Voulx (Albert) ;**

a) les archives du consulat de france à Alger. (Alger — 1867)

b) Biographie de Rais Hamidou .R.A.F. (1913).pp.

- **Tachrif at** . Recuil des notes historique sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger
(Alger 1852) 99p .

Dournon (A) :

a) Kitab tarikh Qosantina par el **Hadj Ahmed el Mobarak**. R.A.F. (1913) pp 265 - 305.

b) Constantine sous les turcs d'après Salah el Antri. IN.R.N.M.S A.C. (Constantine
1928 - 1929) pp. 61 - 178 (& part challamel 1930).

- **Duc d'Orleans (le)** : Campagnes de l'armee d'Afrique 1835 - 1839 - (Paris 1870) 460 p.

- **Du Granmont (H.D.D.E)** Histoir d'Alger sous la domination turque 1515 . 1830
(Alger - 1887) 420 p. de Tassy (Langier) : histoire de royaume d'Alger (1725) .

- El-Antri (Salah): Première essai d'une histoire de Constantine (Constantine felix geunde imprimeur et lithographe place de palais 1846) 2em ed 1852 sous le titre Faïda Mounissa. (la perle agreable) (texte arabe) .

- Emerit (Marcel):

- a) Les memoires d'Ahmed bey dernier bey de Constantine in rev .AF (1949) PP 65-125

b) Hadj Ahmed bey et la résistance constantinoise à la conquete française .in encyclopédie "les africains" tome 8 (Paris ed. Jean afrique (1977) p 101 - 131.

c) Le Mystère de Yasuf .R.A.F. (1952) pp 385 - 399.

- Esquer (Gabriel): Les debuts de Yasuf à L'Armée d'Afrique d'apres des documents inédits (1830 - 1838) R.A.F. (1910) pp 225 - 300,

- Feraud (CH.L.):

a) Oued el Kebir et Collo .R.A.F (1858 - 1859) pp.

b) Zebouchi et Osman bey .R.A.F (1862 pp 120 - 127.

c) Epoque de l'etablissement des turques à Constantine R.A.F. (1866) pp 179 - 196

c) Monographié de palais de Constantine R.N.M.S.A.C (Constantine 11867)

e) Kitab el Adouani ou le sahara de Constantine et de Tunis R.N.M.A.C (Constantine 1868) pp 1-208.

f) Ferdjicua et zouara .notes historiques sur la prorrience de constantine ref (1878) pp 5-81. 161,241,321.

g) Notes Hostoriques sur la province de Constantine Raf(1886)

h) Histoire des villes de la province de Constantine ,Setif, Bordj bou arreridj, Messila, Boussaada (Constantine 1872) 379 p

i) Le Sahara de Constintine (Constantine 1887) 525 p.

j) Lettres autographe de Mohamed manauanni bey de Constantine 1824 1826 R.A.F (1874) pp 413 . 417.

Gaid (Mouloud);

a) L'Algerie sour les tures (Tinis 1973).

b) Chronique des beys de Constantine (Alger .O.P.U.S ans date) 160 p.

c) Histoire de Bedjaia et sa region depuis l'antiquete jusqu à 1954 (Alger 1976 196 p.

- Galibert (Leon) : L'Algerie ancienne et moderne (Paris 1846)
- Garrot (henri) : Histoire General de l'Algerie (Alger 1910) 1189 p.
- julien (CH.A) : Histoire de l'Algerie contemporaine 1827 - 1871. (Paris .puf 1964) 613 p.
- Haido (Fray Diégode) : Epitomée des rois d'Alger 1596. traduit et annoté par du grammont (Alger 1884).
- La Cheraf (mostefa) : Constantine, politique et militaire dans les guerres coloniales d'Algerie 1830 - 1860 (Temps Modernes Janvier 1961) pp 727 800
- La Malleu (Dureau de) : Province de Constantine recueil de Renseignements pour l'expédition ou l'établissement des français dans cette partie de l'Afrique septentrional (Paris 1837) 315 p.
- Marnol (Luis Carvajal) : Description general de Africa 1573 1599 (Madrid 1933) 3 tome.
- Mercier (Ernest) :
 - a) Les Deux sieges de Constantinie 1836 - 1837 (Constantine - 1896) 100 p.
 - b) Histoire de Constantine (Constantine 1903) V.730 p.
- Mercier (Ernest) :
- nousHi (Andre) :
 - a) Constantine a la veille de la Conquete, cahiers de Tunisie (1955) PP370 -387.
 - b) Enquete sur le niveau de vie des populations rurales Constantinoises de la conquete jusqu'à 1919 (tunis 1961) LXXIII, 767 p.
- Péchot (L) : Histoire de l'Afrique de nord. T III. (periode Turque).
- Pelissier de Reynaud (E) : Annales Algeriennes .(Alger 1854) 3 T.V II-478 + 517 + 535 p.
- Peyssonnel et des Fontane : voyage sur les cotes barbares en 1824 1825. voyage dans les regences de Tunis et d'Algerie (alger 1838).
- Rousseau (Alphonse) : Les annales tunisiennes.
- Rousset (Camille) : Les commencements d'une Conquete ; L'Algerie de 1830 à 1840 (alger 1887) 2 T 496 p
- Schluser (Von Dlin) : le peylik de Constantine et Hadj Ahmed bey 1832 - 1837. traduit en langue arabe par Belaid Doudou (Alger 1980)
- Sedillot (Dr.C) : campagne de Constantine de 1837 (paris 1838) 304 p.

- Saint Calbre (c) Constantine et quelque auteurs arabe constantinoises R.A.F (1913) pp. 70 - 95.
- Sander Rong : de fondation de la regence d'Alger in tableaux des etablissements français en Afrique 1838 (Paris 1839) 239 p (1840) 365 p.
- Tableaux des etablissements français en Afrique (1839 - 1840).
- Temini (dr.Abu El Jellil):
 - a) Trois lettres de Hadj ahmed bey de Constantine a la sublime porte in R.O.M.M.N 3 (aix en provence 1968) pp 132 - 152.
 - b) Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed 1830 - 1837 (Tunis 1978) 303 p.
 - c) Recherches et Documents d'Histoire magrebine, la Tunisie, l'Algerie, et la tripolitaine de 1816 à 1871 (Tunis - 1971) 336 p.
- Trumelet (c.) : Le general Yusuf. (p. ollendorf 1892) 240 L 545 + 507 p.
- Vayssettes (E.):
 - a) Histoire de Constantine sous la domination turque de 1517 A 1837 R.M.S.A.C (Constantine 1867) pp 241 - 352 (1869) pp 255 - 392 (1869) p. 453 - 620 p.
 - b) Histoire des derniers beys de Constantine depuis 1793 jusqu à la chute de Hadj Ahmed R.A.F (1858.59) : pp 107 128. 193-198 270 (1860) pp (1861) pp 93 - 113. (1862) pp. 206 - 213, 383 - 392, (1863) pp 114 - 126.
- Walsin es terhzy (M.) : de la domination Turqus dane l'ancienne regence d'Alger (Alger 1840) XX II - 327 p.
- Watbled (Ernest) : Souvenirs de l'armée d'Afrique . circa Constantine. 1^{er} expedition de Constalntine. 2^{em} expedition et prise de Constantine R.A.F.T.X.I.V. (1870) p 20 - 208 253 - 279, 305 - 325.
- Yver (Georges,):
 - a) Si Hamdan ben Othman Khodja R.AF. (1913) pp 96 - 138.
 - b) Correspondances de general Damrémont 1837 collection de documents inedits sur l'histoire de l'Algerie après 1830 (Paris 1927) 788 p.
 - c) La Question de Constantine en 1837. II congrès des sciences his. (Alger 14 - 16 Avril 1930) (Alger 1932) pp 385 - 393.
 - d) Correspondances de marechal Valeé (Octobre 1837 Mai 1838) Paris. Larose 1949) . 468 p.
- Des Revaux et des Journaux:

- Bulletin officiel du gouvernement general de l'Algerie (année 1870 - 1873).
(B.O.G.A.)
- Recuell des Notices et Memoires de la societe archeologiaue. Histoire et Geographie
du departement de constantine (année 1925 - 1927) . (R.N.M.S.A.H.G.P.C.).
- Revue africaine (année 1856 - 1956) . (R.AF.)
- Revue de Paris (année 1917) (R.P.).
- Revue des deux mondes (année 1873) (R.D.M.).
- Revue d'histoire maghrebien (année 1974 - 1985) (R.H.M.).
- L'Algerie Française (1871) (A.F.).
- Al Akhbar (1845 - 1871).

• • •

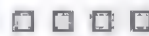
فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة و تمهيد	3
من هو صالح العتري	4
كيف تم تأليف كتابه	4
اسلوب الكتاب ومحتواه	5
مدخل ، بابليك قسنطينة على عهد الأتراك 1514 - 1837 م	17
الموقع الجغرافي والشكل التضاريسي والمظهر البشري	17
الجهاز الإداري للبابليك	20
الجهاز الشرعي والديني بقسنطينة	24
مداخل البابليك وموظفوها	24
قوات البابليك العسكرية	25
بداية حكم الأتراك في قسنطينة وإقليمها	26
تكوين بابليك قسنطينة	30
رمضان تشولاق باي	30
جعفر باي	32
محمد بن فرحات باي	32
حسن باي	34
مراد باي	34
ثورة ابن الصخرى	36
ثورة أولاد عبد المومن بقسنطينة	38
ثورة أولاد مفران بمجانة	38
فريدة منية	41
الحمد لله الواحد الأحد	43
صورة الصفحة الأولى من كتاب صالح العتري المخطوط	44
صورة الجواب الأول	45

44	صورة الجواب الى ناس البلاد
47	فرحات باي
48	محمد باي بن فرحات
48	رجم باي بن فرحات
49	عمر الدين باي
49	دالي باي
49	باش أغا باي
50	شعبان باي
50	علي خوجة باي
51	أحمد خوجة باي بن فرحات
52	ابراهيم باي العليج
52	حمودة باي
53	علي باي بن حمودة
53	حسين شاوش باي
53	عبد الرحمن باي بن فرحات
53	حسين دنغزلي باي
53	علي بن صالح باي
54	الباي حسين المدعو بوكمية
56	حسين باي المدعو بوحنك
57	حسين باي زرق عيتو
61	أحمد القلي
62	صالح باي
66	ابراهيم باي بو صبح
67	حسين باي بن حسن بوحنك
67	مصطفى باي الوزناجي
68	خاج مصطفى انفليزباي
69	عصمان باي

72	عبد الله باي
74	حسين باي ولد صالح باي
76	علي باي بن يوسف
77	أحمد شاوش القبائلي
79	أحمد طبال باي
80	محمد نعمان باي
81	محمد شاکر باي
85	قارة مصطفى باي
85	أحمد باي المملوك
86	محمد باي الملي
86	ابراهيم باي الغري
87	أحمد باي المملوك مرة ثانية
88	ابراهيم باي الكريتلي
89	محمد باي متاماني
90	الحاج أحمد باي بن محمد الشريف
94	قضية الباي ابراهيم الكريتلي وعناية وبن زقوطة
103	ايعان قسنطينة براسلون يوسف المملوك
106	الحملة الفرنسية الثانية على مدينة قسنطينة
107	قضية مقتل محمد بن العتري
110	سقوط مدينة قسنطينة في أيدي الفرنسيين
114	تعيين حمودة بن الشيخ حاكماً على مدينة قسنطينة
117	قدوم الدوك دور ليان إلى مدينة قسنطينة
120	العودة إلى حاج أحمد باي
122	ذكر قدوم ولد السلطان الذي هو الدوك دومال إلى قسنطينة
130	خاتمة الكتاب
133	الصفحة الأولى من خاتمة كتاب العتري
134	الصفحتان الثانية والثالثة من خاتمة كتاب العتري

135 الملحق
137 الملحق الأول نص العقد بين الحاج أحمد باي وأعيان قسنطينة
139 صورة الظاهر بين الحاج أحمد باي وأعيان قسنطينة
141 الملحق الثاني قصيدة في مدح قسنطينة
143 الملحق الثالث قصيدة من الشعر الملحون في وصف الحرب بين تونس وقسنطينة
147 الملحق الرابع قائمة بايات قسنطينة
151 الملحق الخامس : معارك الحاج أحمد باي في جبال أولاد سلطان من خلال ثلاثة وثائق جزائرية ..
153 مراحل مقاومة الحاج أحمد باي
159 معارك أولاد سلطان في عام 1844
162 رواية الوثائق الجزائرية عن معارك أولاد سلطان
164 اقتحام محمد الصغير بن عبد الرحمن لمدينة بسكرة
169 نهاية الحاج أحمد باي
173 مراجع الكتاب
183 فهرس الموضوعات



بروضة النسيب

في التعريف

بالأشياخ الأربعة المتأخرين

تأليف

الشيخ محمد بن سعد الأنصاري النمساف

المتوفى سنة 901 هـ

مراجعة وتحقيق

الدكتور محيي بو عريز

كتاب

شفا

نور

كتاب

كتاب

كتاب

كتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

في التعريف بالمخطوط

«روضة النسرین فی التعریف بالأشیاء الأربعة المتأخرین»، اعتمدنا في

تحقيق هذا المخطوط على نسختين اثنتين:

النسخة الأولى: بالمكتبة الوطنية في الجزائر تحت رقم (2596)،

وعنوانها في بداية الصفحة الأولى هو ما أثبتناه هنا أعلاه، وبها (497) صفحة،

الآخيرة منها بيضاء، طول كل ورقة (20) سنتيم والعرض (15) سنتيم، وعدد

الأسطر (11)، وهي مكتوبة بخط مغربي جميل جدًا، واضح، ونقي، واسع، وليس

بها شطب، ولا يُعرف ناسخها ولا تاريخ النسخ لأنها مبتورة في الأخير ببضعة أسطر

فقط من الخاتمة، في الورقة الضائعة ونعتقد أن اسم الناسخ وتاريخ النسخ كانا ضمن

الأسطر الضائعة والمبتورة.

وقد صور لنا هذه النسخة مدير المكتبة الوطنية السيد «عبد الكريم

باجاجة» ونائبه السيد «نوار جدواني»، على فيلم وسحبها لنا على الورق

مستول قسم الميكرو فيلم في الأرشيف الوطني الجديد بئر خادم، بأمر من

السيد عبد الكريم باجاجة الذي أصبح مديرًا له، وبمساعدة أمينه العام

عبد الكريم غربي، فإليهم شكري وتقديري، وتراجم العلماء الأربعة في هذه

المخطوطة غير متوازنة وتم ترتيبهم حسب تاريخ وفاتهم.

* الشيخ محمد بن عمر الهواري له (190) صفحة من (1) إلى (190).

- * الشيخ الحسن أبركان (54) صفحة من (191) إلى (245).
- * الشيخ إبراهيم التازي (114) صفحة من (245) إلى (359).
- * الشيخ أحمد الغماري (147) صفحة من (360) إلى (496).

○ أمّا النسخة الثانية:

فتوجد بالمكتبة العامة في الرباط تحت رقم (1006 ك)، والكاف إشارة إلى خزانة عبد الحي الكتاني بفاس، التي آلت ملكيتها إلى الخزانة العامة بالرباط، وتوجد هذه النسخة ضمن مجموعة أوراق عدد صفحاتها (82) صفحة من (450) إلى (531)، وهي مبتورة في الوسط بصفحتين اثنتين (507، 508) من ترجمة الشيخ إبراهيم التازي، ومبتورة في الأخيرة بضياع ترجمة العالم الرابع أحمد الغماري كلها ما عدا أحد عشر سطراً في بدايتها. وخط هذه النسخة مغربي كذلك ولكنه مضغوط جداً، وكل ورقة بها (29) سطراً، وتوجد بها فراغات في الأسطر لكلمات وجمل وتهميشات على الحواشي يميناً ويساراً.

شملت ترجمة الشيخ الهواري (41) صفحة من (450) إلى (491). وترجمة الشيخ الحسن أبركان (11) صفحة من (492) إلى (503). وترجمة الشيخ إبراهيم التازي (28) صفحة من (503) إلى (531). وليس لهذه النسخة عنوان، كما أن ناسخها غير معروف كذلك. وقد تفضل الأستاذ عبد العزيز الساوري الموظف بديوان وزارة الشؤون الثقافية المغربية، الذي زودنا مشكوراً بنسخة من هذه المخطوطة، تفضل بإثارة مشكل عنوان المخطوطة وقال: «وعنوانه الصحيح»: «دروضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين». ونحن نميل إلى رأيه ونرجحه؛ لأن موضوع التراجم كله استعراض لمناقب هؤلاء العلماء الأربعة وأخلاقهم وكرامتهم، وحتى الشيخ المرحوم

بلهاشمي ابن بكار مفتي معسكر ذكر في كتابه: «مجموع الحسب والنسب»، هذا العنوان: «روضة النسرین في مناقب الأربعة الصالحين»، وخالف فقط في الكلمة الأخيرة حيث عبّر عنها بالصالحين بدلاً من المتأخرين.

- ولأهمية رسالة الأستاذ عبد العزيز الساورى نوردها فيما يلي:

الرباط في (94/02/28)

السيد الأستاذ: يحيى بو عزيز المحترم

تحية المودة والتقدير... وبعد:

فأشكرك جزيل الشكر على رسالتك الأخيرة وما تضمنته من كلمات نبيلة وعواطف صادقة، كل ذلك كريم شيمك وما عرفته فيك من فضائل وتواضع علمي، فجزاك الله خيراً وأرشدك إلى نبيل الأعمال وجليل الأفعال.

بخصوص كتاب «روضة النسرین في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين» وعنوان الصحيح: «روضة النسرین في مناقب الأربعة المتأخرين»، تأليف ابن سعد محمد بن أحمد بن أبي الفضل سعيد الأنصاري التلمساني، المتوفى بمصر سنة (901هـ). هو غير موجود في الخزانة الملكية (الحسنية حالياً) بالرباط، كما ذكر لي الزميل د: محمد رزوق، وإنما في الخزانة الفاسية كما ذكر الزركلي في الأعلام... والخزانة الفاسية هي المكتبة الكتانية (خزانة محمد عبد الحي الكتاني بفاس) أغلب التراث الجزائري موجود بها، وقد آلت إلى الخزانة العامة بالرباط بعد الاستقلال، ويحمل رقم (2006ك): تعني الكتانية.. بخط مغربي مبتور من الأخير، وهو آخر كتاب في المجموع من صفحة (450) إلى (531)، وتبقى هذه النسخة وحيدة في المغرب وربما في العالم، والأشياخ الأربعة:

1) أبو إسحاق إبراهيم التازي نزيل وهران ودفن بها عام (866هـ).

(2) محمد الهواري. (3) الحسن أبركان.

(4) أحمد بن الحسن الغماري.

وأتمنى في الأخير أن تزودوني بمؤلفاتكم العلمية كسعد السعود أو كتاب عن مليلية... وتقبلوا مني سيدي فائق الاحترام..

عبد العزيز الساوري

(الإمضاء)

وقد اعتمدنا أساسًا على المخطوطة الأولى، مخطوطة الجزائر لأنها كاملة، واضحة، ونقية وتم ترتيب العلماء الأربعة المترجم لهم حسب تاريخ وفاتهم، وهم كلهم من علماء القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي:

- الشيخ الهواري (751 - 843هـ) : (1351 - 1439م).

- الشيخ الحسن أبركان توفي آخر شوال (857هـ)، 2 نوفمبر (1453م).

- الشيخ إبراهيم التازي توفي يوم 9 شعبان (866هـ)، 9 ماي (1462م).

- الشيخ أحمد الغماري توفي يوم 12 شوال (874هـ)، 14 إبريل (1470م).

وبما أن المخطوطتين ليستا بهما عناوين فرعية داخل النص، فقد قمنا نحن بوضع تلك العناوين حسب الموضوعات وصدرنا المخطوط بوضع تراجم مختصرة لمؤلف الكتاب نفسه ابن سعد، وللعلماء الأربعة موضوع المخطوط؛ لأن النص الأصلي محشو بالاستطرادات والحكايات والطرائف والنوادر، وخوارق العادات التي كثيرًا ما تكون خارجة عن الموضوع، ومحشو كذلك بالآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، والأشعار الملحونة والأمثال، والقصص التاريخية والاجتماعية وتلك هي طريقة مؤلف ذلك العصر.

وقد مرّ الآن على تأليف هذا المخطوط خمسة قرون وزيادة وأن الألوان

ليرى النور لكي يطلع الناس على سير هؤلاء العلماء الفضلاء الذين كان لهم دور في زمانهم، ويُمكن للأجيال أن تستفيد من خصالهم وسلوكهم وأعمالهم الحسنة والطيبة وهو الأمر المطلوب من قراءة سير العظماء خاصة العلماء منهم، وللتسهيل على القارئ معرفة بداية الصفحات في المخطوط وضعنا أرقامها بين قوسين.

وقد وضعنا قبل استعراض النص تراجم مختصرة للعلماء الأربعة كمدخل نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن ينفع الأجيال بهذا العمل، وأن يرزقنا حسن الثواب عنه والسلام.

الدكتور يحيى بوعزيز

معهد التاريخ - جامعة وهران

الجمعة 13 شوال (1414هـ)

الجمعة 25 مارس (1994م) - وهران حي جمال الدين

التعريف بالشيخ ابن سعد التلمساني

(توفي في رجب 901هـ - 16 مارس 1496م)

هو محمد بن أبي الفضل بن سعيد بن سعد التلمساني، من مواليد القرنين التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي، ولم يذكر المترجمون له تاريخ ميلاده بالضبط واكتفوا بذكر تاريخ وفاته فقط، ومنه نعرف أنه ابن القرن (9هـ - 15م)، أشاد به كل من ترجم له وذكروا أنه من أكابر علماء تلمسان وفقهائها ومحصليها، كما ذكروا أنه ألف عدة كتب منها:

(1) النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب.

(2) روضة النسر في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين.

(3) كتاب في الصلاة على النبي ﷺ.

ومما قاله فيه شعراً محمد العربي الغرناطي أحد فضلاء الأندلس:

إذا جئت تلمسان فقل لصنديها ابن سعد

علمك فاق كل علم ومجدك فاق كل مجد

ومن العلماء الذين أخذوا عنه وتعلموا عليه الحافظ محمد بن عبد الجليل التنسي، والإمام محمد بن يوسف السنوسي، قطب علمي التوحيد والتصوف، وهذا مما يؤكد مكانته العلمية والثقافية وعلو قدرته ومركزه.

ولكن المصادر التي تحدثت عنه كانت شحيحة جداً، ولم تسجل لنا أخباره المستفيضة مما يسمح لنا بالتعريف به أكثر، وقد رحل إلى الشرق في فترة لم نعرفها بالضبط آخر القرن التاسع الهجري، ولا شك أنه قصد أن يحج ويؤدي فريضة الحج إلى جانب الغايات الأخرى خاصة التزود بالعلوم والمعارف والتعرف على العلماء والفقهاء والمتصوفين كما هي عادة كل

علماء المغرب الإسلامي الذين يقصدون المشرق، ولسنا ندري هل أدى فريضة الحج فعلاً ومتى تم ذلك وكل ما نعرفه أنه توفي بالديار المصرية وبالقاهرة وبالذات خلال شهر رجب من عام (901هـ)، وهو ما يوافق 16 مارس - إبريل (1496م).

وكان معاصراً للعلماء الأربعة: محمد بن عمر الهواري، وإبراهيم التازي، والحسن أبركان، وأحمد الغماري، الذين ترجم لهم في موسوعته الكبرى «النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب»، وفي كتابه الذي خصصه لهم وهو: «روضة النسرین في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين» الذي تقدمه اليوم للقراء بعد مضي خمسة قرون كاملة وزيادة على تأليفه، وعنوانه الصحيح: «روضة النسرین في مناقب الأربعة المتأخرين».

ومن ضمن من ترجم لابن سعد ولو بكيفية مختصرة ومقتضبة وغير وافية أحمد الونشريسي في المعيار، وأحمد المقرئ في نفح الطيب، ومحمد بن محمد مخلوف في شجرة النور الزكية، وابن القاضي في درة الحجال، وابن مريم في البستان، والحفناوي في تعريف الخلف، والزركلي في الأعلام، وبروكلمان في تاريخ الشعوب الإسلامية.

ومما تجدر ملاحظته هنا هو أن تراجم ابن سعد لهؤلاء العلماء الأربعة غير متوازنة، فقد توسع كثيراً في سيرة الهواري، والتازي وتوسط في الغماري والحسن أبركان، ثم إن هذه التراجم تتخللها استطرادات كثيرة ويتوسع في الكرامات وخوارق العادات، وسير أهل البيت وشرفهم، وفي الموضوعات الدينية والاجتماعية المختلفة التي تتخللها آيات وأحاديث كثيرة نبوية لا حد لها ولا حصر، مما يصح معه القول بأن موضوع المخطوط ديني وليس تاريخاً وسيراً لهؤلاء العلماء الأربعة بالذات.

اتبع ابن صعد التسلسل التاريخي للذين ترجم لهم حسب تاريخ وفاتهم، فبدأ بالشيخ الهواري وثناه بالشيخ أبركان وثلاثهما بالشيخ إبراهيم الثازي وختم بالشيخ أحمد الغماري.

- وفيما يلي تعريفات مختصرة لكل واحد منهم كتمهيد لقراءة المخطوط

نفسه.

التعريف بالشيخ محمد بن عمر الهواري

(751 - 843 هـ - 1350 - 1439 م)

ولد محمد بن عمر الهواري في أحواز كلميتو على بُعد عشرين كلم شرق مدينة مستغانم عام (751 هـ ، 1350 م)، وتربى بين أهله وعشيرته الأقربين من المغراويين، وأوكله أبوه الشيخ عمر إلى الشيخ علي بن عيسى ليعلمه ويحفظه القرآن الكريم، فلاحظ عليه نوعاً من الغفلة والتواكل وعدم الاهتمام بهندامه، وأخذ ينهره ويضربه فعاتبه والده وقال له: لا تضربه حتى ولو كان كسولاً ومغفلاً؛ لأن ذلك من علامات ولايته ونجاته.

وعندما بلغ سن العاشرة ذهب إلى كلميتو، وتعرّف هناك على ولي صالح يتعبد في غار، ولازمه حتى نال سره وأخذ عليه طريقته الصوفية وبقي عنده مدة من الزمن ثم غادره وغادر كلميتو، وتنقل في مناطق البلاد المختلفة، ومنها الواحات الصحراوية، وركب البحر وزار بعض جزر البحر المتوسط وخالط الوحوش والسباع.

وبعد ذلك اتجه إلى مدينة بجاية واعتكف على الدراسة وتلمذ على الشيخ أحمد بن باديس، والشيخ عبد الرحمن الوغليسي، شيخي وأستاذه عبد الرحمن بن خلدون، وأخيه يحيى المعاصرين له، وأعجبه بجاية وطاب له المقام بها، كما طابت للشيخ أبي مدين شعيب قبله، فأثريا عليها وعلى سكانها المضيافين، وعلمائها وأمرائها، وذلك لتقديرهم للعلماء وطلبة العلم، وإيوائهم للغرباء وتقديم العون والمساعدة لهم.

يُضاف إلى هذا استقطاب هذه المدينة للعلماء الفضلاء أصحاب الباع الطويل والواسع في مختلف فروع العلم والمعرفة، وقد سجل هذا الشاء في

نظمه الملحون المسمى بالتسهيل، وفي هذه المدينة بجاية ألف كتابه المسمى «بالسهو والتنبيه في أحكام الطهارة والصلاة»، ونظم قصيدته التي سُمّاها: «التسهيل» ولا ندري كم سنة قضاها في بجاية، وما هي السنة التي غادرها فيها.

ومن بجاية عاد الشيخ الهواري إلى مسقط رأسه ثم قصد مدينة فاس للدراسة والتعلم كذلك، وجلس إلى حلقة الشيخ العبدوسي والشيخ القباب، وذكر ابن سعد بأنه أتم في فاس كتاب المدونة للإمام مالك عام (776هـ) (1374م)، وهو في سن الخامسة والعشرين كما ذكر أنه في هذه السنة أتم نظم كتابه: «السهو في الطهارة والصلاة»، علمًا بأن ذلك تم في بجاية وليس بفاس، ولعل المقصود بذلك هو إتمام هذا الكتاب، وتنقيحه في فاس وإدخال بعض التعديلات عليه وهناك بفاس تصدى الشيخ الهواري للتعليم والتدريس بعد أن أصبح عالمًا والتف حول طلاب العلم وأثنوا عليه.

ومن فاس شد الرحال إلى المشرق عبر تونس وليبيا، وعندما وصل إلى مصر أقام مدة في الجامع الأزهر، وتلمذ على الشيخ الحافظ العراقي وآخرين، ثم التحق بالحجاز وأدى فريضة الحج بمكة وزار المدينة المنورة، وتبرك بزيارة قبر الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، ولا شك أنه أخذ العلم على عدد من علماء مكة والمدينة المجاورين هناك وأكثرهم وما أوسع علمهم.

ومن المدينة المنورة انتقل إلى فلسطين عبر غزة والتحق بمدينة المقدس وزار المسجد الأقصى، وقبة الصخرة وقبر الخليل إبراهيم - عليه السلام - ، وباقي المزارات الأخرى، وحضر عددًا من الدروس في المسجد الأقصى، واتصل بالعلماء الموجودين هناك وتعرّف عليهم، وانتفع بعلمهم وآدابهم،

ولربما ألقى دروسًا هناك، كما فعل في المدن والعواصم الأخرى التي أقام بها أو زارها في المغرب العربي.

ومن بيت المقدس اتجه إلى بلاد الشام وقصد مدينة دمشق الفيحاء، وأقام بها مدة ممن الزمن يدرس على علمائها، ويدرس الطلبة المتعطشين للعلم خاصة ما يتصل بتاريخ المغرب العربي وحضارته، ولو بمجرد حكايات وأقاصيص عنه، وخلال إقامته بدمشق اعتاد الخروج إلى الغوطة للانفراد بنفسه، واستعراض ما حصل عليه من علوم ومعارف، والتفكير فيما يعتزم عمله مستقبلاً.

وبعد هذه الرحلة الطويلة إلى بلدان المشرق العربي الإسلامية التي لا نعرف متى بدأت ومتى انتهت، قفل الشيخ محمد بن عمر الهواري راجعًا إلى بلاده عبر مدن وعواصم كل من مصر، وليبيا، وتونس، والجزائر، واستقر به المقام في مدينة وهران، التي كانت آنذاك تعج بالنشاط الاقتصادي والعمراني، والثقافي والاجتماعي، واستقطبت جموعًا غفيرة من المهاجرين الأندلسيين الذين حملوا إليها حيوياتهم ومهارتهم الفنية: المعمارية، والصناعية، والثقافية، كما أشرنا إلى ذلك سابقًا.

ويبدو أن الشيخ الهواري استهوته بجاية كذلك وفضل الإقامة والاستقرار بها لتلك الأسباب وتصدى للتعليم والتدريس، والتف حوله عدد لا بأس به من طلبة العلم أغلبهم قدم إليه من الآفاق البعيدة، كما تصدى لتلقين الأذكار والأوراد لعدد آخر من المريدين، من الناحية الدينية والصوفية، وصادف نجاحًا وإقبالاً كبيرين، ولما كان كتابه «السهو والتنبيه» ألفه باللغة الدارجة، فقد حاول تلميذه «أبو زيد عبد الرحمن مقلّاش» أن يُصلح ما به من أخطاء نحوية ولغوية فاعترض عليه وقال له: «دع سهوك عندك، واترك سهوي لي»،

ونهره عن فعله ذاك.

وقد عاش الشيخ الهواري أحداث زحف السلطان الحفصي أبي فارس عزوز على مدينة تلمسان وأميرها الزياني أحمد العاقل الذي توسط بالشيخ الحسن أبركان التلمساني ليطلب من الشيخ الهواري أن يتدخل لدى سلطان تونس من أجل إبرام الصلح، وحقن الدماء وتجنب تلمسان مخاطر الغزو، وهذا يدل على المكانة التي كانت للشيخ الهواري آنذاك.

ولما كان الحسن أبركان تلميذاً للهواري فقد أسرع بإبلاغه رغبة أحمد العاقل، فرفض في البداية بدعوى أنه لا شأن له بالملوك والأمراء، ثم بعد الإلحاح والمراجعة قبل، وقال له: «قل لصاحبك سلطان تلمسان أن يطمئن فسوف لن يرى ولن يتقابل مع سلطان تونس»، وصادف أن توفي أبو فارس عزوز فجأة في سفح جبل الصدر من جبال الونشريس صباح عيد الفطر من عام (837هـ) (11 ماي 1434م) بينما كان الناس ينتظرون خروجه لأداء صلاة العيد، وهو في طريقه إلى تلمسان فأخفى ابنه وفاته، وتوقف عن مواصلة الزحف إلى تلمسان وحمل جثته وعاد بها إلى تونس وكفى الله تلمسان وأميرها شره، وشاع يومئذ بأن الشيخ الهواري هو الذي دعا عليه.

وهناك إشاعة أخرى نقلها كثير من تلاميذه، ومنهم إبراهيم التازي والحافظ أبو راس وشاعت بعد ذلك وانتشرت في كتابات الأوروبيين، ومفادها أن الشيخ الهواري هو الذي دعا على وهران حتى احتلها الأسبان، وذلك أن بعض الناس من سكانها قبضوا على ابن له هائج لمرض ألم به على ما يبدو حتى لقبوه بالهائج، وقتلوه وزعموا أنهم حكموا فيه الشرع الإسلامي، فسكت هو وتحمل المصيبة على مضض ولكن زوجته غضبت وألحّت عليه في الاقتصاص، وضربت له عدة أمثلة من الواقع حتى أثرت فيه حتى اتصل

بقاتلي ابنه وحاججهم، وزعموا له بأن ابنهائج استوجب القتل وطبقوا في قتله أحكام الله، فعارضهم وأكد براءة ابنه مما نسب له، واشتد غضبه فدعا على وهران بقوله: «روحي يا وهران الفاسقة يا كثيرة الجور والبغي والطارقة، يا ذات الأهل الباغية السارقة، إني بعثك بيعة لنصاري مالقة وجالقة إلى يوم البعث والتالقة، مهما ترجعي فأنت طالقة»، ولما سأله أحد تلاميذه قائلاً: والفرج يا سيدي، استدرك وقال: «والفرج لاحق»، وهذا التلميذ هو الشيخ إبراهيم التازي.

وفعلاً احتل الأسبان وهران بعد (72) عاماً من تاريخ هذا الدعاء الذي لا ندري مدى صحته ونسبته إلى الشيخ الهواري، الذي لا يرضى ولو مع غضبه بأن تسقط مدينته أو أية مدينة إسلامية أخرى في أيدي عدو نصراني كافر خاصة في مثل تلك الظروف التي تكالب فيها النصاري الأسبان وغيرهم على احتلال واستعمار البلدان الإسلامية في إطار الحروب الصليبية البغيضة، وإلا فلا معنى لولايته وتزهد، وعمله، وتدينه وتصوفه.

بقي الشيخ الهواري يواصل نشاطه الديني والثقافي والاجتماعي بوهران حتى توفي عام (1439م) (834هـ)، ودفن بأسفل حي القصبة العتيق، وبني على قبره ضريح ومسجد ما يزالان قائمين حتى اليوم، الضريح مزار، والمسجد عامر تؤدي فيه الصلوات الخمس، والجمعة، وبه تشتهر وهران حتى اليوم وتنسب إليه، ولكن الضريح يوجد داخله تابوت من الحطب، ولا وجود هناك لأية علامة قبر تحته بل هناك أرضية عادية، ودفن معه عام (1944) مفتي وهران الشيخ بولحبال القسنطيني.

حول مدفن الشيخ الهواري

هناك عدة روايات متضاربة حول مدفن الشيخ الهواري، فزعم جان

كازناف في مجلة جمعية الجغرافية والآثار لمدينة وهران عام (1926م) بأن حوش الشيخ الهواري المحاط بسور ما يزال موجودًا وقائمًا في قرية بني تالة قرب مدينة وهران، ولكنه لم يحدد مكان القرية بالضبط.

وأورد المقدم ديدي في الجزء الرابع من كتابه «وهران» عام (1931م) صورًا لأفراد أسرة زعم أنهم من أحفاد الشيخ الهواري عددهم أربعة أخذت لهم يوم (9 أوت 1931م) وهم: الهواري، وحامد، ومحمد، وبدره، يحملون جميعًا لقب بن ستي البشير بن الهواري، وروي عنهم بأن جدهم الشيخ الهواري مدفون في ضريح صديقه الشيخ سيدي سعيد بقرية حاسي الغلة غرب مدينة وهران على الطريق المؤدي إلى عين تيموشنت وتلمسان، وأما الضريح والمسجد الحاليان اللذان يحملان اسمه بمدينة وهران فقد أسسها حفيده: الحاج حاجي وحمو بوعزاز عام (1793)، أي بعد عام من تحرير المدينة من الاحتلال الأسباني الأخير.

ومن أجل الزيادة في التحري والتحقيق قمنا بزيارة إلى ضريح سيدي المسعود قرب قرية تارقة شمال قرية المالح على بعد حوالي (65 كلم) من وهران صباح الخميس (5) ذو الحجة (1407هـ) (30 جويلية 1987م)، ولم نجد في الضريح سوى قبر واحد وبجواره مسجد صغير بدأ يتداعى سقفه، ولكن هناك على بعد بضعة أمتار منه آثار لقبر داخل تحويطة، محاطة بثلاثة جدران، ولم يحدثنا أحد لمن هو.

ثم قمنا بزيارة لضريح آخر غرب قرية تارقة بحوالي (4كم) يحمل اسم: سيدي الهواري صباح الخميس (25) ذو الحجة (1407هـ) (20 أوت 1987م)، ووجدناه داخل ضريح تهدم سقفه بفعل السلطات الاستعمارية خلال ثورة التحرير المباركة الأخيرة (1954 - 1962) على ما قال لنا أحد

الرجال هناك، وأكد لنا رجل آخر في تارقة بأن هذا الولي الصالح ليس هو الشيخ الهواري الوهراني، وإنما هو رجل آخر كان صديقاً وتلميذاً للشيخ بختي بن عياد ودفين قرية سيدي بختي ببلاد غمرة شمال قرية حمو بوتليليس، كما أكد لنا بأن بني تالة يوجدون بين قرية زفيزف، وحمام بو حجر قرب سيدي بلعباس، وأن سيدي شافع يوجد قرب قرية عين البيضاء بجوار حاسي الغلة على طريق حمام بو حجر.

إن الحقيقة ضائعة بين الأقوال والروايات، فالأسبان الذين احتلوا وهران ما يقرب من ثلاثة قرون حولوها إلى محتشد للجنود الأسبان وغير المرغوب في إقامتهم بإسبانيا، ولم يبقوا فيها أي أثر للمعالم العربية الإسلامية فكيف سلم قبر الشيخ الهواري ومسجده من التخريب اللهم إذا بلغتهم دعوته عليها باحتلالهم لها، وعندما تحقق لهم ذلك كرموه بالإبقاء على قبره وضريحه ومسجده، ولو أن هذه الرواية مشكوك في صحتها؛ لأنه مهما بلغ غضب الشيخ الهواري على سكانها فلا يُعقل أن يرضى باحتلال النصارى المسيحيين الكفار وهو رجل مربي وعالم وولي صالح متصوف، وإلا فلا معنى لعلمه، وتدينه، وتصوفه، وترغمه لعلماء عصره.

والروايات العديدة المتوارثة عن دفنه بوهران يصعب تكذيبها خاصة أنه عاش بها، وشهرت به ونقل ذلك تلاميذه وعلى رأسهم الشيخ إبراهيم التازي وآخرون، ومع ذلك فالرأي الذي أورده ديدي جدير بالدراسة والبحث والتدقيق والله أعلم في الأخير حقيقة الأمر.

وقد أورد ديدي ملحقاً في كتابه المشار إليه آنفاً، يحتوي على أكثر من ثلاثين رسالة بين طويلة وقصيرة، تتضمن الأوقاف التي حبست على ضريح الشيخ الهواري ومسجده والكيفية التي ينبغي اتباعها لصرف مواردها المالية

بعض هذه الرسائل لباشوات الجزائر، والبعض لبايات بايلك الغرب الوهراني والبعض لأشخاص آخرين أثرياء، أولهم قرابة بعائلة الشيخ الهواري، وتواريخ هذه الرسائل متنوعة بعضها في القرن (18م) والبعض في القرن (19م).

ومن جملة من ترجم للشيخ الهواري، محمد بن يوسف الزباني، في دليل الحيوان، والآغا المزاري في طلوع سعد السعود، وأبو راس الناصر في رحلته، وابن مريم في البستان، والحفناوي في تعريف الخلف، ودلبيس في المجلة الأفريقية (1984م)، وبارجيس في كومبليمانت، وديستيق في المجلة الآسيوية وديدي في وهران، وجان كازناف في مجلة الجغرافية والآثار لوهران (1926) وآخرون.

ومما ينبغي تسجيله هنا هو أن الشيخ الهواري رغم مركزه العلمي والديني فإن ثقافته العربية ضعيفة فهو ينظم الشعر بالدارجة ويكتب كذلك بالدارجة، وهو ما أدى بتلميذه عبد الرحمن مقلّاش إلى إصلاح أخطائه في كتابه «السهو والتنبيه»، ولكنه رفض ذلك وأصرّ على إبقائه لغته الدارجة على ما كانت عليه، ونهر تلميذه كما سبق أن ذكرنا، ورد عليه إصلاحاته.

التعريف بالشيخ الحسن أبركان

(توفي آخر شوال عام 857هـ - 2 نوفمبر 1453م)

ينتمي إلى قبيلة مزيلة التي تنحدر من بني راشد، ومسقط رأسه قرية الجمعة على وادي يسر غير بعيد عن مدينة تلمسان، ولم يتحدث المترجمون له على تاريخ ولادته، ولكنه كان في نهاية القرن الثامن الهجري، وأمه مصمودية حضرت إلى تلمسان صحبة السلطان أبي الحسن المريني وتزوجها أبوه، وسكن بها قرية المنصورة زمناً طويلاً قبل أن ينتقل بها إلى حي باب زير في مدينة تلمسان، حفظ الحسن أبركان القرآن الكريم في مسقط رأسه قرية الجمعة، ثم انتقل إلى تلمسان، واعتكف على الدراسة والتعلم، وتلقى العلوم والفنون على أجلة شيوخ وعلماء المدينة أمثال الشيخ إبراهيم المصمودي، والعالم ابن مرزوق الحفيد.

وعندما توفي والده رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ومُرَّ على بجاية وتوقف بها مدة، وأخذ العلم على الشيخ عبد الرحمن الوغليسي، ثم انتقل إلى قسنطينة ودرس بها على الشيخ عبد الله المراكشي، ومن هناك انتقل إلى تونس، وليبيا، ومصر، ومكة المكرمة، أين أخذ على الشيخ عبد الهادي، وبقي بالحجاز خمس سنوات، ثم عاد إلى تلمسان واستقر بها مع والدته المسنة، بباب زير وتابع دراسته على الشيوخ: إبراهيم المصمودي، ويحيى المطغري، وسعيد، وعيسى أمزيان، وأتقن علوم الحساب، والفرائض والفقه، والنحو، والمنطق، والسيرة النبوية، وتصدى للتدريس فأخذ عليه كل من الحافظ التنسي، والشيخ محمد بن يوسف السنوسي، وعلي التالوتي، وآخرين، وقد عمرت والدته طويلاً، وعندما توفيت دفنها بعين وأنزوته خارج باب الجياد،

وقضى هو حياته في التعليم والوعظ والإرشاد وأكبره سلاطين تلمسان
وأمرأؤها، وعلمائها وساروا في جنازته عندما توفي آخر شوال عام (857هـ)
الموافق ليوم 2 نوفمبر (1453م).

التعريف بالشيخ إبراهيم التازي

(توفي يوم 8 شعبان 866هـ - 9 ماي 1462م)

من مواليد مدينة تازة بالمغرب الأقصى، ومن قبيلة لنت البربرية ولم تتحدث المصادر التي ترجمت له عن تاريخ ميلاده، والغالب أنه كان في أواخر القرن الثامن الهجري، وقد أوكله أبوه إلى الشيخ أبي زكريا يحيى الوازعي الذي اعتنى به كثيراً، وحفظه القرآن الكريم ورعاه تمام الرعاية، ومن تازة انتقل إلى مدينة تلمسان وتعلم على الشيخ محمد بن مرزوق الحفيد الذي أجازته، ثم انتقل إلى وهران وتعرف على الشيخ محمد بن عمر الهواري، ووثق صلاته به ومنها رحل إلى تونس وتعلم على الشيخ أبي القاسم عبد العزيز العبدوسي، ثم شد الرحال من هناك إلى الحجاز لأداء فريضة الحج عبر ليبيا ومصر، وفي مدينة مكة المكرمة أخذ على الشيخ القاضي تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الحسني الفاسي علم الحديث، والرقائق وأجازه عام (830هـ) (1427م)، وعندما انتقل إلى المدينة المنورة أخذ على جماعة من العلماء بينهم الإمام أبو الفتح بن أبي بكر القرشي في نفس العام والذي تلاه.

أتقن الشيخ إبراهيم التازي علوم القرآن، والحديث، واللغة وقواعدها، والأصول، والمنطق، كما أتقن تجويد القرآن الكريم بصوت جميل حتى أصبح يضرب به المثل وينصت إليه الجميع عندما يتلوه ويجوده، واشتهر بنظم الشعر في الزهد والتصوف، وكان له كناش كبير من الأشعار متداول في الحجاز، ولبس الخرقة الصوفية على الشيخين: شرف الدين المراغي، وصالح بن محمد الزواوي، ثم على الشيخ محمد بن عمر الهواري عندما عاد

إلى وهران.

ومن المشرق عاد إلى مدينة تلمسان بعد أن أدى فريضة الحج واستقر بها بعض الوقت، وأخذ على جماعة من علمائها أمثال الحافظ التنسي والإمام السنوسي وعلي التالوتي، ثم تصدى للتدريس وتعلم عليه أحمد زروق الذي أجازته عام (832هـ) (1429م).

ومن تلمسان انتقل إلى وهران، واستقر بها إلى جانب شيخه محمد بن عمر الهواري، ولازمه طيلة حياته، واتخذ لنفسه زاوية خاصة بأمر منه، ونشط في التعليم والوعظ والإرشاد وتلقين الأذكار، وتحدث عنه الرحالة القلصادي في فهرسته وذكر أنه اجتمع به في وهران، وعندما توفي شيخه الهواري عام (843هـ - 1439م) خلفه في مشيخته ونشاطه العلمي والتربوي.

ومن الأعمال الكبرى التي أنجزها إدخال الماء إلى مدينة وهران من منابعها البعيدة عنها، بعد أن اتفق مع أثريائها على تقديم الأموال اللازمة لذلك، وجرى احتفال كبير بذلك الحدث الذي خفف على الناس عناء الإتيان بالماء من منابعها البعيدة خاصة النساء اللاتي كن يقضين ساعات طويلة من اليوم لإحضاره على ظهورهن بالقرب.

توفي الشيخ إبراهيم التازي يوم (8 شعبان 866هـ) (9 ماي 1462م) قرب ضريح شيخه الهواري لمدة خمسين عامًا، وعندما احتل الأسبان مدينة وهران واتخذوا قبره مخمرة، استنكر ذلك تلاميذه، ونقلوه سرًا إلى قلعة هوارية التي تعرف اليوم بقلعة بني راشد، ودفنوه هناك وبنوا عليه قبة وضريحًا ما يزالان حتى اليوم مزارين خاصة بالنسبة للعنصر النسوي، وذكر الأغا المزاري في كتابه «طلوع سعد السعود» بأن محل قبره بوهران كان ما يزال محاطًا بحويطة ينبرك به الناس وذلك أواخر القرن التاسع عشر، ولكن هذه الحويطة غير

موجودة اليوم.

إن الشيخ إبراهيم التازي ذو ثقافة مثينة، وله شعر غزير في أغراض شتى خاصة الزهد، والتصوف، ودم الدنيا، نورد فيما يلي نماذج عديدة ومتنوعة منها، قال في ذم الدنيا وزخرفها:

أما آن أرعواؤك عن شئ	كفى بالشيب زجراً عن عوار
أبعد الأربعين تروم هزلاً	وهل بعد العشية من عرار
فخل حظوظ نفسك واله عنها	وعن ذكر المنازل والديار
وعد عن الرباب وعن سعاد	وزينب والمعاذف والعقار
فما الدنيا وزخرفها بشيء	وما أيامها إلا عواري
وليس بعاقل من يصطفها	أتشري الفوز ويحك بالتبار
فتب واخلع عذارك في هوى من	له دار النعيم ودار النار
جمال الله أكمل كل حسن	قلله الكمال ولا ماري
وحب الله أشرف كل أنس	فلا تنس التخلق بالوقار
وذكر الله مرهم كل جرح	وأنفع من زلال للأوار
ولا موجود إلا الله حقاً	فدع عنك التعلق بالشئار

وله قصيدة أخرى في ذم الدنيا كذلك:

يا صاح من رزق التقى وقلبي الدنيا	نال الكرامة والسعادة والغنى
فاصرف هوى دنياك واصرم حبلها	دار البلاء والرزايا والعنا
وودها رأس الخطايا كلها	ملعونة طوبى لمن عنها انثنى
لا تغتر بغيرورها فمتاعها	عرض معد للزوال وللغنا

لعب ولهو، زينة، تفاخر
خداعة، غدارة، نكارة
اليوم عندك جاهها وحطامها
فاقبل نصيحة مُخلص واعمل
يدخلك جنات النعيم بفضلها
دار المقامة والمسرة والهنا

وله أيضًا من أخرى في ترتيب الوظيفة سمّاها الحسام:

حسامي ومنهاجي القويم وشرعتي
محبة رب العالمين وذكره
وأفضل أعمال الفتى ذكر ربه
وما من حسام للمريدين غيره
وكم بددوا شملًا لذي جرأة وكم
وكم دافع الله الكريم بذكرهم
وأفضل ذكر دعوة الحي فلتكن
فكثرة ذكر الشيء آية حبه

وله أيضًا من أخرى - رحمه الله - في مدح الرسول - عليه الصلاة

والسلام - :

وخيرة الخلق مَنْ مِنْ أَجَلِهِ خَلَقُوا
من خصه بلواء الحمد حامده
ويوم حشر الوري للفضل يرشده
إلى محامد لم يرشده لها أحدا

وكثرة للحمد من أوصاف أمته في اليسر والعسر في الكتب العلاء وجداء
صلى الحميد على المحمود أحمد ما بالحمد أفصح حماد وما سجدا
لله عبد شكور حامد وعلى قرباه والصحب أعلا الأمة الحمداء
وله أيضاً من أخرى في الحب والهوى:

أبت مهجتي إلا الولوع بمن تهوى فدع عنك لومي والنفوس وما تقوى
هو أن الهوى عز، وعذب أجابه وعلقمه أحلا من المن والسلوى
وتعذيبه للصب عين نعيمه وسعى اللواحي في السلى من العدوى
ومن لم يجد بالنفس في حب حبه فلوعته إفك وصوبته دعوى
وليس بحر من تغبده الهوى للهو الدنيا فاختر لنفسك ما تهوى
فما الحب إلا حب ذي الطول والغنى وأملأكه والأنبيا وأولي التقوى
وخيرة رسل الله أفضل خلقه محمد الهادي إلى جنة المأوى
وله أيضاً من أخرى:

روحي وراحة روحي ثم ريحاني وجنتي من سرور الإنس والجان
ومأمني وأماني من سعي لظي ذكر المهيم في سر وأعلان
ومدح أحمد أحمي العالمين حمي وذو المقام الذي ما قامه ثاني
إلى أن قال:

هذا السراج هو المنجي لمعتصم هذا المعاد وملجأ الخائف الجاني
يا رحمة الله إني خائف وجل يا نعمة الله إني مفلس عاني

وله قصيدة في نصيح المسلمين حذر فيها من أشياء ورغب في أشياء
سمّاها «بالنصح التام للخاص والعام»: أولها:

إن شئت عيشًا هنيئًا واتباع هدى فاسمع مقالِي وكن بالله معتضد
وتُسمى بالدالية وقد علّق عليها شرحًا صاحب البستان. وله قصيدة أخرى
أخرجها في الشوق إلى بيت الله الحرام أولها:
ما حال من فارق ذلك الجمال وذاق طعم الهجر بعد الوصال

قصيدة المرادية للشيخ إبراهيم التازي

وله قصيدة أيضًا تقرأ مع وظيفته التي جمعها في الأذكار تقرأ في كل وقت
من ليل أو نهار، أولها:

مرادي من المولى وغاية آمالي دوام الرضا والعفو من سوء أعمالي
وتُسمى باللامية، كما تُسمى بالمرادية وشرحها محمد الصباغ القلعي في
القرن العاشر الهجري (16م)، وسمى شرحه عليها: «شفاء الغليل والفؤادي
في شرح النظم الشهير بالمرادي»، كما شرحها أيضًا ابن مريم في كتاب
البستان كذلك، ومنها جزء من أولها:

مرادي في المولى وغاية آمالي	دوام الرضا والعفو عن سوء أعمالي
وتنوير قلبي بانسلاال سخيمة	به أخلدتني عن ذوي الخلق العالي
واسقاط تدبيري وحولي وقوتي	وصدقي في الأحوال والفعل والقال
وفي حبه وحب صفوته الرضا	ملائكة وأنبياء وإرسال
وحب النبي الهاشمي محمد	وأصحابه الفر الأفاضل والآل
وحب رجال خالفوا النفس والهوى	وخافوا مقام الواحد الصمد العالض
رجال كرام في النفيس تنافسوا	شروا عارض اللذات بالغابر الغالي
فليس لهم في غير حب إلههم	غرام ولا في كسب جاه ولا مال

رجال كرام قوتهم ذكر ربه
وشيمتهم ترك المطامع في الوري
على الصبر والإيثار راضوا نفوسهم
صدورهم من كل ضغن سليمة
هم القوم لا يشقى جليسهم بهم
فمذهبهم قتل النفوس ومحوها
وكل جبار قل أن يبلغ المني
وكل بخيل فهو عنهم بمعزل
وغنم مريد بانقياد لكامل
هو السر والإكسير والكيما لمن
وقد عدم الناس الشيوخ بقطرنا
وقد قال لي لم يبق شيخ بغربنا
يشير إلى أهل الكمال كمثل
ونص على حب التشبه بهم
وقد قال حب الأولياء ولاية
سليل شفيع الخلق يوم انبعاثهم
وقصيدة أخرى في مدح النبي ﷺ:
يا حسان ذي الطول أهل الكرم
لي الحمد حمداً يوافي النعم

وقصيدة أخرى في الحجيج بلغنا الله ذلك المقام الشريف أولها:

ألفت هواك على قدم أسير إليك على القدم

وهي على حروف الهجاء من الألف إلى الياء، وقصيدة أخرى أولها:

رويدكم فما سمع بقابل لغى لاغ ولا يصغي لعاقل

وله قصيدة مشهورة بالزيارة أولها:

زيارة أرباب التقى يبرى ومفتاح أبواب الهداية والخير

وزاد كات بهذه النسخة تمام القصيدة وهي⁽¹⁾:

وتحدث في القلب الخلي إرادة وتشرح صدراً ضاق من سعة الوزر

وتنصر مظلوماً وترفع خاملاً وتكسب معدوماً وتجير ذا كسر

وتبسط مقبوضاً وتضحك باكياً وترفع بالبر الجزيل وبالأجر

عليك بها فالقوم باحوا بسرها وأوصوا بها يا صاح في السر والجهر

فكم خلصت من لجة الإثم فاتياً فألقته في بحر الأنابة والسر

وكم من بعيد قربته بجذبة وتفاجأة الفتح المبين من البر

وكم من مريد ظفرت به بمرشد حكيم خبير بالبلاد وما يبرى

فألقت عليه حلة يمينية مطرزة باليمين والفتح والنصر

فزر وتأدب بعد تصحيح توبة تأدب مملوك مع الملك الحر

ولا فرق في أحكامها بين سالك مرب ومجنون وحي وذئب قبر

وذئب الزهد والعباد فالكل منهم عليه ولكن الشمس كالبدر

وزورة رسل الله خير زيارة لهم درجات في المكانة والقدر

(1) لا توجد هذه الزيادة إلا في نسخة السيد (واليام مارصي) والتعليق لصاحب البستان.

وأحمد خير العالمين وخير من يأمله عارفون في العسر واليسر
وأُمته أصحاب الغر خيرهم وأفضل أصحاب النبي أبو بكر
ويُتلوه فاروق أبو حفص الرضى على رأي أهل السنة الشهب الزهر
وبالوقف قالوا في الهزبر أخي العلا علي وعثمان الشهير أبي عمرو
وقالوا كترتيب الخلافة فضلهم وقد تم نظمي في المزور وفي الزور
على أنبياء الله مني ورسله أحبيهم أزكى سلام عد الدر
وقرباه الصحب الكريم وتابع لهم في التقى والبر والبصر والشكر
وذكر لي أحدهم بأن له مولديات وإنشادات لا تُحصى، ولم أقف عليها. انتهى
من «المواهب القدسية في المناقب السنوسية للملاي»، انتهى

التعريف بالشيخ أحمد الغماري

(توفي يوم 12 شوال 874هـ - 14 إبريل 1470م)

أصله من عرب رياح، ولم يتحدث المترجمون عن تاريخ ميلاده، ولكنه كان في أواخر القرن الثامن الهجري، وسكن بطيوة وبلاد غمارة مع الشيخ الحاج موسى البطيوي، ونسب غمارة لكونه سكن بها وحذق لهجتها الزناتية، ثم انتقل إلى تلمسان واستقر بها وأخذ العلم على الشيوخ: موسى البطيوي، وأحمد الماواسي، ومحمد بن يخلف، ومحمد بن عمر الهواري الوهراني، وأصبح إمامًا في علوم القرآن، والحديث، والفقه.

وفي أوائل العشرية الرابعة من القرن التاسع الهجري (801) سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مع ركب حجيج تلمسان ومر على تونس وحضر بها دروس الشيخ العبدوسي، ثم التحق بالحجاز، وأدى فريضة الحج، وعاد إلى عنابة حيث علم أن أخاه توجه إلى الحجاز للالتقاء به.

فعاد أدراجه إلى الحجاز عبر تونس، ومصر، ولم يدركه إلا بمكة المكرمة فحج حجة الثانية، وعاد إلى تلمسان، واستقر بها واتخذ إحدى مساجدها مأوى له لأنه لم يكن يملك سكنًا خاصًا به، ودأب على حضور دروس ابن مرزوق الحفيد، وكان يجيد تلاوة القرآن، وكان يتردد على مدن: الحناية، وهنين، وندرومة، ويُلازم أداء صلاة الجمعة في مساجدها، ويتردد كثيرًا على أسواق نندرومة ويسقي الناس به وكان يحضر يوم الخميس دائمًا، ويحطّط ويبيع الحطب في الأسواق ليحصل على قوته من عمل يده.

وفي آخر أيامه أصيب بمرض الإسهال الذي يدعى آنذاك بالزرب
وتوفي يوم (12 شوال عام 874هـ الموافق 14 إبريل 1470م)، وسار
في جنازته سلطان تلمسان وعلماءها، وشعبها، ودفن بخلوته شرق
الجامع الأعظم الحالي.

من خلال هذه الدراسة، تم التعرف على...

النتائج التي توصل اليها من خلال الدراسة...

في ضوء هذه النتائج، يمكن القول...

من أجل تحقيق أهداف الدراسة...

تمت الإشارة إلى بعض النقاط...

في الختام، يمكن القول...

نص المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله...

هذا الكتاب

روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين

ممّا اختصره مؤلفه من كتابه الكبير المعروف باسم: «النجم الثاقب

فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب»، وهو: عبيد الله محمد بن أحمد بن

أبي الفضل بن سعد النصاري - حفظه الله - .



بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا...

...والذي هدانا لهذا...

أولاً: الشيخ محمد بن عمر الهواري المغراوي

(ص 2) بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

يقول عبيد الله محمد بن أحمد بن سعد - حفظه الله - :

الحمد لله حمداً شاكرين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أمّا بعد:

فهذا كتاب اختصرناه من كتابنا الكبير المؤلف في أخبار الصالحين، واقتصرنا فيه على الشيوخ الأربعة المتأخرين إسعافاً لمن سأل منا ذلك من فضلاء الإخوان وأكابر الفقهاء بمدينة وهران، يشر الله أمورنا وشرح للخير صدورنا.

فألحقهم (ص 3) بسبقية التقدير والذكر، أولهم في الوجود وأخصهم بخالصة الحمد والشكر، شيخ الشيوخ المشهود له بالتبثيت والرسوخ سيدي محمد بن عمر بن عثمان سبع بن عياشة بن سيد الناس بن خير الغياري المغراوي المعروف بالهواري، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا ببركته.

هكذا وجدت نسبه بخط وارث مقامه المختص بأسراره وعلومه سيدي إبراهيم التازي، كان هذا الولي سيدي محمد الهواري - رحمه الله - آية من آيات الله في ذلك الزمان، وشيخ من مشايخه في المقامات والعرفان، (ص 4) سبقت من الله العناية فجمع له بين العلم والولاية ورقاه في درجات التقوى إلى الغاية:

فلله منه ما حواه وما ضما

حوى من فنون العلم ما أعجز الورى

على كل قلب خائف أمضت الحكمما

وأيده منه النطق بالحكم التي

فكانت نشأته منذ أنبته الله نشأة حسنة وأوصافه في صغره أوصافاً مستحسنة، تولى الله حفظه فكانت أحواله مبنية على الهوى والرشد، مؤسسة على التوفيق والسداد، ما لعب قط مع الصبيان ولا شغله اللهو الذي كان يشتغل به أترابه من الولدان. (ص 5)

نمشي مع الصبيان وإذا يلعبوا نلبد عينا نرى نسكن فما نبوح به لحد وحصل إلي من مواضع كثيرة في كلامه هذا الفصل من حاله في زمن صباه، وأنه كان موفقاً مباركاً من أهله إليه للخيرات وحبب إليه الطاعات، كما حصل إلي من كلامه حال والده فيقول:

* والد الشيخ الهواري:

كان والد سيدي عمر من حملة القرآن، ومن أكابر قومه وأفاضلهم معروفاً بالكرم والإيثار، وعلو الهمة في أمور الدنيا والآخرة، ومن علو همته وفخامته قدره أنه لما من الله عليه بولادته لهذا الولي الكريم عند الله وتفرس فيه مخايل الفضل (ص 6) والصلاح تخير له من أفاضل الأساتذة رجلاً صالحاً فاضلاً عابداً اسمه: «علي بن عيسى».

* نشأة الشيخ الهواري وتعلمه:

قال سيدي محمد: كان من أهل المعرفة والحدق بقراءة القرآن وشارطه على تأديب سيدي محمد وتعليمه القرآن، وقال له: يا علي إياك أن تضجر هذا الولد أو تسوطه، فإني أرجو من الله أن يفرحني به ومنه أسأل تسديده ومعونته، فأخذ المعلم في تأديبه وتعليمه فرأى عليه المؤدب أثر الغفلة والفتور في أحواله فظن أن ذلك من البله الذي يعتري أكثر الصبيان فشدد عليه في الزجر، وأمره بتعلم الحدق والفطنة وربما ضربه على ذلك، فبصر به والده سيدي عمر، قال له: يا فقيه لا تضربه ودعه على حاله فإني أودعته لخالفه (ص 7) -

سبحانه وتعالى - ، وإني أرجو من الله أن يجعله من الصالحين؛ لأنه ليس كالأولاد ما يطلب على طعام ولا شراب، ولا وقفت له من قط على كذبة، فقال له المؤدب: كيف أترك تأديبه وهو على هذه الحالة من العقلة والمشى بالحفا، وعدم الحذق في أحواله، فقال له الوالد: دعه على حاله فإن ذلك من جملة التسديد والتوفيق الذي ينشأ عليه الشباب الذي يخصصه الله بولايته ويخصصه لعبادته.

* رحيل الشيخ الهواري إلى كلميتو:

وكان سيدي محمد - رحمه الله - أحد من أتاه الله الولاية صبياً وصان له في الأفق زمن صباه ذكراً عالياً، قال في بعض كلامه:

فكم رأيت من بلاد وكم رأيت من أخبار

(ص 8) وأنا صبي محقور لا كني نديكار (كذا)

وذكر في كثير من كلامه أن أول ما فتح الله به عليه أنه خرج من وطنه بعد حفظه للقرآن وهو دون العشر من السنين، فدخل كلميتو فوجد بها شيخاً من أولياء الله في غار أو خلوة فدعا له أن يكون من أهل الطريق، فقبل الله دعوته ورقاه إلى درجة أولي التحقيق.

* رحلات الشيخ الهواري في البلاد:

ولما نال سيدي محمد من هذا الشيخ بغيته، وقبل الله فيه دعوته خرج من وطنه مهاجراً إلى الله إلى سبيل أهل الإرادة مقبلاً على طلب العلم والعبادة، فطاف في البلاد شرقاً وغرباً، وتجوّل في الصحاري الخالية البعيدة من العمران (ص 9)، وفي جزور الحر على قدم التجريد والتوكل، فكان في سياحته يُخالط السباع والوحوش العادية فلا يخاف منها، ولا يتحرك لا صره،

وهذا من أشرف المقامات في باب التوكل والاعتصام بالله تعالى.

* حكاية سيدنا موسى:

وفي أخبار سيدنا موسى - عليه السلام - ، روي أن موسى ﷺ قال: يا رب كيف يكون العباد كما تريد؟ لا يعلمون ما تريد؟ فأوحى الله - عز وجل - إليه: «يا موسى من أفرد نفسه لي كان كما أريد، ومن شغل نفسه بشيء دوني تركته وما أراد». فقال موسى - عليه السلام - : يا رب، كيف يفرد نفسه لك؟ قال: «وكل أمره إلي فأنا أقبه المكاره، وأصرف عنه المضار، وأكون له كهفًا، وأحرزه (ص 10) من عدوه، وأجعل له حلاوة من طاعتي، فإذا وجدها لم يرد سواي»، فقال: يا ربي، فكل عبادك كذا إذا فعلوا هذا؟ قال: «إنما أفعل هذا بمن أختار من عبادي وإنما الفاعل لما أريد، يا موسى لو عاملني عبادي كما عامل بعضهم بعضًا، ولو توكلوا علي ما ابتليتهم بهم الدنيا، ولو طلبوا الغنا من عهدي ما افتقروا أبدًا، وذكر أنه كان في أوقات سفره لا يتخذ معه آلة من حديد، ولا يصحبه سوى دفاسه أو بريقه وعكازه وهو العصاة، وعلى هذا كان عمل السلف الصالح من المتصوفة إذا سافر أحدهم لا تفارقه عصاه من اقتداء بالنبي ﷺ.

ففي كتاب العوارف، عن ابن عباس (ص 11) - رضي الله عنه - قال: «التوكل على العصا من أخلاق الأنبياء، كان للنبي ﷺ عصاة يتوكأ عليها، فمن قوله مسيرًا لذلك في التنبيه:

وكم من طروق (كذا) امشيت ولا حبست قط حديده

وقال في التنبيه أيضًا:

فكم رأيت من بلاد والناس رأيتم أردود

وقد كنت متوكل على الواحد المعبود

ونسكن في الخلاء وحدي في الغار الذي نوجد

وحدي ساد تويدي أو بعض من الأعواد

(ص 12) ومن غرائب فوائد التوكل ما حكاه القشيري في كتاب الرسالة: حدث أبو القاسم، عن ولي الله أبي حمزة الخراساني، قال: حججت سنة من السنين فينما أنا أمشي إذ وقعت في بئر فنازعني نفسي أن أستغيث فقلت: لا، والله لا أستغيث فما استكملت هذا الخاطر حتى مرّ برأس البئر رجلاً، فقال أحدهما للآخر: تعال حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد، فأتوا بقصب ويأزبة (كذا)، وطمسوا رأس البئر، قال: فهمت أن أصيح، ثم قلت في نفسي: أشكو إلى من هو أقرب منهما، وسكت فينما أنا كذلك بعد ساعة وإذا بشيء جاء، وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله حتى وصلت إلي ثم همهم ففهمت من مهمته أنه يقول لي: تعلق بي فتعلق به، فأخرجني (ص 13)، فإذا هو سبع فتركني ومر، فينما أنا أنظر إليه ذاهب وإذا بهاتف يقول: يا حمزة أليس هذا أحسن؟ نجيناك من التلف بالتلف فانصرفت وأنا أقول:

نهاني حيائي منك أن أكتم الهوى وأغنيتني بالفهم منك من الكشف

تلطفت في أمري فأبدت شاهدي إلى غائي واللفظ يدرك باللفظ

أراك وبى من هيبتي لك وحشة فتؤنسني باللفظ منك وبالعطف

وتحيي محباً أنت في الحب حقه وإذا عجب كون الحياة مع الخلف

* رحيل الشيخ الهواري إلى مدينة بجاية:

(ص 14) وكان مبدأ قراءة سيدي محمد بمدينة بجاية دخلها بعد صومه سنة والله أعلم، فقرأ بها على أعلامها الجلة عيّن منهم الإمامين: سيدي عبد الرحمن الوغليسي، وسيدي أحمد بن إدريس.

وكلام سيدي محمد في منظوماته ملآن بالثناء على أهل بجاية، وذكر محاسنهم في الإيثار والصدقات، واشتمالهم على الغرباء، وحبهم للفقراء ومحافظتهم في معاملاتهم على الربا، وصرّح في كثير من كلامه أنه لقي بها جماعة من العلماء أهل الصدق والورع أجازوه في جميع العلوم، ومن إشارته لذلك: وعندي إجازة وأنا صبي دون لما.

وكان يحدث عن أهل بجاية بغرائب كثيرة في باب (ص 15) الصدق والورع، ويقول: ما لقيت مثلهم في غيرها من البلاد، وفي نظمه المسمى بالتسهيل قوله:

لو وصفت لك ما ريت في بجاية وهي هيا

بلد الورع والعلم وتراي حقيقيا

فأقام بها مدة أعوام مواصلاً الجد والاجتهاد في قراءة العلوم المنقول منها والمفهوم، واستظهر هناك حفظ كثير من الكتب قل أن يحفظها غيره.

* سفر الشيخ الهواري إلى فاس:

ثم لما أخذ في درس المدونة البراذعية وبلغ فيها إلى كتاب الصيد مسافر من بجاية مغرباً لمدينة فاس، وقد جرت عادة الله مع أوليائه أن يحرك خواطرهم للأسفار ليزدادوا يقيناً بالاستبصار في أشعة الأنوار (ص 16)، ومن فوائد ذلك عند أرباب القلوب ابتداء قطع المألوفات، والانسلاخ من ركون

النفس إلى ما تعهده من المعلومات، والتحامل عليها في تجرع مرارة فرقة
الأهل والأوطان، واحتساب الصبر عمّا ألفته من مفارقة الأقران، مع ما فيه من
دلائل التوحيد وهو التفكير في رؤية القدر والآثار، وتسريح النظر في مساريح
المصنوعات بالتدبر والاعتبار.

وقد أوصى بها الأئمة والأدباء في أشعارهم، أنشد محمد بن مرزوق
الزعفراني في كتابه الذليل لمحمد بن إدريس الشافعي قوله:

تغرب عن الأوطان في طلب العلى	وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
(ص 17) تفرج هم واكتساب معيشة	وعلم وآداب وصحبة ماجد
فإن قيل في الأسفار هم وغربة	وقطع فيافي واقتحام شدائد
فموت الفتى خير له من مقامه	في أرض العدا ما بين واش وحاسد
وأنشد قول الشاعر:	

وطول مقام المرء في الخي مخلق	لدياجتية فاغترب يستجدد
(ص 18) ألم تر أن الشمس زيدت محبة	إلى الناس إذ ليست عليهم بسرمد

وأنشد ابن الربيع الأشعري لحماذ بن هبة الله الحراني:

قالوا نراك كثير مجتهداً	في الأرض تنزهها طوراً وترتحل
فقلت لو لم يكن في السير فائدة	ما كانت السبع في الأبراج تنتقل
فوصل سيدي محمد - رحمه الله - إلى مدينة فاس، ولوحه في كتاب الصيد من المدونة فدخلها فقيراً لا يملك شيئاً، ولا يلوي على سبب بنية صادقة في طلب العلم ولقاء مشايخ الوقت وفي ذلك يقول:	
دخلت فاس غريب وقد آويت للسعا	وقد نشتهي خبزاً أو من كسكسو شعبا

(ص 19) فأخذ بها عن الشيخ الإمام حافظ المغرب سيدي موسى العبدوسي، وعن زعماء الفقهاء والمتكلمين سيدي أحمد القباب، فأقام بمدينة فاس للقراءة عليهما جملة أعوام معروفا عند أهلها بالعلم والديانة عظيم القدر، معروف المكانة.

وكان مشايخ الوقت يعظمونه ويخاطبونه على صغر سنه بالسيادة، ومن قوله في تبصرة السائل:

بلدا دخلت نصيب أناس تألف يل مثل الأمير يعرف بالدخايل

وقال في نظمه المسمى بالكافية: وسيد من صغري كالفقيه.

وبمدينة فاس كمل حفظ المدونة وهو حينئذ (ص 20) ابن خمس وعشرين سنة، وذلك سنة ست وسبعين وسبعمائة⁽¹⁾، وكان طلبة فاس يقرؤون عليه القرآن والكتب العربية، والفقه، ويتحدثون أنهم ما رأوا أبرد من قراءته ولا أفيد من تعليمه.

وفي هذه السنة نظم كتابه المسمى «بالسهو في أحكام الطهارة والصلاة» وهو من أجمع الكتب لأحكام مسائل الطهارة والصلاة، وأعظم فائدة وأعملها بركة، وسمّاه في بعض كلامه: بالمؤانس.

* انتقاله إلى الحجاز لأداء فريضة الحج:

ولما حصل سيدي محمد من القراءة ما يجب تحصيله أراد أن يكمل من الفرائض الخمس ما يجب عليه تكميله، فأعمل الرحلة شرقا لأداء فريضة حجة الإسلام، ولقاء من هناك من أكابر العلماء الأعلام (ص 21)، فذكر أنه دخل مصر فأقام محاورا بالحرمين الشريفين مكة والمدينة عدة أعوام، وكان

(1) الموافق لعامي (1374 - 1375).

سكنه في مكة المشرفة برباط الفتح.

* سفره إلى بيت المقدس:

ثم سافر إلى بيت المقدس ليكمل له فضل الصلاة في المساجد الثلاثة
وزيارة ما بها من المشاهد المعظمة، قال في منطوقه المسمى بالتسهيل:

في الشام ريت أخيار فلو كنت نتمنا نسكن خليل الله أوجاع بني ميا
مَنْ الله علينا برؤيتهم وأعاد علينا من بركاتهم

* رجوعه لمدينة وهران واستقراره بها:

وبعد رجوعه من البلاد الشرقية نزل بمدينة وهران، لما سبق له في الأول
من علو المكانة ورفعة الشأن، فاستقر بها قراره، واطمأنت بها داره، وجلس
(ص 22) به لنشر العلم وبثه والدعاء إلى الله تعالى، فانتفع الخلق على يديه
وظهرت عليهم بركته، وفعلت فيهم سريره الصالحة ونيته، ولم يكن في زمانه
أحرص منه على العبادة ومجاهدة الصيام، والقيام صابراً محتسباً، في دعوة
الخلق إلى الله المعبود بحق، على سنن الزهاد الفقهاء سالكاً سبيل المتعبدين
من الصالحاء إذا رآه الناظر تبينت له ولايته، وظهر له أن خير السعيات سعائه
وذكره مرآة قول النبي ﷺ لمن قال له من أولياء الله قال: الذين إذا رأوا ذكر
الله.

وكانت مجالسه مجالس رحمة، وخواص أصحابه كلهم أولياء (ص 23)،
فتارة يخوف الناس بالأغلال وأنواع العقوبات التي أعدها الله للعصاة، فتكاد
قلوب الحاضرين تنفطر وتنشق من الخوف، ويتسارع الناس إلى الإقلاع
والتوبة، وتارة لهم بذكر سعة رحمة الله، ويزجيهم في كريم عفوّه، وجميل
إحسانه وطويل غفرانه، ويمنيهم بما عنده من كثرة الثواب.

ولمّا علت سُنّه وتقارب أجله كانت مجالسه في التبشير وفوائد التسيير،

وذكر ما عند مولانا سبحانه من سعة الغفران، والتجاوز عن السيئات وأن الله لا يضيع أجر المحسنين؛ لأنه لم يبق عند الله إلا الطمع في رحمته والرغبة فيما عنده.

(ص 24) حدثني جماعة من الثقة أن سيدي محمد عليه السلام كان إذا جلس في مجلسه يتكلم على الخواطر، وينحشر الناس إليه فيكاشفهم بأحوالهم ويطلعهم على خفي أسرارهم وشاع ذلك عنه، وتحدث الناس عن بركته فكان المسافرون وذو الحاجات يقصدون مجلسه، وكل قد أضمر حاجته في نفسه من سفر أو تزوج أو غير ذلك، ثم يأخذ في الكلام المرسل من غير أن يخاطب به أجراً معيناً ويضرب الأمثال بذكر غرائب الأحوال، وإطلاعه على عجائب الأسرار، فيقع جواب كل من الحاضرين، فينصرف بجوابه وقد عرف وصف حاله الذي سأل عنه في نفسه وسمت حاجته التي وسمها بمثاله (ص 25)، ووسمه إلى غير ذلك مما تنتهي إليه أحوالهم وتسمو إليه آمالهم، وفيهم من يتواجد ويحدد التوبة مع الله، وكانت القلوب تنفعل كثيراً لكلامه، وترق لموعظته وتتأثر لتذكيره.

وكان إذا حضر مجلسه الأغنياء وأرباب الدنيا دعاهم إلى الله بطريق الخوف وذكرهم بآيات الرجاء، وحسن الظن بالله، وإذا حضره أهل الصحة والعافية من التجار ذكرهم بطريق الشكر، وحضهم على إخراج الزكاة وأنها مطهرة للمال، ثم يندبهم لترك المعاملة مع من غلب عليه الحرام ويبصرهم بفائدة طلب الحلال (ص 26).

فينصرف أهل مجلسه وقد أحرزوا من الخيرات آمالاً وحصلوا من مسائل التكليف وأسرار الأعمال أقوالاً صالحة وأعمالاً، وكان مع ذلك لا يخلي مجلسه من مفاوضة علمية، ومحاضرة أدبية ومذاكرة صوفية.

حدثني جماعة من الأصحاب أنه كان ربما يعرض لطلبة العلم من أهل وهران وتلمسان وغيرهم من سائر البلدان كثير من المسائل العويصة فيستفتون فيها شيوخ الوقت فلا يجدون عندهم شفاء غليلهم فيقصدون مجلس الشيخ سيدي محمد ويحضرون في جملة من حضر من الناس وقد أضمرنا تلك المسائل العويصة على اختلاف أفانينها، فإذا أخذ الشيخ على عادته في الكلام خرج (ص 27) إلى تلك المسائل وأسرع الجواب عنها وأوضح مشكلها معرفة في قالب الوعظ، فيقضي منه العجب، ويبهت الحاضرون لسرعة جوابه، وحشده من الأقوال على أكمل ترتيب ويستغربون لطافته تخلصه من المسائل إلى ما هو بسيله من الوعظ.

وكان - رحمه الله - من حين ظهر بانيًا على ترك الدنيا والانقطاع إلى الدار الآخرة، زاهدًا فيها حقيقًا بظاهره وبباطنه، تاركًا لها بقلبه وجوارحه لا يميل إلى شيء منها، معرضًا عنها بنفس طيبة زكية، وهمة عالية، وكان زاهدًا في مطعمه ولباسه، أما الطعام فكان أكله - رحمه الله - قليلًا، وكان ينوي به التقوية على طاعة (ص 28) الله ليكون مطيعًا بالأكل، ولا يقصد به التمتع في أطايب الطعام، وإن كان من المباح، فمقامه - رحمه الله - أكبر من أن يأكل بشهية، وصرح في كثير من كلامه أنه ما شبع قط وأنه لا يمد يده إلى الطعام إلا وهو جائع محتاج إليه؛ لأن الشبع من البدع المحدثّة بعد النبي ﷺ، ومما يمنع من القيام بحق العبودية كالصلاة وغيرها.

وتبع في ذلك قوله ﷺ: «حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه»، وكان أكثر أكله الخبز، وفي الحديث عنه ﷺ: «أكرموا الخبز فإنه نزل من بركات السماء»، وأخرج المسعودي، عن يزيد، عن ابن عوف، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله (ص 29) ﷺ قال: «إذا وضع الخبز فأرتعوا، وخير مراعيكم الخبز، ولكل

شيء مرعى، ومرى بني آدم الخبز، والجوع من صفات أولياء الله وأرباب القلوب».

كان أبو سليمان الداراني يقول: «مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع»، وروينا عن سهل بن عبد الله أنه لما خلق الله الدنيا جعل في الشبع المعصية والجهل، وجعل في الجوع العلم والحكمة.

وفي أخبار داود - عليه السلام - : «أوحى الله إلى داود - عليه السلام - أيا داود حذر وأنذر أصحابك، أكل الشهوات فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة».

وأما اللباس فذكر في كثير من منظوماته أنه ما كان (ص 30) عليه في تجوله سوى سترة وكساء من صوف، خلق أو سلهام، ومن قوله في ذلك:

كنت بالحفي نمشي ولباسي أيضًا سترًا

وخير الرزق ما يلقي أن الصبر للفقراء

وفي بعض منظوماته أنه دخل مصر بثوب خلق من صوف مقتديًا في ذلك من تقدّمه من زهاد الصوفية، إذ بلبسهم ثياب الصوف سُميت صوفية عند المحققين نسبة إلى ظاهر حالهم، يقال: تصوف إذا لبس الصوف، كما يُقال: تقمص إذا لبس القميص، إنما وقع اختيارهم على لبس الصوف لكونه أرق، ولأنه من لباس الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ، فقد روينا من حديث أنس بن مالك (ص 31) قال: «كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد، ويركب الحمار، ويلبس الصوف».

وروي أن عيسى - عليه السلام - كان يلبس الصوف والشعر، ويأكل من الشجر ويبيت حيث أمسى، ومن حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا كَلَّمَ الله موسى - عليه السلام - كان عليه جُبّة صوف وسراويل

من صوف، وعمامة من صوف، ونعلان من جلد حمار غير ذكي». وكانت الصدقات والنذور ترد عليه من آفاق البلاد فيخرج ذلك من يده لوقته ويصرفه لمن يستحقه، ولا يعود بشيء منه على نفسه، وكان زاهداً حتى في الكتب العلمية، فهدت هذا عنه من مواضيع كثيرة (ص 32) في كلامه هذا مع حبه في العلم وشغفه به وملازمته إيّاه، فكان ممن أمره الله بحفظ ما قرأه وحصله فكان لا يفتقر في مجالسه العلمية تواليه في الفقه، والمناسك، والآداب، إلى مطالعة كتاب ولا مراجعة شيء بجميع العلوم، وتحصيله منها المنقول والمفهوم، وما كان يطالع في ذلك سوى مجرد فكرة السليم، ونظرة المسدد القويم.

ورحم الله الإمام الشافعي حيث قال أنشدهما له الماوردي في كتابه «آداب الدين والدنيا»:

علمي معي حيث ما يمت ينبغي

قلبي وعاء لا له بطن صندوق

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي (ص 33)

أو كنت في السوق كان العلم في السوق

فكان على عادة أمثاله أولياء الله الذين وصلوا إلى بساط القرب والمشاهدة، وبلغوا بقلوبهم إلى درجة أهل المعرفة والحكمة، فعرفوا الله بجمال الربوبية، وإخلاص العبودية.

فسيدي محمد - رحمه الله - ممن تجرد عن لباس الدنيا، وارتدى برداء أهل الخصوصية والحياة، ووقف بين يدي الملك الحق الأعلى قائلاً بلسان أهل الخوف والرجاء يا من يرى ولا يرى، عبدك واقف ببابك بلا الدنيا، ولا

نفس ولا هوى.

الأنس بالله لا يحويه بطال وليس يُدركه بالحوّل مُحْتال
(ص 34) والآنسون رجال كلهم نجب وكلهم صفوة لله عمال

* تنبيه:

لعل الواقف على هذا الكلام في ذكر تحقيق زهادة هذا الولي - رحمه الله - يقول: كيف يطلق عليه أنه من الزاهدين، وقد كانت له زوجة وأولاد؟

والجواب: أن تزوجه كان من كمال ولايته - رحمه الله - ؛ لأن القيام بحق الزوجية والأولاد على طريقة الزهد والورع في الإنفاق عليهم وأداء حقوقهم لا يُحسنه إلا أفراد الرجال المتصفين بصفات الكمال.

هذا سيدنا علي - عليه السلام - كان أزهد الصحابة - رضوان الله عليهم - ، وقد كان له أيام خلافته وأيام (ص 35) حروبه مع الخوارج وغيرهم أربع نسوة وسبع عشرة سرية، وكان عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - يقول: «خير هذه الأمة أكثرها نساء»، وكان سفيان الثوري يقول: «كثرة النساء ليس من الدنيا في شيء».

وفي الحديث عنه عليه السلام: «ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا بإضافة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يدك».

وكان هذا الشيخ - رحمه الله - مثن أخذ نفسه يطلب الحلال، وكان لا يتقوت إلا بما علم حليته على أتم وجوه الكمال، وطلب الحلال هو أصل هذه الطريقة، وعليه سداد علماء الشريعة والحقيقة (ص 36)، وهو من فراض الدين وأصول الإسلام.

قال أبو حامد: مثل الطعام الحلال من الدين مثل الأساس من البنيان، فإذا أثبت الأساس، وقوي استقام البناء وارتفع، وإذا ضعف الأساس من البنيان واعوج تهدم البنيان ووقع، وكان أفاضل الصدر الأول يوصي بعضهم بعضاً بالمحافظة على القوت من الحلال، ويقولون: أن هذه الأنفس لا تستقيم لنا إلا بأكل الحلال، وكان طعام سيدي محمد - رحمه الله - في المفاوز والخلوات، الحشيش والنبات، ويقول هذا العيش هو أطيب الطيبات، فإذا ورد الحاضرة وبلاد العمران وكل أمر غذائه إلى من يثق به من معارفه أهل (ص 37) الولاية والعرفان.

وقد أرشدنا الله تعالى في كتابه العزيز إلى طلب الحلال، وقدمه على العمل الصالح، فقال تعالى: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: 51]. جاء في تفسير هذه الآية أن المراد بالطيبات: الحلال.

وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «طلب الحلال فريضة على كل مسلم». وحدث عبد الله بن المبارك، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس! إن الله - عز وجل - طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله - عز وجل - أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال - عز وجل - : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ إني بما تعملون عليم».

(ص 38) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، وملبسه حرام، وغذّي بالحرام، فإني يستجاب له.

وفي الحديث عنه ﷺ: «العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها في طلب الحلال».

وروي عنه عليه السلام أنه سأل بعض أصحابه أن يدعو له فيكون مُستجاب الدعوة. فقال له: «أطيب طعامك يستجب دعاؤك».

وفي بعض الآثار: «من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام، لم يقبل الله صلاته ما دام الثوب عليه».

وعنه عليه السلام: «من اكتسب مالاً من (ص39) حرام فإن تصدق به لم يقبل منه، وإن مات وتركه كان زاده إلى النار».

وعن كبير الأولياء في وقته سهل بن عبد الله التستري: «من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى، علم أم لم يعلم، ومن كانت لقمته حلال أطاعت جوارحه ووفقت للخيرات». وفي كتاب «الرسالة» عن إبراهيم بن أدهم أنه كان يقول: «أطيب مطعمك ولا عليك لا تصم النهار ولا تقم الليل»، وفيما روينا عن الخليفة عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - ، أنه وزن بين يديه وعاء من طيب المسك أتى به في الغنائم فتورع عن أن يصل من رائحته إلى أنفه قبل قسمه على المسلمين، فكانت يده إلى أنفه مدة الاشتغال بوزنه فقبل (ص40) له في ذلك، فقال: وهل يتففع منه إلا برائحته. ورحم الله القائل:

المال يذهب حله وحرامه	طرا وتبقى في غد آثامه
ليس التقى متق للاله	حتى يطيب طعامه وشرابه
ويطيب ما تحوي وتكسب كله	ويكون في حسن الحديث كلامه
نطق النهي لنا عن ربه	فعلى النبي صلاته وسلامه

وفي الصحيح، ومن كتاب لأبي داود نقلت لكونه من محفوظات هذا الشيخ - رحمه الله - ، حدث أبو داود بسنده عن النعمان بن بشير، قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الحلال بَيْنَ، والحرام بَيْنَ، وبينهما أمورٌ متشابهات، ولا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات وقع في الحرام».

هذا الحديث الكريم أصل في معرفة الحلال وطلب الورع، ومعنى قوله: «وبينهما أمور متشابهات»، أي: أنها تشبه على بعض أصول الشريعة؛ لأن مولانا - سبحانه وتعالى - لم يترك شيء سبق في علمه وقوعه إلا وقد بين - سبحانه وتعالى - وجه الحكم فيه بياناً شافياً. إمّا في كتابه المنزل أو على نبيه ﷺ، أو لسان أصحابه وأتباعه الذين اتبعوه بإحسان.

وبيان ذلك أن الأحكام التي خاطبنا الله بها على قسمين:

قسم ظاهر: ومعناه (ص 42) جلي يعرفه عامة الناس.

وقسم غير ظاهر: ومعناه خفي لا يعرفه إلا خواص الناس الذين جعلهم الله قادة ورسخت أقدامهم في معرفة الاستنباط والتأويل، وعرفوا طريق القياس برد الشيء إلى المثال والنظير، وإذا صار هذا المعنى الخفي معلوماً عند الراسخين في العلم فليس لمشتبه في نفسه.

فالأوجب على من وقع في الأمر المشتبه أن يتوقف فيه ولا يقدم عليه إلا ببصيرة واضحة من عالم عرف علمه ودينه واستبان ورعه ويقينه، احذر أن تقلد فيما اشتبه عليك بعض هؤلاء الفقهاء الذين نصبوا أنفسهم للفتوى طلباً للرياسة والظهور الدنيوي، وحرصاً على جمع حطام هذه الفانية فإنهم ليسوا من علماء (ص 43) الآخرة، وقد غلب عليهم الطمع وخب الرياسة، فقلوبهم فارغة من الخوف والورع فهم من الشبهات التي أمرك النبي ﷺ بتركها وحذرك من الوقوع فيها، فاحذر الحذر من الوقوع فيها، فاحذر الحذر ممن هذه صفته، واقصد أهل العلم والدين كما قال سيدي محمد في بعض منظوماته:

من لا يعرف الله لا تعرف واحذر منو واتق
مع شيخ عارف والعلم من أهل الدين يستقي

فانظر إلى نهى الشيخ - رحمه الله - عن معرفة من لا يتق الله وكأنه أشار إلى الحديث الذي أخرجه أبو داود في سننه، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي».

(ص 44) فقد نهى ﷺ في هذا الحديث عن صحبة من ليس من أهل التقوى، فلا تقلد في فتواك إلا من عرف بالدين والتقوى، واحذر من لا يتق الله، فلا تتخذه جليساً ولا تطاعمه، ولا تخالطه، وإنما خص ﷺ «المطاعمة» بالذكر لأنها تدعو إلى الألفة والمودة في القلوب.

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: «إن لكل شيء معدنًا، وأن معدن التقوى قلوب العارفين»؛ لأنهم عقلوا عن الله - عز وجل - أمره ونهيه.

وأما قول الشيخ - رحمه الله - : «والعلم من أهل الدين يُستقى» فاعلم أن أهل الدين الذين أشار إليهم هم العالمون بالله المخلصون (ص 45) في أعمالهم الصاقدون في أحوالهم الذين أطلعهم الله على عيوب النفس التي هي بالسوء أماره، ولم يغتروا بما تزينه لهم من مناهيها، وكان الشيخ - رحمه الله - في وصاته (كذا) هذه وقف على أبيات الفاضل الزاهد أبي موسى عيسى بن عمران التلمساني يوصي ولده في قصيدة طويلة منها قوله:

والعلم كونوا يا بني من أهله فالعلم أفضل ما رأى أن يكسب

فتعلموه لدينكم ومعادكم وذروا أناساً صيروه مكسب

فلهم أشد من اللصوص مضرةً ولهم ذئاب يأكلون الأذوبا

وفي أخبار يحيى بن يحيى الليثي عَلم الأندلس في وقته (ص 46) قال: سمعت الإمام الليث بن سعد يقول فيما يعظنا به: الله! الله! عليكم بالعلم وطلبه، وإياكم وشهوته، قال: فقلنا له: وما شهوته يرحمك الله، قال: شهوته أن تسرعوا الجواب فيما سلبتم فتعجبكم أنفسكم بذلك فتدعوكم إلى أن تدخلوا

في دين الله ما ليس منه.

وحدث عبد الله بن وهب عن شيخه الإمام مالك، قال: رويانا عن ابن عباس، أنه قال: «مَنْ أَقْتَى النَّاسَ فِيمَا يَسْأَلُونَهُ فَهُوَ مَجْنُونٌ».

وعن بعض العارفين: «مَنْ لَمْ يَكُنْ قَصْدُهُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ إِرَادَةُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، لَمْ يَرْشِدْ قَلْبُهُ، وَلَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ مَوَاهِبُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَلَوْ كَانَ مَعَهُ عِلْمُ الثَّقَلَيْنِ، وَعَمِلَ الْمُقْرِبِينَ حَتَّى يَخْلُصَ النِّيَّةَ لَوَجْهِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْإِخْلَاصَ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ أَصْلُ فَرَائِضِ (ص 47) الدِّينِ، وَعَلَيْهِ مَدَارُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُحَقِّقِينَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى مُخَاطَبًا لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ② أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿ [الزمر: 2، 3]. فَمَنْ عَمِلَ بِالْإِخْلَاصِ أَوْ قَالَ بِهِ أَوْ دَعَا إِلَيْهِ أَوْ رَغَّبَ فِيهِ، فَهُوَ مِنَ الدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَإِلَى دِينِ اللَّهِ وَإِلَى سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، إِذِ الْإِخْلَاصُ بِالْأَعْمَالِ فِي هَذَا الزَّمَانِ فَرِيضَةٌ دَرَسَةٌ وَشَرِيعَةٌ يَنَابِيعُهَا يَابِسَةٌ».

وقد اختلف أئمتنا في قوله ﷺ: «طَلِبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»، مَا هُوَ هَذَا الْعِلْمُ؟ فَقَالَ جَمْهُورُ الصُّوفِيَّةِ: هُوَ طَلِبُ الْإِخْلَاصِ فِي الْأَعْمَالِ، وَمَعْرِفَةُ آفَاتِ النَّفْسِ وَفَسَادِ الْأَحْوَالِ (ص 48)، وَقِيلَ: هُوَ عِلْمُ الْفَقْهِ؛ لِأَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَى عِلْمِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

لَأَنَّ أَكْلَ الْحَلَالِ فَرِيضَةٌ، وَقِيلَ: هُوَ عِلْمُ التَّوْحِيدِ، وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو طَالِبٍ: هُوَ عِلْمُ الْفَرَائِضِ الْخَمْسِ الَّتِي بَنِيَ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ، فَالتَّوْحِيدُ أَوَّلُهَا، وَالْإِخْلَاصُ دَاخِلٌ فِيهَا لِأَنَّ صِحَّةَ الْإِسْلَامِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ، وَرَوَيْنَا فِي الْأَحَادِيثِ الْمُسَلَّسَةِ بِالسَّنَدِ الْمُتَّصِلِ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ خُذِيفَةَ بْنَ الْيَمَانِ عَنِ الْإِخْلَاصِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْإِخْلَاصِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: «سَأَلْتُ جَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَنِ الْإِخْلَاصِ مَا

هو؟ فقال: سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ فقال: أيا جبريل، هو سرُّ من سري، استودعته قلب من أحببت من عبادي».

وفيما رواه (ص 49) من أخبار سفيان الثوري أنه قال: «ما من عمل أفضل من طلب العلم، إذا أخلصت النية فيه»، قيل له: يا أبا عبد الله، وأي شيء إخلاص النية؟ قال: أن يكون له عقد صحيح أنك ما أردت به إلا الله - عز وجل - وثواب الدار الآخرة».

وقرأت في كتاب الهداية، روي عن بعض أكابر العلماء أنه قال: أكثر ما يقع سوء الخاتمة بثلاث طوائف من الناس:

الطائفة الأولى: هم العلماء الذين يتحكمون في كتاب الله - عز وجل - وسنة رسوله ﷺ بعقولهم الفاسدة، وآرائهم التي ليست بقاصدة، فكل ما أجازتهم عقولهم أجازوه، وما ردته ردوه، فإيمانهم ينتقل حيث انتقلت بهم عقولهم، فأول آية تظهر لهم عند المعاينة (ص 50) لا تقاومها عقولهم لضعفها وفسادها وعدم تثبيتها لأنها كانت منتقلة غير ثابتة قبل ذلك فينطفئ نور إيمانهم كما ينطفئ المصباح عند احتراق الفتيلة، قال الله - عز وجل - : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝ ﴾ [الصف: 5].

وقال تعالى: ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝ ﴾ [إبراهيم: 27]. فكل من حكم عقله في كتاب الله - عز وجل - وسنة رسوله ﷺ فما أجازته عقله أجازته وما لم يجزه رده؛ فقد جعل أحكام الله - عز وجل - تابعة لعقله فلذلك حال الله بينه وبين عقله عند الموت، وعند سؤال الملكين (ص 51) إياه في القبر.

والطائفة الأخرى: هم أهل الكبر والجبروت المنكرين لكرامات الأولياء

في الدنيا والآخرة، فمن أكرمه الله بولايته وخصه بكرامته فإن تنكر كرامات الله عنده، فلما أنكرت هذه الطائفة كرامة الأولياء وتكبروا على عبادة الله بما سؤلت لهم أنفسهم الأمانة بالسوء لم تكن لهم عند الله كرامة، وعوضهم منها الحزي والندامة.

والطائفة الثالثة: هم الفساق المتمردون على الله في بلاده وعبادته المصرون على كبائر المعاصي، الغافلون عن التوبة إلى أن يأخذهم ملك الموت بالنواصي، فهم إذا أدركهم الفوات وعلموا أنهم من الأموات تابوا إلى الله - عز وجل - (ص 52)، فلم تنفعهم توبتهم لما غلبت عليهم شقوتهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتُّ أَكُنَّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿[النساء: 17، 18]﴾. فبمثل هؤلاء تقع سوء الخاتمة، فنسأل الله العافية، والسلامة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

ومن فضل هذا الشيخ - رحمه الله - ، الدال على ما له من الكرامة عند مولاه أنه ما كذب قط، ذكر الكثير من كلامه، قال في منظومه المسمى بالتسهيل: (ص 53)

كنت صبي نقرا وأنا يا صبي منها الناس على العار ولا أور رأت لي شبهة
إذا رايت من يكذب بالعمل أو من يسها تتركوا بالكل إن الكذب هو شوها

لا جرم أن الكذب معدود في كبائر الذنوب كما أن الصدق معدود في الدرجة الثانية من النبوة، قال الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ

النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿ [النساء:

69]. والصدیق هو الكثير الصدق وخذ الصدق هو الإخبار بالشيء على

حقيقته ما هو به، كما أن حقيقة الكذب الإخبار بالشيء على ما ليس هو عليه.

وبالصدق وصل الأولياء (ص 54) إلى درجة الصديقية، وقد أمر الله

بالصدق، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

[التوبة: 119]. كما أثنى عليه في قوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾

أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿ [الزمر: 33]. فالصدق من صدق في أقواله، والصدیق

من صدق في جميع أقواله، وأفعاله وأحواله. قال أئمتنا: ومن فوائد الصدق

وثمراته أنك لا ترى الصادق أبدًا في فرض يؤديه أو فضل يعطي فيه، كما كان

هذا الشيخ سيدي محمد - رحمه الله - ، وحقيقة الصدق عند الصوفية أن

تصدق في موطن لا ينجيك إلا الكذب.

وحدثوا في ذلك بحكايات منها ما روي عن الزاهد أبي عمرو الزجاجي:

قال: ماتت أُمِّي (ص 55) فورثت منها دارًا بعثتها بخمسين دينارًا، وخرجت إلى

الحج فلما كنت في بعض الطريق لقيني لص فقال لي: إيش معك؟ فقلتُ في

نفسي: الصدق أنجى من الكذب، فقلتُ: خمسين دينارًا. فقال: ناولنيها،

فناولته الصرة فعدّها فإذا هي خمسون، فقال: خذ دنانيرك. فلقد أخذ بمجامع

قلبي صدقك، ثم نزل عن دابته وقال: اركبها، فقلتُ: لا أريد، فقال: لا بد،

وألح عليّ فركبتها وانصرفت فلمّا كان العام الآتي لحقني، وقال: إن الله قد

أنجاك مني بصدقك، وتاب عليّ ببركتك، ثم لم يزل معي حتى مات - رحمه

الله - ، وما زال الصدق علامة لأولياء الله المتقين، وبرهانًا واضحًا لعباده

الصالحين، يحملهم على التحقيق (ص 56)، ويوضح لهم الطريق.

بلغنا عن الفضيل بن عياض أنه قال: «ما يزين الناس بشيء أفضل من

الصدق»، وأوصى بعضهم ولده فقال له: «يا بني عليك بالصدق فإنه يقبله منك العدو، وإيّاك والكذب فإنه يرده عليك الوالد»، وما أحسن قول القائل:

عليك أخي بالصدق في كل موطن وإن كان وزن الصدق شق المفارق
فما الغبن والخسران إلا لطالب بلوغ رضى المخلوق في سخط الخالق

وفيما رواه سيدي محمد في كتاب أبي داود أن النبي ﷺ قال: «إيّاكم والكذب فإن (ص 57) الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وعليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة»، أصل الفجور في كلام العرب: الميل إلى الصدق والانحراف إلى الكذب. قال بعض المفسرين: خرج الحديث مخرج الشرح والتفسير لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: 13، 14].

ما أقبح الكذب المذموم صاحبه وأحسن الصدق عند الله والناس

وفي وصايا لقمان لابنه: «يا بني احذر الكذب، فإنه شيء كحلّم العصفور، من أكل شيئاً منه لم يصبر عليه»، وقال بعض الحكماء في بعض وصاياهم (ص 58): «لا تستعن بكذاب فإنه يقرب عليك البعيد، ويُسهل عليك الصعب، ويؤمنك المخوف». وقول سيدي محمد: أن الكذب هو شوها، هو من قولهم: شأهت الوجوه تشوه شوها؛ أي قبحت. ولا ريب أن الكذب من أقبح صفات الرجال؛ لأن صاحبه لا يوق به في كل الأحوال، وكفاه محطة ودناءة أنه من أعظم علامات النفاق، وأقوى الدلائل على دناءة الأخلاق، ومن شعر القاضي عياض:

أدبت نفسي فما وجدت لها بعد تقوى الإله من أدب

في كل حالاتها وإن كثرت أفضل من صمتها عن الكذب

وكان سيدي محمد - رحمه الله - يُقال له: حكيم زمانه؛ لأنه ينطق بالحكمة في وصاياه، وتصرفاته.

(ص 59) قال في التنبيه: ونُعرف في البلاد حكيم، وقال كلامي كله حكمة، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهدًا في الدنيا، ومنطقًا بالحق فاقربوا منه، فإنه يلقي الحكمة». ومن مراسل الإمام مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخلص لله العبادة أربعين يومًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»، ومما أنشد الهمداني في كتابه «البهجة» لبعض الصالحين:

كلام الحكيم شفاء القلوب كويل السماء غياث الأمم
فنطق الحكيم يداوي السقيم وصمت الحكيم وعاء الحكم
ومن كلام بعض الأكابر من آمن السنة على نفسه (ص 60) قولاً وفعلاً، فقد نطق، ومن أَمَرَ الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، وكان بعض مشايخ الوقت إذا حدث عن سيدي محمد يقول: قال لقمان الحكيم، ولقمان - رحمه الله - كثير الصديق.

واختلفت فيه أقوال العلماء فمنهم من قال: إنه من الأولياء، ومنهم من قال: أنه ليس بنبي وإنما من عباد الله الصالحين وأوليائه الصادقين عرف بقول الحق فنُسب إليه.

وفي كتاب «الآلِي» لأبي عبيد البكري روي أن لقمان كان راعياً، وأن إنساناً وقف عليه وهو في مجلسه فقال له لقمان: أأست كنت ترعى معي في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: ما بلغ منك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، والصمتُ عمّا لا يعني (ص 61). قال: ويروا أنه كان بحاراً، وقيل: خياطاً. وقيل: أنه كان عبداً حبشياً غليظ المشافر، ولكن أتاه الله الحكمة.

فلسنا نشك أنه حكيمًا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: 12]. وقيل: أنه كان في زمن سيدنا داود - عليه السلام - ، ومنه تعلم الصدق والحكمة، ومن حكمة وصيته لولده في مساعدة المرأة السيئة حدث به صاحب كتاب النساء، قال لقمان لابنه: «يا بني ليكن أجل شيءٍ تكسبه بعد الإيمان بالله خليلٌ صالح، وامرأةٌ صالحة، فإن من اكتسب امرأةً صالحة فقد التقط نقطة حسنة، ومن اكتسب امرأةً سوء فقد أصابته مصيبة، يا بني إنما مثل المرأة الصالحة كمثل التاج على رأس الملك (ص 62)، يا بني إنما مثل المرأة السوء كمثل الليل لا ينتهي حتى يبلغ منتهاه، ولا يرعوي عن سننه ومجراه، وأنعتها لك يا بني لتعرفها: إنها إذا تكلمت أسمعت، وإذا مشت أسرع، وإذا دخل إليها زوجها كشرت في وجهه، وإذا خرج عليها لعتته في ظهره، يا بني كل شيء ينقضني إلا شر المرأة السوء، وكل داء يزول إلا داء المرأة السوء، يا بني لئن تساكن الأسد والأسود في بيت، خير من أن تُساكن المرأة السوء، تبكي وهي الظالمة، وتحكم وهي الجائرة».

وفي كتاب «الأحياء»: «من أكل الحلال أربعين يومًا نور الله قلبه، وأجرى ينابيع الحكمة على لسانه»، وحقيق لهذا الشيخ أن يدعى حكيم الزمان؛ لأنه كان على الغاية القصوى (ص 63) في الزهد والورع، أنشد القاسم بن يوسف التجيبي السبتي في رحلته الحجازية لبعضهم:

إذا شئت أن تدعى حكيمًا وتلحق بالرجال ذوي الكمال
فلا تغبط الدنيا بشيءٍ ولا تخطر لك الدنيا ببال

وكان سيدي محمد محبًا في العلم وأهله من لدن صباه إلى أن توفاه الله يتأنس به في وحشته، ويجعله كالصديق في غربته، وتواليقه كلها مشحونة بفضل العلم والحض على تعليمه، والثناء على العلماء العاملين، ومن قوله في

التنبیه:

العلم من یقرأ فیکبر به مدًا وإذا قبل منو الجنة له خلدا

ومن قوله أيضًا (ص 64):

العلم هو عندي کالابر أطرز یطرز

ومن یخاف الله بالتقوی أيضًا یوعز فکان - رحمه الله - یرغب إلى الله فی الزیادة من العلم لیزداد تعظیمًا لربه وتحقیرًا لنفسه، وقد ندب الله تعالى لطلب العلم، وأرشد إليه رسول الله ﷺ، ورغب فيه بقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]. وجاء عن الضحک فی تفسیر قوله تعالى: «كونوا ربانیین، أي كونوا علماء فقهاء».

وفي حدیث عبد الله بن مسعود، عن النبی ﷺ أنه قال: «مَنْ تعلَّم العلم لله لم یُصب منه بابًا إلا ازداد به لله خوفًا، وفي نفسه ذلًا، وفي الناس تواضعًا، وفي الدين فضلًا، فذلك الذي یتفع (ص 65) بعلمه فلیطلبه».

ومن مناجاة موسى - علیه السلام - : «یا رب، أي عبادك أعلم؟ قال: الذي یتغنی علم الناس إلى علمه لعله یسمع كلمة تدله علی هدی أو ترده عن ردی». وعن کعب الأحبار: «طلب العلم مع العمل الصالح جزء من النبوة».

وفي الحدیث عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بیده لا یتعلم أحد بابًا من العلم یرید أن یصلح به نفسه إلا كتب الله له به أجر سبعین صديقًا». وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أكرم سبعین شهیدًا، ومن أحب العلم والعلماء لا تكتب علیه خطیئة (ص 66) أيام حیاته».

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: «بلغنا عن إبليس، أنه قال: لعالم واحد أشد علي من ألف عابد؛ لأن العابد یعبد الله ببدنه، والعالم یُعَلِّم الناس

الخير والحكمة حتى يكونوا علماء»، ورحم الله الأستاذ أبا القاسم بن الشاط
حيث يقول:

من لازم العلم وحاز التقى ساد على أقرانه وارتقى
ومن تركى فرع تهيد أنباه عن أصله المنتقى

تنبيه:

ما تقدّم من الأخبار في فضل العلم وأهله، وما لهم عند الله من الثواب
إنما يُراد به من كانت نيته في طلب العلم وجه الله تعالى والدار الآخرة، وأنه
تعلم ليعمل بما علم كان كما كان حال هذا الشيخ - رحمه الله - ، فإنه لم
يقصد (ص 67) بطلب العلم الظهور والرياسة، ولم يحمله عليه الرياء
والنفاسة؛ لأنه كان على حالة عظيمة من التواضع في لباسه وهياته، ولما علم
الله منه إخلاص الطلب لوجهه الكريم نظم له الأسباب وأعانه بالحفظ والفهم،
فكان أحفظ أهل زمانه وأذكاهم عقلاً، قال في بعض منظوماته:

إذا يحفظ شيء يذكّر ولا ننساه ولا ننكرو

وبهذا جرت عادة الله فيمن أحكم أساس التقوى وزهد بكليته في الدنيا أن
يتولاه ويجعله من أوعية العلم، وحكى بعض المفسرين أنه لما نزل قوله
تعالى: ﴿وَعَبَّأْ أُذُنٌ وَبِعَبَّأْ﴾ [الحاقة: 12]. قال رسول الله ﷺ (ص 68) لعلي بن
أبي طالب: «سألت الله - عز وجل - أن يجعلها أذنك يا علي»، فكان علي يقول: «ما
نسيت شيئاً قط، وما كان لي أن أنسى بعد دعائه ﷺ».

أما من تعلّم العلم ليرأس به على الناس ويجوز به الذكر والشرف والثناء
عند الملوك والأمراء فهو غير مثاب عليه، والوعيد لاحق به إن لم يتب من
هذه النية الفاسدة؛ إلا أن يتجاوز الله عنه، روينا عن السلف الصالح - رضي

الله عنهم - أنهم كانوا يقولون في قوله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي».

إن الإشارة بهذا إلى العالم العارف بالله وبصفاته العلية المطلع على خفايا هذه الأنفس (ص 69) الرديئة الذي قصد بعلمه وجه الله العظيم والدار الآخرة، وأخلص النية في ذلك. قالوا: أمّا من تعلّم الفقه والحديث للرياسة والظهور فلا مدخل له في هذا الثواب حدّث صاحب «الهداية»: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الناس شر؟ فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس سلوني عن الخير ولا تسألوني عن الشر، شر الناس شرار العلماء، وخير الناس خير العلماء».

ورحم الله القائل، وروى المسعودي، عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: يكون في آخر الزمان علماء يزهدون الناس في الدنيا ويرغبون فيها، (ص 70) وينبسطون عند الأغنياء وينقبضون عند الفقراء، أولئك الجبارون عند الرحمن». ورحم الله القائل:

يا طالب العلم للدنيا وزينتها من رام قصدك فيه بنس ما فعلا
علمت علماً ولم تعمل بموجه فقد ضللت وأضلت الذي جهلا
وقد تبوأ في الدارين منزلةً الحزني والذل فيه حظ من نزلا
طوبى لعبد حوى علماً أراد به وجه الإله فوفاه له عملا

وفي أخبار سفيان الثوري أنه قيل له: من الناس (ص 71)؟ قال: العلماء العاملون بعلمهم. قيل: فمن السفهاء؟ قال: الظلمة من العلماء. قيل: فمن السفهاء؟ قال: الظلمة من العماء. قيل: فمن الغوغاء؟ قال: الذين يتعلمون العلم ليأكلون (كذا) به أموال الناس. قيل: فمن الملوكة؟ قال: الزهاد فيما في أيدي الناس.

وكان سيدي محمد ملازمًا لقيام الليل ذكره في كثير من كلامه ونص عليه في التنبيه في قوله: «لكن ما زي برقاد»، وقال في «تبصرة السائل»: أهل الرقاد مثل الربيع اليابس.

فمن طالع كلامه حصل له العلم اليقين أنه كان - رحمه الله - في قيام الليل من أهل الجد والاجتهاد قائمًا به على حالة أوائل العباد، وكان إذا صلى العتمة تهلل (ص72) وجهه وقام للصلاة بسكينة، ووقار اقتضاهما منصبه الرفيع المنار، فإذا أصبح ظهر عليه سر قوله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار».

جعل الظلام مطية لقيامه ليلًا وصلًا ما يريد سواه
طاب المقام له وطاب نعيمه في دار عدن والجليل يراه

وحكى أبو حامد في كتاب «الأوراد من الإحياء» عن بعض العلماء قال: ليس من الدنيا وقت يشبه الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم، بالليل من حلاوة المناجاة؛ لأن المناجاة ليست من الدنيا في شيء، إنما هي من الجنة أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها غيرهم (ص73)، وما زال قيام الليل من عمل الصالحين، وشعار السلف الماضين، ندب الله إليه وأثنى عليه أهله، قال الله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: 17]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ [الفرقان: 64].

وفي الحديث عنه ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه مرصاة لربكم»، وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26]. أن الملك هو قيام الليل، خرج المحدث أبو جعفر أحمد بن وداعة في كتابه «الأربعين» عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: قال

رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى مِنْكُمْ بِاللَّيْلِ فَلْيَجْهَرْ بِقِرَاءَتِهِ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي بِصَلَاتِهِ وَتَسْمَعُ لِقِرَاءَتِهِ (ص74)، وَأَنْ مَؤْمِنِي الْجَنِّ الَّذِينَ يَكُونُونَ فِي الْهَوَاءِ وَجِيرَانَهُ الَّذِينَ مَعَهُ فِي مَسْكَنِهِ يَصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ وَيَسْمَعُونَ قِرَاءَتَهُ؛ وَإِنَّهُ لَيَطْرُدُ بِجَهْرِ قِرَاءَتِهِ عَنْ دَارِهِ، وَعَنْ الدُّورِ الَّتِي حَوْلَهُ فَسَاقِ الْجَنِّ، وَمُرْدَةِ الشَّيَاطِينِ».

وَأَنَّ الْبَيْتَ الَّذِي يَقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ خِيْمَةٌ مِنْ نُورٍ يَقْتَدِي بِهَا أَهْلُ السَّمَاءِ، كَمَا تَقْتَدُونَ أَنْتُمْ بِالْكَوْكَبِ الدَّرِيِّ فِي لَجَجِ الْبَحَارِ، وَفِي الْأَرْضِ الْقَفْرِ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَعَلَّمُ كِتَابَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ثُمَّ يُصَلِّي سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا أَوْصَلَتْ بِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةُ الْمَاضِيَةِ اللَّيْلَةَ الْمُسْتَأْنَفَةَ أَنْ تَنْبَهَ لِسَاعَتِهِ وَأَنْ تَكُونَ خَفِيفَةً عَلَيْهِ، وَأَنْشَدَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ (ص75):

غريب الوصف ذو علم غريب	عليل القلب من حب الحبيب
إذا ما الليل أظلم يكي	ويشكو ما يكن من الوجيب
يقطع ليلة فكراً وذكراً	وينطق فيه بالعجب العجيب
به من حب سيده غرام	يجل عن التطيب والطيب
ومن يك هذا عبداً محباً	بطيب تراه من غير طيب

وحكى سيدي أبو العيش، عن الحسن البصري، أنه كان يقول: «أَنْ الْعَبْدَ لَيَذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُحَرِّمُ بِهِ قِيَامَ اللَّيْلِ».

وفي أخبار إبراهيم بن أدهم أنه كان يقول: «لَنْ يَنَالَ الرَّجُلُ دَرَجَةَ الصَّالِحِينَ حَتَّى يَجُوزَ سِتُّ عِقَابٍ: أَوَّلُهَا: أَنْ يُغْلَقَ بَابُ النِّعْمَةِ، وَيُفْتَحَ بَابُ الشَّدَةِ. الثَّانِي: أَنْ يُغْلَقَ بَابُ الْعِزِّ، وَيُفْتَحَ بَابُ الذُّلِّ. الثَّالِثُ: أَنْ يُغْلَقَ بَابُ الرَّاحَةِ، وَيُفْتَحَ بَابُ التَّعَبِ (ص76). الرَّابِعُ: أَنْ يُغْلَقَ بَابُ النَّوْمِ، وَيُفْتَحَ بَابُ السَّهَرِ. الْخَامِسُ: أَنْ يُغْلَقَ بَابُ الْغِنَى، وَيُفْتَحَ بَابُ الْفَقْرِ. السَّادِسُ: أَنْ يُغْلَقَ

باب الأمل، ويفتح باب الاستعداد للموت، وأنشد العسال:

إن لله عباد ليهم ليل طويل خلطوا خوفاً وشوقاً مهمهم هم دخیل
بأبي هم من عباد حظهم حظ جزيل في رياض موقوفات شربهم ما السلسيل
فهيئاً يا عباد الخير قد طاب المقيل

وفي شرح «الأسماء الحسنة» لسيد أبي العيش: كان بمدينة القيروان رجل من أولياء الله (ص 77)، في الليل أخذ نفسه بالتذكير فيمشي أكثر الليل في المدينة يذكر الناس بقيام الليل، ويقول في مشيه بأزقة المدينة: الرحيل الرحيل، وأقام على ذلك على أن توفي ففقد صوته أمير المدينة ابن الأغلب، فسأل عنه، فقيل له: مات، فأنشد ابن الأغلب:

ما زال يلهج بالرحيل وذكره حتى أناخ ببابه الجمال
فأصابه ذا أهبة مستقيظاً متشمرًا لم تله الشغال

وفي أخبار معاذ بن جبل - رضي الله عنه - من كتاب «الاكتفاء» للكلاعي، قال: لمّا أصاب معاذ الطاعون وهو أمير المسلمين بالشام، واشتد عليه وجعه دخل عليه رجل، فقال له: علمني شيئاً ينفعني الله (ص 78) به، فقال له معاذ: خذ عني ما أمرك به، كن من الصالحين في النهار ومن المسلمين في جوف الليل، ومن المستغفرين بالأسحار، ومن الذاكرين الله على كلّ حال، ثم اشتد معاذ وجعه فكان كلامه حين حضرته الوفاة: اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري النهار ولا لغرس الأشجار، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الطويل ولظمّ الهواجر في الحر الشديد، ثم قال: أجلسوني فأجلسوه وجلس رجل خلف ظهره، فقال معاذ: ليست ساعة الكرب هذه، حدثني رسول الله ﷺ حديثاً فكنت أكتمه مخافة أن تتكلوا عليه،

فأما الآن فإني أحدثكم: (ص 79) «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أنه لا يموت عبد من عباد الله وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله إلا أدخله الله الجنة وحُرِّمه على الناس»، ثم مات معاذ ساعته - رحمه الله - ، وذلك سنة ثمان عشر من الهجرة، وفي هذه السنة كان تمام بلاد الشام كلها واستيلاء المسلمين عليها.

وأول من سنَّ قيام الليل كله من هذه الأمة عثمان بن مظعون من أكابر أصحاب النبي ﷺ، وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً من الصحابة - رضي الله عنهم - ؛ إلا أنه توفي قديماً في صدر الإسلام بعد مرجع النبي ﷺ من غزوة بدر، فكانت الرواية عنه قليلة لأجل ذلك، وهو أول من مات من (ص 80) المهاجرين بالمدينة - رضي الله عنهم - .

فكان - رحمه الله - يُدمنُ قيام الليل، وصيام النهار إلى أن مات، ومن حديثه ما أخرجه أهل الصحة وأجاد تخريجه العلامة الفاضل ابن الرقيق في كتاب «النساء» من تأليفه قال: وعن علي - رضي الله عنه - قال: جاء عثمان بن مظعون إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، قد غلبني حديث الناس لست أفعل شيئاً حتى أشاورك، فقال: «بِم حَدَّثَكَ نَفْسُكَ يَا عَثْمَانُ؟» قال: هممتُ أن أسبح في الأرض. قال: «إِنْ لَسِيَاحَةَ أُمَّتِي الْمَسَاجِدَ»، قال: وهممت أن أحرم اللحم على نفسي، قال: «فَلَا تَفْعَلْ فَإِنِّي أَشْتَهِيهِ وَأَكَلُهُ، وَلَوْ سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَطْعَمَنِيهِ كُلَّ يَوْمٍ لَفَعَلَ». قال: وهممت (ص 81) أن أحب نفسي وأكون خصياً. فقال: «يَا عَثْمَانُ لَيْسَ مِنَّا مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَلَا بِأَحَدٍ، إِنْ وَجَاء أُمَّتِي الصِّيَامَ»، قال: وهممت يا رسول الله أن أحرم خولة أهلي، قال: «لَا تَفْعَلْ يَا عَثْمَانُ فَإِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَخَذَ بِيَدِ زَوْجَتِهِ كَتَبَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لَهُ عَشْرَ

حسنة، ومحا عنه عشر سيئات، فإن قبَّلها كتب له مائة حسنة، ومحى عنه مائة سيئة، فإن أَلَمَّ بها كتب الله له ألف حسنة، ومحى عنه ألف سيئة، فإذا اغتسلا جميعاً لم يمر الماء على شعرةٍ منهما إلا كتب حسنة ومحى عنهما سيئة، وإن كان ذلك في ليلة باردة، قال الله - عز وجل - لملائكته: انظروا إلى عبديَّ هذين قد اغتسلا في هذه الليلة الباردة علما بأنِّي ربُّهما أشهدكم (ص 82) أَنِّي قد غفرتُ لهما، فإن كان لهما في ليلتهما تلك ولد كان لهما ضياء في الجنة»، ثم ضرب رسول الله ﷺ على صدر عثمان، وقال: «يا عثمان، لا ترغب عن سنتي، فإن من رغب عن سنتي عرضت له الملائكة يوم القيامة فصرفت وجهه عن حوضي».

وفي ترجمة عبد الله بن موسى بن برطلة من كتاب «تنظيم الدرر» لابن ربيع الأشعري، حكى أبو عبد الله الرازي أن بعض الصالحين من قضاة العدل بالديار المصرية خرج ذات ليلة إلى النيل فتوضأ وصلى ما شاء الله أن يصلي فإذا به يسمع هاتفاً يقول:

لولا أناس هم سدد يصومونا وآخرون هم وردٌ يقومونا
(ص 83) لزلزلت أرضكم من تحكم سحراً لأنكم قوم سوء لا مبالونا

ومن الحكايات المستحسنة في أخبار المصلين بالليل ما حدَّث به الحافظ ابن عبد البر في بعض كتبه، قال: روي عن محمد بن سيرين أنه قال: جاءت امرأة إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، فقالت له: يا أمير المؤمنين، زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل، وقد أشبع بطني وكسا ظهري، فمره فليحسن إليّ، فقال لها عمر: نعم الزوج زوجك، فردت عليه كلامها فقال لها: زوجك رجل صالح، وكان بحضرته كعب بن سوار الأزدي فقال: يا أمير المؤمنين، إنها تريد نصيبها من فراشه، فقال له عمر: يا كعب، أما أنا نظرت في

(ص 84) أول أمرها فانظر في آخره، فقال: يا أمير المؤمنين، أراه بمزلة رجل له أربع نسوة فلها منه الربع لا محالة، ثم جلس كعب للحكم في المسألة فأنشدته المرأة:

يا أيها القاضي الفقيه أرشده إلهي خليلي عن فراشه مسجده
زهده في مضجعي تزهد نهارة وليله ما يرقده

فقال كعب: عليّ بزوجه، فأتني به وسأله عن مقالة زوجته فأنشد:

إني امرؤ زهدي ما قد نزل في سورة النور وفي السبع الطول
وفي الخواميم الشفاء وفي النحل وفي كتاب الله تخويف الوجل

فلما سمعت المرأة ذلك قالت: والله يا أمير المؤمنين مالي شوق إلى ما يشاق إليه النساء من الرجال غير أنني رأيت (ص 85) يقوم الليل ويستغفر لوالديه، فرجوت أن يخرج الله مني من يستغفر لي وله، فبكى عمر ودعا لهما ولكعب بخير، وما أحسن قول الإمام الشافعي - رحمه الله - في قيام الليل، أنشدهما الحضرمي:

بقدر الكد تكتسب المعالي ومن طلب العلا سهر الليالي
تروم العز ثم تنام ليلاً يغوص البحر من يبغي اللآلي

وحكى شمس الدين ابن قيم الجوزية في كتابه المؤلف في الروح، عن الولي الزاهد قبيصة بن عقبة قال: رأيتُ سفيان الثوري بعد موته في المنام، قلتُ له: ما فعل بك ربك يا أبا عبد الله؟ فأنشد يقول:

نظرتُ إلى ربي عياناً فقال لي (ص 86) هنيئاً رضائي عنك يا ابن سعيد

لقد كنت قوَّاماً إذا الليل قد دجى بعبرة محزون وقلب عميد

فدونك فاختر أي قصر تريده وزرني فإني منك غير بعيد
وفي أراجيز سيدي محمد بالتنبيه وغيره، ذكر معاودة الحج إلى بيت الله
وتمنيه، وأنه في كل عام ينويه، قال في التنبيه:
إذا نفتكر مكة وأيضاً بيار علي وتقوم نار في قلبي يا فتى وتشغل
أروم كل عام نزور وقلبي أيضاً ممل (ص 87) بالهم يا فتى وهو أيضاً شغل
وقال:

سلم لي على النبي يا ماشي إلى الحجر كل سنة نقول نمشي لكن ما يلي قدرا
وكلامه هذا ينظر من وراء ستر رقيق إلى أبيات الولي الزاهد أبو
العباس بن العريف، أنشده ابن ربيع الأشعري في كتابه «الجامع بين الصلة
والتكلمة» وهي قوله:

شدوا الرحال وقد نالوا المنى بمنى وكلهم باليم الشوق قد باحا
راحت ركائبهم تندى روائحها طيباً كما طاب ذاك الوفد أشباحا
(ص 88) نسيم قبر النبي المصطفى لهم راح إذا سكرُوا من أجله فاحا
يا راحلين إلى المختار من مضر زرتم جسوما وزرنا نحن أرواحا
إننا أقمنا على شوق وعن قدر ومن أقام على عذر كمن راحا

وهذا الذي كان سيدي محمد - رحمه الله - يقصده من المشي للحج
وينويه هو من أقوى الدلائل على فضله وكمال ولايته، فإنه كما سكن قلبه
حب الله تعالى، وحب رسول الله ﷺ تأقت نفسه لهذه الأماكن المشرفة والمشاهد
المعظمة؛ لأن الطواف ببيت الله الحرام (ص 89) والصلاة فيه من أعظم القربات
كما أن الوقوف بعرفة من أحسن الطاعات، وأما زيارة قبره ﷺ فهي من سنن

الإسلام وشرائع الدين التي أجمع على فضلها المسلمون، ورغب فيها العلماء بالله والصالحون رحمهم الله.

فمن ذا له فضل كفضل محمد	على أمته أو من له مثل نعمته
فيا ربه بلغ عبيدك قبره	ليحظى بتقبيل لظاهر تربته
ويأنس في الدنيا به في جواره	ويدخل يوم العرض في أهل قبيلته
وجازه عنا بالذي أنت أهله	إله الورى أنت الكفيل بمنتته
وصل عليه ما لاح كوكب	وجلّى عمود الصبح ظلماً ليلته

وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا (ص 90) وَالْآخِرَةَ فَلْيَقْصِدْ هَذَا الْبَيْتَ، مَا أَتَاهُ عَبْدٌ سَأَلَ دُنْيَا إِلَّا أُعْطِيَ اللَّهُ مِنْهَا، وَلَا آخِرَةٌ إِلَّا أُدْخِرَ لَهُ مِنْهَا».

وفي حديث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَفَدَّ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - ثَلَاثَ: الْحَاجِّ، وَالْمُعْتَمِرِ، وَالغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ، دَعَاهُمْ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فَأَجَابُوهُ وَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ».

وحدَّث أبو الفرج بن الجوزي عن جابر - رضي الله عنه - ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ جَاءَ هَذَا الْبَيْتَ حَاجًّا فَطَافَ أَسْبُوعًا فَأَتَى مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَتَى زَمْزَمَ فَشَرِبَ مِنْ مَائِهَا أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

ومن حديث الإمام أحمد بن حنبل، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِذَا لَقِيتَ الْحَاجَّ فَصَافِحْهُ (ص 91) وَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَامْرَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ، فَإِنَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ».

وروينا عن سيد التابعين بن جبير أنه قال: «مَا أَتَى هَذَا الْبَيْتَ طَالِبَ حَاجَةٍ

قط من أمر الدنيا وأمر الآخرة إلا رجع بحاجته».

وفي كتاب «الشفاء» للقاضي عياض أبي الفضل: حكى أن قوماً أتوا سعدون الخولاني بالمنستير فأعلموه أن كتامة قتلوا رجلاً، وأضرموا عليه النار طول الليل، فلم تعد عليه، وبقي أبيض البدن، فقال لهم سعدون: لعله حج ثلاث حجج، قالوا: نعم. قال: حدثت أن من حج حجة أدّى فريضة، ومن حجّ ثانية دان ربه، ومن حجّ ثلاث حجج حرّم الله شعره وبشره على النار.

وحدث الأزرق في كتابه المؤلف في «تاريخ مكة والمدينة» عن جابر قال: قال (ص 92) رسول الله ﷺ: «هذا البيت دعامة الإسلام، فمن حج يوم هذا البيت من حاج أو معتمر، كان مضموناً على الله إن قبضه أن يدخله الجنة، وإن رده إلى أهله رده بأجر وغنيمة».

ومن فضائل سيدنا الحسين بن عبي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ، لقما مرض مرض وفاته جمع أولاده وأهله، ثم قال لهم: يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حجّ ماشياً كتب الله له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم». فقال بعضهم: وما حسنات الحرم؟ قال: «كل حسنة بمائة حسنة». (ص 93)

وفي كتاب «الإنشادات» لأبي عبد الله الحضرمي: حدثني شيخنا أبو الحسن بن الجياب قال: سمعت الشيخ الصالح أبا يعقوب البادسي - رحمه الله - ، وقد سئل عن الحج والجهاد أيهما أفضل؟ فقال: سمعت الشيخ الإمام أبا إبراهيم الأعرج يقول في هذه المسألة بعينها: الحج أفضل من الجهاد إلا أن تكون مخافة، فالجهاد أفضل من الطعام إلا أن تكون مجاعة. قال: وكتب أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين إلى القاضي أبي الوليد بن رشد - رحمه الله - يسأله: هل الحج أفضل لأهل الأندلس أم الجهاد؟ فأجابه ابن

رشد: فرض الحج ساقط على أهل الأندلس في وقتنا هذا لعدم الاستطاعة التي جعلها الله شرطاً في الوجوب؛ لأن الاستطاعة هي (ص 94) القدرة على الوصول مع الأمن على النفس والمال، وذلك معدوم في هذا الزمان فبان أن الجهاد الذي لا تُحصى فضائله في القرآن والسنة المتواترة والآثار أفضل منه، وأن ذلك أبين من أن يحتاج فيه إلى السؤال عنه، وبالله التوفيق.

ولما تكلم القاضي أبو بكر بن العربي في «سراج المريدين» على هذه المسألة قال: العجيب ممن يقول أن الحج لا يجب على أهل المغرب وهو يسافر من قطر إلى قطر فيخترق البحار ويقطع المفاوز المخيفة في مقاصد دينية أو دنيوية، والحال واحدة الخوف والأمن. وإنفاق المال وإعطائه، ثم لا يصددهم ذلك عن غرضهم.

وأما الآثار في الترغيب في زيارة قبره ﷺ فهي كثيرة، ومن الحق (ص 95) المتأكد له ﷺ علينا أن من تمكن من زيارته ﷺ فليزره، ومن تمكن ولم يفعل فقد جفاه - عليه الصلاة والسلام - .

ورحم الله أبا عبد الله بن الحكيم فاضل علماء الأندلس في وقته فإنه لما عاين المدينة المشرفة نزل عن راحلته وأنشد قصيدة يقول في آخرها:

وأن بقائي دونه خسارة ولو أن كفي تملك الشرق والغربا
فيا عجباً ممن يحب بزعمه يقيم مع الدعوى ويستعمل الكتب
وزلات مثلي لا تعد كثيرة وبعدي عن المختار أعظمها ذنباً

فمما روينا عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ زَارَنِي بَعْدَ وَفَاتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي، وَمَنْ زَارَ قَبْرِي وَجِبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي». وفي حديث آخر عنه ﷺ (ص 96): «مَنْ زَارَ قَبْرِي فِي الْمَدِينَةِ مُحْتَسِبًا كَانَ فِي جَوَارِي، وَكَنْتُ لَهُ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي جامع الترمذي، عن علي - رضي الله عنه - ، عن النبي ﷺ أنه قال:
«ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة».

وقد اختلفت العلماء في معنى هذا الكلام، فقال الخطابي: «معناه أن من
لزم طاعة الله تعالى في هذه البقعة الشريفة عوضه في الآخرة روضة من رياض
الجنة».

وقال غيره: «الصواب حمل الكلام على ظاهره؛ إذ بعد أن ينقل الله تلك
البقعة يوم القيامة فتكون روضة من الجنة؛ لأن في ذلك اليوم من خوارق
العادات ما لا يخطر ببال». وقرأت في كتاب «جنى الجنتين» أن زين الدين
يحيى بن عبد المعطي النحوي لمّا (ص 97) أشرف على المدينة المعظمة على
ساكنها الصلاة والسلام أنشد:

نزلنا على الأكوار نمشي مهابة ولو كان إنصافاً فرشنا خدودنا
وهان علينا أن نريق دموعنا ونجري في تلك العيون عيوننا
وكانه عارض الإمام أبا الفضل الجوهري؛ فإنه لمّا ورد المدينة زائراً
وقرب من بيوتها نزل عن دابته ومشى باكياً منشداً:

ولمّا رأينا رسم من لم يدع لنا فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبنا
نزلنا عن الأنوار نمشي كرامة لمن بان عنه أن نلم به ركبا
وحدثني شيخنا الحافظ أبو عبد الله التنسي أن الفقيه الصرصري لما شاهد
روضة النبي ﷺ أنشد قوله (ص 98):

جُبنا إليك القفار الشاسعات على ظهر المطي بنص السير والعنق
ولو سعينا على مقدار فضلك يا خير الوري لقطعنا البيد بالحدق
زارت حماك قلوب حشوها حرق شوقاً إليك فزحزحنا عن الحرق

وقد استجاب أئمتنا للحال بالمدينة المشرفة أن يقصد أول حلوله مسجد النبي ﷺ فيصلي به تحية المسجد، ثم يقصد الروضة الكريمة فيقف تجاه السيد ﷺ وقد أخلص النية في زيارته والصلاة والسلام عليه مع خشوع وتواضع، كما روينا عن الإمام مالك - رحمه الله - في مناظرته مع الخليفة أبي جعفر المنصور.

ذكرها القاضي أبو الفضل في كتابه «الشفاء» وغيره في الأخباريين، قالوا: لما ناظر أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور مالك (ص 99) بن أنس في مسجد النبي ﷺ بالمدينة، وذهبا في المناظرة كل مذهب صار أبو جعفر يرفع صوته في الاحتجاج، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله - عز وجل - أدب قوماً فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: 2]. وإن حرمة ﷺ ميتاً كحرمة حيّاً، فاستكان لها أبو جعفر وأدركته الخشية خفض من صوته، ثم قال: يا أبا عبد الله، أستقبل القبلة وأدعو أم أتقبل رسول الله ﷺ، فقال: ولم تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم - عليه السلام - إلى يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله، فانظر كيف أمر مالك (ص 100) أبا جعفر المنصور باستقبال القبر الكريم.

ومما يلزمك في استقبالك له ﷺ أن تستحضر في قيامك أنك بين يدي ﷺ، وأنه يسمع كلامك وتمثل وجهه الكريم في ذهنك وتحضر قلبك جلال رتبته وعلو منزلته، فإن أكابر الصحابة ما كانوا يخاطبونه إلا سراً تعظيماً له لما عظم الله تعالى من شأنه.

قال عبد الملك بن حبيب: روينا عنه ﷺ أنه قال: «ما من أحد يسلم عليّ إلا ردّ الله عليّ روحي حتى أردد عليه». ثم تقول بحضور قلب، وخفض

صوت، وسكون جوارح، وإطراق هيبة: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا رسول رب العالمين، السلام عليك (ص 101) يا إمام المتقين، السلام عليك يا شفيع المذنبين، السلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك يا من ظهرت أنوار علائمه، السلام عليك يا من بهرت أنوار سنائه، السلام عليك يا نتيجة الشرف الباذخ، السلام عليك يا سلالة المجد الراسخ، السلام عليك يا منبع الكرم والجود، السلام عليك يا من عظمت هباته، السلام عليك يا من بهرت آياته، صلوات الله وملائكته وجميع خلقه في أرضه وسماواته عليك يا سيدي يا رسول الله، الحمد لله الذي أقر عيني برؤية روضتك، وقضى لي أن أتشرف بحضرتك، اللهم إني أشهد أنك قد بلغت الرسالة (ص 102)، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة وجاهدت في الله حق جهاده، وأنزل عليك كتابه النور المبين، وجمع لك فيه علم الأولين والآخرين، ووصفك فيه بقوله الحق: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

وأنزل عليك فيه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 64].

وإني يا سيدي يا رسول الله قد ظلمت نفسي وجئت مستغفراً من ذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي أن يغفر لي ذنبي بشفاعتك، وأن يمتني على ملتك ومحبتك، وأن يغفر لي ولوالدي والمسلمات والمسلمين، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات (ص 103)، اللهم صل على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد،

وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، اللهم اجزه عنا أفضل ما جزيت نبياً عن أمته، ورسولاً عن قومه، ولا تجعله آخر العهد به، وانفعنا بمحبته.

ثم تقول مخاطباً لوزيره في الحياة، وضجيعه بعد الممات: السلام عليك يا خليفة رسول الله، السلام عليك يا أبو بكر الصديق، اللهم إني أشهد أنك قد نصحت الأمة، وعدلت في الخلافة فرضي الله عنك وجزاك أفضل ما جرى به أئمة العدل خلفاء الهدى والعدل، نفعنا الله بمحبتك وحشرنا في زمرك (ص 104) مع سيدنا محمد ﷺ.

ثم يقول مخاطباً لسيدنا عمر: السلام عليك يا صاحب رسول الله ﷺ، السلام عليك يا أمير المؤمنين، اللهم إني أشهد أنك قد أخلصت في صحبتك، ونصحت في خلافتك، وعدلت، فرضي الله تعالى عنك، وجزاك عن المسلمين أفضل ما جرى به الأئمة المقسطين.

ومن النظم الحسن في السلام على النبي ﷺ القصيدة الحجازية التي نظمها حين سفره للحجاز العلامة زين الدين أبو الحسن علي بن المنير خاتمة المحدثين بمدينة الإسكندرية، أواخر المائة السابعة أفادنا بها شيخنا ابن عبد الله التنسي فيما قرأته عليه وهي: (ص 105)

أجب دعوة الرحمن يا صاح تسعد	وبادر لفرض الحج غير مفند
ولذ بالمتاب الآن وازدد من التقى	فإن اتقاء الله خير التزود
ودع خاطر التسويف والخوف جانبا	وسلم لأمر الله أمرك في غد
فكم ذي صدى ما بين أهل ومنزل	وريان ماء بين قبر وفرقد
وكم فاطن في موطن غير آمن	وراكب أخطار يفوز المقصد

وكم ذي سري سراه همومه
آيادي لأيدي العيس إن تبد ويشرب
تبلغنا مثواك يا سيد الوري
فتمحو خطايانا بدمع إنابة
ونشد والأماق تبكي مسرة
وخطرنا بالشوق كالمتوقد
(ص 106) عليك سلام الله يا خير من هدى

عليك سلام الله من كل مهتد
عليك سلام الله من كل مقتد
عليك سلام الله من كل معبد
عليك سلام الله في كل مجلس
عليك سلام الله من كل قارن
عليك سلام الله من كل وافد
عليك سلام الله من كل شيق
عليك سلام الله عن سلف لنا
عليك سلام الله في كل مصدر
وصلى عليك الحق جل جلاله
وصلى عليك الرسل في الخلد كلهم
(ص 107) وأولى ضجيعك الرضا عنهما معا

يقول فيهما:

قصدناه نستشفى بطيب تراه
ونحظى بمرآنا مقام التمجيد

فنطرق إجلالاً ونخضع هيبة ونذكر أنواراً بأعظم مشهد
ونسجد فيه بين قبر ومنبر فنرتاح في روض الجنان المخلد
فأجر صلاة فيه كالألف في سوا فاغتتم وأكثر من ركوعك واسجد
وحافظ على الوقت الذي قد منحه ولا تخله من طاعة الله وأحمد
وقم خاضعاً لله واسأله عفوه سؤال ملح في الدعاء مردد
وقل يا رسول الله جئتك تائباً ومن توبتي قصدي لبابك سيدي
إلى أن قال:

وقد آذني قيد الذنوب وأسرها فكن منقذي من أسر دنا مقيد (ص 108)
وإني من وفد أتك محبة وهاجر يرجو الأمن يوم التواعد
أحن حنين الجزع شوقاً لقبله بأخمصك الأعلى وموطنك الند
وأسأل من قبل الممات شفاعته فأسعف وكن فيما سألتك مسعد
ومن يسأل المولى بجاه محمد يقيناً تكن منه الإجابة في اليد
كذا جاء في الأخبار عنه محرراً فكن واثقاً بالنقل فيه وأسند
وكان سيدي محمد - رحمه الله - يحب الاجتماع على الذكر ويرغب فيه،
قال في التبيان:

إذا سمعت الفقرا حين يذكر وايمش عقلي يجول في الأحوال ويقول أين ذا أش
وذكر الله تعالى هو شعار المؤمنين، ومجبر عباده الصالحين في وقت
وحين، قال الأستاذ (ص 109) أبو القاسم: «الذكر هو العمدة في هذا الطريق،
ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر».

وكان بعض الأكابر يقول: «الذكر هو ظهير الولاية، فمن وفق للذكر فهو

علامة على أنه قد أعطي ظهير الولاية، ومن شلب الذكر فذلك علامة على أنه ليس من الأولياء في شيء، وقد عزل عن الولاية».

قال صاحب الهداية: وقد اختلفت عبارات الأولياء وطبقات الأصفياء في تحصيل حقيقة ذكر الله بقصدتهم. فقال بعضهم: أصدق الذكر ترك ما شغل من الذكر. وقال آخرون: هو أن يصير القلب فارغاً من كل شيء إلا من الله - عز وجل - ، وأن لا يكون فيه موضع لغيره.

قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: 45]، قيل: المعنى: ولذكر الله في (ص 110) قلب الذاكر له على الحقيقة أكبر، وأعظم من أن يذكر مع ذكره شيئاً من دنياه أو يخلطه بذكر شيء سواه.

وقد أمرنا الله - سبحانه وتعالى - بالذكر فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 41]. ثم يثن وصف الذاكر وثوابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَثُرَ اللَّهُ ذِكْرًا كَثِيرًا وَأَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].

قال فخر الدين بن الخطيب: «من فضيلة الذكر عند الله أنه لم يجعل له حداً معلوماً، فقال: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، ثم إنه لم يعن واحداً في تركه في سائر الأحوال إلا من كان مغلوباً على عقله، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 191]. وقال: ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا﴾ (ص 111)، وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ» [النساء: 103]. أي: بالليل والنهار في البر والبحر، في السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والمرض».

وفي الخبر المشهور عنه عليه السلام قال: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها»، فقيل له: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر».

وفي حديث عنه عليه السلام: أنه جاءه رجل فقال: يا رسول الله، أي الرجال أفضل؟ فقال - عليه السلام - : «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله». فقال: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله». ومن الآيات الدالة على فضيلة الذكر قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152]. قال أئمة التفسير: كلفنا - سبحانه (ص112) وتعالى - في هذه الآية بأمرين: الذكر، والشكر؛ لأنه اشتغال بالحق تعالى، والشكر اشتغال بنعمه، ولأرباب التأويل في التفسير من هذه الآية عدة أقاويل:

الأول: اذكروني بالنعمة أذكركم بالرحمة.

الثاني: اذكروني بالدعاء أذكركم بالنعماء، بدليل قوله تعالى: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

الثالث: اذكروني في الرخاء، أذكركم في الشدة.

الرابع: اذكروني بطاعتي، أذكركم بمعونتي.

الخامس: اذكروني بالصدق والإخلاص، أذكركم بالخلاص والاختصاص.

السادس: اذكروني بالخوف والرجاء، أذكركم بالأمن والعطاء.

السابع: اذكروني بالوحدانية في الفاتحة، أذكركم بالرحمة في الخاتمة.

الثامن: اذكروني بالتوبة (ص113)، أذكركم بغسل الحوبة.

التاسع: اذكروني بالإجابة، أذكركم بالإجابة.

العاشر: اذكروني بالندامة واشكروا لي بالسلامة، أذكركم بالكرامة يوم القيامة، وأحلکم دار القيامة.

الحادي عشر: اذكروني بالشكر أذكركم بالزيادة، قال تعالى: ﴿لَئِنْ

شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴿[إبراهيم: 7].

الثاني عشر: اذكروني بالصبر، أذكركم بأوفى الأجر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

الثالث عشر: اذكروني بالتوكل، أذكركم بالكفاية، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3].

الرابع عشر: اذكروني بالإحسان، أذكركم بالرحمة، قال - عز وجل - : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56].

الخامس عشر: اذكروني بمعرفتي، أذكركم بمغفرتي.

السادس عشر: اذكروني بالطاعة، أذكركم عند (ص 114) الساعة.

وحكى أبو القاسم في كتاب الرسالة أن جبريل - عليه السلام - قال لرسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ - تبارك وتعالى - يَقُولُ: أُعْطِيتُ أَمْتِكَ مَا لَمْ أُعْطِ أُمَّةٌ مِنْ الْأُمَمِ. فَقَالَ: وَمَا ذَاكَ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: قَوْلُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾. لَمْ يَقُلْ هَذَا لِأَحَدٍ غَيْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ».

ومن أخبار ذي النون المصري قال: «لَقِيتُ بَعْضَ سَوَاحِلِ الشَّامِ امْرَأَةً، فَقُلْتُ لَهَا: مَنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ فَقَالَتْ: مِنْ عِنْدِ أَقْوَامٍ تَجَافَى جَنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ، فَقُلْتُ: وَإِلَى أَيْنَ تَرِيدِينَ؟ فَقَالَتْ: لِي رِجَالٌ لَا تَلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ. فَقُلْتُ لَهَا: صَفِيهِمْ لِي فَأَنْشَأَتْ تَقُولُ:

قَوْمٌ هُمُومُهُمْ بِاللَّهِ قَدْ عُلِقَتْ فَمَا لَهُمْ هُمُومٌ تَسْمُوا إِلَى أَحَدٍ

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم يا حسن مطلبهم للواحد الصمد

ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف من المطامع واللذات والولد (ص 115)

ولا للبس ثياب فاتق أبق ولا لروم مرو رجل في بلد
والأخبار الواردة في الذكر كثيرة، والحسنات التي وعد الله بها الذاكرين أثيرة
شهيره، قال صاحب الهداية: وأفضل ما أعطي أهل الدنيا في الدنيا ذكر الله - عز
وجل - ، فذكر الله - عز وجل - على الحقيقة في الدنيا كالنظر إليه في الآخرة؛
لأن أفضل ما أعطي أهل الجنة في الجنة النظر إلى الله - عز وجل - ، وهو
أفضل نعيم أهل الجنة، وذلك أنهم إذا تجلّى لهم الحق سبحانه ونظروا إليه
حصل لهم من النعيم ما أنساهم جميع ما في الجنة، فكذلك ذكر الله - عز
وجل - في الدنيا؛ لأن الذاكر مشاهد بصره جلال الربوبية ناظر بقلبه لحضرة
الملك الحق، (ص 116) فكانه في حالة إقباله على الذكر مخلصاً النية فيه
مستشعراً المقول بين يدي مولاه كمن هو يرتفع في رياض الجنة جعلنا الله من
الذاكرين، وكتبنا في زمرة الصالحين بمنه وكرمه:

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت إذ رأيتك النفس أهواي
فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى إذ صرت مولاي
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلاً بذكرك يا ديني ودنياي

وكان سيدي محمد مثنى جمع الله له الأوصاف الشريفة والمحاسن
المتفرقة في غيره، فكان من العلماء الزاهدين والفقهاء المتصوفين الفقراء
الشاكرين، فكان إماماً في جميع العلوم الشرعية، مقدماً في الطريقة القرآنية
(ص 117)، أشار في منظوماته إلى أنه كان يحفظ الشاطبية، والألفية، وكثيراً
من الكراريس المشتملة على علوم القرآن رسماً وأداءً ونحواً ولغةً.

وذكر في كثير من كلامه معرفته بكتاب ابن عطية في التفسير وقيامه على
التفسير الكبير للإمام فخر الدين بن الخطيب، وأما علم الفقه فكان مشهوراً بحفظه
معروفاً بالقيام على غوامضه، مقبلاً قوله في فتاويه متبحراً في مذهب مالك يحفظ

منه ما لم يحفظه أحد من فقهاء عصره، عارفاً بالخلافات ذكر معرفته بعلم الخلاف في كتابه التبيان، وذكر في كثير من كلامه أنه كان يحفظ رسالة ابن زيد وشرحها للقاضي عبد الوهاب.

ومن محفوظاته المدونة المسماة (ص 118) بالتهذيب للبراذعي، وكان إكماله لحفظها سنة ست وسبعين وسبعمائة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وكان يحفظ كتاب التلقين للقاضي عبد الوهاب، وكتاب جامع الأمهات لابن الحاجب، ذاكرًا شرح ابن عبد السلام قائمًا على فوائده، ولما ظهر شرحه لسيدي خليل في أواخر عمر سيدي محمد، وبلغه عنه ما اشتمل عليه من الفوائد، قال في بعض كلامه:

قد نشتهي نسخًا من خليل فيه أبيان ونفروح بما ننقل ولا يكن نسيان

وهذا منه - رحمه الله - اعتناء كبير بعلم الفقه، وفي كتاب عوارف المعارف: الفقه في الدين من أكمل الرتب (ص 119)، وأعلاها وهو علم العالم الزاهد في الدنيا الذي يبلغ رتبة الإنذار، ومن حديث عبد الله بن عمر، وابن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه». وكان عبد الله بن عباس يقول: «أفضل العبادة الفقه في الدين». ومما أوصى به بعض الأدباء قوله:

العلم شيء حسن	فكن له ذا طلب
وابدأه بالنحو وخذ	من بعده في الأدب
فإن أردت أن ترى	جاهًا وعز منصب
فاقرأ أصول مالك	واحفظ فروع المذهب

فإن قال مالك سلسلة من ذهب

وأعمل بما حفظته تحظى بأعلى الرتب

وكان سيدي محمد - رحمه الله - مع هذه الدرجة العظيمة التي حصلت له في سائر العلوم مداومًا على طلب العلم مكثراً من تعليمه وتعلّمه معرضاً عن النظر إلى علمه أو عمله. ومنظوماته مفصحة بذلك، وأنه كان يحتقر علمه ولا يرضى بعلمه، فكانت حالاته كلها مثل حالة العبد الفقير إلى سيده مقتدياً في ذلك بالسيد الكامل عليه السلام، فقد روينا عنه من طريق عائشة - رضي الله عنها - قالت: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً (ص 121) فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم».

وكان - رحمه الله - من أئمة علم التوحيد، سالكاً فيه الطريق السديد، وزعماء المتصوفة وأرباب القلوب يرون أن الوصول إلى حقائق الأعمال وبلوغ من بلغ إلى مقام الكشف، والمراقبة من أفاضل الرجال إنما هو بمعرفة علم التوحيد، فأنت إذا طالعت أخبار فحول الأولياء الذين شهرروا بمقام التصريف والاصطفاء لا تجد أحداً منهم إلا وقد ترقى في علم التوحيد المرتبة العليا، انتقلت عنه الحقائق في مسائله كما تنقل عن أهل الفقه والفتوى، وكان من محفوظات سيدي محمد - رحمه الله - في هذا الفن: كتاب الإرشاد في علوم الاعتقاد، تأليف إمام الحرمين (ص 122) أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني إمام الشافعية في وقته، وقيل له: إمام الحرمين لأنه كان جاور بالحرمين الشريفين مدة أعوام لتدريس المذاهب الأربعة.

فكان طلاب العلم يقصدونه من الآفاق، فلا يجدون أعلم منه هنالك - رحمه الله - ، وما أحسن قول القاضي أبي الحسن علي بن محمد الطبري يرثي أبا المعالي، أنشدهما له التجيبي في كتابه المفخم:

يا أيها الناعي شمس المشرق بأبي المعالي نور دين مشرق
أنذر بني الدنيا قيام قيامة فالشمس صار مغيبها في المشرق

وكتابه الإرشاد هو مدونة في علم التوحيد، وكان سيدي محمد - رحمه الله - من أهل المعرفة الثامة بهذا الكتاب، وكان إذا قرأ شيء منه ينطلق لسانه فيه بما لم (ص 123) يسبق إليه، وبما لو سمعه مؤلفه إمام الحرمين لقال له: أنت العالم بمعاني هذا الكتاب المحكم لأصول بيانه على وجه الحق والصواب، وقد أجاد بعض الفقهاء في مدح هذا الكتاب فقال:

من كان معتنياً بذكر معاد ومعيده فعليه بالإرشاد
وليحترس بسبيله ودليله من ظلمة التشكيك والإلحاد
وليستعد أنوار قطعياته في حالة الإصدار والإيراد
عول عليه تزيينا فكفى به ذخراً ليوم تجمع الأشهاد

تنبيه:

فائدة علم التوحيد أن يعرف الإنسان معنى (لا إله إلا الله) مطلوبه أمر واجب على كل واحد من المكلفين، إذ لا إله مطلوبه أولاً وآخرًا، أمّا أولاً فلقوله (ص 124) ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله». وأما آخرًا فلقوله ﷺ: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة».

فإذا مبدأ الأمر التوحيد، وآخره التوحيد، فكلمة (لا إله إلا الله) جعلها الله في الدنيا عصمة ونجاة من ذل السيف والهوان، ثم وعد سبحانه لمن مات عليها أن تكون له ثمنًا لجنة الرضوان، وهذه الكلمة أعني (لا إله إلا الله) لها حقوق عظيمة، وفوائد كريمة وهي أشرف كلمة ينطق بها اللسان وأرجح شيء يوضع في الميزان، وروى في الحديث، عن النبي ﷺ أنه قال: «لو وضعت السماوات والأرض في كفة

الميزان (ص 125)، ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لكانت لا إله إلا الله أرجح من ذلك».

وعنه عليه السلام: «إذا قال العبد لا إله إلا الله مُحمداً رسول الله، فكأنه ردّ على كل كافر وكافرة». وعنه عليه السلام أنه قال: «أفضل ما قلته أنا والنبیون من قبلي: لا إله إلا الله».

وعن بعض العلماء: «كل دعاء يكون أوله لا إله إلا الله فإنه غير مردود». وعنه عليه السلام أنه قال: «أن لا إله إلا الله كريمة على الله فمن قالها صادقاً حجزته عن المعاصي ودخل الجنة».

وروي عن الحسن بن علي - عليهما (ص 126) السلام - أنه رأى سيدنا عيسى ابن مريم - صلى الله على نبينا وعليه - فقال:

«يا نبي الله، إني أريد أن أكتب على خاتمي شيئاً، فعلمني ما أكتب عليه، فقال له اكتب: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، فإنها تذهب الهم والحزن، وهو آخر الإنجيل»، واعلم أن أئمتنا - رضي الله عنهم - استنبطوا عن كتاب الله تعالى لهذه الكلمة الشريفة أسماء عديدة.

الاسم الأول: كلمة الاستقامة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [الأحقاف: 13]. جاء في التفسير: عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ هو قول: لا إله إلا الله؛ لأن قولهم: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ إقرار بوجود الرب - سبحانه وتعالى - ، ثم لما وجدنا كثيراً من المقرين بوجوده (ص 127) سبحانه قد أثبتوا له الند والشريك، وكمال التوحيد إنما هو باعتقاد نفي الشريك، فإذا قال الموحّد: (لا إله إلا الله) فقد بقي الشريك والنظير، وأثبت المعتقد السليم، واستقام على النهج القويم.

الاسم الثاني: الكلمة الباقية.

جاء في التفسير أن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: 28]. أنها قوله: (لا إله إلا الله)، وأيضاً أهل الجنة لا يبقى معهم
شيء من الطاعات سوى التوحيد فإنها طاعة باقية مع الموحّد لا تفتنى أبداً.

الاسم الثالث: كلمة التقوى.

قال الله تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ النَّقْوَى﴾، قال أهل التفسير: هي (لا
إله إلا الله). وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: 26]. فيه شرف
كبير لأهل التوحيد (ص 128)؛ لأنهم إذا كانوا أهلاً لكلمة التوحيد، وهي
أشرف من الجنة؛ فلأن يكونوا أهلاً للجنة أولى.

وفي كتاب القاضي بن خلاد بسنده المسلسل بالسماع إلى سلمة بن كهيل
قال: «سمعت عباية بن ربعي يقول في قوله تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ
النَّقْوَى﴾، قال: هي كلمة (لا إله إلا الله)».

الاسم الرابع: الكلمة الثابتة.

قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27]. قال أئمة التفسير: هو قول العبد حين دخوله
في الإيمان: (لا إله إلا الله)، وتلك هي الحياة الدنيا، وأما الآخرة فذلك قوله: (لا
إله إلا الله) عند آخر ساعة في الدنيا، وأول منزل من منازل الآخرة، ثبتنا الله
بالقول الثابت في الحياة الدنيا (ص 129) وفي الآخرة.

الاسم الخامس: الكلمة الطيبة.

قال الله تعالى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: 24]. ومعنى

كونها طيبة أن صاحبها يكون طيب الاسم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: 26]. وقيل: سُميت طيبة بمعنى أنها مقبولة عند الله، وهو إحدى التأويلات في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10]. وقال تعالى: ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: 24]. ولا قول أطيب من هذه الكلمة، ولا أظهر منها كما أنه لا أنتن ولا أنجس من الشرك المبعد من هذه الكلمة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28]. ثم إن الكافر إذا أقام على نجاسته وشركه مثلاً سبعين سنة فإن نجاسته تزول بهذه الكلمة إذا وفقه الله لها وقالها مرة واحدة، قال أهل الإشارات: «فإذا كانت (ص 130) هذه الكلمة تطهر النجاسات الكفرية؛ فلأن تزيل ذنوب المؤمن العاصي أولى وأحق».

الاسم السادس: دعوة الحق.

قال الله تعالى في سورة الرعد: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: 14]. قال ابن عباس: «دعوة لا إله إلا الله».

الاسم السابع: كلمة العدل.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: 90]. في كتب التفسير: أن العدل شهادة أن لا إله إلا الله، والإحسان والإخلاص فيه.

الاسم الثامن: كلمة الإحسان.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60]. قال أئمة التفسير: معناه هل جزاء من أحسننا إليه بالإيمان إلا أن نحسن إليه بالغفران،

واتفق المفسرون على أن المراد بالإحسان في قوله تعالى: (ص 131) ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِي وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]. هو قول: (لا إله إلا الله).

الاسم التاسع: القول السديد.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70]. قال أئمة التفسير: المراد بالقول السديد هنا: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

الاسم العاشر: العروة الوثقى.

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: 256]. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

هذا تلخيص بعض ما ذكره الأئمة باختصار؛ إذ كان هذا المجموع مراد به كلمة التوحيد، وكلمة الإخلاص وكلمة الله العليا، وكلمة (ص 132) النجاة إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتب التفسير.

واعلم أن من أكثر من قول (لا إله إلا الله) مخلصاً من قلبه، عارفاً بوحدانية ربه فإنها تحجزه عن معاصي الله وتمنعه من الشهوات المظلمة، وتبغض له الدنيا وتحبب له الآخرة.

اللهم ببركة (لا إله إلا الله) اشرح صدورنا لمعرفة (لا إله إلا الله)، وأطلق ألسنتنا بذكر (لا إله إلا الله)، وثبتنا على القول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة.

تنبيه:

اعلم أن حقيقة التوحيد لا تدرك إلا بالنظر في آيات الله - عز وجل - ، والاستدلال عليه لا يكون إلا بالتفكير في آثار قدرته وشواهد صنعته، ولطائف حكمه سبحانه لا إله إلا هو، وقد أرشد - سبحانه وتعالى - إلى التفكير والنظر

(ص133) في عجائب مقدوراتاه، والاستدلال بذلك على وحدانيته، وكمال ربوبيته بجملة آيات من كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 185].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ ۖ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۖ ﴿٧﴾ بَهْرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: 6 - 8].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِلَهِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۖ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۖ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: 17 - 20].

فقد أمرنا الله - عز وجل - باعتبار النظر في مخلوقاته والتفكير فيما أحكمه من مصنوعاته من أرضه وسماواته، وبهذا النظر والتفكير يصل العبد إلى حقيقة (ص134) المعرفة.

فمن وفقه الله وهداه إلى حسن التأمل، وأرشده لمقام التدبر بالعقل، والفكر فقد أنعم عليه، فأنت إذا تدبرت بصحة عقلك أن ربنا وخالقنا - سبحانه وتعالى - غني عن خلقه قائم سبحانه بذاته مدبر تعالى في تصرف هذا الخلق من جميع جهاته، وأن المخلوقات كلها محتاجة إلى الخالق المدبر سبحانه لا تستغني عنه طرفة عين، علمت أنه الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء، وأنه - سبحانه وتعالى - كما خلق هو الخلق وأحكم صنعته على غير مثال سابق، فهو تعالى عالم به قبل خلقه، وأن القدرة التي بها (ص135) كان ابتداءه هي القدرة التي بها يكون فناؤه، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

واحذر أيها العبد من وسوسة الشيطان في عقيدة توحيدك فإنه يأتيك بالوسوسة في كيفية ما وصف الله به نفسه من السمع والبصر والاستواء على العرش واليدين، فإذا خطر هذا بعقلك فادفعه عن قلبك وارفضه عن قلبك ولا تفكر في كيفيته؛ لأنه مما ستره الله عنا ولم يكيّفه لنا ولا أعلمنا به لأنه لا تطيقه عقولنا وتحارّ فيه أفكارنا:

كل ما يرتقى إليه بوهم من جلال قدرة وسناء
فالذي أبدع البرية أعلى منه سبحانه مبدع الأشياء

(ص 136) وكذلك أيضًا إن ذهبت بك الوسوسة استقلال الرزق الذي قسمه الله لك ووسع على غيرك وضيق عليك، ومتع قومًا بالعافية في البدن، وابتلاك بأنواع المرض فاطرح ذلك من عقلك واستعن بالله من وسوسة الشيطان، فإنه حريص على إزابتنا وإفساد عقيدتنا ولا عصمة لنا إلا بالله - عز وجل - ، وهذه الوسوسة بحر عميق هلك فيه خلق كثير؛ ولأنها تؤدي إلى تعقب أحكام ربنا - سبحانه وتعالى - فرفضها من بالك ولا توسع لها عقلك، فإنه مما ستر الله عنا من سائر أمره، وقد أخبر تعالى أنه لا معقب لحكمه ولا رادّ لأمره، لا يسأل عما يفعل في عبده، وهم المسئولون، وهم الفقراء (ص 137) إليه، وهو الغني الحميد.

وقد نهى الرب - سبحانه وتعالى - عبده في محكم كتابه عن تمني ما حرمهم، وأناله غيرهم، فقال - عز وجل - : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾ [النساء: 32].

قال بعض المفسرين: هذه الآية مفصحة بوجوب الرضى والتسليم، والانقياد لما قضاه وقدره في سابق علمه الحكيم العليم، فإذا قادتك الخطرات إلى شيء من هذه الوسوس والشبهات، فافزع إلى التعوذ بالله وسؤال فضله أن يزيح ذلك عن قلبك، ويريح عنه شواغل لبك، وتأمل قوله تعالى: (ص 138) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدُلُ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26].

فالعبد ليس له حق على ربه ولو كان الأمر على ما يتمناه العبد لبطل التدبير الإلهي، ولفسد الحكم الرباني، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: 71].

فينبغي لك يا ابن آدم أن تعرف نفسك، وأن تخاصم عدوك بالمبادرة إلى الرضى والتسليم والقيام بحق العبودية في التذلل والخضوع للعزير الحكيم، ألا ترى أنه - سبحانه وتعالى - خلق ملائكته وجعل منازلهم متفاوتة وأعمالهم متباينة، وكلهم له عابدون وساجدون (ص 139) يُسبحون الليل والنهار لا يفترون، وكذلك الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 2].

فأهل المعرفة بالله المخصوصين بطاعته لا يروا أنفسهم أهلاً لما أعطاهم فكيف يطلبون ما لم يعطهم، فهم واقفون في موقف الشكر على ما أعطاهم راغبون إليه في المزيد من فضله والثبات على طاعته، بل الواجب عليك أيها العبد أن تشغل قلبك بمعرفة نفسك، وأن تتفقد خطاب الله الوارد عليك في أوامره ونواهيه، وفيما سلف من ذنبك، وفي شكر نعمة الله عليك، وفيما

فرطت فيه مدة عمرك من التوبة (ص 140) الواجبة عليك؛ إذ لعله أن يكون قد اقترب أجلك، واسأل الله - عز وجل - أن يمنعنا وإياك ممّا لا يرضاه من العمل والقول بيده القوة والحول.

حدّث المقرئ الزاهد أبو محمد القاسم بن داود الصديني في رحلته بسنده من شيوخه أنه قام رجل بين يدي ذي النون المصري، فقال له: يا ذا النون، أخبرني عن التوحيد ما هو، قال: هو أن تعلم أن قدرة الله في الأشياء بلا مزاح، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه وليس في السماوات العلى ولا في الأرضين السفلى مُدبر غير الله - عز وجل - ، وكل ما تصور في وهمك فالله بخلاف ذلك.

قال الصديني: (ص 141) وأنشد الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي لبعضهم:

الله أكبر أن تكون لذاته	كيفية كذوات مخلوقاته
أو أن تقاس صفاتنا في كل ما	تبديه من أفعالنا بصفاته
تباً لذي سفه يقول بأنه	جسم وأن سماتنا كسماته
لبديع صنعه عليه شواهد	تبدو على صفحات مصنوعاته
ذراً الأنعام بقدرة أزلية	وإرادة فيهم لتقديراته
ورمى بعين العلم ما تأتي به	نحات أعينهم وما لم تأت به

ومن فوائد (لا إله إلا الله) ما حكاه ابن عميرة في كتابه «بغية الملتبس في تاريخ علماء الأندلس»، وذكره العلامة أبو القاسم بن يعيش في فهرسته واللفظ له، قال: روي عن الأستاذ أبي الحسن نجبة الرعيني أنه قال: حضرت الجمعة (ص 142) يوماً في جامع العديس بإشبيلية والخطيب إذ ذاك به

الأستاذ أبو الحسن شريح، ففجأة وقد حان الرواح إلى الجمعة، مرض مرضاً منعه من الخروج، وارتقب وصوله فلم يكن، وضاق الوقت فتقدم الناس إلى القاضي أبي بكر بن العربي وطلبوه النيابة عن الخطيب فصعد القاضي أبو بكر المنبر من غير استعداد للخطبة، فلما سكت المؤذن استوى قائماً فقال: أيها الناس قولوا لا إله إلا الله، فلما قالوها قال:

روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قال العبد لا إله إلا الله اهتز عمود من نور أوله تحت العرش وآخره تحت الأرض السابعة، فيقول الله - عز وجل - له: اسكن، فيقول: يا رب كيف أسكن وأنت لم تغفر لقائلها، (ص 143) فيقول الجليل جل جلاله: أشهدكم يا ملائكتي وحملة عرشي أنني قد غفرت لقائلها، فقال رسول الله ﷺ: «أكثرُوا من ذلك العمود».

ثم قال القاضي أبو بكر: أن أحسن ما لفظ به لافظ، وأبلغ ما وعظ به واعظ، كتاب الله العزيز الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ تنزيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿[فصلت: 42]. قال الله العظيم: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98].

ثم تلا آية الكرسي إلى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾. ثم قال: روي عن عكرمة بن عباس - رضي الله عنه - أنه قال: العروة الوثقى: لا إله إلا الله. ثم جلس الجلسة الفاصلة بين الخطبتين، ثم قام إلى الخطبة الثانية فقرأ الفاتحة، وسورة (ص 144) فاطر، ثم صلى على النبي ﷺ، وسلم على آله وصحابه بما تسر، ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

ثم نزل فصلى وانفصل الناس على أن القاضي أبا بكر هو الخطيب المصقع - رحمه الله ورضي عنه - .

وكان سيدي محمد مجبولا على الكرم والإيثار، معروفا بسخاوة النفس فحبا في الجود، وأما السماط فكان لا يفارقه، قال في التبيان: ولا بد للسماط للجالس ومن يمشي، وذكر في منظوماته أنه كان إذا تم له نظم تأليف أو أمر ديني جعل لذلك سماط من الطعام، إما باللحم أو الفاكهة (ص 145)، ويُسمى ذلك الباروك، ولا ريب أن الكرم هو أساس التصوف وبه قوامه.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «السخاء شجرة في الجنة أغصانها متدلّية إلى الأرض، فمن تعلّق بغصن من أغصانها أدخلته الجنة».

وعنه ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء».

وحدّث الأستاذ أبو القاسم عن علي أمير المؤمنين كرم الله وجهه أنه قال: «سادة الناس في الدنيا الأسخياء وفي الآخرة الأتقياء».

وكان من شأن أوليائه الصادقين، وحزبه السابقين أن يتحرزوا من صفة الغناء أن تدخل عليهم فلا يمسون (ص 146) شيئا يفسد عليهم فقرهم كما يتحرى الأغنياء من صفة الفقر أن تدخل عليهم، فهم لا يسمحون بما في أيديهم من عرض الغناء حذرا أن يدخل عليهم الفقر، فيفسد عليهم غناهم.

فهذا الشيخ - رحمه الله - كان متمسكا بصفة الفقر متحققا بفضل مؤثرا له على الغناء، فقد كانت الصدقات والندور ترد عليه من جميع البلاد ويهوي بها إليه المسافرون من جميع الأقطار البعيدة، فيصرف ذلك لوقته ولا يخص نفسه بشيء منه، حدثني جماعة من الثقات، أنه قال: قل أن يرد على وهران جفن فيه جماعة من المسلمين إلا وفيه عدة أو صلة لسيدي محمد، وكانوا يضمرون ذلك في نياتهم عند تحركهم في سفرهم من بلادهم فيجدون (ص 147)

بركة ذلك.

وربما أخبر سيدي محمد أصحابه وأهل مجلسه برورود ذلك عليهم قبل وصوله، فيكون كما قال، فكان - رحمه الله - يتصدق بكل ما يرد عليه وينفقه على الفقراء إيثاراً لصفة الفقر، وطمعاً أن يفوز غداً بثواب السبقية إلى دار الفناء.

ففي الحديث عنه ﷺ: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم»، وهو خمسمائة عام، ومعلوم أن الكرم في الصفات المحمودة الجامعة لخير الدنيا والآخرة.

فمن حديث عائشة - رضي الله عنها - ، عن النبي ﷺ أنه قال: «السخي قريب من الله قريب من الناس، بعيد من النار، والبخیل بعيد عن الله، بعيد عن الناس، بعيد من الجنة».

(ص 148) وفي الحديث عنه ﷺ: «إن الله لياهي بمطعم الطعام الملائكة». وكان علي بن أبي طالب يقول: «إذا أقبلت عليك الدنيا فانفق منها فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك فانفق منها فإنها لا تبقى»، وقد نظم هذا الكلام بعض المجيدين من الشعراء فقال:

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير بالشرف

وإن تولت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا أدبرت بالخلف

وأكرم الكرماء نبينا محمد ﷺ لأنه كانت تجيء إليه أحمال الفضة والذهب فيجود بذلك كله على المساكين حتى لا يبقى بيده منه درهم واحد، (ص 149) ومات ﷺ ودرعه مرهونة في قوت أهله، وممّا رويّا من إشاره ﷺ حديث الثمانية دراهم.

حدّث صاحب الذخائر والأعلاق وغيره من أهل الأخبار، أن النبي ﷺ

خرج إلى السوق ومعه ثمانية دراهم، فإذا بجارية على الطريق تبكي، فقال لها: «ما يبكيك؟» قالت: بعثني أهلي بدرهمين لأشتري بهما حاجة فوقعا لي، فأعطاهما درهمين، ومضى بستة دراهم، فاشتري منها قميصاً بأربعة دراهم، ولبسه وانصرف، وإذا بشيخ من المسلمين عارياً وهو ينادي: من كساني كساه الله من خضراء الجنة، فتجرد ﷺ من القميص وأعطاه إياه، ثم رجع إلى السوق (ص 150) فاشتري قميصاً لبيساً بدرهمين فلبسه، وأقبل ﷺ يبادر أهله فإذا هو بالجارية حيث تركها وهي تبكي فقال: «ما يبكيك؟» فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، طالبت غيبتني عن أهلي وأخشي عقوبتهم، فقال لها: «تقدمي لأهلك، وأنا على إثرك»، وجعل ﷺ يتبعها حتى أتت بعض دور الأنصار وليس فيها إلا النساء، فقال: «السلام عليكم ورحمة الله، فسمع النساء صوته فعرفنه فسكن ولم يجبن رجاء أن يُعيد النبي ﷺ عليهن من السلام ما يحصل لهن الخير والبركة، فلمّا لم يسمع النبي ﷺ مجيباً أعاد عليهن السلام ثانية، ثم ثالثة رافعاً صوته فأجابه النساء بأجمعهن السلام عليك (ص 151) يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، نفديك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله، فقال لهن ﷺ: «ما سمعتن ابتداء سلامي أولاً؟» فقلن: بلى، ولكننا أحببنا أن نكثر لأنفسنا وذريتنا من بركة تسليمك، فقال لهن ﷺ: «إن جاريتمكن هذه قد أبطأت عنكن وخشيت العقوبة فهبو إلى عقوبتها»، فقال النساء: قد قبلنا شفاعتك يا رسول الله، وقد اعتقناها لممشاك معها، فهي حرة لوجه الله العظيم، فانصرف رسول الله ﷺ وهو يقول: «ما رأيتُ دراهم أعظم بركة من هذه الثمانية، دراهم آمن الله بها خائفاً، وكسا بها عارياً، وأعتق بها رقبة، وما من مسلم يكسو مسلماً إلا كان في حفظ الله ما دامت عليه منه رقعة». (ص 152)

يبقى الثناء وتنفيذ الأموال ولكل دهر دولة ورجال

ما نال محمداً الرجال وشكرهم إلا الجواد بماله المفضل

وكان سيدي محمد - رحمه الله - يحب الشرفاء الكرام ويعظمهم ويذكر حقوقهم، فمن قوله في تبصرة المسائل:

من هو فصيح عربي من آل فاطمة ونقدموا علي من سبق لو التقدما

من هو شريف هو سيدي ونعظما مطلب كبير عندي من جهلوا عما

حدثني جماعة من أهل الخير أنه كان معظماً لأهل بيت النبي ﷺ يعترف لهم بالعبودية، وإذا قدم عليه أحد من الشرفاء قام له من مجلسه، ووقف كالخديم (ص 153) بين يديه، وأكرم نزله، وأبان للحاضرين فضله، فإذا انصرف عنه زوده بما يجده في الوقت من دراهم أو ثياب.

ولما عرف عنه اعتناؤه بالشرفاء وإكرامه لهم صار المتطفلون منهم يقصدونه لذلك وينتسبون على الشرفاء طمعاً فيما عهد من كرمه ونواله، فيكرمهم وينوه بهم، فيقول له أصحابه في ذلك، فيقول: نحن عرفنا من عاملنا إن كان من ادعى الشرف منهم صادق فذلك، وإلا فقد بلغت النية والحمد لله، وهذا الذي كان عليه هذا الشيخ - رحمه الله - من حب الشرفاء الكرام هو من فرائض الدين ومعتقدات أهل السنة؛ لأن حب أهل البيت وسيلة إلى حبه ﷺ، وإنما خصص الشيخ - رحمه الله - آل فاطمة - رضي الله عنها -؛ لأنها أصل لهذا الشرف الكريم، وولداها الحسن والحسين وأولادهما ومن كان عقبهما هم المختصون بالإجلال والتعظيم.

قال سيدي محمد في بعض منظوماته: والشرف من فاطمة لا من علي فأطلاق الشرف على غير أولاد الحسن والحسين؛ إنما هو بحسب التبع، ويجب إكرام الجميع لأنهم أهل البيت (ص 154) الذين أوصى بهم النبي ﷺ، ففي الصحيح عنه ﷺ: «أذكركم الله في أهل بيتي».

قال أئمتنا: معناه أحذركم الله في شأن أهل بيتي، وأقول لكم: اتقوا الله ولا تؤذوهم واحفظوهم، وفي الحديث عنه ﷺ أنه أخذ كساء وجعله كالخباء، ثم أدخل فيه الحسن والحسين وفاطمة وعليًا - رضي الله عنهم - قال: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» [الأحزاب: 33]. اللهم هؤلاء أهل بيتي»، ولنذكر ترجمة مختصرة لكل واحد من هؤلاء السادة تكميلاً للإفادة.

أما سيدنا علي أمير المؤمنين - رضي الله عنه - فبوع بالخلافة سنة خمس وثلاثين من الهجرة، وله من الفخر (ص 155) بقرابته من رسوله ﷺ، وسبقيته إلى دار الإسلام، وبالصهر المنعقد له على فاطمة سيدة نساء أهل الجنة - رضي الله عنها - ، وبكونه من النبي ﷺ بمنزلة هارون من موسى ما لم يكن لغيره، وفي كتاب العمدة عن أبي بكر الصديق في كتابه بسنده المتصل إلى أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل علي فيكم، - أو قال: في هذه الأمة - ، كمثل الكعبة المستورة النظر إليها عبادة، والحج إليها فريضة».

وأسند الخطيب أبو بكر عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مكتوب على باب الجنة لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي أخو رسول الله قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بألفي عام». (ص 156) ومن شعره مشيراً لذلك:

محمد النبي أخي وصهري	وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يمسي ويضحى	يطير مع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعرسي	منوط لحمي بدمي ولحمي
وسبط أحمد ولداي منها	فأيكم له سهم كسهمي

سبقتكم إلى الإسلام طراً صغيراً ما بلغت أوان حلمي
 وصليت الصلاة وكنت رداءً فمن ذا يدعي يوماً كيومي
 وكان علي - رحمه الله - مشهوراً بالعلم والشجاعة تميز عن سائر الصحابة
 بالفقه في الدين، وقتل صناديد المشركين، وكان من أهل زمانه في الخبر الصحيح
 عنه - رضي الله عنه - ، أنه نظر إلى المال مجموعاً في بيت (ص 157) مال
 المسلمين فقال: يا صفراء ويا بيضاء غري غيري، ثم فرّق ذلك كله لوقته على
 المسلمين وصلى في مكانه، وروى عنه أنه قال: «طلقت دنياكم ثلاثاً لا رجعة لي
 فيها»، نظم هذا الكلام بعض الشعراء في أبيات خاطب فيها حقدته وقد أدبرت
 عنهم الدنيا فقال:

عتبت على الدنيا وقلت إلى متى أرى عمرات همها ليس ينجلي
 أكل كريم من علي نجاره حرام عليه الوفر غير محلل
 فقال نعم يا ابن الوصي لأنني غضبت عليكم حين طلقني علي

ولبعضهم فيما يقرب من هذا المعنى:

عتبت على الدنيا لتقديم جاهل وتأخير ذي الفضل فقالت خذ العذرا
 ذوو الجهل أبنائي وكل فصيلة فأبناؤها أبناء ضررتي الأخرى
 (ص 158) وكانت وفاة سيدنا علي - رضي الله عنه - سنة أربعين للهجرة، قتله
 عدو الله عبد الرحمن بن ملجم الخارجي عند قيامه لصلاة الصبح في المسجد،
 ورثاه الناس بأشعار كثيرة فمن متخير ذلك قول بعض نسائه:

ألا قل للخوارج حيث كانوا فلا قرت عيون الشامتينا
 أفي شهر الصيام فجعتموننا بخير الناس طراً أجمعينا
 قتلتم خير من ركب المطايا وذلها ومن ركب السفينا

ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثنائي والمبين
 وكل مناقب الخيرات فيه وحب رسول رب العالمين
 وما أحسن قول الفاضل يحيى بن حميد الحلبي كبير الشعراء في المائة السابعة
 ببلاد الشام أنشده (ص 159) ابن شداد الحلبي - رحمه الله تعالى - :

حسب علي شرف لمن به يلحق
 وبعضه النفاق والكفر الذي يقتـرف
 ميز محبيه فهم إذا أنام انكشفوا
 جواهر خالصة وما سواهم صدف

وأنشد العماد الأصفهاني في كتابه الخريدة لبعض أمراء بني مزيد -
 رحمهم الله تعالى - :

حب علي بن أبي طالب للناس مقياس ومعيار
 يخرج ما في أصلهم مثل ما يخرج غش الذهب بالنار

وأما سيدتنا فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - فأمها خديجة، وكان ﷺ
 يحبها (ص 160) حباً كثيراً، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبلها ورحب بها
 ويقول لها: «يا فاطمة أنت سيدة نساء العالمين».

وفي كتاب الأربعين النسائين، عن ابن سبع في كتابه «إيضاح البيان» أن كفار
 قريش لما سألوا عن النبي ﷺ أن يريهم انشقاق القمر فأراهم ذلك، ولما رجع إلى
 بيته قالت له خديجة: يا رسول الله، قد رأيت القمر وقد انحط إليك وأنت على
 جبل أبي قبيس، ولقد رأيت يا رسول الله معجزة أعظم من انشقاق القمر، والله لقد
 خاطبني هذا الجنين الذي في بطني فقال لي وهو في ظلمة الأحشاء: «يا أماء

أتخشين على رسول الله ﷺ ومعه رب المشارق (ص 161) والمغرب»، فتبسم النبي ﷺ من كلام خديجة، وقال لها: «إن الله ما أعطى لنبي معجزة إلا وخصني بمثلها»، وقد كان عيسى كلم من ظلمة الأحشاء فالذي يكلمه بإذن الله هي فاطمة قدسها الله، وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «فاطمة سيدة نساء الجنة».

تنبيه:

إنما قيل لفاطمة الزهراء؛ لأنها كانت تغرب النساء لحسن إشراقها وطهاره أعراقها وطيب أخلاقها، والزاهر في كلام العرب هو المشرق اللون من النساء والرجال، وفي الحديث عن ابن عباس قال: إذا استقر أهل الجنة في الجنة برقت بارقة من النور، فسأل أهل الجنة عن ذلك فتقول (ص 162) لهم الملائكة: أن عليًا إذا فاكه فاطمة، وتبسمت سطع نور ثناياها فممه ذلك النور.

وكانت وفاتها - رضي الله عنها - سنة إحدى عشر من الهجرة، وهي بنت ثلاثين فينها وبين أبيها ﷺ في الوفاة ستة أشهر، وفاطمة - رضي الله عنها - قليلة الحديث لكونها ماتت في صدر الإسلام كما تقدّم.

ومن حديثها ما أخرجه صاحب الهداية، قال: روي عن فاطمة - رضي الله عنها - أنه قال أبوها ﷺ: «يُحشر الناس يوم القيامة خُفاة عراة»، قالت: يا رسول الله، وإسواتاه ينظر بعضنا إلى بعض، فقال ﷺ: «يا بنية أمّا المؤمنون (ص 163) فيحشرون في ستر الله تعالى، وتجدد لهم أكفانهم، وأمّا الكفار فتبدو عوراتهم».

قرأت في تاريخ بغداد للخطيب أبي بكر فيما أسنده عن رجاله، عن سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود قال: أصاب فاطمة بنت رسول الله ﷺ صبيحة العرس رعدة، فقال لها رسول الله ﷺ: «يا فاطمة إني قد زوجتك سيدًا في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين، يا

فاطمة إني لما أردت أن أزوجك من علي أمر الله سبحانه جبريل بأني قد زوجتك من علي، ثم أمر شجر (ص 164) الجنان فحملت الحلي والحلل، ثم أمرها فشرته على الملائكة، فمن أخذ منهم يومئذ أكثر ممّا أخذ صاحبه أو أحسن افتخر به إلى يوم القيامة».

حدث راوي الخبر أن أم سلمة - رضي الله عنها - أنها كانت تقول: فلقد كانت فاطمة تفتخر على غيرها من النساء بأن أول من خطب عليها جبريل - عليه السلام - .

وأما سيدنا الحسن - رضي الله عنه - فكنيته أبو محمد، ولد سنة ثلاث من الهجرة، وعن علي - رضي الله عنه - لمّا ولد الحسن جاء رسول الله ﷺ، فقال: «أروني ما سميتموه»، قلنا: حرباً، قال: بل هو حسن. وفي البخاري، ومسلم، أنه كان أشبه الناس برسول الله ﷺ.

وكان الحسن - رضي (ص 165) الله عنه - من أعبد أهل زمانه كثير الصلاة، والصلاة، زاهداً محباً للفقراء، وتواترت الأخبار الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال في الحسن: «أن هذا سيد، وعسى الله أن يبقيه حتى يصلح به بين فتيين عظيمتين من المسلمين»، فتأمل هذا الفضل العظيم الذي خص الله به سيدنا الحسن فإنه لا أعظم قدراً ممّا سمّاه النبي ﷺ سيّداً.

وكان من أزهد أهل زمانه وأورعهم وأفضلهم، وبيان ذلك أنه لما قتل أبوه - رحمه الله - بايعه أكثر من أربعين ألف مقاتل على الموت، وأقام خليفة بالعراق نحو نصف سنة تجيء إليه الأعواء فغلب عليه ما هو سبيله من الزهد والورع (ص 166) فترك الملك والخلافة رغبة فيما عند الله، ثم قام فخطب في الناس بحضرة معاوية وقال في خطبته:

الحمد لله الذي هداكم بأولنا وحقن دماكم بأخرنا، ألا إن أكيس الكيس

التقوى، وأعجز العجز الفجور، وأن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما أن يكون هو أحق به مني، وإما أن يكون حقي فقد تركته لله، وإصلاح أمة محمد ﷺ، ثم التفت إلى معاوية وقال: ﴿وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَّعُ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: 111]. وكانت وفاته سنة تسع وأربعين مسموماً - رحمه الله ورضي عنه - .

ومن مرويات الحسن في كتاب الترمذي، وأبي داود، عن أبي الحوراء قال: قال الحسن بن علي - عليه السلام - : (ص 167) «علمني رسول الله كلمات أقولهن في القنوت: «اللهم اهْدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، إنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت».

وأما سيدنا الحسين - رضي الله عنه - فكنيته أبو عبد الله ولد في السنة الرابعة من الهجرة، قال أبو عمر: كان الحسين من أهل الدين والفضل كثير الصوم والصلاة، ومن عظيم عبادته أنه حج خمس وعشرين حجة ماشياً على قدمه، وخيله تفاد معه، وكان النبي ﷺ يُحبه كثيراً ويرفعه على عاتقه ويقول: «اللهم إني أحبه فأحبه».

وفي (ص 168) جامع الترمذي، عن علي بن مرة قال رسول الله ﷺ: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط».

وفي كتاب ابن أبي السعادات، عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال: «كان علي الحسن والحسين - رضي الله عنهما - تعويذتان خشوهما من زغب جناح جبريل - عليه السلام - ».

قلت: التعويذ الذي يجعل على الصبيان إذا خافوا عليهم من العين، فإذا كبروا نحت عنهم، وكانت وفاته يوم عاشوراء، من سنة إحدى وستين بسنة، قتله أصحاب زياد بن معاوية لا (ص 169) رحم الله زياداً ولا أصحابه، ورثاه جماعة من الشعراء والعلماء، ومن أحسن ما وقفت عليه في هذا الوقت ما أنشده الأستاذ العلامة أبو القاسم بن علي بن يعيش الأندلسي في فهرسته لزاهد الأندلس أبي بكر بن قسوم - رحمه الله تعالى - :

أسفي لابن علي أسفي	ما اعتذار الدمع إن لم يكف
لو أذنبت الجسم دمعا كله	وفؤادي بعد ذا لم أنصف
كم أثارت كربلاء من كرب	لقتيل ما له من خلف
فاترك الأجفان تنهمل دمعا	لشهاد ثم باللطيف طف
حرموه الماء ظلما بينا	وسقوه بظلمة المشرف
لو دماء عبد شمس كلها	قد أريق في حسين لم تف
يا غواة الدين ما غركم	إذ بطشتم بالأنوف الأنف
(ص 170) وجفوت في ابنه خير الوري	أرسول الله يا قوم جف
لو طباق الأرض حزت أسفا	لم توف حق بعض الأسف
أحققا يا شقيا كدته	بسنان وحسام مرهف
إن بدا وحنينا هيجا	منك حقدا كان في القلب خف
ثارت النفس فأمضت ثارها	سوف تلقيك بمهوى التلف
شاه منك الوجه عن مستهلك	لم يراع ما له من سلف
ليت شعري ما الذي تصنعه	يوم تلقى جده في الموقف

يوم تلقاه ذليلاً صاعراً ناكس الرأس شديد الأسف
لا يغرنك الذي حولته من نعيم هو حظ المسرف
سوف تدري يا يزيد في غد لمن الجاه وعز الشرف
يوم تلقى باكياً في سفر وحسين ضاحك في العزف

(ص 171) ومن رواية سيدنا الحسين عن جده ﷺ ما حدث به الزهري، عن علي بن الحسين، عن أبيه الحسين، عن أبيه علي، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ حُسِنَ إِسْلَامُ الْمَرْءِ تَرَكَهُ مَا لَا يَعْنِيهِ».

ومن حديثه المسلسل بالرواية يوم الخميس قال: رأيتُ علياً يَقلِّمُ أظافره يوم الخميس، وقال: رأيتُ رسول الله ﷺ يَقلِّمُ أظافره يوم الخميس، ثم قال: «يا علي قص الظفر، ونتف الإبط، وحلق العانة يوم الخميس، والغسل، والطيب، واللباس يوم الجمعة».

ومن حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «وقت لنا في قص الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وتقليم الأظافر، أن لا نترك ذلك أكثر (ص 172) من أربعين يوماً».

ومن محاسن أخبار سيدنا الحسين - رضي الله عنه - ما ذكره الصديقي في رحلته بسنده المتصل إلى الأصمعي قال: «عرضت على أمير المؤمنين معاوية جارية للبيع فأعجبته فسأل عن ثمنها، فقيل له: مائة ألف درهم فابتاعها، ونظر إلى عمرو بن العاص فقال لمن تصلح هذه الجارية؟ فقال: لأمر المؤمنين، ثم استفهم غيره من أهل مجلسه، فقال له كذلك، فقال: ما أصبتم، فقيل له: فلمن يا أمير المؤمنين، قال: للحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فإنه لحق بها لماله من الشرف والفضل، ثم أمر من يقوم عليها ويحفظها إلى أن مضت أربعون يوماً فأهداها له مع أموال عظيمة وكسوة، وأسباب، وكتب إليه:

إن أمير المؤمنين اشترى جارية وأعجبه فبعث بها إليك، وأترك بها فلمّا دخلت على الحسين أعجبه جمالها، فقال لها: ما اسمك؟ فقالت: هوى، فقال: أنت هوى كما سميت هل تحسنين شيئاً؟ قالت: نعم، أقرأ القرآن، وأنشد الأشعار، قال: اتل عليّ شيئاً من القرآن، قالت: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59].

قال: أنشدني بعض ما معك من الشعر، قالت: علي الأمان، قال: نعم، فأنشدت تقول:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان

فبكى الحسين، ثم قال: أنت حرة، وممّا بعث به معاوية من المال صدقة عليك، ثم قال لها: هل قلت في معاوية شيئاً، فأنشدت تقول: (ص 174)

رأيت الفتى يمضي ويجمع جهده وجاء الغنا والوارثون قعود

وما للفتى لا يصيب من الغفلى إذا فارق الدنيا عليه يعود

ثم أمر لها بألف دينار من ماله وانصرفت؛ فلمّا خرجت عنه، قال: رأيت أمير المؤمنين كثيراً ما ينشد:

ومن يطلب الدنيا حال تسره فمسف لعمرى من قليل يلومها

إذا أدبرت كانت على المرء فينة وإن أقبلت كانت قليلاً أدوامها

ثم بكى وقام إلى صلاته - رحمه الله - .

وفضائل ساداتنا أهل البيت كثيرة ومناقبهم شهيرة، وكفاهما من الفخر ما رويناه من الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «الحسن والحسين هما ريحانتاي من الدنيا، من أحبهما فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضهما (ص 175) فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله، اللهم إني

أحبهما فأحب من يُحبهما».

وأخرج المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهٖ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23]. قوله ﷺ: «مَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ، مَاتَ شَهِيدًا، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَغْفُورًا لَهُ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ بَشَرَهُ مَلِكُ الْمَوْتِ بِالْجَنَّةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ فَتَحَ اللَّهُ لَهُ بَابِينَ فِي قَبْرِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ جَعَلَ اللَّهُ قَبْرَهُ مَزَارًا لِمَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ، أَلَا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ عَلَى السَّيِّئَةِ وَالْجَمَاعَةِ».

ومن فوائد أبي بكر الثمار، عن شيوخه، عن مجاهد، حديث في فضل أهل البيت يأتي إن شاء الله في ترجمتي لسيدتي إبراهيم التازي، ولسدي (ص 176) أحمد بن الحسين، ورحم الله الفاضل المجيد أبا عبد الله التلمساني للبري مؤلف العمدة حيث قال من قصيد طويل في قتل سيدنا الحسين بموضع يُقال له: «الطف» من أرض العراق، ويتوسل فيها لحب أهل البيت، ويستشفع بهم إلى الله تعالى:

يا سادتي يا أهل بيت المصطفى	ذكر يوم الطف قد أفجعتني
قتل السبط حسين بينكم	فيه فاشتد علي ذا حزني
ومحبوكم معي قد حزنوا	فلذا أجروا دموع الأعين
ذاك يوم نيل فيه منكم	ليتي لو كنت فيه ليتني
كنت أفني في رضاكم مهجتي	فاز عبد في رضاكم قد فني
أن يكن لم يقض ذاكم ربنا	وممّا بينكم لم يكن
ها أنا يا سادتي أنصركم	بمقال ما خلا من لسن

(ص 177) فاشفّعوا لي يوم حشري تؤجروا

واجعلوني معكم في المـأمن

ليس لي غيركم من شافع أنتم أهل الوفا والمنن

وفي كتاب ابن العسال، عن عامر الشعبي أنه قال: صلى زيد بن ثابت على أمه لثما مائت، وكان من علماء الصحابة، فلثما ذهب ليركب دابته قام إليه عبد الله بن عباس، وكان في جُملة من شهدَ دفنها، فأخذ ركاب الدابة، فقال زيد بن ثابت: لا تفعل يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، فقال زيد: أرني يدك فأخرج ابن عباس يده، فأخذها زيد فقبلها، ثم قال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ.

* حكايات بغاء الكبير:

(ص 178) ومن الحكايات المربعة في حب أهل البيت - عليهم السلام -

ما حدث به صاحب البيان المشرق في أخبار المشرق، وقال في أخبار سنة ثمان وأربعين ومائتين، من ترجمة أبي العباس أحمد المستعين بالله، وفي هذه السنة مات بغاء الكبير التركي، وقد نيف على التسعين سنة، وكان قد باشر من الحروب ما لم يُباشره أحد من أهل عصره، فما أصابته جراحة قط، وما لبس قط لامة حديد فقليل له في ذلك، فقال: رأيتُ النبي ﷺ، ومعه جماعة من أصحابه، فقال لي: يا بغاء أحسنت إلى رجل من أهل بيتي، فدعا لك بدعوات استجيب له فيك، قال: فقلت: يا رسول الله، ومن ذلك الرجل، فقال: الذي خلصته من السباع، قلت: يا رسول الله، (ص 179) سل ربك أن يطيل عمري فرقع يده نحو السماء، وقال: اللهم أطل عمره، فقلت: يا رسول الله، خمس وتسعون سنة، قال: خمس وتسعون سنة، فقال رجل كان بين يديه، ويحفظ من الآفات، فقال ﷺ: ويحفظ من الآفات، فقلت للرجل: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، فكان بغاء لأجل ذلك كثير البر والإكرام للذرية فاطمة -

عليها السلام - ، قال: وكان بغاء هذا أحد كبراء دولة المعتصم بن هارون الرشيد، قاد جيوش المسلمين، وفتحت على يده البلاد وكان فيه من الدين وكمال العقل وكرم النفس وشجاعة القلب ما أوجب تقديمه على غيره.

ومن تمام الحكاية أنه قيل لبغاء: فما خبر ذلك الرجل الذي خلصت من السباع، قال: (ص 180) كنت مع المعتصم ليلة، فقال لي: في السجن رجل من ذرية علي بن أبي طالب، وقد أهمني أمره فخذ وألقه إلى السباع كي نستريح منه، فاخرجت الرجل، وأتيت به إلى بيت السباع لألقيه إليها، وأنا مغتاظ عليه فسمعتة يقول: اللهم إنك تعلم أنني ما تكلمت إلا فيك، ولا نصرت إلا دينك، ولم أرد بذلك غيرك أفتسلمني.

قال: فارتعدت منه وملئ قلبي رعباً، فجاوزت به بين السباع، وأتيت به إلى بيتي، وأخفيت فيه، ولمّا فتحت الأبواب قلت له: يا سيدي أنت تعلم أنني قد أثرتك على نفسي، فاجهد ألا تظهر في أيام هذا الخليفة، وانصرف راشداً، قال: أفعل إن شاء الله.

وأخبار هذا الولي سيدي محمد الهواري - رحمه الله - (ص 181) في أقواله، وأفعاله وكراماته، ومتعلقات أحواله أكثر من أن يأخذها العد والإحصاء، أو يأتي عليها الأمد الأقصى، وما زال منذ أظهره الله إلى أن توفاه عاكفاً على طلب العلم حريصاً على تعلمه وتعليمه، داعياً هذا الخلق إلى عبادة الملك الحق لا إله إلا هو، مثابراً على ذلك صابراً على منهاج من تقدمه من أكابر الأولياء الذين أظهرهم الله دعاء إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، والأوصاف المستحسنة، قائماً بأثقال تحمل الدعوة إلى الله، وقد ملأ الله القلوب من محبته وجلاله برداء مهابته إلى أن رفع الله بين أولياء زمانه درجته وأبان فضله وكرامته.

فجعله قدوة في الخير يقتدى بهديه (ص 182)، وفعاله ويضرب المثل بكرم أحواله، إماماً للمتقين وقرة عين لعباده الصالحين، وكان ملوك الوقت وأرباب الدنيا يعظمون قدره ويهابونه لما كانت مشيخة الوقت، وأكابر العلماء يعترفون له بالصدقية، فكان كبير الأولياء وشيخ الشيوخ سيدي الحسن أبران إذا ذكر عنده سيدي محمد الهواري يطأطأ رأسه ويُبَالِغ في الثناء عليه.

بلغني عنه أنه زاره مرة لوهران على قدميه حافياً، ولما دخل عليه في زاويته قال له: أتعبت نفسك في مشيك بالحفا، وكان سيدي محمد يُحب سيدي الحسن ويذكره بالصلاح والعلم، وقد أشار إليه في بعض منظوماته، فقال:

وإياك لا تحقر الناس من يكون أسمر

(ص 183) المسك بالريحا وقد يشبه العنبر

وكان شيخنا سيدي أحمد - رحمه الله - يطيل الثناء على سيدي محمد ويعده من مشايخه، ويقول: كان سيدي محمد الهواري ممن أعطاني الحكم والتصرف في الولاية والعز حياً وميتاً، وسمعتة يقول يوماً، وقد جرى الكلام في شأن الماء الذي أدخله سيدي إبراهيم التازي لوهران، وكان في بيت الشيخ سيدي أحمد جماعة فيهم الفقيه البركة سيدي عبد الرحمن حفيد سيدي محمد الهواري، فقال له الشيخ يخاطبه في كلام طويل: لو أراد جدك أن يأتي بالماء من تاسالا لوهران لفعل.

وما تقدم من أخباره وأحواله كله كرامات، لقد طالعت كثيراً من مقامات الأولياء الأكابر، وتعرفت أحوالهم (ص 184) ووزانتهم، بمقام سيدي محمد، وما أكرمه الله به فوجدته جامعاً لذلك كله بل يزيد عليهم، فمن طالع جملة كلامه من منظوماته حصل له العلم القطعي بأنه خاتمة الشيوخ بالبلاد المغربية كما قال الشيخ إبراهيم التازي، وأنه أول من نزل بوهران من أكابر العلماء الأعيان، وأفضل

من حلّ بها من أولياء الله ذوي المقامات والعرفان، وما أراه إلاّ أحد أولياء الله الذين أخفى الله أحوالهم وكراماتهم عن أهل زمانه، وذخر له ذلك ليجده غداً في ميزانه.

وله من خوارق العادات وعظيم الكرامات وإجابة الدعوات ما لم يكن لغيره من أولياء الله في وقته، فمن كراماته المتواترة المستطابة دعوته (ص 185) المستجابة في عثمان بن موسى بن المسعود العامري، وكان عثمان من طغاة العرب المفسدين وظلمتهم المسرفين، حدثوا عنه أنه أخذ مالا لرجل من أصحاب سيدي محمد فبعث إليه محمد أحد خدامه تأكيدا في الاعتناء بحق الرجل الذي أخذ ماله فلما وصل إليه الخديم أغلظ في القول، فأمر عثمان بشقيف خديم الشيخ وتقييده فاستعظم الناس ذلك منه وحذروه من سطوة الشيخ سيدي محمد فلم يقبل منهم، ودام على طغيانه، فلما وصل الخبر سيدي محمد دعا على عثمان فأجاب الله دعاءه فيه، وعثر به فرسه في ذلك اليوم الذي دعا عليه فيه سيدي محمد فأتوه فوجدوه ميتا، فأطلق أهله خديم الشيخ (ص 186) وردوا عليه المال.

وحدثني شيخنا أبو عبد الله السنوسي بزيادة في هذه الحكاية عمّن يثق به، عن سيدي إبراهيم أنه قال: كان الشيخ سيدي محمد جالسا في معتاد جلوسه، فجاءه الخبر أن خديمه أخذه عثمان وكبله، فغضب الشيخ غضبا شديدا حتى اسود وجهه، ثم قام على الفور ودخل خلوته، فسمعه يقول: مفرطح، مفرطح، قال سيدي إبراهيم: فاتفق أنه كان في ذلك اليوم عرس بمحلة من الرجال والنساء رأوا شخصا أبيض أخذ عثمان عن فرسه وضرب به الأرض، فأقبلوا إليه فوجدوه مفرطحا، وقد دخل رأسه في جوفه، فقامت أمه في الوقت وأطلقت خديم الشيخ (ص 187)، وردت عليه المال، ثم أقبلت على ولدها

تبكيه، وتقول له في كلامها: كنت أحذرك من شوكة الشيخ أن تُصيبك فلم تقبل، فتأمل سطوة سيدنا الشيخ - رحمه الله - بهذا الظالم، وكيف انتقم الله منه في الوقت أراح منه البلاد والعباد.

وبهذا جرت عادة الله تعالى فيمن يتعرض لهضم زاويته وإضافة الجنة اللاندين بحرمة، فقد شاهدنا كثيرًا من ولاية وهران وعمالها الذين سبقت لهم الشقاوة فحملتهم النفس الأمارّة بالسوء على التهاون بحرّم الزاوية وإخراج من استجاز بحرّمها فينتقم الله من فاعل ذلك في الوقت ويأخذه من الجانب الذي يطمئن إليه، ويظهر عليه أثر غضب الله في نفسه، (ص 188) وماله، وولده حتى لا يستقيم له حال، لا في الوقت ولا في الاستقبال، نعوذ بالله من التعرض لأذية أوليائه ومعاداة أصفياه، وكانت المصيبة بوفاته على ما قرأته بخط سيدي إبراهيم صبيحة يوم السبت الثاني من شهر ربيع الثاني من سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة⁽¹⁾.

وأسف الناس لفقد مكانه واسترجعوا لما أصابهم من خلاء أركانه، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «موت العالم مصيبة لا تجبر وضوء نجم طمس». ولموت قبيلة أيسر من موت عالم، فكانت مدة عمره على ما فهمته من كلامه في منظوماته اثنين وتسعين سنة؛ لأنه ذكر أنه كان نظم لكتاب السهو (ص 189) سنة ست وسبعين وسبعمائة، وأنه بلغ من السنين في ذلك الوقت خمسًا وعشرين سنة - رحمه الله ورضي عنه - ، ونفعنا بحبه وبركته، وجزى الله خيرًا مولانا أمير المسلمين في إشارته بهذا المجموع فإنه ما حركني له إلا نيته الصالحة وهمته الكريمة.

(1) الموافق (21) سبتمبر (1439م).

بارك الله للمسلمين في ولايته، وأبقى عليهم ما عهدوه من بركة خلافته،
ونفعه بقصده الجميل، وبلغه من محبته في أوليائه غاية التأمل بعنه وكرمه:

هنيئاً ما نال من نور ربه به يهتدى في المشكلات ويصير

قد أنحله طور الهيام فجسمه مزكى به والقلب منه مطهر

يبيت يناجي ربه وهو راغب إليه وفي آياته يتفكر

(ص 190) فكن من رجال الزهد واسلك طريقه فسالكه بالفوز لا بد يظفر

وأنفذ بعزم ما هم بفعله من الخير قبل الفوت فالعمر أقصر

أوصي بذنا نفسي وأهلي ومعشري وكل ولي أو أخ لي معشر

وفي الموت للإنسان وعظ وعبرة لو اتعظ الإنسان أو كان يشعر

فله حمدي خالصاً وهو أهله وأثني عليه ما حييت وأشكر

اللهم انفعنا ببركة أوليائك، واحشرنا في زمرة أصفياك، وصل وسلم على
محمد سيد أنبيائك...

ثانيًا: الشيخ الحسن أبركان

ثم يتلوه ثانيهم في مقامات ذوي العرفان، وصدرهم الشهير الذكر في ذلك الزمان سيدي الحسن أبركان (ص 191).

هو: الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد بن سعيد المزيلي، الراشدي سيدي الحسن أبركان - رحمه الله - . الولي العظيم الشأن كبير مشيخة الأولياء في وقته بتلمسان.

حدثني بنسبه وبالكثير من فوائد أخباره وكتب لي خطة بذلك شيخنا العالم الزاهد بركة الوقت سيدي محمد السنوسي، كان هذا الولي سيدي الحسن - رحمه الله - صدرًا من صدور العلماء الأعيان، وممن جمع الله له علم الشريعة وحقائق أهل العرفان، وهو أحد من أظهره الله لخليفته، وألبسه حلل كرامته وجلله برداء ولايته، فنفع الله به العباد، وقصده الزوار من جميع (ص 192) الآفاق وعينوا له الصدقات لما عاينوه من الكرامات، وكان آباؤه وأجداده أهل صلاح وولاية، معروفين بالكرامات.

فأما سعد فحدثوا عنه أنه كان من أصحاب الخطوة، وممن تطوى له الأرض، وعن سيدي الحسن قال: كنت ألعب مع الصبيان فربما ألقيت الثوب عني وأبقى عريًا، فإذا مررت وأنا عريان بقبر جدي سعد أسمع من القبر كلامه بالزجر عن التعري، وإنكار ذلك بقوة وغضب.

وأما والده مخلوف فكان من الأولياء الأخفاء، وكان سيدي الحسن يذكر له جملة كرامات، منها: أن روضة كان لا يقدر أحد أن يسرق منه شيئًا، فكان إذا دخله بعض الخونة قام له ثعبان عظيم لا تستطاع (ص 193) مدافعته، فيهرب الخائن، وينجو بنفسه، ثم يخفى ذلك الثعبان فلا يظهر لأحد ممن

يدخل الروض إلا إن كان خائناً.

وكان الشيخ سيدي الحسن بموضع سكنى أسلافه، وحيث قبور أجداده من الموضع المعروف بالجمعة وهي القرية الكائنة على وادي يسر، وكانت كثيرة العمران، وقد استولى عليها الخراب في هذه الأزمان، فنشأ الشيخ هنالك على طريقة سلفه الصالح إلى أن توفي والده مخلوف، فارتحل للبلاد المشرقية وأخذ بها على أعلام الصوفية، وأقام هنالك مدة طويلة وجاور بالحرم الشريف خمسة أعوام، ثم قدم من المشرق فسكن مع أمه تلمسان، وكانت من صالحات المؤمنين، فسيدي الحسن - رحمه الله - ممن (ص 194) واجهته من الله العناية وورث عن أبويه سر الولاية وظهرت عليه في حال صباه آثار الصلاح والهداية، وأخذ بتلمسان عن أكابر علماؤها وأفاضل أوليائها كالشيخ سيدي إبراهيم المصمودي، والشيخ سيدي أبي يحيى المطغري، وكان من الفقهاء المبرزين وصدور المدرسين، انتفع الناس بتدريسه في قراءة كتب الفقه وخصوصاً رسالة ابن أبي زيد، وجامع الأمهات لابن الحاجب، وكان مشيخة الوقت من الفقهاء الأعيان، وصدور ذلك الزمان يحضرون مجالسه ويعترفون له بالإمامة في العلوم، والتقدم في مدارك الفهوم.

حدثني سيدي محمد السنوسي قال: حدثني أخي (ص 195) سيدي علي أن شيخنا الإمام العالم العلامة المحقق سيدي محمد بن العباس، حضر يوماً مجلس الشيخ سيدي الحسن فلما رأى تقديره لمسائل الفقه، وتحقيقه في ذلك قال لتلامذته: أن هذا الشيخ آية من آيات الله، وقد أسعدكم الله به لأنه قد جمع خصال الكمال، إن جاء عالم أذعن له وقبل يده لأجل علمه وفضل ولايته، وإن جاءه أهل العبادة والصلاح أقروا بفضله وشهدوا بتقدمه في العبادة ومقامات التوحيد والعرفان، وإن جاءه الملوك وأرباب الدنيا وجدوا عنده من

مهابة العلم وعز الولاية وعناية الزهد ما يحتقرون به أنفسهم، ويتسخطمون به ما لأولياء الله من تقدم العز الشامخ وكرم المجد الراسخ.

(ص 196) قال: وكنت يومًا أقرأ على الشيخ سيدي محمد بن العباس بجامع سيدي الطيار، وإذا بجماعة من أصحاب سيدي الحسن أتوه يسألونه عن مسألة من الحوائج، فقال لهم سيدي محمد بن العباس: كيف تسألون عن مثل هذا وسيدي الحسن في الوجود، ونحن منه نتعلم وبه نتفع، قال: فرحم الله الشيخ سيدي محمد بن العباس، ما أكثر إنصافه وأجمل أوصافه.

وحدثني شيخنا الإمام خاتمة الحفاظ سيدي محمد التنسي، قال: كنت أحضر مجالس الشيخ سيدي الحسن في تدريسه لفروع ابن الحاجب، ويأتي في أثناء تقريره بالعجائب مما لا أشاهده عند غيره من علماء الوقت، قال: وكان إذا أخذ في البحث والمعارضة بين المسائل (ص 197) أجعل بالي إليه، وأكف عن الكلام لأحصل ما يجريه الله على لسانه من العلوم والفوائد، فيرد وجهه إلي ويقول لي: ما لك سكت عنا، أعنا أعنا، قال: ويكرر ذلك علي فتأخذ معه في الكلام ونذكر له ما وقف عليه من كلام أهل العلم في المسألة فيتهج بذلك وينشرح له صدره ويدعو إلي بما أرجو بركته.

وفيما كتبه لي سيدي محمد السنوسي قال: رأيت لسيدي الحسن تقييدًا مقيدًا على فرائض الحوفي أوضح فيه العمل غاية الإيضاح بحيث لا يوجد ذلك في غيره من الشراح، بلغ فيه إلى مسائل الوصية بالنصيب، قال: ومن فوائد استنباطات سيدي الحسن وماأخذه اللطيفة، أن بعض شيوخ العوام (ص 198) من ذوي النيات الصالحة كان يخدم الشيخ ويتصرف له في حوائجه، فإذا لقيه أحد وسأله عن حاله قال له بخير الله يسأل عنك، وكثر هذا منه مع الفقهاء والعامة.

قال: فأنكر بعض الفقهاء قوله: الله يسأل عنك؛ لأنه قد أضاف السؤال إلى الله تعالى، وذلك يستلزم الجهل بحال المسئول عنه، والله تعالى منزّه عن ذلك، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى، فبلغ كلام هذا الفقيه لسيدي الحسن، وقد كان يسمع الخديم يقول ذلك بمحضره ولا ينكره عليه، فتحدث الشيخ يوماً من إنكاره فقال لهم الشيخ: ليس فيه ما ينكر ويحمل على أنه دعاء للمخاطب (ص 199)، بأن يكون أهل العبادة في أوقاتها لما ورد في حديث الملائكة الذين يتعاقبون فينا بالليل والنهار، وفيه: «فسألهم الله - تبارك وتعالى - وهو أعلم، فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقول الملائكة: يا ربنا أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون». قال: فافتضى الحديث أن العباد الذين يسأل الله تعالى عنهم الملائكة إنما هم عباده المخلصون المحافظون على الصلاة في أوقاتها؛ لأنهم قد أضافهم إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم.

قال: فكان الداعي بقوله: «الله يسأل عنك» دعاء لمخاطبه بأن يكون من أولئك العباد المسئول عنهم سؤال إظهار إنعام وإكرام، لا سؤال استفادة واستعلام.

قال: وكان سيدي الحسن - رحمه الله - (ص 200) عظيم المهابة جداً ولم أر قط هيئته على ولي شديد الكتمان لأحواله غلب عليه القبض لم ير ضاحكاً قط، وإنما غاية أمره التبسم اليسير، وكان يكتم أمر حجه مع ظهور قرائه عليه عند إقرائه باب الحج من كتب الفقه فيصف تلك الأماكن الشريفة ووصف من عاينها، وكان غلب عليه الزهد، وانقطع إلى عبادة الله وتخلي عن الدنيا وأهلها.

حدثني سيدي محمد السنوسي قال: وحسبك من زهده أنه بقي سنين كثيرة في تلمسان لا يفتات إلا بما يلتقطه من الطعام الذي يتساقط بالطرقات،

ويجعل في أثقاب الحيطان، قال: وكان مدمنا على الصوم كثير الوصال، حدثني ثقات أصحابه الفضلاء الذين (ص 201) كانوا يباشرون طعامه أنه كان في ابتداء أمره، لا يفطر إلا من الجمعة إلى الجمعة، فإذا كان شهر رمضان واصله كله، وسمعت من أثق به أنه صام شهر رمضان لا يأكل في كل ليلة منه إلا أنجاسة واحدة.

قال: ومن المشهور في وصاله عند جميع أصحابه أنه واصل أربعين يومًا لم يذق فيها شيئًا ليلًا ونهارًا، ولا كلم أحدًا حتى أثر ذلك فيه، قال: وحدثونا عنه أنه كان في هذه المدة مستلقيًا على ظهره، فإذا حضر وقت الصلاة نهض إلينا وصلّاها على الكمال والتمام، فإذا فرغ من صلاته رجع إلى استلقائه على ظهره شبه الغائب عن الناس، ولما أكمل أربعين يومًا كلم أصحابه، ورجع إلى معتاد أحواله، قال: وأما وصاله من (ص 202) الثلاثة الأيام فهذا قد شوهد منه آخر عمره كثيرًا وسنه إذ ذاك تقرب من المائة سنة.

وحدثني والدي قال: كان سيدي الحسن - رحمه الله - رفيقًا بالمؤمنين كثير الشفقة عليهم، مبالغًا في إثارةهم مبادرًا لإغاثة ملهوفهم صادقًا بالحق غيورًا على الدين، لا تأخذه في الله لومة لائم، يكاتب ملك الوقت وأرباب الدولة، وشيوخ العرب في قضاء حوائج المسلمين لا يفتر عن ذلك ولا يسأم منه، آية من آيات الله في عمارة أوقاته بالعبادة وأنواع الطاعات، لا يفتر طرفه عين عن عمل صالح، أو إقراء أو مناولة صدقة، أو إصلاح بين الناس، أو إغاثة ملهوف تارة برسوله، وتارة بكتابه.

قال (ص 203): وكانت له سبحة لا تفارقه في غالب أحواله، لأنه كان لا يفتر عن ذكر الله طرفه عين، قال لي: وألقى الله عليه من المحبة والقبول والهيبة ما لا عهد به لغيره من صدور الأولياء، حتى كان أحب إلى الناس من أنفسهم

وآبائهم.

قال: وكان من أتاه منهم في أمر تداهمه مع والده أو أهله، أو صديقه فتح الله عليه ببركته وتحول له الشر خيراً، ثم جمعهم وذكرهم وأصلح ذات بينهم، وأبان لهم الحق وإن كان مرأ، قال لي: فمن شاهد أحوال سيدي الحسن وما أقامه الله فيه من عمارة جميع أوقاته بأنواع الطاعات وتماديه على الاستقامة في الحركات والسكنات علم أن ذلك من أجل الكرامات وأوضح العلامات.

(ص 204) قال: وكان الناس يقصدونه بالصدقات والسندور من بلاد السودان وغيرها، وينتهي ذلك في بعض الأوقات إلى عدة المبين من الذهب فلا يدخر من ذلك شيئاً، بل يفرقه لوقته في المساكين وطلاب العلم.

قال: وكان محباً في طلبه العلم، مؤثراً لهم مرفعاً لقدرهم، منبهاً على حقوقهم، وحدثني والدي، وكتب لي معناه سيدي محمد السنوسي قال: كان سيدي الحسن عظيم الهيبة محفوفاً بالوقار، والتجلة قد ألهمه الله حلل المهابة، وبسط له رداء كرامته، ونشر القبول في قلوب خليفته.

وكانت الخلفاء وأكابر الوقت من العلماء والوزراء يقصدونه في بيته ويلتمسون صالح دعوته، قال: وربما وقفوا (ص 205) بباب بويته مدة ينتظرون الإذن منه ونفوسهم بذلك طيبة مبتهجة؛ لأنه كان على حالة جميلة من النية الصالحة، والأخلاق الحسنة والسياسة المستحسنة، قال: وقد أجرى الله على يده كثيراً من رد الغصوبات وكف الظلمات وفك العناة، وفتح ببركته أموراً من المسائل المهمات، وكان أمراء الوقت وعمالهم يقبلون شفاعته ويسارعون لقضاء حوائجه، ومن المعلوم أن من توقف منهم عن قضاء حاجته، أو أهل كريم شفاعته عاد ذلك عليه بسوء في نفسه وأهله وماله، قال: وقد جرب ذلك في أشياء عديدة وشاهدنا منه مواطن كثيرة - رحمه الله - .

قال شيخنا أبو عبد الله (ص 206): وكان من عاداته إحياء ما بين المغرب والعشاء بالصلاة على الدوام، ووقت إفطاره في أيام فطره بعد العشاء الآخرة، وكان محبًا في ذكر الله وفي قراءة القرآن على الخصوص، ومن محبته في قراءة القرآن أنه كان يختم القرآن في اللوح كل سنة إلى أن مات، قال: ولما ضعف عن الكتب بيده في أخريات عمره كان يبعث اللوح لوالدي في سيدي يوسف، فيكتبه له كل يوم، فتأمل هذا الاجتهاد العظيم مع كبر السن وكثرة وظائف الخلق عليه، فتبارك المولى الكريم الذي يخص بفضله من شاء سبحانه لا إله إلا هو.

وقرأت بخط الفقيه الإمام الكاتب سيدي محمد (ص 207) بن يوسف الجزيري، وكان من أهل الصدق والأمانة معروفًا بالصلاح والديانة، قال: كان الولي الرفيع القدر والشان، سيدي الحسن بن مخلوف المعروف بأبركان كثيرًا ما يرى في منامه سر الوجود، صاحب المقام المحمود والشفاعة في اليوم المشهود، سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله أهل الكرم والجود مشبًا في رؤياه ذاكرا لأوصافه الكريمة وحلاه، فيجده على صورته الكريمة العلوية وأوصافه السامية العلوية، وبمحبتة المصطفاة الثورية ويخاطبه بذاته الشريفة القدسية، ويجاويه سيدي الحسن في كثير من مرائيه السنية، فصلى الله وسلم على المحروس في نومه ويقظته (ص 208) المعصوم أن يتمثل الشيطان لرأيه في صورته، وعلى جميع آله وأصحابه الأعلام صلاة وسلامًا يتصلان الليالي والأيام.

وحدثني بكثير من أحوال سيدي الحسن ومقاماته في العلم والدين شيخنا البركة الناصح عبد الله بن المنصور؛ إلا أنه لا يريد كثرة النقل تورعًا وزهدًا، جزاه الله عن نفسه خيرًا، ومما حدثني به قال: سمعت سيدي الحسن يقول في قوله ﷺ: «نية المؤمن خير من عمله»، قال: في كونه يحب أن يكون مؤمنًا أن

يموت على ذلك، قلت: وهذا أحد محتملات الحديث، قال صاحب كتاب اليقين أبو الحكم عبد السلام بن أبي الرجال: معنى (ص 209) قوله ﷺ: «نية المؤمن خير من عمله»: أن المؤمن انعقدت نيته على أنه لو أبقاه ربه حيًا أبد الأبدين ما رجع عن هدايته، ولا كفر به، قال: ومفهومه أن الكافر شر من عمله؛ لأن الكافر انعقدت نيته أنه لو أبقاه ربه حيًا أبد الأبدين ما نزع عن غيه ولا اهتدى إلى رشده، قال: ولأجل هذا كان مصير الفريقين إلى ما انعقدت عليه نيته، فالمؤمن إلى جنة لا موت فيها، ولا انقطاع لنعيمها، والكافر إلى نار لا موت فيها، ولا انقطاع لبؤسها، نسأل الله عافية الجنان: ونستعيذ به من عذاب النيران.

وذكر صاحب الهداية: عن ثابت البناني، أنه كان يقول: «نية المؤمن (ص 210) خير من عمله في أن المؤمن ينوي أن يقوم ويصوم النهار، ويخرج من ماله صدقة، فلا تتابعه نفسه على ذلك، فنيته خير من عمله».

قال ابن العسال: «والنية هاهنا في انعقاد العزم على فعل الطاعة، وإن لم يفعلها مثل أن يبيت الصيام بالليل، ثم يقطعه عنه قاطع، قال: واعلم أن النية باطنة في القلب داخلة في دقيق الأشياء وجليلها من الأعمال والأقوال، والله - عز وجل - مثيب على حسنها معاقب على سيئها، فالواجب على العبد أن يستعمل في جميع حالاته نية يرجو بركتها وثواب الله عليها، فإن الرجل قد يعمل عملاً ليس من أعمال البر المأمون بها بنية صالحة (ص 211) فيؤجر عليها.

روي عن النبي ﷺ: «من تطيب لله - عز وجل - جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة». قال: فالطيب ليس من أعمال البر المفرطة، ولا تركه من المعاصي

المنهي عنها، فمن تطيب بحسن نية اتباعًا لسنة رسول الله ﷺ وإظهارًا لنعمة الله عنده، ومطيبًا لرائحته عند الحفظة الكرام، ومن معه من الملائكة وجلسائه ليلاً تكون من رائحة تؤذيهم جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، قال: وإنما طابت رائحته لطيب نيته.

قال: ومن استعمل الطيب على سبيل الترفه والتزيين به عند (ص 212) أهل الدنيا جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة، قال: فإذا كان الثواب والعقاب هكذا لفساد النية وصلاحها في غير الأعمال المفترضة فكيف يكون في الأعمال المفترضة، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، وألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، فمن الواجب على العبد أن يرغب إلى الله - عز وجل - في صلاح قلبه وتسديده وثباته على الإيمان واليقين في كل وقت وحين، وقد كان السيد الكامل رسول الله ﷺ يُكثر من قول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء (ص 213) أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاعه؛ فلذلك كان رسول الله ﷺ يدعو في ثبات قلبه ويخاف عليه، وقلبه أظهر القلوب وأنقاها وأرسخها في اليقين وأصفأها، وهو المغسول من الأدناس والمعصوم من الزيغ والالتباس فكيف ينبغي أن يكون دعاء غيره في هذا المعنى؟

قال: وإذا نظر الله - عز وجل - إلى قلب عبده فوجده نقيًا ارتضاه لولايته وزاده من كرم عنايته، روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «إن الله - عز وجل - نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، واختصه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، (ص 214)

فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، وخلفاء دينه فكانت نياتهم حسنة، وأعمالهم خالصة».

وحدثنا شيخنا عن السيد الوالي جعفر بن محمد الصادق، عن والده محمد الباقر، عن والده زين العابدين علي بن الحسين، عن والده الشهيد أبي عبد الله الحسين بن علي، عن والده أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، ولا قولاً وعملاً إلا بنية، ولا قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة».

قالوا: وة كان بعض الأكابر من السلف الصالح يقول: تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل. وعن سفيان الثوري: (ص 215) «ما عالجت شيئاً أشد من نيتي؛ لأنها تغلب علي».

وعن يوسف بن أسباط قال: «تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد». قال ابن العسال: «فالنيات من أعظم أعمال الباطن وأقواها، وأخصها بالقلوب وأزكاها إذ لا يقوم شيء من العمل إلا بها، ولا يصلح للعبد شيء بينه وبين ربه دونها؛ ولهذا رغب رسول الله ﷺ في عمل السر من أجل ما يدخل على عمل العلانية من الفساد، فقال ﷺ: «خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي».

قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَدَقْتَ فَنِعْمَ هِيَ﴾ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهُهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: 271]. وروي (ص 216) عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عمر بن الخطاب، قل اللهم اجعل سريري خير من علانيتي، واجعل علانيتي صالحاً».

وكان العلماء الأتقياء من السلف الصالح يتواصون بينهم بثلاث ويكتب بها بعضهم لبعض: من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه، ومن أصلح سريره

أصلح الله علانيته، ومن أصلح بينه وما بين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس؛ فالنية الصادقة بها يكمل العمل، ويتم الأجر؛ لأن للعبد ما نوى وإن لم يفعله، فإذا عمل العبد طاعة بحسن نية كان مطيعًا، وإن عمل بسوء نية كان عاصيًا وبطلت طاعته وأثم في سوء نيته.

(ص 217) وحكى صاحب «مرآة الزمان» عن ولي الله الجنيد أنه قال: «مَنْ فتح على نفسه باب نية حسنة فتح الله له سبعين بابًا من التوفيق، ومن فتح على نفسه باب نية سيئة، فتح الله له سبعين بابًا من الخذلان من حيث لا يعلم».

قال علماؤنا: ومن مذاهب أهل السنة أن كل من مات على نية فإنه مبعوث عليها؛ لقول الله - عز وجل - : ﴿سَوَاءٌ مَخْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية: 21].

قال مجاهد في تفسيره: «يموت المؤمن على إيمانه ويُبعث على قوة إيمانه، ويموت الكافر على كفره ويبعث على كفره»، ولحديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبعث كل عبد على مات عليه».

(ص 218) ومما يدل على هذا أيضًا حديث الأعرابي، عن أنس بن مالك قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فقال: «ما أعددت لها؟» فقال: والذي نفسي بيده ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام، ولكنني أحب الله ورسوله، قال: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فكان يعجبهم حديث الأعرابي.

قال ابن العسال: في هذا الحديث من الفقه معان كثيرة، منها: وجوب الاستعداد ليوم القيامة؛ لأن الأعرابي سأل النبي ﷺ عن وقت الساعة وهذا أمر لا يعلمه إلا الله فنبهه النبي ﷺ على أن يشتغل بما يعنيه وبما هو الواجب (ص 219) عليه من أخذ الزاد والتأهب ليوم المعاد، وأن ذلك يغني عن معرفة الوقت.

ومنها: أن النبي ﷺ صدقه في دعواه محبة الله ومحبة رسوله ﷺ، من أجل أن المحبة من أعال القلب فوكله إلى باطنه.

ومنها: أنه ﷺ جعل من أحب قومًا منهم، وإن كان مقصرًا عن فعلهم في النوافل فإنه معهم بما بطن من محبته، وإن لم يظهر له كثير عمل فألحق الله المحبين لله ورسوله، ولمن لم يظهر لهم كثير عمل بأهل الله وأوليائه المجتهدين في العمل تفضلاً من الله عليهم وإحساناً منه إليهم، فنسأله سبحانه أن يتوفانا على الإيمان.

وعلى التمسك بحب السنة والقرآن (ص 220)، وأن يوفقنا للتوبة عند مواعده، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وأخبرني الفقيه الخطيب العلامة سيدي يحيى بن عبد الله، عن أبي البركات فيما كتب به إليّ قال: حدثني بعض الجلة الثقات الملازمين لمجالس العلم قال: حدثني الفقيه الصالح سيدي يحيى بن حميد صاحب الشيخ سيدي الحسن أن شيخ الإسلام سيدي قاسم العقباني زار يوماً الشيخ سيدي الحسن فأدخله لداره، وقدم له طعاماً عليه لحم، ثم تفاوضا الكلام في مسألة وضع اللحم على الطعام وفي أيهما يبدأ به في الأكل، قال: فقال له سيدي الحسن: كنت يوماً مع أخي شقيقي سيدي منصور في بيت فأوتينا بطعام (ص 221) عليه لحم، ففعد معنا صبي وتناول قطعة لحم، فإذا به قد صرع فصاح سيدي منصور بالجان، وقال له: تفعل هذا بحضرتنا فكلمه الجان وقال له: يا سيدي والله ما فعلتُ له هذا؛ إلا أنه أساء الأدب في تقدمه عليكم، وكونه لم يسم الله - عز وجل - ، وكونه تناول اللحم قبل الطعام، قال: ثم أفاق الصبي ولم يبق به ألم، ثم قال له سيدي الحسن: ومما وقع لي أيضاً مع أخي سيدي منصور

أنني كنت معه مرة فقدمت له امرأة طعامًا فتهيات للأكل، فقال لي أخي: لا تأكل يا الحسن، فقلتُ له: ولم؟ فقال لي: أما رأيت الجان يختطفون هذا الطعام، فقلتُ: لا، فقال لي: رأيت اثنين وسبعين جانا دائرين عليه؛ لأنه طعام سوء.

(ص 222) ومن كرامات سيدي الحسن - رحمه الله - ، ما حدثني به سيدي محمد السنوسي قال: ومما وقع له من خوارق العادة، أنه لما قدم من المشرق ووجد قرية الجمعة قد خربت وهي كانت سكنى أسلافه فنزل تلمسان، ثم تردد خاطره في الرجوع لقرية الجمعة ليجد بها ما دثر من العمران، قال سيدي الحسن: فخرجت إليها يومًا، وجلستُ معتبرًا في آثارها كيف أخذها الخراب واستولى على أهلها الجلاء، وإذا بكلب قد أقبل، وجلس بالقرب مني وحاله في انكسار خاطر، وتغيير الظاهر كحالي، ثم قلتُ في نفسي: هل تعود هذه القرية إلى ما كانت عليه من العمارة أم لا؟ فرفع الكلب عند ذلك رأسه إليّ، وقال بلسان فصيح إليّ: يوم يبعثون؛ أي لا تعود (ص 223) العمارة فيها كما كانت، قال: فلما سمعت نطقه إليّ بذلك رجعت تلمسان وعلمت أن ذلك إلهام من الرحيم الرحمن، وكان سيدي الحسن يتكلم على الخواطر ويكشف مخبات السرائر.

حدثني سيدي عبد الله بن منصور، قال: كان لي ورد من الصلاة بين المغرب والعشاء في المسجد، ثم اتفق أن كان جمع بين المغرب والعشاء، فأتيت المنزل وأردت قضاء وردي فخیل إليّ أنه قد قيل بمنع ذلك الصلاة إثر الجمع.

فحدثت نفسي أن أسأل سيدي الحسن عن ذلك فمن الغد قصدته في مجلس أقرانه، فوجدته يقرأ في محل بعيد عن المسألة، ثم إنه نظر إليّ وقال:

رجل جمع بین المغرب والعشاء فی المسجد مع الناس، ثم انصرف إلى منزله یجوز له أن یتقل.

(ص 224) وحدثني سيدي عبد الله قال: كان بعض أصحابنا من الطلبة یكثر الحضور فی مجالس سيدي الحسن، وكنت لا أفعل ذلك لما أعلمه من نفسه وأستحقر قدری، بل أحضر عند غيره من علماء الوقت فأتاني هذا الطالب یومًا وأخبرني أنه بات البارحة فی عرس مع المغني علی العواد، ولما أصبح قصد مجلس الشيخ علی عادته، ثم أخذ الطالب فی نقل كلام بعض الشرائع علی عادته فلم یقبل منه الشيخ، وصار الشيخ یتكلم مع غيره من الطلبة، قال: فأخذت فی البحث مع الشيخ وهو لا يلتفت إليّ، ثم عاودته وإذا به نظر إليّ نظرة مغضب وقطب وجهه، وقال لي: اسكت فما هذا المجلس علی العواد. قال (ص 225): فسقط فی يدي وعلمت أن الله قد كاشفه بحالي.

قال شيخنا أبو عبد الله: ومما وقع لي من مكاشفته أنني كنت ابتداء قراءتي رسالة الشيخ أبي زيد علی أخي سيدي علي بين العشائين، فقرأنا ليلة: فصل الرعاف منها فوقع البحث فی صحة إسناد الرعاف إلى إرادة الله تعالى نظرًا لعموم إرادته لجميع الكائنات، أو منع ذلك نظرًا إلى ما يجب من الأدب مع جلال الحق سبحانه، فإنه تعالى قال فی كتابه العزيز: ﴿صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 7]. فأسند النعمة إلى الله ولم یسند إليه الغضب والضلال.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: 10]. (ص 226) فأسند الرشد إلى الله دون الشر، قال: وكان فی المسجد معنا جماعة من العوام فلما أصبحنا من الغد ذهبنا لمجلس الشيخ علی العادة فابتدأ الشيخ تدريسه، وأخذ فی تقرير المسألة التي كان یقرأها وفتح

باب الكلام في مسألة الرعاف التي وقع الكلام فيها، وذكر فيها ما يليق من الأجوبة، ثم أخذ الشيخ يحذر وينهى عن الخوض في مثل هذه المسائل بحضرة العوام، وهو ينظر إليّ وإلى أخي سيدي علي دون غيرنا من أهل المجلس فتيقنا أنه قد كاشفنا - رحمه الله - .

ومن كرامات سيدي الحسن ما حدثني به سيدي محمود (ص 227) فيما كتب به إليّ قال: حدثني العلامة سيدي سعيد بن عبد الحميد العصنوني بمنزله من وانشريس، وكان من أفاضل أصحاب الشيخ القدماء قال: دخلت يوماً في حار وقت الزوال على الشيخ سيدي الحسن، فوجدته في تعب عظيم، والعرق يسيل عليه، فقال لي: أتدري مما هذا التعب الذي أنا فيه؟ قلت: لا يا سيدي، فقال لي: كنت آنفاً جالساً بهذا الموضع فدخل عليّ الشيطان في صورته التي هو عليها، فقممتُ إليه فهرب أمامي فتبعته وأنا أذكر كلمات الأذان، فما زال يهرب بين يدي، وله ضراط كما ذكر في الحديث، إلى أن دخل في القادوس الذي يخرج منه الماء في رأس القصارين، وغاب عني والآن رجعت من اتباعه (ص 228).

قلت: الحديث الذي أشار إليه الشيخ الحسن - رحمه الله - هو قوله ﷺ: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان، وله ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا انقضى النداء أقبل فوسوس حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر حتى قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يفضل الرجل لا يدري كم صلى».

قوله ﷺ: «أدبر الشيطان وله ضراط»، قال القاضي عياض: «يمكن حمله على ظهره؛ لأنه جسم متغذ فيصح منه خروج الروائح».

وقال غيره: إنما ذلك كناية عن شدة هروبه وتباعده عن سماعه الأذان،

حتى قيل إنه يصل في تباعده إلى الروحاء، وبينها وبين المدينة (ص 229) مسافة ثلاثين ميلاً، وحديث سيدي الحسن ظاهر في الحمل على الحقيقة، والله أعلم.

وهذه الكرامة دالة على فضل كلمات الأذان، وعلى فضل المؤذنين، وفي الصحاح عنه عليه السلام أنه قال: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة». وفي الحسان عنه عليه السلام: «من أذن سبع سنين محتسباً لله - عز وجل - ، كتب الله له براءة من النار».

وروينا عنه عليه السلام أنه قال: «ثلاثة على كثبان المسك يوم القيامة عبد أدى حق الله وحق مولاه، ورجل أمّ قوماً وهم له راضون، ورجل نادى بالصلوات الخمس كل يوم وليلة».

وقرأت في كتاب (ص 230) «طبقات النساك» لأبي سعيد بن الأعرابي قال: حدثنا أبو القاسم بسنده، عن محمد بن عيسى بن حيان قال: حدثني أبو العاج شيخ كان بالبصرة يحفر القبور أكثر من ستين سنة، قال: حفرت أنا وشركائي قبر ذات يوم، وكان يوم شديد الحر والريح راکدة فقعدت في ظل القبر، وقعد أصحابي في قبة من قباب المقابر، فعبثت بحائط قبر من القبور بأصبعي، فانفتح لي حجر صغير عن كوة خرجت منها رائحة طيبة لم أر قط أطيب منها، ولا أبرد ولا ألد، فظننت أن الهواء قد طاب فقممت فنظرت فإذا أنا برجل في القبر كالنائم وأكفانه صحاح (ص 231) وبدنه صحيح لم يذهب منه شيء، وعلى بطنه شيء أبيض مثل القطن المندوف، فادخلت يدي فأخذته منه، وأخرجته إلى الضوء فإذا هو ياسمين طري فخرجت به إلى أصحابي وجعلوا يشمونهم ويعجبون منه، فسألنا عن صاحب القبر فوجدناه من المؤذنين، أقام على الأذان بمصر خمسين سنة.

قال المؤلف: فإن قيل ما الحكمة في كون الشيطان يهرب عند سماع الأذان والإقامة، ولا يهرب عند سماع القرآن والذكر والصلاة، فالجواب عن ذلك من وجوه، أحسنها وأولها بالصواب: أنه إنما هرب من سماع الأذان حسدًا لابن آدم ألا يشهد له بكلمات الأذان يوم القيامة، فإنه قد روي عنه عليه السلام (ص 232) أنه قال: «لا يسمع من أصوات المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة».

وقوله في الحديث: «فإذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه» معناه: أن المؤذن إذا فرغ من الأذان والإقامة، ثم تلبس بالصلاة فإن الشيطان يقبل عليه بالوسوسة حتى يحول بينه وبين قلبه، ويفسد عليه ما يريد من الإخلاص في صلاته؛ لأن هذا العدو إبليس لا يحسد ابن آدم على شيء كما يحسده على الصلاة، ولا يهتم بإفساد شيء من أعمال الطاعة كما يهتم بإفساد الصلاة؛ لأنها مشتملة على السجود الذي كان سببًا في طرده عن رحمة الله، ولأن الله تعالى جعل هذه الطاعة وجه الدين ورأس أعمال المؤمنين.

(ص 233) روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «لكل شيء وجه، ووجه هذا الدين الصلاة». قال في الهداية: ولقد كان المتقدمون والسلف الصالح أجمعون يجتهدون في تخليصها بأنواع الإخلاص وهم مع ذلك لا يثقون منها بالإخلاص، بل كانت قلوبهم مملوءة من الخوف والوجل مع كثرة اجتهادهم في إخلاص العمل فتفريغ القلب من شواغل الدنيا وهمومها لمن أقبل على الصلاة واجب متأكد.

قال أئمتنا: وهو المراد بقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ [البقرة: 238]. لأن الشيطان يذكر ابن آدم بشهواته الدنيوية ويقرئ له آماله الكاذبة، وقد جاء في تفسير قوله تعالى مخبرًا عن قوله اللعين: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ

الْمُسْتَقِيمَ ﴿[الأعراف: 16]. (ص 234) إن الصراط المستقيم هو الصلاة.

قال أئمتنا: ومن حقوق الله على عبده إذا قام إلى الصلاة أن يُقبل على مولاه ولا يعرض عنه إلى غيره؛ لأنه إن أعرض عن إخلاص المناجات أعرض الله عنه، وتمكن منه عدوه إبليس، وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الله مقبلاً على عبده في صلاته ما لم يلتفت إلى ذكر دنياه، فإذا صرف قلبه عن مناجاة مولاه والتفت إلى شهوته ومناه صرف الله عنه وجهه».

ولقد كان ينبغي للمصلي لو عقل ما هو فيه وعلم قدر من يناجيه أن ينسى نفسه وهواه، وأن لا يذكر شيئاً من أمر دنياه (ص 235) ما دام في مناجاة مولاه الذي يعلم سره ونجواه ويسمعه ويراه، فلقد كان كثير من العلماء يقولون: افتقدوا مقامكم عند الله في الصلاة، فإن وجدتم للقراءة والذكر حلاوة في أنفسكم فاعلموا أن الله قد تقبل منكم صلواتكم، وإن لم تجدوا حلاوة فاعلموا أن الله قد أغلق باب دوتكم، وسلط عدوه عليكم.

وفي حديث علي - رضي الله عنه - قال: يا رسول الله ﷺ، أخبرني بأفضل الصلوات؟ فقال: «يا علي أفضل الصلوات ما حضرت فيها القلوب وذرفت فيها العيون، وخلصت فيها النيات، وفاضت فيها العبارات».

قال في الهداية: (ص 236) واعلم أن الثاؤب في الصلاة من أدوات الشيطان وعلامات الغفلة من مناجاة الرحمن، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إن ثاؤب أحدكم في صلاته فيكظم ما استطاع فإن الشيطان يدخل يده في فيه».

وعنه ﷺ أنه قال: «البصاق والمخاض والنعاس في الصلاة من الشيطان». ولهذا كان الأئمة من السلف الصالح كالإمام مجاهد وإبراهيم النخعي وغيرهما إذا أصابهم الثاؤب في الصلاة، أمسكوا عن القراءة وعلموا أن

الشیطان قد حضر معهم وأخذوا منه حذرهم بالتذكرة عن مسه وبالبصرة (ص 237) عند وسوسته واعتصموا منه بحول الله وقوته، وتأيدته ومعونته، أعاننا الله منه برحمته ويسر لنا أسباب عصمته.

قال: وكل من داوم على مجاهدة عدوه فإن الله - تبارك وتعالى - سيعينه عليه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

قال: واعلم أن عمل الصلاة أفضل الأعمال، وأرفعها عند ذي الجلال والكبير المتعال، فمن أتعب جوارحه الظاهرة وأراح قلبه وجوارحه الباطنة من عمل الإخلاص ويقيم المراقبة فقد خان الأمانة التي تحملها وضيع حقوقها وأهملها، وقد أمر الله - عز وجل - بأداء (ص 238) الأمانة إلى أهلها، والله - عز وجل - أحق من أدت إليه الأمانة على ما توحىه الديانة.

لا تخفى عليه خافيات الأمور يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فأما نقصان عمل الجوارح الظاهرة في الصلاة فهو سرقة.

روينا عنه عليه السلام أنه قال: «أعظم الناس سرقة الرجل يسرق صلاته». قالوا: وكيف يسرق صلاته يا رسول الله؟ قال: «لا يتم ركوعها ولا سجودها».

وروينا عنه عليه السلام أنه قال: «لا صلاة لا مرئ لم يتم الركوع السجود»، قال: فمن لم يوف أركان الصلاة حقها فصلاته فاسدة عند أكثر أهل العلم عالمًا (ص 239) كان أو جاهلاً، وعليه إعادتها وشهادته ساقطة ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

وروينا عن العالم العابد عبد الرحمن بن زيد، أنه قال: أجمع علم العلماء على أنه ليس للرجل من صلاته إلا ما عقل منها، وفقنا الله وإياكم لمرضاته وأعاننا على القيام بحقوق صلاته.

وكان سيدي الحسن - رحمه الله - معروفاً بإجاباته الدعاء مقصوداً لتفريج الكرب والبلواء؛ له في ذلك أخبار ماثورة وحكايات مذكورة وكثيراً ما حدثني شيخنا سيدي محمد التنسي، وقال لي: ما حلت على الأبركة الأشياخ ولا نفعتني الله بدعائه الصالح (ص 240)، وخصوصاً سيدي أبركان فإنه كان يخصني بالدعاء، وقد تعرفت إجابة دعوته وصدق نيته في وفي غيري، وهذا الذي أنا فيه من وراثتي مجلس الأشياخ بالمدرسة اليعقوبية واعتنائي بتفسير الكتاب العزيز كنت أؤمله وأقطع بوصولي إليه ببركة دعاء سيدي الحسن، وغيره من أهل الله.

وحدثت عن سيدي الحسن أنه كان إذا رأى شيخنا سيدي محمد السنوسي تبسم له، وفاتحه بالكلام، ثم يقول في دعائه له: جعلك الله من أئمة المتقين، فقد أجاب الله دعوته، وحقق فيه فراسته فشيخنا أبو عبد الله اليوم من أئمة العلم والدين (ص 241)، وأفاضل أوليائه المتقين نفع الله بعلومه العباد، وأبان ببركاته معالم الرشاد، وحسبك بما له عند الله من العناية وأظهره عليه من أسرار الولاية زهده في هذه الدار وعدم اتخاذها فيها حائطاً أو بناء جدار، ثم دعاؤه الخلق إلى طريق الملك الحق لا إله إلا هو، فكم له من عقيدة كافية فربت المدارك وموعظة شافية بينت المسالك، فهما والحمد لله ببركة سيدي الحسن من رحمة الله المهدات ونعمه المصفات أبقاهما الله علمه يهتدي بمنارها ووفقنا لاتباع كريم آثارهما.

وحدثني والدي قال: كنت كثير الخدمة لسدي (ص 242) الحسن محباً في قضاء حوائج أصحابه والمتعلقين به، وكان يدعو لي بخير، ويقول في دعائه: الله يرفع درجاتك ويبارك لك في مالك وولذك، فأنا ما وجدت إلا ببركة دعائه وإنني لأرجو بركته ودعوته الصالحة في الدار الآخرة بفضل الله ورحمته.

قلت: وقد رفعت لهذا الشيخ فدخلت بويته وقبلت يده، ودعا لي بما أرجو قبوله، وكان شديد السمرة وربما ظن به من لا علم له بنسبه الصريح أنه من الموالي، وقد حدثني سيدي محمد السنوسي فيما كتب به إليّ، قال: حدثني سيدي علي، عن سيدي الحسن قال: نسبنا جد صريح لم يسبق فيه رق، وقد تلقيت (ص 243) ذلك عن بعض أكابر الأولياء، وقال: أنه تلقى من اللوح المحفوظ.

* وفاة الشيخ الحسن أبركان:

وكانت وفاته - رحمه الله - أواخر شوال من سنة سبع وخمسين وثمانمائة⁽¹⁾، وكانت جنازته من الأيام المعدودة والمحاضر المشهودة آخذة في نهاية الاحتفال حضرها الخليفة - رحمه الله -⁽²⁾، وامتلات السكك والشوارع بمن حضرها من النساء والرجال، نفعا الله بنياتهم وأعاد علينا من بركاتهم، شاهدت يومئذ على الخليفة المعتصم بالله - رحمه الله - دبليزا رصاصيًا وقبلًا راسماوياً إظهاراً للكتابة والحزن، وتراحم الناس على نعشه متبركين به (ص 244) باكين لفقده واتبعو ثناء حسناً وذكرًا جميلاً، ولقد شاهدت كثيرًا من الناس يرومون الوصول إلى استلام النعش فيغلبهم الزحام عنه:

لم أنس يوم تهادت نعشه أسفا أيدي الوري وتراحمها على الكفن
كزهرة تتهادها الأكف فلا تقيم في راحة إلا على طعن
فرحم الله سيدي الحسن ورضي عنه ونفعنا ببركته وأمثاله من عباده

(1) الموافق لشهر ماي (1454 م).

(2) يقصد بالخليفة أمير تلمسان الزياني.

الصالحين وأوليائه المتقين الزاهدين المفلحين بمنه وكرمه (ص 245).

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبيه المصطفى، وعلى آله وأصحابه
وذرياته أهل الصدق والوفاء وحسبنا الله وكفى.

ثالثًا: الشيخ إبراهيم التازي

ثم يتلو ثالثهم المعظم وصدرهم المقدم أثير جمعهم، ومؤثر ما تقدم من شفيعهم سيدي إبراهيم التازي - رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به - .

(ص 246) هو: إبراهيم بن محمد بن علي التازي أبو إسحاق - رحمه الله تعالى، ورضي الله عنه - ، نزيل مدينة وهران، وسلطان أولياء ذلك الزمان، وبدرها العظيم الشأن الشهير الذكر في حياته الباقية أقواله وأفعاله بعد مماته.

كان سيدي إبراهيم - رحمه الله - من أولياء الله الزاهدين وعباده المخلصين الناصحين، إمامًا في علوم القرآن مقدمًا في علم اللسان، حافظًا للحديث مستجدًا في حفظ الفقه وأصوله، عاكفًا على خدمته معروفًا بجودة القيام على دواوينه.

(ص 247) حدثني شيخنا البركة سيدي يوسف المصمودي أنه وقع بيده حين إقامته بمدينة تازا كتاب بخط سيدي إبراهيم لبعض الأكابر من أهل تازا يعرفه ببعض حاله، وفيه:

اعلم أن محبكم إبراهيم يقرئ مختصر خليل من غير مطالعة شرح، وليس هذا ببعيد في الأنوار الهوارية، وهذا يدل على أن سيدي إبراهيم كان أحد حفاظ مذهب مالك معروفًا بجودة النظر والفهم الثاقب، وكان - رحمه الله - جامعًا لمحاسن العلماء ممتعًا بأداب الأولياء جاريًا على طريقة السلف الصالح، لا نظير له في كمال العقل، ومتانة الحلم، والتمكن في المعارف وبلوغ الدرجة العليا في محاسن الأخلاق وجميل العشرة والمعرفة بأقدار الناس.

(ص 284) والقيام بحقوقهم في صحبتهم وعلاقتهم، حتى إنه كان لهم

بمنزلة الأخ الشقيق أو الطيب الرفيق، والمعالج الصديق البصير بالدواء العارف بمحل الداء، وما عسى أن أذكر من جميل أوصاله فهو أجل قدرًا وأشهر ذكرًا، وحسبك من جلالته وسعاده أن المثل ضرب بعقله وحلمه، واشتهر في الآفاق ذكر فضله وعلمه حتى إن المتحدث من أهل زماننا الآن إذا بالغ في وصف رجل قال: كأنه سيدي إبراهيم التازي، وإذا امتلأ أحد منهم غيظًا قال: لو كنت في منزلة سيدي إبراهيم ما صبرت، هذا مع ما كان يتحمّله من إذابة الخلق والصبر على المكاره، واصطناع المعروف (ص 249) للكبير والصغير، ومُداراته للجليل والحقير، ومما سمته لكافة الناس على قدر أخلاقهم وكان سيدي إبراهيم أحد من ظهره الله هاديًا لخليفته وأقامه داعيًا لبساط كرامته، مجللًا برداء المحبة والمهابة مؤزرًا النشر القبول في قلوب الخاصة والعامة فدعا الخلق إلى الله بالبصيرة الواضحة الأنوار وأرشدهم لعبوديته بعقائد التوحيد، ووظائف الأذكار، وكان من أحسن الناس صوتًا وأنداهم قراءة آية من آيات الله في فصاحة اللسان، وتجويد تلاوة القرآن، يقف سامعه لطيب نغمه وتحن القلوب لجودة قراءته.

(ص 250) حدث عنه أنه كتب البخاري، أو غيره من كتب الحديث أيام محاورته بالحرم الشريف، انحشر الناس إليه، وتوفر جمعهم عليه لحسن قراءته وجودة إتقانه، وقدمه في مشيخة الحرم الشريف لصلاة الإشفاع في رمضان، واتفقوا على أنه أحسن القراء تلاوة، وأزينهم طلاوة وحلاوة، وأمتنهم معرفة وديانة ومن إشارات سيدي محمد لذلك قوله في التنبيه - رحمه الله - : «ونقول أعلى من راد نسمع منك بعض حديث».

*** أصل الشيخ إبراهيم التازي:**

وأصل سيدي إبراهيم من بني لنت قبيلة من قبائل البربر الكائنين بوطن

تازا، وشهر بالتازي (ص 251) لولادته ونشأته بها، وقراءته القرآن على أستاذه الشيخ الصالح المقرئ الزاهد الولي العارف أبي زكرياء يحيى الواز، وكان هذا الشيخ سيدي يحيى يظهر الاعتناء بسيدي إبراهيم على صغر سنه، ويشيد بذكره، ويقول للأولاد في المسجد: هذا سيدكم وصالحكم، كانت وفاة والده بمدينة تازا.

حدثني شيخنا الأستاذ الفقيه البركة سيدي يوسف بن الحسن المصمودي عمن حدثه من أهل الخير بمدينة تازا قال: رأى بعض الصالحين والد سيدي إبراهيم في المنام على حالة حسنة، وقد كان من المخلصين في بيعه وشرائه أيام حياته، فقال له: من أين لك هذا الخير (ص 252) يا محمد؟ فقال له: من ولدي إبراهيم، قلت: يشهد لهذا ما روينا في الحديث المسند، عن النبي ﷺ، أسند الحافظ ابن العليسان عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليرفع للعبد الدرجة فيقول: يا رب، من أين لي هذه الدرجة؟ فيقال له: من استغفار ابنك لك».

* رحيل الشيخ إبراهيم إلى مصر والحجاز:

وما زال سيدي إبراهيم على الحالة الحسنة والنشأة الصالحة والهدي القويم إلى أن ارتحل من البلاد المغربية قاصداً أداء فريضة الحج، فشر الله له القبول التام في قلوب الخاص والعام، وقام له أولياء المشرق وعلماءه على ساق وعرفت صديقيته في البلاد المصرية (ص 253) والحجازية، واشتهر ذكره في الآفاق ورافقه في وجهته هذه للبلاد المشرقية نظيره في العلم والدين الولي الزاهد الناصح العابد سيدي أحمد الماجري، وشاركه في كثير مما من الله به عليه هنالك من القراءة والمعارف والأسرار واللطائف.

حدثني ثقة من سادات أصحابه عنه أنه قال: لما وصلنا مصر وجدنا ركب

الحجاز قد فاتنا بالطلوع، وأسفنا لذلك، ثم قصدنا مزاراة القرافة للتوسل بأوليائها أن يسهل الله أمرنا في تكيف سفرنا، فوجدنا بها شاباً دون لحيه نحيف الجسم، وآثار الولاية عليه ظاهرة فسلمنا عليه فكان من رده علينا بطريقة المكاشفة الوقتية (ص 254) قوله: وعليكم السلام ورحمة الله عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحداً. ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: 65]. ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59]. تسافرون في البحر إن شاء الله، ثم سكت عنا، قال سيدي إبراهيم: ففاتحته الكلام وسألته الدعاء فسكت عنا ولم يرد باله إلينا.

قال: ففرحنا بقوله: تسافرون، وانصرفنا عنه، قال: فبعد أيام قليلة وصل موكب لمرسى مصر المسمى ببولاق فسافرننا فيه فوصلنا جدة في أسرع وقت وعلى أفضل حال ببركة ذلك الولي لله الحمد والمنة، ثم شد سيدي إبراهيم الرجال للحرمين الشريفين، وهنالك لقي أعلام (ص 255) الرجال: فأخذ بمكة المشرفة على علامة علمائها، وكبير محدثيها قاضي قضاة المالكية السيد الشريف تقي الدين أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي الحسين الفاسي الأصل، المكي الدار، قرأ عليه سيدي إبراهيم كثيراً من كتب الحديث والرقائق، واعتنى به هذا السيد الشريف وكتب له في إجازاته ما نصه:

* إجازة الشيخ تقي الدين الفاسي للشيخ التازي:

الحمد لله الذي جعلنا من سكان الحرم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث لجميع الأمم، ورضي الله عن أصحابه أولي الفضل والكرم، وبعد: فإن ممن أنست مجالسته وانتفعت بمذاكرته وأرغب في صالح أدعيته، الفقيه الأكمل الأفضل الخير المبارك أبو إسحاق إبراهيم بن (ص 256) محمد بن علي اللتي التازي المغربي المالكي أمدّه الله بجباته، ومتع بحياته لما جاور بمكة

المشرفة سنة ثلاثين وثمانمائة، وقد قرأ على أبو إسحاق بلفظه جميع كتاب الشفا للقاضي أبي الفضل عياض، وجميع الألفية لجمال الدين أبي عبد الله بن مالك وغير ذلك قراءة حسنة زاده الله من فضله، لما سمع علي بقراءة غيره كثيراً من كتب الحديث لموطأ مالك أبي عبد الله مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وجميع السنن لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، وجميع رسالة القشيري، وكان الفراغ من قراءته للشفا في الموفى ثلاثين لذي قعدة الحرام من سنة ثلاثين وثمان (ص 257) مائة⁽¹⁾ بالمسجد الحرام، وقد أجزت الفقيه أبا إسحاق إبراهيم جميع رواياتي ومؤلفاتي، وأرغب في دعائه فلينع به مثاباً متفضلاً، قال ذلك: محمد بن أحمد الحسني حمد الله أحواله، وبلغه آماله، محمد سيد المرسلين وآله والصفوة الأكرمين.

* رحيل الشيخ التازي إلى المدينة المنورة:

ثم لما حلّ سيدي إبراهيم بالمدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام، أخذ بها عن جماعة من العلماء الأعلام منهم إمام الأئمة وجمال علماء الأمة سيدي أبو الفتح محمد بن أبي بكر القرشي الشافعي، قرأ عليه سيدي إبراهيم علومًا كثيرة، ولازمه مدة طويلة، وكتب له سيدي أبو الفتح بخطه عدة إجازات، وقد حدثني بذلك كله عنه (ص 258) شيخاي الشامخان: جمال الحفاظ سيدي محمد بن عبد الله التنسي، والعلامة الزاهد سيدي محمد بن يوسف السنوسي، ونذكر بعض هذه المكاتب تبركاً بمن اشتملت عليه من أولياء الله الصالحين.

(1) الموافق (22 سبتمبر 1427م).

* حديث الضيافة:

منها حديث الضيافة، حدثني شيخنا أبو عبد الله السنوسي فيما كتب لي بخطه، قال: حدثني العالم الرباني أبو إسحاق التازي، وأضافني تمرًا وماء، قال: حدثني شيخنا العالم العامل أبو الفتح نقلت:

الحمد لله وحده أضفت سيدي الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد اللتي، وسيدي محمد الماجري بالمدينة (ص 259) المنورة تمرًا وماء في يوم الخميس ثاني شهر الله المحرم سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة^١، وقرأت عليهما، أخبرنا الحافظ نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي اليمني بقراءتي عليه جميع حديث الضيافة بسنده المعروف عن شيوخه إلى السيد جعفر بن محمد الصادق، قال جعفر: أضافنا أبي محمد بن علي الباقر على الأسودين التمر (ص 260) والماء، قال: أضافنا رسول الله ﷺ، من أضاف مؤمنًا فكأنما أضاف آدم، ومن أضاف مؤمنين فكأنما أضاف آدم وحواء، ومن أضاف ثلاثة فكأنما أضاف جبريل وميكائيل وإسرافيل، ومن أضاف أربعة فكأنما أضاف التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ومن أضاف خمسة فكأنما صلى الصلوات الخمس في الجماعة من أول يوم القيامة، ومن أضاف ستة فإنما أعتق ستين رقبة من ولد إسماعيل، ومن أضاف سبعة أغلقت عنه سبعة أبواب جهنم، ومن أضاف ثمانية فتحت له ثمانية أبواب من الجنة، ومن أضاف تسعة كتب (ص 261) له حسنات بعدد من عصاء من أول يوم خلق الله إلى يوم القيامة، ومن أضاف عشرة كتب الله له أجر من صام وحج واعتمر إلى يوم القيامة، وكتبه أبو الفتح بن أبي بكر وفقه الله تعالى.

(1) الموافق (23 أكتوبر 1427م).

من أناشيد سيدي إبراهيم - رحمه الله - في ذكر الضيف عن شيوخه
 بالسند المتصل للحافظ أبي الحسن علي الكارم المقدسي:
 إذا قدم الضيف اغتمت قدومه ولم أك عنه يوماً بالغافل اللاهي
 وذلك أن الله يرزقنا معاً وإن دعاء الشيف من نعم الله
 حدث أبي رشيد في رحلته عن الشيخ أبي البركات شعبان الصوفي بسنده
 عن الأصمعي، (ص 262) قال: خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام، فسمعت
 أعرابياً متعلقاً بأستار الكعبة يقول: اللهم إنك مضيفاً لمن ورد عليك وأنا
 ضيفك، اللهم وإني راجع إلى أهلي وهم سائلون بماذا أضفتني، اللهم وإني
 مخبرهم أنك قد أقربتني الجلة وأجرتني من الديار، وافعل أنت بعدد ذا ما
 شئت.

* عودة الشيخ إبراهيم التازي إلى مصر وتونس:

ولمّا قفل سيدي إبراهيم من وجهته الحجازية ونزل مصرًا وغيرها من
 البلاد تذكر مفارقتة للحرمين الشريفين، وتشوق لما كان عليه من الخير
 والعبادة بتلك المعاهد المعظمة (ص 263) والمشاهد المكوّنة نظم قصيدته
 الجمالية التي لاح فيها برهان صدقه، وشهدت بتقدمه في درجة المعارف
 وسبقه ومطلعها:

ما حال من فارق ذاك الجمال وذاق طعم المنجر بعد الوصال

وكلام سيدي إبراهيم في منظوماته على الطريقة التصوفية والإشارات
 العرفانية والأمداح النبوية لا يقوم بمعناه إلا من تمكنت معرفته، واتسعت في
 علوم اللسان مادته، وعلت في درجة الولاية رتبته، وذاق من طعم الحب
 والشوق ما بهرت به ولايته.

قال المؤلف - وفقه الله - : وكان سيدي إبراهيم - رحمه الله - وقف إلى أبيات

الخطیب الزاهد أبی عبد الله بن بوطلة المرسی، وقد ضمن أوائلها اسمه أحد رحمه الله أنشدها له أبو عبد (ص 264) الله بن رشد فی رحلته ومن خطه نقلت:

أرى العمر يفنى والرجاء طويل وليس إلى قرب الحبيب سبيل
حباه إله الخلق أحسن سيرة فما الصبر عن ذاك الجمال جميل
متى يشتفي قلبي بلثم ترابه ويسمح دهر لا يزال بخيل

ولما وصل سيدي إبراهيم في قفوله مدينة تونس أخذ عن أكابر علمائها وأفاضل أوليائها، وكتبوا له خطوطهم بالشهادة، وخططوا على صغر سنه بأوصاف السيادة، فكان من جملة من كتب له شيخ الإسلام الحافظ العلامة الشهير سيدي عبد الله العبدوسي، قرأت بخطه في فهرسه (ص 265) سيدي إبراهيم ما نصه: الحمد لله تعالى وحده دائماً، يقول كاتبه عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي: صافحتُ الفقيه الأخ في الله تعالى سيدي إبراهيم بن محمد التازي، أخذ الله بيده، وكأن له بمنه وشدت بيدي على يده، وقلت له: المراد بهذا الشد الاشتداد في الله، وتأکید الصحبة وحدثته بها عن شيخنا الأستاذ أبي عبد الله محمد بن جابر الغساني، عن الإمام الرباني أبي عبد الله محمد بن علي المصمودي المراكشي، وشهرته بابن عليوات عن أبي عبد الله الصوفي، عن الإمام العالم أحمد بن النبا عن ولي (ص 266) الله تعالى أبي عبد الله الهزميري، عن أبي العباس الخضر، عن سيدنا ومولانا محمد رحمه الله، وعلى صحبه، وكل من ينسب صحيح إلى يوم القيامة وسلم تسليمًا كثيرًا، وذلك في رمضان عام اثنين وثلاثين وثمانمائة⁽¹⁾.

(1) الموافق (4 جوان - 23 جويلية 1429م).

* عودته من تونس إلى تلمسان:

ثم قفل سيدي إبراهيم من تونس فنزل بتلمسان للقاء من بها من أكابر العلماء، وصدور أهل الهدى، فأخذ بها عن علامة وقته وخاتمة العلماء شيخ شيوخنا سيدي محمد بن مرزوق، وكتب له في ربيع القاني من عام اثنين وثلاثين وثمانمائة⁽¹⁾.

* انتقاله من تلمسان إلى وهران:

(ص 267) ثم قصد مدينة وهران لزيارة شيخ المشايخ لسان الحق، جديد أقرانه، وحكيم زمانه، سيدي محمد الهواري ونيته أن يعاود الرجعة للحرمين الشريفين برسم الإقامة هناك، والاستيطان مع أصحابه الذين أكرمهم الله بجواره وخصهم بمشاهدة أنواره، فقد روينا في الحديث عنه عليه السلام: «مَن مات في أحد الحرمين بعثه الله في الآمين يوم القيامة».

وروينا في الموطأ: أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يقول: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، ووفاء ببلد نبيك».

وعند اجتماعه بسيدي محمد الهواري ومجالسته معه تفرس فيه سيدي محمد مخايل النجابة، ورآه الأحق (ص 268) بالورائة والعصابة، فأكرم نزله ورفع مقامه، وقال له في حكاية طويلة: يا إبراهيم أنت مقيماً على البر والكرامة.

حدثني شيخنا أبو عبد الله السنوسي، أن السيد إبراهيم حصل له النفع العام بصحبة سيدي محمد، وظفر منه بذخائر من الحكم الربانية، ووصل بسببه إلى الرسوخ في المقامات العرفانية والتمكن في رتبة الأولياء، ودرجة

(1) الموافق (8 جانفي - 5 فيفري 1429م).

أهل التصريف، قال: فمن شاهده فهم ذلك من لسان حاله واستقامة أفعاله، وما زال سيدي محمد ينوه به ويرفع من شأنه ويشير لأصحابه بملازمته ويحضهم على خدمته ويبصرهم بكمال واتساع معرفته، وعظيم فضل الله عليه. (ص 269) وإذا قدم عليه أحد من الواردين للزيارة يعرفه بمكانه ويقول له: سلم على الشيخ سيدي إبراهيم، فإذا قضى الزائر غرضه من الزيارة وأتى لوداع الشيخ سيدي محمد نبهه أيضًا على وداع سيدي إبراهيم، فأقام عنده على ذلك نحو العشرة أعوام معروف المكانة محفوفًا بالتجلة والكرامة، وهو في أثناء ذلك ينسخ كلام سيدي محمد الهواري بخطه ويجمعه في دفاتر وقفت على كثير منها.

وإلى فعله ذلك أشار سيدي محمد الهواري في اليائية الطويلة:

ویرحم ربي قد شفا ويعطيه درجا عالية

ومن سلف يعطاه ما سلف في الأيام الحالية

* استقلال الشيخ التازي بزاويته الخاصة:

فبعد زمان انتقل سيدي إبراهيم عن زاوية سيدي محمد، وأخذ في إظهار ما أقامه الله فيه (ص 270) وأرشده إليه من دعوة الخلق وهدايتهم لطريق الملك الحق، لا إله إلا هو، فأقام سوق الأذكار بوهران وأبان بها معالم الإسلام والإيمان، ورتب المواسم الشرعية، ونبّه على الآداب الدينية والدنيوية، ونقل أهلها عمّا كانوا عليه من التبدي إلى الحضارة فاقتمعت فيها وعظمت العمارة، وارتحل إليها كثير من أهل الجزيرة، ولما اغتبطوا ببركته سكانها، واعترفوا بفضلها على من سواها، وصرف الزوار أعنة الرفاق إلى مثواها وقصده الواردون من جميع الآفاق وعلى فضله وولايته الأصفاق، وإلى ذلك أشار سيدي محمد الهواري في مقدمة التنبيه فقال:

التنبية إذا يقرأه من هويا صبي طبقاً (ص 271) والناس ليه تجي من غرباً وشرقاً، وكان سيدي إبراهيم في أثناء ذلك كله يستفتح مجالس إقرائه بقراءة كتب الشيخ سيدي محمد الهواري يقرأها بلفظه فيفسر مجملها ويفتح مقفلها، ويشير في حال قراءته لمقامات الشيخ وعلومه ويطيب الثناء الجميل عليه، ويطيل الدعاء له ويقول ما علي إلا لبركة الأشياخ وخصوصاً سيدي محمد الهواري عملاً بالأحاديث المرغبة في شكر من أسدى إليك يدًا، أو ساق إليك خيرًا.

روينا (ص 272) بسنده عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ، لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ»، والتحدث بنعم الله شكر وتركها كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب.

قال الزين العراقي: ومِمَّا رويناه مسندًا، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إذا حشر الله الخلائق يوم القيامة، قال لعبد من عباده كان اصطنع إليه عبد من عباده معروفًا، وهل شكرته، فيقول: أي ربي علمت أن ذلك منك فشكرتك عليه، فيقول تعالى: لَمْ تَشْكُرْنِي، إِذَا لَمْ تَشْكُرْ مِنْ أَجْرِي ذَلِكَ عَلَى يَدِيهِ».

واستند الحافظ أبو نعيم عن كعب الأحبار أنه قال: (ص 273) ما أنعم الله على عبد من نعمته فشكرها لله وتواضع بها لله ذلاً أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع له بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبده من نعمة في الدنيا فلم يشكرها، ولم يتواضع لها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقاً من النار في قبره يُعَذِّبُهُ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتَجَاوَزُ عَنْهُ.

وباب الشكر لمن أنعم الله عليه من الصفات الجميلة والمقامات الجليلة، وهو من صفات أهل الجنة، قال تاج الدين أبو الفضل بن عطاء في كتابه

اللطائف: ومن بعض العارفين لو علم الشيطان أن طريقاً توصل إلى الله أفضل من الشكر لوقف فيهما، ألا تراه قال: ﴿ثُمَّ لَا يَأْتِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17]. تأمل كيف لم يقل: ولا تجد (ص 274) أكثرهم صابرين، ولا خائفين ولا راجين، قال ابن عطاء الله: ولما اجتمعت بالسلطان قد قرن دولتكم بالرخاء فانشرحت قلوب الرعايا بكم، والرخاء أمر لا تستطيع الملوك تكسبه، ولا استجلابه كما يكتسبون العدل والجود والعطاء، فقال لي: ما هو الشكر؟ قلت له: الشكر على ثلاثة أقسام:

شكر اللسان، وشكر الجوارح الظاهرة، وشكر القلب، فأما شكر اللسان فهو التحدث بنعم الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11]. وأما شكر الجوارح الظاهرة فالعمل بطاعة الله.

(ص 275) قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: 13].

وأما شكر القلب فهو أن تعتقد وتعرف بأن كل نعمة بك أو بأحد ممن العباد هي من الله تعالى، قال - جل جلاله - : ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]. فقال لي الملك: وما الذي يصير به العبد شاكرًا؟

فقلت له: أما الملوك فبإظهار العدل في الرعية، ودفع المضرة عنهم، والأنكاد اللاحقة، فإذا عدل الملك في رعيته ونظر لها بالأصلح فقد اتصف لها بالشكر وحصل له ثواب الشاكرين، وأما العلماء فبتبليغ العلم للناس وإرشادهم لطاعة الله. وأما التجار وذوو الأموال فبالصدقة والإيثار والنفع لعباد الله.

(ص 276) روي في رقائق ابن المبارك، عن بعض السلف الصالح قال: إن

حقوق الله - عز وجل - أعظم من أن يقوم بها العباد، وأن نعمة الله أكثر من أن تُحصى، ولكن أصبحوا تائبين، ومن مرويات سيدي إبراهيم في كتاب المجالس للزين العراقي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكراً صابراً، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً، من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ومن نظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله - عز وجل - على ما فضله به عليه، كتبه الله - عز وجل - شاكراً صابراً، ومن نظر في دينه إلى من هو دونه، ونظر في دنياه إلى من هو فوقه، فأسف على (ص 277) ما فاته منه لم يكتبه الله - عز وجل - شاكراً ولا صابراً».

أنشد شيخنا عبد الله التنسي، قال شيخنا أبو إسحاق التازي قال: أنشد شيخنا أبو الفتح قال: أنشدنا شيخنا أبو الفضل العراقي قال: أنشدنا الإمام قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز من جماعة لمحمود الوراق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة	علي له في مثلها يجب الشكر
وكيف بلوغ الشكر بفضله	وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها	وإن مس بالضراء أعقبه الأجر
وما منهما إلا له فيه نعمة	تضيق بها الأوهام والبر والبحر

ومن أعظم الدلائل على ولايته الباهرة، وكراماته الظاهرة ما أجراه الحق سبحانه على يده (ص 278) من بناء الزاوية النبوية المتعددة الأبواب والمساجد في الفخامة والاحتفال، ومدارسها المشتملة على الميضاة الأنيقة الدارة والحمام الذي ما شوهده مثله في البلاد، والخزائن المملوءة بالكتب العلمية وآلات الجهاد، والسطح المظلل بعريش من شجر الياسمين العنبري الرائحة لا نظير لها ولا مثال.

ورحم الله سيدي محمد الهواري فقد صدقت فراسته فيه حيث قال في التنبيه مشيرًا له على عاداته:

عقلك ربته يسرى كانوا في البحور يغيب
تتعجب فيك أنجب وأذيب من بي وطيب
وقد تشبه بنا وبنياك على ترتيب

* قصة إدخاله الماء لوهران:

(ص 279) وأما الماء الذي أدخله لوهران فهو من غرر الدهر، وحسنات الزمان، فأعظم بها صدقة جارية مثلها يعد للمعاد؛ وآية من آيات ولايته باقية بحمد الله إلى يوم التناد، وقد رآه قديمًا من نزل وهران من الملوك وأهل جباية الأموال فلم يهتدوا إليه وأعوزهم سبيله وأخر الله ذلك إلى زمانه لتنقل به كفة ميزانه.

الحمد لله حمدًا لا تقلله، هذا الزمان الذي كنا نؤمله وكيفية وضعه، وابتداء صنعه مما يحار فيه أهل النظر والاعتبار ويضيق عن غاية إبداعه ذووا الأيدي والأبصار، فيا هنيئًا لوهران (ص 280) أن رويت ببركة هذا الشيخ جوانحها الصادية، ويا بشرى لزاويته السعيدة أن جعلها الله مشرع روي للرايحة والغادية، فمن لم يشاهد ببصره سيدي إبراهيم المعمورة بذكر الله وطاعته، وتصرفات تلك المياه المعينة على عبادته، وخروج الخطايا مع آخر قطرة منه كاف في فضيلته، وسماطة المعد لأهل الوظيفة المنصورة وصدقاته الجارية، وكل ذلك ياق كما رتبته بل زائد على ما كان عليه في حياته لم تتغير أشكاله، ولا تبدلت أحواله إلى اختلال، علم أن ذلك من أعظم كراماته وأقوى الدلائل على صدق ولايته، وأن هذه المنقبة التي ذخرها الله له مما يحتج به (ص 281) المفاخر ويرد به قول من قال: ما ترك الأول للأخير.

آثاره تنبئك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه

حدثني المشيخة من أهل وهران سروراً ما أدركوه قط لأنهم كانوا في مشقة كبيرة من قلة الماء ومكابدة السقيا من العيون من الصباح إلى المساء، فوقاهم المشاق الصعبة، وسقاهم الماء الذي جعله حياة لكل ذي كبد رطبة.

* صنائع المعروف:

وقد روينا في الحديث الصحيح، عن علي - رضي الله عنه - ، عن الرسول ﷺ، عن الروح الأمين جبريل - عليه السلام - ، عن الرب المالك الحق مولانا - عز وجل - قال: «يا محمد، (ص 282) أكثر من صنائع المعروف، فإنها تقي مصارع السوء، وما عمل العبد بعد أداء الفرائض عملاً أحب إلى الله - عز وجل - من إدخال السرور على المؤمن».

وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرتي، ومن سرتي فقد اتخذ عندي عهداً، ومن اتخذ عندي عهداً فلن تمسه النار أبداً».

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا، هم أهل المنكر في الآخرة».

وخرج الخطيب أبو بكر في تاريخه عن صالح بن بيان أحد أصحاب الإمام سفيان الثوري قال: حدثنا سفيان، عن علي بن أبي (ص 283) عبيد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من سقى الناس في موضع يقدر على الماء فيه، فقه بكل شربة يشربها البر أو الفاجر عشر حسنات تكتب له، وعشر درجات ترفع له، وعشر سيئات تحط عنه، ومن سقى الماء في موضع لا يدر على الماء فيه فكأنما أحيا الناس جميعاً»، قلت: وما الناس جميعاً؟ قال: «أليس إذا

أحييت نفسًا فتوابك الجنة، وكذا من أحيأ الناس جميعًا فتوابه الجنة».

* إيثار الشيخ التازي للعلماء :

وكان سيدي إبراهيم يُحب العلماء ويكرمهم ويوسع لهم في مجلسه ويقدمهم، وربما كان في متفقهة الوقت من ينكر عليه أحواله، ويزهد الناس الوصول إليه فإذا بلغ ذلك سيدي إبراهيم تبسم وقال: أمرنا وأمره إلى الله، وكان يقول: الفقيه من يفقه عن الله، ويرغب فيما عند الله ويزهد فيما (ص 284) عند الناس، أما من يطلب العلم ليباهي به العلماء أو ليصرف به وجوه الناس إليه، وليحظى بالمنزلة عند الأمراء فذلك ساقط عند الله، إذ ليس من أهل الخشية لجلال الله يجيب الناس بما فيه، ويرى الفضل له عليهم ويدعيه، وفيما حدث به أبو الفرج الجوزي عن أبي عبيدة الناجي قال: سمعتُ الحسن البصري يقول: يا ابن آدم إنك لا تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب من نفسك، ومهما أصلحت عيب من نفسك، وجدت عيبًا آخر لم تصلحه، فعليك بعيوب نفسك فإنك لست على العباد برقيب، وأفادني شيخنا أبو عبد الله التنسي أبياتًا حسنة لأبي داود سليمان بن معبد من رواة الأصمعي أنشدها له الخطيب أبو بكر قال: (ص 285)

يا أمر الناس بالمعروف مجتهدًا	وإن رأى عاملاً بالمنكر انتهره
أبدأ بنفسك قبل الناس كلهم	فأوصها وأتل ما في سورة البقره
أأمرؤن الناس ببر تاركين له	ناسين ذلك فعل الخيب الخسره
وإن أمرت ثم كنت على	خلافه لم تكن إلا من الفجره
من كان بالعرف أمارًا وتاركه	فليس يسبق منه سيلة مظره

وفي كتاب الرقائق، قيل للحسن البصري في بعض المسائل: ما سمعنا أحداً من الفقهاء يقول هذا، فقال: وهل رأيت فقيهاً قط إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة المحب في الآخرة، قال: وما رأيت فقيهاً قط لا يداري ولا يماري، إنما الفقيه من ينشر ما عنده من حكمة الله، فإن قبلت حمد الله - عز وجل - ، وإن ردت حمد الله - عز وجل - .

(ص 286) ومن كلام سيدي محمد الهواري - رحمه الله تعالى - :

من لا يعرف الله لا تعرفوا واحذر منه واتقي
مع شيخ عارف والعلم من أهل الدين يستقي
وحدث ابن المبارك، عن سفيان الثوري قال: «تعوذوا بالله من فتنه العابد الجاهل، وفتنة العالم الجائر، فإن فتنتهما فتنة لكل فتون».

وأنشد أبو عبد الله بن رشيد بسنده، عن الحسن بن علي الدامغاني قال: سمعتُ الوالي الزاهد يحيى بن معاذ يقول مخاطباً لبعض علماء الدين غلب عليهم التنافس والرياء وحب هذه الفانية:

عانقت دنياك مسروراً بزيتها وقد منعت التقى والزاهد والورعاً
فكيف ينفع منك العلم جامع ولا يراك هذا العلم منتفعاً

(ص 287) وكان سيدي إبراهيم - رحمه الله - إذا حضر في مجالس الذكر أو لقن كلمة الإخلاص أحداً من الخواص، علتة هيبة الوقار، وفعلت فيه لطائف الأسرار، وكشفت له عن الفتوحات الإلهية التي اكتسبها في خلواته، واستفادها من مناجاته فيزداد في الله - عز وجل - محبة ومنه خشية.

حدثني عميد أصحابه ووصيه علي زاويته بوصيته منه إليه، الشيخ سيدي محمد بن موسى بن تيف، أيد ما قال: كان سيدي إبراهيم إذا أراد أن يلبس أحداً الخرقة المباركة أو يلقيه الذكر الكريم يبعث إلي لأحضر ذلك، فكنتُ

أرى عليه حينئذ من القبض التام، وتغير اللون ما لا أعهد منه (ص 288) في غير ذلك الوقت، فإذا قال: لا إله إلا الله، وكررها في حالة التلقين اصفر وجهه، وتغير وصار كأنه نرف منه الدم. قال: فما علمت سر ذلك وفائدته إلا بعد موته وتقديمه إتيائي نادراً على زاويته ولست أهلاً لذلك، فأنشدته حينئذ قول القائل:

لي سادة من عزهم أقدامهم فوق الحياة
إن لم أكن منهم فلي في حبيهم عز وجاه

وكان الشيخ سيدي محمد الهواري قد أشار بتقديم سيدي إبراهيم، قال: أتيت مرة وأنا شاب لوداع سيدي محمد الهواري، وطلب الدعاء منه، إرادة السفر، فقال لي: ابن من؟ والفرص أنه (ص 289) يعرفني ويعرف أمي من قبلي معرفة حقيقية، قال: فلما قال لي: أين من أنت بحضرة جماعة من الناس أدركني الخجل والحياء ما أوجب السكوت، فلما أرى ما بي من الحشمة قال لي: أنت ابن إبراهيم، فزادني قوله ذلك خجلة إلى خجلة وانصرفت مفكراً في قوله مغتماً منه، فلما كان بعد زمان طويل تعلقت بخدمة سيدي إبراهيم وذكرت له يوماً قول سيدي محمد الهواري: أنت ابن إبراهيم، فقال: إنما أشار بذلك إلينا، فحمدت الله تعالى وشكرته وسألته - سبحانه وتعالى - أن ينفعني بحبه وخدمته في الأخرى كما نفعني به في الأولى، وكان سيدي إبراهيم - رحمه الله - محباً في الفقراء والمساكين مؤثراً لهم بإغاثة ملهوفهم، والقيام بشئونهم دؤوباً على فعل الخيرات، وأنواع الطاعات حريصاً على إيصال الخير لعباد الله يحب لكافة (ص 290) الخلق ما يحب لنفسه، ونشر الله له القبول في قلوب عباده، فكانت الخاصة والعامة على غاية من حبه وإجلاله يقدمونه على أنفسهم وآبائهم ويستهجون بأقواله وأفعاله، وكانت الصدقات والندور ترد عليه

من الآفاق، فلا يدخر شيئًا منها بل يصرف ذلك في وجهه، ويعود به على المحاويع.

حدثني شيخنا أبو عبد الله التنسي قال: كان شيخنا أبو إسحاق مجبولاً على الكرم والإيثار لا يدخر شيئاً، ولا يلوي على سبب، قال: ومضى أنشدناه في الجملة قول الزاهد العارف أبي العباس بن العريف:

تعاتبني في الجود والجود شيمتي	وما لي بتبديل الطباع زعيم
ولم أر مثل الجود أما حديثه	فحلوا وأما حبه قديم
(ص 291) ولا خير فيمن لا يعاش بعيثه	ولو أنه فوق السماك مقيم
ذريني فإن البخل عار بأهله	وما ضر مثلي أن يقال عديم
أرى كل طلق كان خلق حميمه	وليس لمقبوض الدين حميم
وكيف يخاف الفقر أو يحرم الغنا	كريم ورب العالمين كريم

وكان إذا شرع في بناء شيء من الأماكن المعدة لمنافع المسلمين ومرافقهم المعينة لهم على عبادة ربهم استدان ديوناً كثيرة، لذلك ففتحير أرباب الأموال في كيفية خلاص ذلك الدين ويتعجبون من قوة يقين الشيخ وكريم أحواله، فما تمر عليهم أيام قليلة حتى يفتح الله في خلاصه والمخرج منه من حيث لا يحتسب أحد.

وكان من عاداته إذا كمل الموضع بالبناء عجل بالشهادة عليه أنه حبس على الزاوية حتى إنه لم يترك (ص 292) لوراثه من الأرض شبراً، ولا ذخراً له فضة ولا تبراً.

وكان رفيع الهمة عن ملك الوقت وولاة الأمر مع رغبتهم في قضاء حوائجه وتطارحهم عليه بالكتب فيتغافل عنهم ولا يجيبهم عن كتبهم؛ لأنه

كان قليل الكتب لا يكتب إلا لبعض الناس، ومع ذلك فكانوا له على الحالة المرضية من الإجلال والتعظيم يقبلون شفاعته، ويعظمون وسيلته، وكان يقول لأصحابه إنما تكون السلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين:

هي القناعة لا تبغي بها بدلاً فيها النعيم وفيها راحة البدن

انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن

ورويانا في أخبار الولي الزاهد بشر الحافي أنه قال: رأيتُ (ص 293) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في المنام، فقلتُ له: عظمي يا أمير المؤمنين، فقال لي: «ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء طلبًا للثواب، وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله».

قال المؤلف: قوله: «ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء» عكسه «ما أقبح تواضع الفقراء للأغنياء»، والأصل فيه قوله ﷺ: «من تواضع لغني لأجل غناه ذهب ثلثا دينه»، قال الأستاذ أبو القاسم: سمعتُ أبا علي الدقاق يقول: إنما قال - عليه السلام - : «ذهب ثلثا دينه»، ولم يقل: «ذهب دينه»؛ لأن للمرء ثلاثة أشياء: قلبه، ولسانه، وبدنه، فإذا تواضع الفقير بلسانه ودينه للغني من أجل غناه فقد ذهب ثلثا (ص 294) دينه.

قال: فلو اعتقد الفقير التواضع بقلبه للغني، كما ظهر ذلك على لسانه وبدنه، فهذه حالة تعبد من المؤمن، ونعوذ بالله ممن كانت هذه صفته، وقد أنشد بعض العارفين:

حرام على من وحد الله ربه وأفرده أن يجتدي أحداً رفداً

ويا صاحبي قف لي مع الحق وقفة أموت بها وجداً وأحيا بها وجداً

وقل لملوك الأرض تجهد جهدها فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

وفي شرح الأسماء للأستاذ أبي القاسم قال: روي أن بعض الأمراء قال لبعض الصالحين: سلني حاجة، قال: أو لي تقول هذا، وقد كان لي عبدان فهوتهما وملكتهما وهما الآن سيداك، قال: ومن هما؟ قال: الحرص والهوى، فطال من غلبتهما وقد غلباك، وملكتهما وقد ملكاك.

* إجلال الشيخ التازي للشرفاء:

وكان سيدي إبراهيم (ص 295) - رحمه الله - على حالة عظيمة ورتبة كريمة من إجلال الشرفاء المنتسبين لأهل البيت، والتنويه بقدرهم والتنبيه على رفعة مكانهم، ويقول لأصحابه: تعظيم أهل بيت النبي ﷺ من تعظيمه؛ لأن حرمة ﷺ ميتًا كحرمة حيًا.

حدثني الفقيه الكاتب العلامة أبو عبد الله ابن الشيخ الصالح سيدي عيسى بن عبد السلام، أن مولانا المتوكل أمير المسلمين طيب الله ثراه وجدد عليه رحماء، بعثه في أمر مهم يُشاور فيه الشيخ سيدي إبراهيم فجرى بينهما من الكلام إلى أن قال له: سيدي والله إنني لأحب هذا الملك وأوثره لكونه جمع خصالاً من الخير الدالة على كمال العقل، ومناقب من السؤدد لم تتوفر في غيره وكفاه (ص 296) فضلاً وسؤددًا انتسابه للجناب العلي أهل بيت الرسالة ومقر السيادة والجلالة عليهم الصلاة والسلام.

قال لي الفقيه أبو عبد الله: فلمّا سمعت هذا من سيدي إبراهيم ابتهجيت به سرورًا واستردته تثبّتًا، فقال لي: لمّا قفّلت من بلاد الشرق ونزلت تونس، قصدت شيخنا الإمام سيدي عبد الله العبدوسي، وذكرت له ما عزمّت عليه من التوجه لتلمّسان، فقال لي سيدي عبد الله: إن ملوكها من الشرفاء الحسينيين. انتهى المقصود من هذه الحكاية باختصار.

ولمّا بنى سيدي إبراهيم زاويته الكريمة جعل في مدرستها المعدة لطلبة

العلم غرفة مرتفعة، وعینها لولدين من أهل البيت ورتب لهم ما يجب من حق الضیافة (ص 297).

وما زال هذا الرسم لهم إلى الآن، والبيت الآن يُعرف ببيت الشرفاء، ودرج على ذلك وصيه على زاوینته القائم بحقوقها على ما كان عليه في بدئه، وإعادته، الشيخ مبارك الصادق اللهجة سيدي أبو عبد الله محمد موسى، حضرت يومًا بوهران وقد قدم الزاوية شاب من أولاد الشرفاء برسم التجارة فتقدم إليه سيدي محمد بن موسى لينزله بمحل كرامتهم من المدرسة، فقال له السيد الشريف: أو مثلي ينزل في المدرسة مختلطًا مع الناس، فقال له: يا سيدي الشريف، هذا المنزل هو أفضل منزل في الزاوية، وفيه كان ينزلكم سيدي إبراهيم، فرد عليه الشريف بفحش من القول وهجر من الكلام الذي لا يصدر عن سلاله (ص 298) الرسالة، فتبسم سيدي محمد بن موسى وقال له قولاً لينًا، وتمادى الشريف على سبه وسب الزاوية فقام أبو عبد الله محمد بن موسى عن المجلس وتركه، ورأينا ذلك مناقب له عددنا من كرامات الشيخ - رحمه الله - .

ومن الأحاديث المروية عنه عليه السلام في حب أهل البيت: أسند أبو عبد الله بن رشيد فيما قرأته بخطه، عن أبي عباس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغزوكم به من نعمة، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي بحبي».

وأخرج الثعلبي في تفسيره بسنده، ورواه الزمخشري في كشافه، عن جابر بن عبد الله (ص 299) قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح الله له في قبره بابين إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد

جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا من مات على بغض آل محمد مات لم يشم رائحة الجنة».

وروي في كتاب المعجم لأبي القاسم الطبراني، عن ابن عباس، أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: 23]. (ص 300) قيل: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناهما».

وحدث الخطيب ابن ثابت في ترجمة عثمان بن محمد بن أبي شيبة بسنده عن فاطمة بنت الحسين، عن فاطمة الكبرى، قالت: قال رسول الله ﷺ: «كل بني أم يتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة، فإني أنا أبوهم وأنا عصبتهم».

والأحاديث في هذا الباب كثيرة سنذكر بعضها إن شاء الله في ترجمة شيخنا أبي عبد الله التنسي، قال: أنشدني شيخنا رأس العارفين أبو إسحاق إبراهيم التازي لنفسه في فوائد حب أهل البيت والاستجارة بهم: (ص 301)

أنا عبد عبد محبكم	يا آل بيت المصطفى
وبحبكم وصل الأولى	منحوه من أهل الصفا
هو والذي برا البرا	إكسير أرباب النهى
وعليه حض المهتدي	مهداهم والمقتدي
وعسى يحفظني منه أن	أحظي بنيل المشتى
وأخص بالسر الذي	بلغ الرجال به المني
يا سادتي يا عترة الهادي الشفيع المجتبى

رحمكم لمتيم	لعبت به أيدي الهوى
-------------	--------------------

فَعَسَاكُم أَن تَحْفُوهُ بِدَعْوَةِ تَشْفِي الضَّيْ
وَتَنِيلُهُ مِن حَبِّكُمْ أَقْصَى مَنَالٍ يَتَغَيُّ
لَا زَالٌ شَامِخٌ مَّجْدُكُمْ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى

(ص 302) وكان سيدي إبراهيم - رحمه الله - ممن شهر في زمانه بين أولياء الله بمقام المحبة، صرَّح بذلك في كثير من قصائده التي أودعها طرفاً من أسرار معرفته ولطائف حبه ومناجاته. فمن ذلك قوله:

وَحَبُّ اللَّهِ مَمْزُوجٌ بِكُلِّهِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَهَابِ الْفَضَائِلِ
وقوله:

جَمَالُ اللَّهِ أَكْمَلُ كُلِّ حَسَنِ فَلِلَّهِ الْكَمَالُ وَلَا مَنَارَ
وَحَبُّ اللَّهِ أَشْرَفُ كُلِّ أُنْسٍ فَلَا تَنْسِ التَّخَلُّقَ بِالْوَقَارِ
وَذَكَرَ اللَّهُ مَرَّهً كُلَّ جَرْحٍ وَأَنْفَعُ مَنْ زَلَالٍ لِلْأَوَارِ
وَلَا مَوْجُودٌ إِلَّا اللَّهُ حَقًّا فَدَعْ عَنكَ التَّعَلُّقَ بِالْفُشَارِ

تأمل جزالة هذا الكلام ووجازته مع حلاوة اللفظ واشتماله على المعاني الكثيرة، والهيبة التي تجدها عند (ص 303) ذكرك لكلامه أو سماعك إياه، فقل أن تجد ذلك في كلام غيره من أهل الطريق، وعن ذي النون المصري: «حقيقة المحبة أن تحب ما أحب الله سبحانه، وتبغض ما أبغضه، وأن لا تخاف في الله لومة لائم».

وذكر الإمام أبو المعالي شيد له في كتابه المؤلف في المحبة قال: «روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما بلغ إبراهيم منزلة الخلعة؛ لأنه لم يحب أحداً مثل محبته لله، فمن أصبح وفي قلبه غير الله فليس من الله».

وفي بعض الأخبار: أن الله سبحانه أوحى إلى داود - عليه السلام - ، يا

داود إن كنت تزعم أنك تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك، فإن حبي وحبيها لا يجتمعان، في قلب واحد.

وفي تاريخ الخطيب (ص304): عن أبي شعيب صالح بن العباس الصوفي، قال: سمعتُ ذا النون يقول: من دلائل أهل المحبة لله أن يأنسوا بسوى الله، ولا يستوحشوا مع الله؛ لأن حب الله إذا سكن القلب آنس بالله لأن الله أجل في صدورهم من أن يحبوه لغيره.

ولسيدي إبراهيم - رحمه الله - كثير من الكرامات المشهورة، وخوارق العادات المذكورة المأثورة، منها ما حدثني به شيخنا أبو عبد الله السنوسي فيما كتب لي بخطه قال:

كنا مرة عند سيدي إبراهيم مع جماعة من الفقراء الذين جرت عاداتهم بزيارته في الموسم النبوي على مشرفه الصلاة والسلام، قال: وكان ذلك في زمن الشتاء، وكثرة الأمطار، ولما قضينا الحق مع الزيارة، وأردنا السفر لتلمسان (ص305) استأذنه في ذلك بعض أصحابه اغتناماً لما ظهر في تلك الأيام من الصحو، فلم يأذن لهم وكرروا عليه طلب الإذن فلم يجبههم إليه، فأقمنا منتظرين منه الإذن مفكرين في حال الطريق؛ لأنها كانت مخوفة، قال: فبينما نحن في يوم ثقل فيه السحاب وأظلم الجو وهطلت الأمطار، بحيث لا يتوهم السفر فيه، وإذا بالشيخ قد بعث لجماعة الفقراء أن اعزموا السفر، قال: فأتينا وقلوبنا غير طيبة بالسفر في ذلك اليوم؛ إلا أنه لا تسعنا مخالفته لما جربناه من بركته ويمن نقييته، فودعناه وخرجنا مكرهين في مطر وابل وغيمة كثيف، فلم نجاوز الأجنة إلا والمطر ارتفع وتلاه السحاب (ص306) فانقشع وظهرت الشمس أحسن ظهور ولا ربح فيها ولا شبهة غيم، وكان ذلك اليوم الأول من أيام الربيع فانشرحت القلوب وانزاحت عنا الكروب، وسرنا في

أنعم الله تعالى، حتى أخذنا المساء فبيتنا في الخلاء، وما وجدنا ألم برد في تلك الليلة ولا أصابنا روع، والله الفضل والمنة، وأصبحنا من الغد سافرين على أفضل حال وأنعم بال، كأننا في زمن ربيع أو صيف فيينما نحن في أثناء الطريق، وإذا بجماعة من فرسان العرب المعروفين بقطع الطريق فما تعرضوا لنا ولا التفتوا إلينا، ولما وصلنا تلمسان تغيمت السماء وترادفت الأمطار، وكثر الثلج، واشتد البرد، ودام ذلك علينا مدة طويلة، فتذكرنا بركة الشيخ وعظيم كرامته (ص 307) وما أجراه الحق من البركة على يده، والله الحمد والشكر.

ومنها ما حدثني به والدي قال: أتيت سيدي إبراهيم في بعض قدماتي على وهران برسم وداعه وطلب الدعاء منه، فلما أردت الانصراف أمر من أخرج شيئاً من الدلاع وقال لي: يا أحمد ارفع هذا الدلاع للشيخ والدك. قال: فتعجبتُ من ذلك وقلت في نفسي: وأي حاجة لوالدي بالدلاع، ثم رفعناه على بهيمة وأتيناه تلمسان، فلما دخلت الدار وسلمت على والدي وجلست بين يديه، وإذا بفتى من فتيان الخليفة المعتصم مولاي أحمد - رحمه الله - قد دخل علينا فقال له: يقول لك السلطان: ابحث لنا عن شيء من الدلاع لمريض عندنا، وقد طال بحثنا عنه فما وجدناه، فقال له والدي: (ص 308) وأين أجده وليس هذا وقته؟ قال: فقلتُ لوالدي: الحاجة هنا وقد بعث بها إليك سيدي إبراهيم نفعا الله به، وقمت لمحلها وأخرجت منه الدلاع ودفعناه للفتى وطال تعجبنا من مكاشفة الشيخ سيدي إبراهيم - رحمه الله ورضي عنه - .

ثم لما وصل الفتى للخليفة وعرفه بالقصة فرح كثيراً وازداد في الشيخ يقيناً، نفعا الله ببركته.

ومنها ما حدثني به جماعة من مشيخة زاويته: أنه حين كان ساكناً بمصرية الحلفاوين أتاه بعض الفقراء من معارفه التازيين وأقام عنده مدة، ثم أتاه يوماً لوداعه في وقت قائلة، فقال له سيدي إبراهيم: ولعلك تمكث عندنا أياماً كي يفتح (ص 309) الله لك في رزق ترفعه لأولادك، فقال له: يا سيدي إن مثل هذه الرفقة مأمونة ونخشي أن تفوتني ويعز وجودها في هذا الوقت.

فبينما هو مع الشيخ يتكلم والشيخ قد اهتم به، وإذا بحاجب الخليفة في وهران حينئذ السلطان المولى أبو يحيى واقف على الباب مع الخليفة أبي يحيى يستأذن على الشيخ في وقت ليس من عادته الخروج عن قصره فيه، فدخل السلطان على الشيخ ومعه قرطاس من ذهب بيد الحاجب، فقال له: يا سيدي إنه قد تحرك في خاطري الوقوف عليك في هذا الوقت فأتيك بهذه النفقة لتستعين بها على ما أنت عليه من سبيل الخير، واصطناع المعروف، فتبسم سيدي إبراهيم وقال له: (ص 310) ادفعها لهذا الفقير فقبضها منه الفقير، وودع الشيخ وانصرف كما أحب مع الرفقة التي تهيأ للخروج معها، وذلك من بركة الشيخ والله الحمد والمنة.

ومنها: أنه وقع اجتماع بوهران مع تلميذه شيخ الفقراء وعميدهم وصدرهم المقدم في ملازمة الأذكار، وأثيرهم سيدي الزعيم فسأله عن صحبته لسيدي إبراهيم وأحواله، فحدثني بكثير من ذلك، ومما كتبه عنه قال: أتيت في بعض مواسم مولد النبي ﷺ على عادتي فيينما أنا عنده، وإذا بأحد أصحابه يستأذنه في الواردين من أهل تلمسان لحضور الموسم النبوي، قال: فأذن لهم الشيخ ودخلوا، فبعد فراغهم من التسليم (ص 311) قال له أحدهم: يا سيدي جاء معنا من تلمسان رجل من الفقراء اسمه أبو القاسم بن محمد القسنطيني، بقصد زيارتك وهو واقف بباب الزاوية ينتظر الإذن الخاص منكم،

قال: فتبسم سيدي إبراهيم وقال: ادخل على بركة الله، فوقعت كلمته في أذن الفقير والغرض أن باب الزاوية بعيدة من غرفة الشيخ التي كنا معهم فيها، وإذا بالفقير أبي القاسم قد دخل علينا، فلما وقع بصره على الشيخ جثا على ركبتيه وتغير لونه وتقدم بين يدي الشيخ كذلك فسلم عليه سلام رجل متأدب عارف بمقامات الأشياخ، وجلس معنا قال: يا سيدي نريد أن نسمع شيئاً من كلامكم على لسان هذا القوال، قال: وأشار لمتولي ذلك بين يدي الشيخ (ص 312)، وهو الشاب المرجوم قال: فأذن الشيخ للرخامي، فأنشد قول الشيخ في قصيدته الفلانية ذكرها سيدي الزعيم إلا أنني نسيتها، فقال له الفقير أبو القاسم: غيرها فذكر الرخامي القصيدة الواوية وجوّدها فعند افتتاحه بقوله:

أبت مهجتي إلا الولوع بمن تهوى فدع عنك لومي فالنفوس وما تهوى

صاح القسطنطيني الفقير وتواجد ثم أشار للقوال بأن قل، فقال:

هوان الهوى عز وعذب أجاجه وعلقمه أحلى من المزن والسلوى

قال: فغلب عليه الوجل وأدركنا والحاضرين بعض الوجل، ثم نزع برنوسه الذي كان عليه فأعطاه (ص 313) للقوال فقصد يسأل:

وتعذيبه للضب عين نعيمه وسعي اللواحي في السلو من العدوى

ومن لم يجد بالنفس في حب حبه فلوعته إفك وصبوته دعوى

قال: فنزع إحرامه وجبة كانت عليه من ملف أخضر، ودفع ذلك للقوال وقد غلب عليه الشوق والطرب والتواجد، فقال الرخامي:

وليس بحر من يعيده الهوى للهو الدنيا فاختر لنفسك ما تهوى

فما الحب إلا حب ذي الطول والغنا وأملاكه الأنبياء وأولي التقوى

قال: فغشي عليه وصار ملقى بين أيدينا وطال تعجبنا منه، فبينما نحن

كذلك ولم يخرج أحد من ذلك الجمع، وإذا برجل يدق الباب ففتح له، فدخل على الشيخ أحد أعيان (ص 314) العدول بوهران، ومعه جبة ملف خضراء رفيعة القدر، وإحرام وثوب فقُبل يد الشيخ وقال: هذه هدية لهذا الرجل الفقير الوارد عليكم.

قال: فاشتد تعجبنا من ذلك كثيراً كيف حركة الخاطر والفرض أنه لم يخرج أحد من أهل المجلس فتبسم سيدي إبراهيم وأذن للفقير في قبول الهدية. قال: ثم قال الشيخ - أو بعض الحاضرين - : بقي البرنوس، فما تم الكلام إلا ورجل آخر من أعيان وهران قد دخل على الشيخ ومعه قصبة ونصف من الملف الأكحل الرفيع القدر، فقبل يد الشيخ وقال له: يا سيدي تقبل مني هذه الكابة، فقال له سيدي إبراهيم: ادفعها لهذا الفقير، قال لي سيدي الزعيم: هذا مجلس (ص 315) واحد وقعت فيه جملة كرامات لسيدي إبراهيم حدث عن البحر ولا حرج.

وكان - رحمه الله - يقبل الهدية ويثيب عليها بالدعاء الصالح، فإذا أهدي له شيء قليل تلقاه بالبشاشة والقبول، وقد أبى هذا الباب كثيرون من الأولياء ممن ضيق عليهم الورع، لكن سيدي إبراهيم لما من الله عليه باتساع باب المعرفة كشف له بالبصائر المنيرة ما غطى عن أهل الورع، فلا يمد يده للطعام إلا وقد علم حله وسلامته من الشبهة عملاً بما شاهده بصيرته الوقادة، وجربه في ذلك واعتاده، قرأت بخطه دعاء كان يدعو به ويكثر استعماله، نصه:

الحمد لله، اللهم صلي على محمد، وعلى آل محمد، وهب لي من رزقك الحلال الطيب (ص 316) الواسع المبارك ما تصون به وجهي عن التعرض إلى أحد من خلقك، واجعل اللهم لي طريقاً سهلاً من غير نصب ولا تعب ولا منة، وجنبنا اللهم الحرام حيث كان وأين كان من كان، وحل بيننا وبين

أهله واقبض عنا أيديهم واصرف عنا قلوبهم حتى لا تنقلب إلا فيما يرضيك، ولا نستعين بنعمتك إلا على ما تُحب يا أرحم الراحمين.

فالواقف على هذا الدعاء يتيقن ولا يشك أن الله تعالى قد أجاب فيه دعوته، وأعطاه أمنيته وأن ما كان على الشيخ من هدايا العمال وصلاتهم إنما هو رزق ساقه الله إليه من وجه حلال، وجعله بواسطة العماء ليكثر القول (ص 317) في الشيخ - رحمه الله - ويعظم ثوابه عند الله، ومن انسدت عليه مسالك الطرق والتأويل في هذا الباب، وقد جعل لبعضه سبيلاً إلى الطعن على أولياء الله وخاصته من خلقه فليدع الله أن يوفقه ويزيل عن قلبه حجاب الغفلة وفقنا الله لذلك ويسرنا لسلوك أحسن المسالك.

وكان سيدي إبراهيم - رحمه الله - حافظاً للحديث والأخبار، ذاكرةً للأدب وحكايات أولياء الله الأخيار، حدثني بالكثير من علومه وأخباره وقوائده وأشعاره شيخنا الإمام حافظ الزمان راية الإحسان، سيدي أبو عبد الله التنسي، فمن حديث سيدي إبراهيم عن شيوخه من طريق أبي الظاهر (ص 318) السلفي، عن شيوخه، عن النبي ﷺ أنه قال:

«لنا يوم أيها الناس إنما أنتم خلف ماضين وبقية متقدمين كانوا أكثر منكم بسطة، وأعظم سطوة، أو عجوا عنها أسكن ما كانوا إليها، وغدوت بهم أوثق ما كانوا بها، فلم تغن عنهم قوله كثيرة، ولا قبل منهم بدل فدية، فبادروا لأنفسكم بزيادة مبلغ قبل أن تؤخذوا على فجأة، وقد غفلتم عن الاستعداد ولا ينفع الندم، وقد جف القلم».

ومن حديثه عن طريق البزاز، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صباح إلا وملكان (ص 319) يناديان: سبحان الملك القدوس، وملكان يناديان: اللهم اعط منفقاً خلفاً، واعط ممسكاً تلفاً، وملكان موكلان

بالصور حتى يؤمران فينفخان، وملكان يناديان: يا باغي الخير هلم، ويا باغي الشر أقصر، وملكان يناديان: ويل للرجال من النساء، وويل للنساء من الرجال».

ومن أناشيده المروية بالسند المتصل إلى محمد أبي العتاهية قال: قال الخليفة هارون الرشيد لأبي العتاهية: عطني، قال: أخافك، قال: أنت آمن. فأنشد:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس إذا تسترت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدرع منها ومحترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على بيس
(ص 320) قال: فبكى الرشيد حتى بل ثوبه.

ومن حكاياته عن شيخه سيدي أبي الفتح عن شيوخه، عن القشيري في كتابه «شرح الأسماء» قال: روي أن موسى - عليه السلام - سأل الحق سبحانه أن يريه السمك الذي عليه جميع العالم، فأوحى الله إليه أن يأتي شاطئ البحر فأتاه فبينما هو كذلك، وإذا بسمك قد أخرج رأسه من البحر كالجبل العظيم، فأخذ يصعد في الجو نحو السماء رأسه في الجو وبقية في البحر وهو يصعد متصل الصعود مدة من ثلاثة أيام، فلما رأى موسى - عليه السلام - عظيم قدرة الله تعالى في امتداد هذا الحوت، وأنه لم يستوف الصعود في هذه المدة قال: إلهي أهو مثل (ص 321) هذا السمك، فأوحى الله إليه: يا موسى إن السمك الذي عليه العالم يأكل كل يوم ألف سمك أمثال هذا السمك، فقال موسى: إلهي جلت قدرتك لا إله إلا أنت.

قرأت بخط سيدي إبراهيم قال: حدثني سيدي أبو الفتح شرف الدين، قال: حدثني والدي زين الدين قاضي القضاة أبو المناقب أبو بكر بسنده

العلي، عن رجاله، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت».

ومن خطه قال: حدثني سيدي أبو الفتح، عن والده، عن رجاله، عن الزاهد (ص 322) يوسف بن الحسين قال: قام رجل بين يدي ذي النون المصري - رضي الله عنه - ، فقال: أخبرني عن التوحيد ما هو؟ فقال: هو أن تعلم أن قدرة الله في الأشياء بلا مزاح، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه لا علة لصنعه، وليس في السماوات كل العلي، ولا في الأرضين السلفى مدبر غير الله - عز وجل - ، وكل ما تصور في وهمك فالله - عز وجل - بخلاف ذلك. ومن رواياته بالسند المتصل عن الخطيب ابن رشيد بسنده عن زهرات البساتين، عن بريدة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد آدم الدنيا والآخرة اللحم، وسيد ريحان أهل الجنة الفاغية»، قال ابن رشيد: الفاغية هي الحنار.

* حديث النرجس:

(ص 323) ومن مرويات سيدي إبراهيم - رحمه الله - حديث النرجس المسند عن القضاة الجلة بنوع من التسلسل، حدث به ابن الطيلسان عن القاضي عبد المنعم بن الفرس بسنده القاضي عن القاضي محمد بن سلامة صاحب مالك، قال: حدثنا الإمام مالك بن أنس، وهو قاضي القضاة فقيه الفقهاء، قال القاضي ربيعة، قال القاضي شريح، قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ، وهو أفضل القضاة، قال: قال رسول الله ﷺ: «شموا النرجس ولو في اليوم مرة، ولو في الشهر مرة ولو في السنة مرة، ولو في الدهر مرة، فإن في القلب حبة من الجنون، والجذام والبرص لا يقطعها إلا النرجس».

وفيه من مسندات سيدي إبراهيم أن (ص324) عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أصابه مرض فزاره الخليفة أمير المؤمنين عثمان بن عفان فقال له: ما تشتكي، فقال: الطيب أمرضني، قال: ألا أمر لك بعطاء، قال: لا حاجة لي فيه، قال: تتركه لبناتك، قال: يا أمير المؤمنين، لا أخشى على بناتي الفقر، فإني أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قرأ سورة الواقعة لم تصبه فاقة أبداً».

ومن مروياته في كتابه «المجالس المكية» عن الزاهد منصور بن عمار، عن بعض أشياخه قال: بينا مسلمة بن عبد الملك بن مروان في المسجد الحرام، إذ أتى بحجر مكتوب بالخط القديم، فقال لحاجبه: هل هاهنا (ص325) ترجمان، فأتى بوهب بن منبه فقيل له: يا أبا عبد الله قرأ ما على الحجر، فإذا عليه مكتوب: يا ابن آدم لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طول ما ترجوه من أملك، وقصرت في حرصك وحيلك، وابتغيت الزيادة في عملك، وإنما تلقى الندم لو قد زل بك القدم وأسلمك الأهل والحشم، وانصرف عنك الحبيب وأسلمك القريب، فلا أنت إلى أهلك عائد، ولا في عملك زائد، فاعمل ليوم القيامة، يوم الحسرة والندامة.

ومن مروياته في «المجالس المكية»، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من شاب شربة في سبيل الله، كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رمى بسهم في (ص326) سبيل الله بلغ أو لم يبلغ، فهو كعتق رقبة مؤمنة، ومن أعتق رقبة مؤمنة كانت فداؤه من النار».

قال ابن حفص: روينا من حديث مالك بن دينار، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أخبرني جبريل - عليه السلام -، عن الله - عز وجل - أنه قال: وعزتي وجلالي ووحدايتي وكبريائي وارتفاع مكاني،

واستوائی علی عرشي إني لأستحي من عبدي وأمتي يشيان في الإسلام ثم أعذبهما»، قال: فرأيت رسول الله ﷺ يبكي عند ذلك، فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك؟ قال: «بكيت لمن يستحي الله - عز وجل - منه، ولا يستحي هو من الله - عز وجل -».

وأنشد أبو حفص (ص 327):

نزل المشيب فأين تذهب بعده وقد ارعويت وحن منك رحيل
كان الشباب خفيفة أيامه والشيب محمله عليك ثقل
ليس العطاء من الفصول سماحة حتى تجود وإذا لديك قليل

وحدث أبو حفص بسنده عن أحمد بن حواس المجيب، وكان من خيار عباد الله، قال: رأيت يحيى بن أكثم في المنام فقلت: يا يحيى، ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه جل جلاله، فقال لي: يا شيخ السوء لولا شيبك لأحرقتك بالنار، قال: فسقطت بين يدي ربي - عز وجل - ، ونزل بي ما ينزل بالعبد بين يدي مولاه، ثم أفقت (328)، فقال لي: يا شيخ السوء، لولا شيبك لأحرقتك بالنار، قال: فقلت: يا سيدي ويا مولاي ما هكذا أخبرت عنك، فقال: يا يحيى بماذا أخبرت عني؟ فقال: حدثني عبد الرزاق بن همام، عن معمر، عن الزهري، عن أنس بن مالك، عن نبيك ﷺ، عن جبريل صلوات الله عليه، عنك تباركت وتعاليت: أنك قلت وقولك الحق، ووعدك الصدق: «لا يشيب لي عبد في الإسلام شية لم أحرقه بالنار، فقال - عز وجل - : صدق عبد الرزاق، وصدق معمر، وصدق الزهري، وصدق أنس، وصدق نبي، وصدق جبريل، انطلقوا به إلى الجنة. وعلى ذكر الشيب فقد أنشد شيخنا أبو عبد الله التنسي، قال: أنشدني شيخنا أبو إسحاق الولي قال: (ص 329) أنشدني المشيخة للإمام الفاضل أبي بكر محمد بن عبد الملك ابن زهر الطبيب -

رحمه الله تعالى - :

إني نظرت إلى المرأة إذ جلّيت فأنكرت مقلّتي كلما رأتا
رأيت فيها شيئاً لست أعرفه وكنت أعهد من قبل ذاك فتاً
فقلت: أين الذي بالأمس كان هدياً متى ترحل عن هذا المكان متى
فاستضحكت ثم قالت وهي معجبة أتى الذي أنكرته مقلّتك أتما
كانت سليماً تنادي يا أخي وقد صارت سليماً تنادي اليوم يا أتما
وينظر لهذه الأبيات ما أنشده الشيخ الإمام أبو عبد الله بن رشد لأمير
المؤمنين المستنجد بالله العباسي وقد أجاد فيما أراد:

عيرتني بالشيب وهو وقار ليثها عيبت بما هو عار
(ص 330) إن أكن شابت الزوايب مني فالليالي تزيّن الأعمار

وأنشد لبعض أفاضل التيجانيين من أهل تونس:

قالوا أتذكر وقع شيب أصبحت روضات رأسك منه ذات أزاهر
الصبح شيب اشترقت أنواره أين الظلام من الصباح الظاهر
حسنتم قبح المشيب جهالة أذكاء تخفى عن عيان الناظر
لو لم يكن للشيب إلا أنه عذر الملول وحجة للغادر

وأنشدني شيخنا أبو عبد الله بن العباس للإمام أبي الفتح بن دقيق العيد -

رحمه الله تعالى - :

تمنيت أن الشيب عاجل لحيتي وقرب مني في صباي مزاره
لأخذ من عصر الشباب نشاطه وأخذ من عصر المشيب وقاره

(ص 331) ومما ينسب لأبي الحسن بن رشيق:

لا تعجب لرأسي كيف شاب أسي واعجب لإنسان عيني كيف لم يشب

البحر للروم لا تجري السفن به إلا على غرر والبر للعرب

ومن مروياته في كتاب «الأمثال الحديثة» للقاضي أبي محمد عبد الله بن خلاد، عن عبد الله بن مسعود قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ وهو على حصير، وقد أثر الشريط في جنبه، فقلت: لو نمت يا رسول الله على ما هو ألين من هذا؟ فقال: «ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا، كمثل راكب مر بأرض فلاة فرأى شجرة فاستظل تحتها، ثم راح وتركها»، قال أبو محمد: هذا مثل في سرعة انقطاع الدنيا بصاحبها، وأن الكائن واقع (ص 322)، وأنشد للعدوي - رحمه الله تعالى - :

يا أيها الذي قد غره الأمل ودون ما نأمل التغيص والأجل

ألا ترى إنما الدنيا وزينتها كمنزل الركب دارًا ثمت ارتحل

حقوقها رصد وكرها نكر وعيشها كدر وملكها دول

ومن مروياته عن سيدي أبي الفتح كتاب «المجالس العراقية» عن مؤلفه خاتمة الحفاظ زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن العراقي، حدثني به في الجملة شيخنا أبو عبد الله التنسي، عن سيدي إبراهيم، ونرويه بأعلى من هذا السند. حدثني به شيخنا أبو عبد الله بن العباس، عن الإمام أبي عبد الله بن مرزوق، عن مؤلفه الزين العراقي، أخرج فيه بسند صحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من أوسع على عياله يوم عاشوراء، أوسع الله عليه سائر سنته».

قال سيدي إبراهيم: أنشدني شيخنا أبو الفتح قال: أنشدني شيخنا أبو الفضل العراقي لنفسه:

استفتح العام بالصيام لله في شهرك الحرام
وعاشر الشهر صم يكفر عنك ذنباً مضت لعام
ووسع العيش فيه مما يحسن من طيب الطعام
واغتنم العمر فهو ضيف لا تطعمن منه بالمقام
يمر عام من بعد عام وأنت في اللهو والتعامي
فارجع إلى الله من قريب فقد دنت صرعة الحمام
وخف بيئاً على اغترار واحذر صباحاً لذي انتقام
ولا تكن يائساً قنوطاً فاعفوا من شية الكرام
(ص 334) فاضرع إليه بصدق وقصد فإنه غافر الظلام
واسأله عفواً لما تقضي وحفظ صون على الدوام

وفيما روينا عن شيخنا أن الإمام عبد الله بن حبيب الفقيه كتب للخليفة
بالأندلس عبد الرحمن بن الحكم في ليلة عاشوراء يذكره بهذه الأناشيد:
لا تنسى لا ينسك الرحمن عاشوراء واذكره لا زلت في الأخبار مذكورا
قال الرسول صلاة الله تشمله قولاً وجدنا عليه الحق والنورا
من بات في ليلة عاشوراء ذا سعة يكن بعيثه الحول مجبورا
فبعث إليه الخليفة خريطة من الذهب وأتخاها من الثياب، رحم الله
جميعهم، وقد أنشد في هذا المعنى الخطيب أبو عبد الله بن رشيد، أنشد فيه
(ص 335) شيخنا أبو عبد الله بن العباس - رحمه الله - :

صيام عاشوراء أتى نديه في سنة محكمة قاضية
قال النبي المصطفى أنه تكفير ذنب لسنة ماضية

ومن يوسع يومه لم يزل في عامه في عيشة راضية

ومن مروياته حديث أنس في مخاطبة الحق سبحانه للذهب والفضة: أسند السمعاني، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أهبط الله آدم - عليه السلام - من الجنة إلى الأرض حزن عليه كل شيء جاوره إلا الذهب والفضة، فأوحى الله - عز وجل - ، جاورتكما بعبد من عبيدي، ثم أهبطته من جواركما فحزن كل شيء جاوره (ص 3369) إلا أنتما، فقالا: إلهنا وسيدنا أنت تعلم أنك جاورتنا به، وهو لك مطيع، فلما بدا لك فيه لم تحب أن نحزن عليه، فأوحى الله - عز وجل - إليهما كذا كان وقد وشى بكما في قلة حزنكما عليه، وعزتي وجلالي لأعزكما ولأرفعن من قدركما حتى لا ينال أحد من أولاده شيئاً إلا بكما».

وقرأت في كتاب «الحلية» لأبي نعيم، عن معاوية بن عبد الله الجعفري، عن كعب الأحبار، أنه قال: أول من ضرب الدينار والدرهم، آدم - عليه السلام - ، وقال: لا تصلح المعيشة إلا بهما، ورحم الله القائل:

النار آخر دينار نطقت به واللهم آخر هذا الدرهم الجار

والمرء بينهما ما لم يكن ورعاً مقلب القلب بين الهم والنار

(ص 337) ومن شعر الإمام الأستاذ أبي عثمان بن ليون قوله:

ما صديق الإنسان في كل حال يا أخي غير درهم يقتنيه

لا تعول على سواه فتغدو خائن القصد دون ما تبغيه

وحدثنا شيخنا أبو عبد الله التنسي، عن سيدي إبراهيم فيما حدث به إجازة عن شيوخه، عن القاضي أبي الفضل عياض، عن شيوخه، عن الأصمعي قال: بينا أنا في الطواف إذ رأيت جارية متعلقة بأستار الكعبة، وهي تقول: إلهي

وسيدي إن طالبتني بحفظك طالبتك بعفوك، وإن أخذتني بذنوبي أتيتك بتوحيدك، وإن أدخلتني النار مع أعدائك، أعلمتهم بمحبتني لك، قالك فقلت: أحسنت والله يا جارية، فأنشدت تقول: (ص 338)

أفريت عمرك والذنب تزيد والرب يُحصى والرقيب شهيد
حتى متى لا ترعوي عن لذة وحسابها يوم العقاب شديد
فكأنني بك قد أتيت منية لا شك أن سبيلها مورود
قال: ثم شهقت فماتت.

قصة ابن الخراز الوهراني

وحدثنا عن سيدي إبراهيم إجازة قال: حدثنا عن الخطيب أبي بكر قال: قال سهل بن عبد الله التستري: الدنيا كلها موات إلا العلم، والعلم كله حجة إلا العمل، والعمل كله هباء إلا الإخلاص، والإخلاص له خطر عظيم حتى يختم.

وقرأت فيما أسنده سيدي إبراهيم عن شيوخه إجازة عن القاضي أبي الفضل عياض، عن أبي العباس العذري قال: سمعت الرجل الصالح الفاضل العالم أبا القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ص 339) الوهراني يقول: كنت مرة في بغداد وقد انصرفت من مجلس سماع الحديث، فبينما أنا ذاهب في الطريق ومخبرتي معلقة في يدي، وإذا بعجوز قد استقبلني فأنكرت زبي وهياتي، وقالت لي: بالله من أين أنت؟ فقلت لها: من المغرب، فقالت: إن هذا لعجب فما الذي أقدمك من هذه البلاد؟ قلت: أقدمني طلب العلم، فقالت: غير هذا؟ قلت: نعم، فأخرجت من كمها رداءً لها ومدته بالأرض وقالت: سألتك بالله ألا مشيت عليه مقبلاً ومدبراً، قال: ففعلت، وقلت لها: ما غرضك في هذا؟ قالت: لم يكن هذا الرداء كفني بما فيه من غبار قدمك، إذ قد جئت من أقصى

المغرب إلى المشرق تطلب العلم، فأنت من أهل الجنة؛ لأنه قد روي عن النبي ﷺ (ص 340) أنه قال: «من أغبرت قدماه في سبيل الله وجبت له علي الجنة». انتهى

قال المؤلف وفقه الله: هذا الشيخ الوهراني المذكور في هذه الحكاية عرف به أبو القاسم بن بشكوال في كتابه المؤلف في رجال الأندلس فقال: عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد الهمداني الوهراني، ويعرب بابن الخراز، يكنى أبا القاسم، وكان رجلاً صالحاً منقبضاً عن الناس، حدثوا عنه أنه قال: لما رويت الجامع الصحيح بخراسان ذكر لي عن رجل من أهل الحديث اسمه علي بن محمد الترابي فقصدت إليه فوجدته يقرأ القرآن في المصحف، فقلت له: مثلك يقرأ في المصحف، فقال لي: ليس في أصحاب الحديث أحفظ مني للقرآن، وأنا إمام قومي أصلي بهم الأشفاع (ص 341) في كل عام، وكثيراً ما كنت أقرأ في المصحف فلما كبر سني وضعف بصري تركت القراءة في المصحف، وكان ابن أخي يقودني إلى المسجد أصلي بالناس الفريضة فنمت ذات ليلة فرأيت النبي ﷺ فقال لي: «يا علي لم تركت القراءة في المصحف؟» فقلت: يا رسول الله، ذهب بصري، فقال لي: «ارجع إلى القراءة في المصحف يرد الله عليك بصرك»، فلما أصبحت صليت بقومي الفريضة، ثم انصرفت إلى منزلي، فقلت لهم: اعطوني المصحف ففتحته وأخذت في القراءة من حفظي، وأنا أفتحه ورقة، فما طلع النهار إلا وقد بدت لي حروفه أجمع فتماديت في القراءة فيه، فلم يأت الظهر إلا وقد عاد إلي بصري كله كما كان والحمد لله، فأنا من يومئذ لا أفتر عن (ص 342) القراءة في المصحف. انتهى

وروي عن أبي القاسم الوهراني هذا جماعة من أكابر العلماء منهم الحافظ أبو عمر ابن عبد الله، وأمثاله، وكانت وفاته بالمرية سنة إحدى عشرة

وأربعمئة وهو ابن تسع وثمانين سنة⁽¹⁾.

قلت: وكانت وهران في القديم دار علم خرج منها جماعة من العلماء ففي تاريخ ابن خلكان في المحمدين، أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب ركن الدين، قدم الديار المصرية أيام السلطان صلاح الدين بن أيوب فولي الخطابة بظاهر دمشق زمناً طويلاً وتقل في البلاد كثيراً، ومات - رحمه الله - في سنة سبع وخمسين وخمسمائة⁽²⁾.

قال: والوهراني بفتح الواو وسكون الهاء (ص 343) وفتح الراء، وبعد الألف نون، نسبة إلى وهران مدينة كبيرة من أرض المغرب بينها وبين تلمسان مسيرة يومين وهي على البحر، خرج منها جماعة من العلماء وغيرهم، انتهى كلام ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان».

وفي كتاب «عنوان الدراية المؤلف في علماء بجاية» ومنهم الشيخ الفقيه العابد الصالح المبارك المتعفف المذكر أبو تميم الواعظ من أهل وهران سكن بجاية واشتغل بها بعلم التذكير واستدعاء الخلق لباب الله تعالى، وكان له مجلس يروق الحاضرين ويسر الناظرين - رحمه الله ورضي عنه - .

وفوائد أخبار سيدي إبراهيم - رحمه الله - كثيرة فلنقتصر على هذا الطرف ففيه جملة كافية (ص 344) وغنية شافية، وكان سيدي إبراهيم قد بلغ الرتبة العليا ودرجة النهاية في مقام الحلم والتجاوز عمن تعرض لأذيته، ما بلغنا عنه قط أنه انتصر لنفسه أو تسبب في انتقام ذوي الإذية، حدثني الثقة أن سيدي إبراهيم كان يدعو لأهل إذايته وأنه ما عني بقوله في العقيدة وأسمح وأغفر لأصحابنا إلا من كان يتعرض له أو لأصحابه بالإذية.

(1) الموافق (27 أبريل 1020م - 16 أبريل 1021).

(2) الموافق (21 ديسمبر 1162 - 9 ديسمبر 1163م).

وهذا عند أرباب الحقائق من اتساع المعرفة بالله وكمال الإيمان؛ لأنه إذا رحم بك من ظلمك فقد بلغت درجة الصديقين الرحماء، وقد كان بمدينة وهران جماعة من الجهلة العظام المتشبهين في فئهم ورياستهم بسفلة العوام، ينتقدون عليه أحواله في لباسه ومأكله (ص 345) ويحتجون عليه مخالفتهم لصفات الشيخ سيدي محمد الهواري في ذلك، وهم يعلمون أنه كان على تلك الصفة في حياة سيدي محمد وعلى نظره فسول لهم الشيطان الكبر والحسد والتنافس، وقديماً قيل: عوام الناس عدو لخواصهم، فكانوا ينكرون كرامة الله المودعة عند سيدي إبراهيم، ويتعرضون بالقول والفعل لأصحابه، فإذا بلغه ذلك تبسم وحمل أصحابه على الحلم والتجاوز، ويعددهم بأن العقاب لهم ويقول لهم: ليس منا من انتصر لنفسه، وإنما ينتصر الله لنا فإنه الغالب الذي لا يغلب والنهار الذي لا يعجزه شيء، فكانه يشير لقوله تعالى:

﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَتُكِنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ۝﴾ [القصص: 5، 6]. (ص 346)

ولقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83].

ومما أنشده الإمام تقي الدين بن دقيق العيد - رحمه الله - :

خالق الناس بأخلاق الرضى	تملك الأحرار من غير ثمن
لا ثقل في الحلم ذل فلکم	ساد أهل العلم في كل زمن
إن للصبر عليه مسلکاً	ليس يرقى فيه إلا من ومن

وهذا الذي كان عليه سيدي إبراهيم هو من كرامات سيدي محمد الهواري وفراسته الصادقة بعد موته؛ لأنه قال في كتابه التنبيه مشيراً لسيدي

إبراهيم:

تلميذي نحب يكون يا صبي شبيه أطيب
(ص 347) وقلبو يكون أبيض كلبنا يكون أحلى

فلما كان سيدي إبراهيم وفق أمنية الشيخ سيدي محمد الهواري وعلى العادة المرضية من حقيقة الصدق وإخلاص المراقبة مع الله، وعلم أنه بعين مولاه وأسلم نفسه إليه، وألقاها بين يديه، وترك الانتصار لنفسه، لا جرم أن كفاه الله أمر أولئك الحسدة على ما جرت به سبيل الله وشريعته في المحاربين لأوليائه أن يتولى الحق - سبحانه وتعالى - محاربة من حاربهم ومغالبة المستهزئين بهم فكان كما قال.

ولقد شاهدنا جماعة منهم عوقبوا بأنواع العقوبات منهم من طال سجنه، ومنهم من غرب عن بلده الزمن الطويل، ومنهم من صار (ص 348) عوناً للظلمة يستعملونه في سخرية الحشم، ومنهم من نكس على عقبيه وطبع الله على قلبه، فكان يرد وجهه لقبله ويتهافت على حكامها لخدمة الفانية إلى أن بلغ أرذل العمر ومات على حالة سيئة، وجعل الله ماله نهباً للولاة، ومنهم من عاقبه الله بالعمى، ومنهم من أقامه الله في إذابة عبادته وجعله كلباً عقوراً لأحبابه وأصفيائه، ثم سلط عليه من قتله بالحديد وأذاقه العذاب الشديد، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: 127]. وما أحسن قول القائل: لحوم الأولياء مسمومة، وعادة الله فيمن تنقصهم وأذاهم مقرر معلومة.

تنبيه:

عادة الله وسنته في أنبيائه (ص 349) وخاصة من أوليائه أن يجعل العباد لهم على قسمين: قسم يعتقدهم ويصدق بعلمهم وأسرارهم، وذلك من

سبقت له السعادة، واصطفاه الحق سبحانه لدار الحسنى والزيادة، وقسم ينتقد عليهم ويكذبهم فيما أخبروا به حسداً وبغياً وكراهية أن يكون لأحد عليهم شقوق في منزلة، واختصاص بمنه، وذلك من سبقت له الشقاوة وغلب عليه الجهل واستولت عليه الغباوة.

فتجد العموم يستبعدون كرامة الأولياء، وتستغرب عقولهم نعم الله عندهم، ثم يحملهم ذلك الحسد على إذاية أوليائه والتسلط عليهم وعلى من تعلق من أحبابه وأصفيائه، فيمد الحق سبحانه ذوي الولاية العرفانية والعناية الربانية (ص 350) بالصبر لترتفع أقدارهم وتزهر أنوارهم.

قال أئمتنا: وفائدة ذلك وسر حكمته أن يخلص الله قلب وليه من إحسان الخلق، ويتعلق نظره بالملك الحق لا إله إلا هو إذ لو كان الخلق كلهم مصدقين للولي لفاته ثواب الصبر على تكذيب المكذبين منهم، ولو كانوا كلهم مكذبين له لفاته الشكر على نعمة تصديق المصدقين له، فالولي قائم بحق عبودية مولاه فيمن صدقه بالشكر، وفيمن كذبه بالصبر.

تنبيه ثاني:

لما طبع الله على قلب هؤلاء الجهلة المبعدين عن رحمة الله المحجوبين عن إدراك نور الله في أوليائه، أنكروا حال سيدي إبراهيم، وقالوا: أنه لم يكن زاهداً في لباسه ومطعمه.

وما علم (ص 351) هؤلاء الجهلة أن الزهد في الدنيا هو اعتقاد حقارتها وملازمة هوانها، وعدم ركون النفس إلى لذاتها، أما فراغ اليد منها وتركها في الظاهر مع تعلق القلب بها في الباطن فليس ذلك من الزهد في شيء، وكيف يتوهم على سيدي إبراهيم أنه كان ممن يحب الدنيا وهو القائل في قصيدته:

دنياك دار غرور حبها سفه رأس الخطايا بمن يغرم بها بعدا

ومن مذاهب أئمة الصوفية أن الله تعالى جعل لأوليائه حجباً تحجبهم عن الجهلة المبعدين عن رحمته، وغدّوا من جملة الحجب التزين بزي أهل الدنيا في لباسهم ومطعمهم.

كان سيدي إبراهيم - رحمه الله - إذا أتاه أحد من هؤلاء المنكرين عليه يرفق به، ويأنس إليه، ويلين في القول لهم (ص 352) ويدعو بالخير لجماعتهم عملاً بالحديث الصحيح الوارد عنه ﷺ، رويانا عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أبدال أمتي لم يدخلوا الجنة بأعمالهم، ولكن دخلوها برحمة الله وسخاوة الأنفس، وسلامة الصدور، ورحمة المسلمين».

قال أئمتنا: قوله في الحديث: «لم يدخلوا الجنة بأعمالهم» يعني: بالحركات الظاهرة من الصلاة والصيام والصدقة، إذ قد يجوز أن يكون في عصرهم من هو أكثر عملاً منهم لكن دخلوا الجنة بسخاوة الأنفس وسلامة الصدور ورحمة المسلمين، وهذه الخصال هي من أعمال القلوب التي تفردوا بها عن غيرهم ووصلوا بها إلى محبوبهم.

وقد (ص 353) قال ﷺ في أبي بكر الصديق: «أنه لم يفضلكم بكثرة صلاة وصيام، ولكنه فضلكم بشيء وقر في صدره»، قالوا: ومعنى سخاوة الأنفس هو عدم الركون إلى شيء مما يشغل عن ذكر الله وعبادته، وسلامة الصدور هو من باب الرضى بقضاء الله وقدره، وهو أعلى درجات الصديقين؛ لأن المؤمن إذا قوي يقينه في باب الرضى والتسليم وعلم أن مصدر الأمور كلها عند الله سلم صدره عن غوائل الحقد والحسد، ومعنى رحمة المسلمين الشفقة على خلق الله في تحمل أقوالهم ونصحهم والتودد لهم، ومن رحمة المسلمين أن يصرف وجوه الخلق إلى الله ويرغبهم في طاعته ويذكرهم (ص 354) بجنته، وأن يردهم في طلب الحوائج إليه، وهذه كانت حالة سيدي إبراهيم - رحمه

الله - على ما خبرناه من أوصافه الجميلة، ونقل إلينا نقل تواتر، ومن قوله مشيرًا لحاله وحال حسدته الطاغين عليه ما ذكره في قصيدته ذات الوصايا والحكم، حدثنا بها شيخنا أبو عبد الله التنسي يقول فيها:

سلامة الصدر من خير الخلا فمن	أتى بقلب سليم ربه سعدا
والحق قد طبع ذميم عد عنه وعد	بالله رب العالمين من شر من قد
وجنب الحسد المذموم صاحبه	ما رأى قط حسود ساد أو مجدا
نعوذ بالله من شر الحسود فما	يمسي ويصبح إلا ساخطا كمد
عادي مواهب ذي الفضل العظيم	فعاداه السرور فمهموم يرى أبدا

(ص 355) ومن تأمل حال سيدي إبراهيم - رحمه الله - على أن الله أقامه في درجة الغني الشاكر واختلف أئمتنا أيهما أفضل: الغني الشاكر، أو الفقير الصابر، والجمهور على أن درجة الغني الشاكر أفضل من درجة الفقير الصابر. حدثت عنه أنه كان يأتيه كل يوم من ملاذ الطعام ومختار الفواكه ما يتعجب الحاضرون منه فيقدمه للفقراء والصوفية من الواردين عليه، وتلقيت من الجرم الغفير من أهل وهران أن الطعام الذي كان يأتي لزواية سيدي إبراهيم لم يكن له وقت معلوم على ما جرت به العادة في الدور، وإنما كان يسيل على الدوام من طلوع الشمس إلى صلاة العشاء، (ص 356) ثم يبعث الله له من جعل له فيه رزقًا من الزوار والمحاييج، وحدثني كثير منهم أنه من حين مات سيدي إبراهيم قلّ أكلهم لملاذ الأطعمة في دورهم، قالوا: لما كان سيدي إبراهيم بقيد الحياة كنا على أفضل حال في رغد العيش، وكثرة الأرباح في التجارة، وكان لنا من التنافس في اتخاذ الأطعمة الفاخرة والاعتناء بما يرفعه الواحد منا لزواية سيدي إبراهيم من ذلك لا عهد لنا به اليوم.

وكنّا نأكل ما يفضل علينا منه في دورنا ونرى له من البركة في التيسير وسهولة ذلك على الخدام أهل الدار ما فقدنا مثله بعد وفاته.

وهذا (ص 357) من كرامات سيدي إبراهيم المشهورة ومفاخر مناقبه المأثورة المذكورة، وكان سيدي إبراهيم - رحمه الله - يحب الحلو والعسل والفواكه ويستعمل ذلك أثر الطعام ويقدمه للواردين عليه كثيراً.

روينا من حديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «قلب المؤمن حلو يحب الحلوة». وأسند الخطيب أبو بكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب من يحب التمر».

وحدث الرشاطي في كتابه قال: كان أبو عبد الله الحسن بن خالد الأذري مؤلف كتاب «اللامع في أحوال الفقه» من أفاضل وقته كريم الطباع مليح الدعابة، وكان مولعاً في طعامه بالحلواء، وكان أصحابه قد علموا ذلك فمتى (ص 358) حضر عندهم قدموا إليه في آخر أطعمتهم الحلواء فأغفل في بعض الأحيان، فلما أخذوا في الانصراف قال الأذري: أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم نصف الملائكة، فقبل له: إنما هو وصلت عليكم الملائكة، فقال: بقي النصف الثاني مع الحلو، وكانت وفاته هذا الفاضل الأذري سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة⁽¹⁾، ولنقصر على هذه الجملة من أخبار سيدي إبراهيم وفوائده ومروياته، وكانت وفاة سيدي إبراهيم - رحمه الله - يوم الاثنين تاسع شعبان من سنة ست وستين وثمانمائة⁽²⁾.

قال المؤلف وفقه الله: وإن فاتي بركة لقائه، فلم يفتني صالح دعائه بفضل الله، كان يكتب لوالدي ويسلم علي ويدعو (ص 359) لي بما أرجو قبوله

(1) الموافق (19 ديسمبر 1031 - 6 ديسمبر 1032م).

(2) الموافق (9 ماي 1462م).

بفضل الله ورحمته، وكان في صدر مكتوبه لوالدي:

الحمد لله، اللهم صلي صلاة كاملة وسلم سلامًا تامًا على نبي تنحل به
العقد، وتنفرج به الكرب، وتقضى به الحوائج، وتنال به الرغائب، ويستسقى
الغمام بوجهه، وعلى آله وصحبه، رحم الله سيدي إبراهيم ونفعنا ببركة
أسرارهِ، وأفاض علينا من فضائل أنوارهِ، وعظيم مقداره بفضل الله ورحمته.

رابعًا: الشيخ أحمد الغماري

ثم يتلوه رابع القوم حليف القيام والصيام، جمال هذه العصابة وختم أوصافها المستطابة: أحمد (ص 360) بن الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى الرياحي، شيخنا وسيدنا ومولانا وبركتنا.

أبو العباس سيدي أحمد بن الغماري، نزيل بلدنا تلمسان، قال لي لما أملت علي نسبه: نحن من عرب رياح وإنما قيل له: الغماري؛ لأنه كان سكن بطيوة وبلاد غمارة في صحبته لخاتمة أولياء الله بالبلاد المغربية سيدي الحاج موسى البطيوي مدة طويلة، فصارت لغته كلغتهم.

(ص 361) وأهل بلادنا ينسبون صاحب تلك اللغة لغمارة، وأمه من الشرفاء الحسينيين، حدثني بذلك عنه عميد أصحابه ووارث مقامه شيخنا البركة الولي العابد سيدي عبد الله بن منصور، كان سيدي أحمد - رحمه الله - ورضي عنه - رأس الزهاد في زمانه، وبرنامج المحاسن بين أقرانه، إمامًا في علوم القرآن مقدمًا في المقامات والعرفان، حافظًا للحديث وسير النبي ﷺ، بصيرًا بالفقه، ذاكرًا (ص 362) لكثير من التفاسير، وكان وصافًا للخير موصفًا به، سالم الصدر عظيم القدر، أخذ عن جماعة من أعلام الأولياء وأكابر مشايخ الوقت بالبلاد المغربية أودعوه مكنون أسرارهم، فلاحته عليه بركات أنوارهم كالشيخ الإمام الولي الشهير سيدي الحاج موسى بن يعقوب البطيوي، والشيخ العلامة العظيم الشأن سيدي أحمد الماواسي، وعليه كان اعتماده في علوم القرآن وحقائق أهل العرفان (ص 363)، والشيخ الصالح الولي الناصح سيدي محمد بن يخلف، والشيخ الإمام حكيم زمانه وجنيد أقرانه، سيدي محمد بن عمر الهواري، وكان سيدي أحمد أحد أولياء الله الذين أظهرهم الله للعباد،

داعيًا إلى طريق التوفيق والسداد، مؤيدًا بما ألبسه الله من حُلل كرامته، مؤزرًا بما وضع له من القبول في قلوب خليفته.

وأما درجة الزهد ورتبة الورع، فقد بلغ فيهما الغاية وجاوز النهاية (ص 364) وكان ناصحًا للمسلمين، مشفقًا عليهم يسره ما يسرهم ويسوؤه ما ساءهم، قائمًا بحقوقهم مخلصًا بأعماله كلها لله - عز وجل -، يُحب لكافة المسلمين ما يحب لنفسه، وكان مسارعًا إلى الصلح بين ذوي القربى سباقًا إلى أعمال البر والتقوى، طويل الصمت لين الجانب، سريره أفضل من علانيته، متحملاً لأذى الخلق على كثرة طلباتهم، وعلى الجملة فقد كانت الولاية عليه ظاهرة، وشواهداها (ص 365) عليه باهرة، وحالاته كلها في لباسه الخشن، وكلامه اللين وخوفه البين، مما يذكر بالدار الآخرة، ويهدي للأنس بالله.

وكان من أرباب المجاهرات، وأهل الأحوال والمقامات ملازمًا للأوراد من قراءة، وأذكار، وصلاة ليل، وصوم نهار، لا يفتر عن ذلك ولا يسأم منه، حتى أنهكته العبادة وأضعفت قواه وانحلت جسمه، وغيبت وجهه، ومالت بالقذا عينه - رحمه الله -، وكان آية من آيات الله في إخلاص (ص 366) الإيثار، وعدم الادخار وتكفل الله بإجراء حاله فكانت تجيء إليه ثمرات كل شيء، ويقصده الناس بالصدقات والنذور، وربما جاءه من الذهب المائة والمائتان فلا يدخر ذلك ولا يتفنع في خاصة نفسه بشيء منه، وإنما يفرقه في الفقراء، والمحاييج من أهل السر والعفاف، يتولى ذلك بنفسه وكثيرًا ما كان يتولى خدمة المرضى من الفقراء بنفسه، ويستقي لهم الماء بنفسه ويحمل لهم الماء في يد والطعام في يد إلى منازلهم ويفتقد (ص 367) أحوالهم ويؤنس غربتهم، شاهدنا منه ذلك كثيرًا نفعه الله بجميل قصده، وإنما كان - رحمه الله

- أباً للفقراء وآمالهم، ما رأينا أشد حباً للمساكين منه رغبةً في الثواب، روينا من حديث عطاء بن أبي رباح، عن أبي سعيد الخدري قال: «أحبوا المساكين فإنني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «اللهم أحييني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرنني في زمرة المساكين». وكان أكله ولباسه (ص368) من عمل يده يقتل الدوم اليابس، ويجعل منه جزءاً يسارع الناس لشراؤه فيعود ببعض ذلك على نفسه ويتصدق بأكثره؛ لأنه كان على غاية من الزهد والورع والتقشف في لباسه وطعامه وفراشه، وكان ذلك كله من عمل يده، عملاً بقوله ﷺ: «أحل ما أكل العبد من كسب يده».

له في ذلك كله أخبار مأثورة مذكورة، وكان يجلس بعد طلوع الشمس لمن يقصده من قراءة القرآن وأهل الخير (ص369) والصلاح، وذوي الحاجات من أصناف الناس عمومًا على اختلاف طبقاتهم فيسمع من قارئهم قراءته، ويجيب من سأل من الصلحاء وطلاب العلم، ثم ينصرف بكلية لذوي الحاجات فيصبرهم ويؤنسهم ويغيث ملهوفهم، ويكتب ملك الوقت وأرباب الدولة فيقضي الله على يده كثيرًا من رد الظلمات، وفك العنات.

هذا كان حاله الذي أدركناه عليه، وما زال كذلك مهتمًا بقضاء حوائج (ص370) المسلمين حريصًا على إيصال الخير لهم، راعيًا لما في ذلك من ثواب، روينا من حديث أهل البيت الكريم عليهم من الله أفضل الصلاة وأكمل التسليم، عن سيدنا الحسن بن علي عن أبيه، عن جده ﷺ أنه قال: «من أجرى الله على يده فرجًا لمسلم فرّج الله عنه كرب الدنيا والآخرة». وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عبادًا يرغب الناس إليهم لحوائجهم، وإدخال السرور عليهم، أولئك الآمنون من عذاب الله يوم القيامة».

(ص371) وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له

وسيلة إلى سلطان قدفع بها مغرمًا، أو جرّ بها مغنمًا، ثبت الله قدميه يوم تدحض الأقدام».

وعن زين العابدين علي بن الحسين، عن أبيه الحسين، عن جده علي - كرم الله وجهه - أنه قال: «إن الله - عز وجل - خلق خلقًا من خلقه فجعلهم للناس وجوهًا وللمعروف أهلاً، يفرع الناس إليهم في حوائجهم أولئك الأمنون يوم القيامة».

وخرج الخطيب أبو بكر عن علي أنه قال: «إن الجنة لتشتاق إلى من سعى لأخيه (ص 372) المؤمن في قضاء حوائجه ليصلح شأنه على يديه، فاستبقوا النعم بذلك فإن الله الكريم يسأل الرجل عن جاهه فيما بذله، كما يسأله عن ماله فيما أنفقه».

ومن مرويات القاضي الإمام أبي صالح نصر بن الشيخ الإمام أبي محمد عبد الرزاق بن شيخ الشيوخ سيدي عبد القادر الجيلي في كتاب «قضاء حوائج الإخوان»، بسنده المتصل إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال سالم: حدثني أبي عبد الله بن عمر قال: لقيني علي بن أبي طالب - عليه السلام - ، وهو منصرف من مسجد القبلتين فقال لي: يا ابن عمر ألا أحدثك حديثًا (ص 373) حدثني به رسول الله ﷺ، عن جبريل - عليه السلام - ، عن ربه - عز وجل - أنه قال: «ما من قوم يكونون في عبادة إلا تتبعها عبادة وكل نعيم زائل، إلا نعيم أهل الجنة، وكل هم منقطع إلا هم أهل النار، فإذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تمحوا سريعًا، وأكثر صنائع المعروف فإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وما من عمل بعد أداء الفرائض أحب إلى الله - عز وجل - من إدخال السرور على المؤمن». ثم قال: دونكهن يا ابن عمر، قال سالم: فشرح الله بهن (ص 374) صدري. وروينا أن الخليفة المأمون قال

في زمن صباه لمؤدبه يحيى بن خالد: يا يحيى اغتنم قضاء حوائج الناس فإن
الفلك أدور، والدهر أجور من أن يترك لأحد حالاً أو يقي لأحد نعمة، وفيما
قرأته بخط أحد فضلاء العارفين، أنشد وكيع قال: أنشدني محمد بن الجهم
قال: أنشدني القراء - رحمه الله تعالى - :

اقض الحوائج ما استطعت وكن بهم أخيك فارح
فلخير أيام الفتى يوم قضى فيه الحوائج
وأنشد أيضاً:

إذا لم يكن للمرء فضل ولم يكن (ص 375)

يجلي على إخوانه لم يسود

وكيف يسود القوم من هو مثلهم

بلا مئة منه عليهم ولا يد

وعلى الجملة فقد كان شيخنا سيدي أحمد - رحمه الله - إمام الدنيا في
وقته، ومن أجمع الناس لخصال الكمال، وممن اتفقت الأمة على ولايته،
وكان المسلمون كلهم عنده كرجل واحد، وكان لهم كالأب الشفيق على
أولاده. وكان - رحمه الله - شديد الرغبة في بذل الصدقات وفك الأسارى،
وعتق الرقاب، وبناء ما خرب من المساجد محباً في الضعفاء والمساكين،
مؤثراً (ص 376) لهم بالسؤال عن حالهم والصدقة سرّاً عليهم ينسلون إليه من
كل حذب فلا يرد أحداً منهم خائباً، ويعطيهم حتى كساءه التي تكون عليه
وبرنسه الذي يغطيه، وكان على حالة عظيمة من التواضع وكرم الأخلاق يقبل
على جلسائه بالأخلاق الحسنة، والمواظظ المستحسنة ويذكرهم بالدار
الآخرة.

قد صاغه الله من مسك ومن ذهب

وصاغ راحته من عارض هطل

وكان مشايخ الوقت يعظمونه ويقصدون منزله ويتذاكرون فيما بينهم أن مجلسه من كنوز (ص 377) الرحمة ومعادن البركة، وكانت الخاصة والعامة تحت طاعته لا بالتزام أمر، ولا لمخالفة شر، وإنما كان أهل زمانه كلهم يحبونه كحبهم لأبائهم وأمهاتهم، ويطلعونه على خفي أسرارهم فيجدون بركة في ذلك، وكثيراً ما وصل الله بسببه أرحاماً كانت مقطوعة، وأصلح على يده أحوالاً عظيمة لا يأتي صلاحها إلا على يد أوليائه، وخاصة أصفياه.

وكان إذا كتب لأحد من ولادة الأمر أو بعث إليه رسولاً في شيء من حوائج الناس وتعذر قضاء تلك الحاجة ربما تكلم أهل مجلسه في ذلك ولاموا (ص 378) المكتوب إليه فيقول لهم الشيخ - رحمه الله - : كان بعض من مضى إذا تكلم في حاجة يقول من قضى لنا حاجة حمدنا الله وشكرناه، وإلا حمدنا الله وعذرناه، قلت: كأنه - رحمه الله - يشير لمسألة الإمام المحدث القاضي العدل الشهير أبي عبد الله سوار بن عبد الله قاضي بغداد سنة اثنين وأربعين ومائتين⁽¹⁾.

حدث القاضي إسماعيل قال: دخل سوار بن عبد الله القاضي على الوزير محمد بن عبد الله بن طاهر فقال: أيها الأمير إنني جئت في حاجة رفعتها إلى الله قبل رفعها إليك، فإن قضيتها حمدنا الله وشكرناك، وإن (ص 379) لم تقضها حمدنا الله وعذرناك، قال: فقضى جميع حوائجه، وكان ربما مشى بنفسه في دفع مظلمة أو رفع وظيف، فكان بعض أصحابه يقول له: يا سيدي

(1) الموافق (10 ماي 856 - 29 أبريل 857م).

تتكلف المشي على قدميك فهلا بعثت بكتابك أو برسولك فيتسم - رحمه الله - ويقول: لعل هذا أنفع لنا ولهم، وكأنه والله أعلم يشير لحديث ابن عباس.

روينا في كتاب «قضاء حوائج الإخوان» عن ميمون بن زهران، عن ابن عباس: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الناس أحب إليك قال: «أنفعهم للناس، وأن من أحب الأعمال إلى الله - عز وجل - سرور (ص 380) تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تسد عنه جوعاً، وأن أمشي مع أخ لي في حاجة أحب إلي من أن أعتكف شهرين في المسجد الحرام».

وروينا عن الحسن بن علي أنه كان يطوف بالكعبة فقام إليه رجل، فقال: يا أبا محمد، نريد أن تذهب معي إلى فلان لحاجة لي عنده، فترك الحسن الطواف وذهب معه، فقضيت حاجة الرجل، فلما رجع الحسن قام إليه رجل فقال: يا أبا محمد تركت الطواف، وذهبت في حاجة رجل، فقال له الحسن: وكيف لا أفعل ورسول الله ﷺ يقول: «من ذهب في (ص 381) حاجة أخيه المسلم فقضيت كتب الله له حجة وعمره».

فقد اكتسب حجة وعمره ورجعت إلى طوافي، وقد كان سيدي أبو الحسن الشاذلي على جلاله قدره يقول لأصحابه: قوموا بنا نشفع في هذا المسكين فيصل أبواب الأمراء ويقف عندها لقضاء حوائج عباد الله.

حدث المعتنون بأخبار هذا الولي السيد الشريف أبي الحسن، أنه إذا أراد المشي للولادة لبعض الشفاعات، وكان الغالب عليه أنه لا يأتيهم بنفسه إلا في مصالح المسلمين العامة، فعند تهيئته للمشي يقول: «اللهم اجعل (ص 382) مشي إليه تواضعاً لوجهك وابتغاء لفضلك ورضوانك، ونصرة لك ولرسولك، وزيني بزينة الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يتغنون فضلاً

من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون، واغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم».

وحدث التاج في كتابه: أن سيدي أبا الحسن أتاه بعض الطلبة يستشفع به لبعض ولاية الأحباس في أن يزد له في مرتبه شيء، قال: فذهب سيدي أبو الحسن معه لناظر (ص 383) الحبس وكلمه في أن يزد للطالب في مرتبه عشرة دراهم، فقال له الناظر: يا سيدي إن هذا الطالب صاحب مرتبات عديدة له في المكان الفلاني كذا، وفي المكان الفلاني كذا، وصار يعدد له الوظائف التي بيده، فقال له سيدي أبو الحسن: يا هذا لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزیده إياها، فإن الله تعالى لم يقنع بالجنة جزاء للمؤمن حتى زاده فيها النظر إلى وجهه الكريم.

وكان لباس سيدي أحمد - رحمه الله - قباء من صوف، وهو المسمى في الزمان بالتشامير، وكساء وبرنسا وعمامة كتان خشنه لا يملك سوى (ص 384) ما عليه من ذلك ليكون من السابقين المخفين، ذكر الشيخ أبو طالب قال: حدثت عن بعض العارفين قال: رأيت في النوم كأن القيامة قامت، وكان الناس يأتون زمرة زمرة إلى الجنة على طبقات، قال: فنظرت إلى طبقة أحسن الناس هيئة وأعلاهم مرتقى، وأسرعهم سبقاً، فقلت: هذه أفضلهم أكون فيهم فذهبت لأخطوا إليهم وأدخل معهم في طريقهم، وإذا بملائكة حولهم قد منعوني منهم، وقالوا لي: قف مكانك حتى يجيء أصحابك فتدخل معهم، فإن هؤلاء السابقين لهم طريق لا يسلكه إلا من لم يكن له إلا قميص واحد، ومن كل شيء واحد (ص 385) وأنت لك قميصان، ومن كل شيء اثنان، فانتبهت باكياً حزيناً، وجعلت على نفسي ألا أملك من كل شيء إلا واحداً، قلت: ولباس الصوف هو من شعار الصالحين وأكابر الصحابة والسلف الصالح من التابعين،

حض عليه النبي ﷺ، ووعد بالثوبة عليه.

قرأت في كتاب «المجالس المكية» عن أبي بكر الخطيب بن ثابت، عن رجاله، عن إمامه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الإيمان في قلوبكم، وعليكم بلباس الصوف (ص 386) تجدون قلة الأكل، وعليكم بلباس الصوف تعرفون به في الآخرة، وعليكم بلباس الصوف تجدون قلة الأكل، فإنه يورث في القلب التفكير، والتفكير يورث الحكمة، والحكمة تجري في الجوف مجرى الدم، فمن كثر تفكره قل طعمه وكل لسانه، ومن كثر طعمه عظم بدنه وقسا قلبه، والقلب القاسي بعيد من الله - عز وجل - بعيد من الجنة قريب من النار».

* سفره إلى الشرق:

وكان طلوع سيدي أحمد - رحمه الله - للبلاد المشرقية بنية أداء فريضة الحج أوائل العشرة الرابعة من هذه المائة⁽¹⁾، سألته عن ذلك فقال لي: لما طلعتنا في ركب الحجاز جزنا بتلمسان فوجدناها محصورة (ص 387) من قبل ملك الموحدين⁽²⁾، قال لي: وحضرت بتونس مجلس الشيخ الإمام علامة الزمان وأعجوبة وقته في الحفظ والإتقان سيدي أبي القاسم العبدوسي، فسألته عن الولي الشهير الكرامات أحمد بن عروس، فقال لي: لقيته يوماً ببعض أزقة تونس ومعه قفة من عزف مجلدة وهي مملوءة بالأحجار يرفعها على ظهره ويشق بها أزقة تونس ذاهباً أو راجعاً فإذا غلبته طرحها بالأرض طلباً للراحة، فإذا أراد أحد من أهل تونس معونته في حملها أبي من ذلك، قال: فلما لقيته وجدته قد طرح القفة عنه (ص 388) وجلس بالأرض مستريحاً، فوقفت أنظر

(1) يقصد المائة الثامنة من الهجرة.

(2) يبدو أن خطأ لأن الذي دأب على حصار تلمسان هم ملوك بني مرين.

إليه وأردت أن أسأله في حملها عنه فخشيت أن يمتنع من ذلك جرئاً على عادته، قال: ثم إنه صوب النظر إليّ وعلمت أنه قد كاشفني فيما حدثت به نفسي، فقلت له: يا سيدي أتأذن لي في حمل هذه القفة في ذلك فحملتها عنه مسافة قليلة ثم أخذها وانصرف عني.

قال: ثم توجهنا للحرمين الشريفين في ركب عظيم ومعنا فيه الولي الزاهد العابد سيدي سعيد نزيل وادي زير، قال: وكانت لسيدي سعيد في هذا الركب حسنات كثيرة، ومقامات شهيرة.

* عودته إلى عنابة ثم عودته إلى الحجاز:

(ص 389) ولما قضينا فريضة الحج قفلنا مع الركب إلى أن وصلنا بونة وهي بلد العناب، فلقيت بعض أصحابنا القادمين من المغرب فسألته عن أهلي وإخواني فذكر لي أن أحد إخواني قد توجه لتونس قاصداً أداء الفريضة والاجتماع بي، قال: فرجعت من بونة لتونس ومعني هذا الرجل الذي أخبرني عن أخي فمررنا بحانوت شواء يبيع شواء، فقلت في نفسي: لو كان عندي درهم لأخذت به شواء لهذا الرجل الذي معي، قال: فما أتممت الخاطر الذي خطر لي إلا وسيدي أحمد (ص 390) بن عروس قد التصق بي وأخرج لي رغائف وشواء ورمى به إليّ فدفعته للرجل، وتبعته فما وجدت له أثراً، قال: فبحثت عن أخي في تونس فلم أجده، وقيل: إنه قد سافر مع ركب الحجاز فتبعته وما زلت أجد خبره في كل بلد إلى أن وصلت الحرم الشريف فاجتمعت به هناك.

وحدثني شيخنا البركة سيدي عبد الله بن منصور، قال: حدثني سيدي أحمد أنه كان معهم في ركب الحجاز امرأة فقيرة لا تعلم شيئاً سوى مقلات لها تجعلها على ظهرها، ثم تلتقط الحطب في أثناء مشيها على رجليها، فإذا نزل الركب أوقدت النار وطبخت في تلك المقلات خبز جيرانها من أهل

الركب ويعطونها كسرة من كل خبزة (ص 391) تنقوت بها، قال: وما زالت على هذه الحالة بمقلاتها على ظهرها إلى أن قضت حاجتها وأدت فريضة الحج، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

* عودته إلى تلمسان:

ولما قفل سيدي أحمد من وجهته الحجازية نزل تلمسان فكان لها الفضل به على غيرها من البلدان، وأخذ نفسه بطلب الحلال فكان يخرج للجبال والأراضي التي لا ملك لأحد عليها، ويجعل حزمة من الحطب على ظهره ويأتي بها لسوق الحطب ويبيعها هنالك، فكان يحدثنا - رحمه الله - ويقول: هنا رجل أعرفه كان يشترط علي إذا بعته حزمة الحطب أن أوصلها لداره فأفعل ذلك.

وطلب الحلال هو أصل هذه الطريقة وعليه مدارها (ص 392) عند علماء الشريعة والحقيقة، به استقامت أحوالهم وصلحت قلوبهم وأفعالهم، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أجل ما أكل العبد من كسب يده، وكل بيع مبرور». وروينا عنه ﷺ أنه قال: «العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها في طلب الحلال».

وذكر صاحب الهداية قال: روي أن جماعة من أولياء الله الزهاد تذكروا أي الأعمال أشد، فقال بعضهم: الجهاد؛ لأن فيه إتلاف النفس، والمال، وقال بعضهم: صلاة الليل؛ لأنها لا تصفو إلا لمن وجد حلاوة المناجاة، وقال بعضهم: الصيام (ص 393)؛ لأنه من أعمال القلب وأسرار الرب، ثم وقع إجماعهم على أن أفضل الأعمال هو طلب الحلال.

وعن وهب بن منبه قال: أوحى الله - عز وجل - إلى داود - عليه السلام - : «قل لبني إسرائيل: إني لا أنظر إلى صلاتكم ولا إلى صيامكم، ولكنني أنظر إلى من طلب الحلال، فإذا شك في شيء تركه من أجلي، ذلك

الذي أؤيده بنصري وأباهي به ملائكتي».

وكان سيدي أحمد في ابتداء أمره ليس له منزل يأوي إليه، ولا مكان يعول عليه، وكان كثير الحضور بمجلس الإمام ختام العلماء الأعلام سيدي محمد بن مرزوق حين تدرسه بمسجده القريب (ص 394) من داره، فكان الشيخ سيدي محمد ممن عرف مقام سيدي أحمد في الولاية، وكوشف له ما له عند الله من حفيلى العناية فسأل فصيح عنه من أين يكتسب؟ فقيل له: من بيع الخطب، فكلمه في أن يكون طعامه من داره فامتنع من ذلك، وكان أكثر مبيتة إذ ذاك بالجامع الأعظم وفيه كان يقوم الليل.

وحدثني - رحمه الله - غير ما مرة قال: لما دخلت هذه البلد أدركت بها جماعة من أهل الخير يقومون الليل بالجامع الأعظم، ويعين منهم الفقيه الإمام فخر الكتاب وزين أهل الآداب سيدي محمد بن يوسف الجزيري، وكان هذا الفاضل الجزيري من (ص 395) أعيان العلماء وأفاضل الكبراء تولى خطة الكتابة والعلامة بالحضرة العلية في دول متعددة تزيد على الأربعين سنة فما زاده ذلك إلا تواضعًا، فكان يأتي القصر على قدمه ما علم قط أنه أتاه راكبًا - رحمه الله ورضي عنه - ، وكانت وفاته في عشرة الستين وثمانمائة⁽¹⁾.

وفي قيام الليل أنشد الخطيب بن رشيد في رحلته، قال: وجدت بخط شيخنا عبد الله بن صالح البجائي:

يا رجال الليل جدوا	رب صوت لا يـ
لا يراعى الليل إلا	من له عزم وجد
ليس شيء كالصلاة	الليل للقلب يعد

(1) ما بين (1456 - 1466).

(ص 396) وفي الحقائق سمعت أبا محمد عبد الواحد المجاصي يقول:
رويت بالسند الصحيح أن عابداً رابط ببعض الثغور مدة فكان كلما طلع الفجر
يسمع صوتاً دون أن يرى شخصاً يقول:

لولا رجال هم ورد يقومونا وآخرون هم صرد يصومونا

لزلزلت أرضكم من تحتكم سحراً لأنكم قوم سوء لا تبالونا

وكان سيدي أحمد - رحمه الله - آية من آيات الله في الأخلاق الحسنة
والمعاشرة المستحسنة.

وإذا أتاه أحد قلقاً ضجرًا من أمر نزل به يرفق به (ص 397) ثم يحضه على
الصبر والتخلق بالأخلاق الجميلة، ويقول في كثير من كلامه: «حسن الخلق أنفع
من المال»، أو كلام هذا معناه. وكأنه والله أعلم يشير لما روي في بعض الأخبار
عن الأصمعي قال: بلغني أن إبراهيم بن أدهم كان يقول: إن الرجل ليدرك بخلقه
ما لا يدرك بماله؛ لأن المال عليه فيه حقوق من زكاة وصلة أرحام، والخلق ليس
عليه فيه شيء من ذلك.

قلت: كلام إبراهيم بن أدهم أصله في حديث أبي هريرة، روي عنه أنه قال:
قال رسول الله ﷺ: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم». وفي
رواية: «فسعوهم ببسط» (ص 398) الوجه وحسن الخلق.

وكان بعض أئمتنا من السلف الصالح يقول: «لو وزنت كلمة رسول الله ﷺ
هذه بأحسن كلام الناس لرجحت على ذلك» قال: لأننا نجد في بعض الرجال
أوصافاً حسنة من كرم العهد، وكثرة البذل والمسارة إلى أفعال الخير لم
يطمس ذلك كله سوء خلقه، فمتى ترى لخيرته شاكراً ولا لكثرة معرفته ذاكراً.
قال: وفي الحديث المسند عن أهل البيت ما يدل على ذلك، روينا من طريق
جعفر الصادق، عن أبيه محمد الباقر، عن أبيه علي زين العابدين، عن أبيه

الحسین السبط الشهيد، عن أبيه علي أمير المؤمنين، أن رسول الله ﷺ (ص 399) قال: «إن الخلق السيئ يُفسد العمل كما يفسد الخل العسل».

قال بعض أهل العلم: معنى فساد العمل هنا هو إحباط الأجر؛ لأن الرجل إذا فعل الخير، ثم قرنه بسوء الخلق فكأنه أفسد عمله وأحبط أجره، كالمصدق إذا أتبع صدقته باليمن والأذى، وكالصائم إذا ساءت خلقه مع أهله، وكالمجاهد إذا لم يحسن صحبة رفقاءه وأساء إليهم، فإن إساءة خلق هؤلاء تحبط أعمالهم، نسأل الله أن يحسن أخلاقنا، وأن يتقبل أعمالنا، فإن تحسين الخلق مما لا يستطيع العبد تكسبه إلا بفضل الله ورحمته.

وفي حديث عائشة (ص 400) - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه الأخلاق منافع من الله - عز وجل -، فإذا أحب عبداً منحه خلقاً حسناً، وإذا أبغض عبداً منحه خلقاً سيئاً». وعنه ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب».

وقد حصر النبي ﷺ الشؤم في الأخلاق السيئة، رويها من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «الشؤم سوء الخلق»، وأنشد بعضهم: (ص 401)

وما هذه الأخلاق إلا طبائع فمنهن محمود ومنها مذموم
فلن يستطيع الدهر تغيير خلقه لئيم ولن يستطيعه متكرم

وقرأت في رحلة التجيبي قال: رويها عن سفيان الثوري أنه قال: حدثني مالك بن أنس، وأطعمني وسقاني، قال: حدثني نافع وأطعمني وسقاني، قال: حدثني عبد الله بن عمرو وأطعمني وسقاني، قال: كنت عند النبي ﷺ في دار عائشة - رضي الله عنها -، فأتاه رجل من الأنصار بتميرات أكلتها معه فأقبل

علينا النبي ﷺ (ص 402)، فقال: «يا عبد الله عليك بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وأترك الكذب فإنه يهدي إلى الفجور، وعليك بحسن الخلق، فإن حسن الخلق من أخلاق أهل الجنة، أو إن سوء الخلق من أخلاق أهل النار». ومن حديث أهل البيت عليهم من الله أفضل الصلاة وأكمل التسليم. أسند أبو أحمد العسكري في كتابه «الأمثال المروية عن رسول الله ﷺ»، عن جعفر الصادق، عن أبيه، عن جده علي - رضي الله عنهم - ، أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من لسن فيه فليس (403) مني ولا من الله - عز وجل - ، حلم يرد به جهل جاهل، وحسن خلق يعيش به في الناس، وورع يحجزه عن معاصي الله - عز وجل - ».

وفي كتاب «شرح الأسماء» قال: روي عن بعض الملوك أنه تفاوض مع أهل مجلسه في أشر الأمور ما هو؟ فقال بعضهم: المرأة السوء.

وقال آخر: الجار السوء. وقال آخر: الخلق السوء. ثم أرجع رأيهم أن يذهبوا لخارج البلد فأول رجل لقيهم تحاكموا إليه فانصرفوا لذلك فاستقبلهم رجل فخار معه حمار عليه جرار يبيعها بالبلد، فاخبروه عن رجاحة عقله، وقالوا له: لم لا تسلم علينا؟ فقال لهم: (ص 404) من السنة أن يسلم الراكب على الجالس، فاعترفوا بفضله، ثم قال أحدهم: إننا قد اختلفنا في أمر، وأردنا أن نتحاكم إليك فيه، فقال لهم: انزلوا عن دوابكم واحفظوا حماري لئلا يشتغل قلبي معه فذكروا له المسألة فقال لهم: شر الثلاثة الخلق السوء؛ لأن المرأة السيئة يمكن أن يتخلص منها بالطلاق، والجار السيئ كذلك يرجى منه الخلاص بالغيبة عنه، وأما الخلق السوء، فلا يمكن الاحتراز منه؛ لأنه يكون مع صاحبه أين ما كان. قال: فاستحسن الملك قوله، وأمضى حكمه، ثم قال له: سل حاجتك، فقال له: إني أسألك حاجة إن قضيتها نفعتني ولم تضرك،

فقال: وما (ص 405) هي؟ فقال: إن زمن النيروز والمهرجان قريب منا، والناس يبعثون فيه هداياهم إليك ويتقربون منك بالتحف، فلو ناديت في البلد أني لا أقبل من أحد هدية إلا مع جرة من عمل فلان لبيع ذلك كثن من لحكمي، قال: فأجابه الملك لبغيته، وأمر أن ينادي في البلد بما قال، وتسامع الناس بالنداء، وأقبلوا عليه يشترون منه الجرار فكان يبيع كل جرة دينار، وكان للملك وزير من أبناء فارس سبي الخلق فبحث على أجرة يوجهها مع هديته للسلطان، فقيل له: إن هذا الرجل لا يبيع الجرة إلا بدينار، فقال: ادفعوا له درهمين، فقال له: لا أفعل، ثم أعاد عليه الرسول في اليوم الثاني (ص 406) وأمره بدفع الدينار في الجرة، فقال له: لا أبيعها إلا بمائة دينار، فاغتاظ الوزير لذلك، فلما كان اليوم الثالث وحن وقت تعيين الهدية بعث إليه بالمائة دينار في الجرة فامتنع من قبضها، وقال: لا أبيعها إلا بألف دينار، فزاد غيظ الوزير وامتنع من شراء الجرة بألف، ولما كان الغد وهو يوم المهرجان وفيه تبعث الهدايا تشوق الناس لهدية الوزير؛ لأن العادة جرت أن هديته تسبق سائر الهدايا، والناس تبع له في ذلك، فأخذ ألف دينار وبعث بها إلى الرجل الفخار في الجرة فامتنع من بيعها له، وقال: لا أعطيك الجرة إلا بشرط أن تحملني على ظهرك والجرة بيدي (ص 407)، وتذهب بي إلى مجلس الخليفة، فإن فعلت ذلك قبلت منك هديتك، وإلا ردت عليك ووقعت في مخالفة أمر الخليفة فأجابه الوزير لذلك وحمله على كتفه لبساط الخليفة، ولما رآه الخليفة أنكر حالته تلك فلما أخبره الفخار بالمسألة قال له: أحسنت في عقوبته وعزل الوزير وولى الرجل مكانه وتحدث الناس بخبرهما مدة طويلة.

وكان سيدي أحمد - رحمه الله - ملازمًا لتجويد القرآن يزدحم عليه القراء لعظم بركته وإتقان معرفته بطريقتي الرسم الأداء، مرشدًا للطريق الخير

ينبه في مجالسه على التمسك بسنة النبي ﷺ عملاً بحديث (ص 408) أبي هريرة، أخرج أبو الطاهر السلفي في الأربعين حديثاً التي أخرجها عن أربعين شيخاً بأربعين مدينة مسنداً من حديثه، أن النبي ﷺ قال له: «يا أبا هريرة علم الناس القرآن وتعلمه، فإنك إن مت وأنت كذلك زارت الملائكة قبرك كما يزار البيت العتيق، وعلم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك، وإن أحببت ألا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدث في دين الله حدثاً برأيك»، قلت: فقد جمع الله ذلك كله في شيخنا سيدي أحمد - رحمه الله - ، فكان يقرئ كتابه العزيز، ويعلم سنة رسوله ﷺ، ويأمر بالمعروف (ص 409)، وينهى عن المنكر، ويذكر بأخبار السلف الصالح، أحب الناس أم كرهوا، وعصمه الله من حدث الرأي الصادر عن الهوى، فكان لا يتناول شيئاً من هذه الفتية، ويتبع السلف الصالح في أقواله وأفعاله وأخلاقه.

ورحم الله زاهد الأندلس أبا الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي حيث قال:

فما أحدث الناس أموراً فلا تقول بها إني امرؤ ناصح
فما جماع الخير إلا الذي كان عليه السلف الصالح

وكان يعمر أكثر أوقاته في المقابر وخصوصاً (ص 410) روضة سيدي أبي سعيد خارج باب القرمدين، فإنه كان كثير الملازمة لها منفرداً لعبادة ربه مفكراً في أمر آخرته، وفي حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بزيارة القبور، فإنها ترهّد في الدنيا، وتذكر بالآخرة».

وأجمع المتصوفة وأرباب القلوب أنه ليس شيء أنفع لقلب ابن آدم من زيارته للقبور وذكر هادم اللذات المفرق للجماعات، فإن الزائر للمقابر إذا دخلها بنية التفكير والاعتبار والتذكر لأحوال من مات قبله من الملوك والأخيار

الذين سبقوه لجمع الأموال وتنافسوا في بلوغ الآمال (ص 411) كيف انقطعت بهم آمالهم ولم تغن عنهم أموالهم قادته نيته وتفكره إلى الزهد في دنياه والإقبال على طاعة مولاه؛ ولأن قلبه قنع وذهب عنه الحرص والطمع ورحم الله القائل:

هي القناعة لا تبغي بها بدلاً فيها النعيم وفيها راحة البدن
انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن

أسند الخطيب أبو بكر بن ثابت في بعض كتبه، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «ذهبت لزيارة قبر أُمِّي (ص 412) آمنة، فسألت الله أن يحييها فأحيها، فأمنت بي ثم ردها الله - عز وجل - إلى قبرها».

قال الإمام أبو حفص عمر بن شاهين: وهذا الحديث ناسخ لغيره من الأحاديث الدالة على عدم إيمان والديه ﷺ، فإنها أخبار متقدمة وهذا الخبر كان في حجة الوداع على ما روت عائشة - رضي الله عنها - ، فهذا الحديث مما يجب الإيمان به في صحة إيمان والديه ﷺ.

وكان سيدي أحمد - رحمه الله - قليل الكلام جداً لا يتكلم مع جلسائه إلا بما ينفعهم من طريق الآخرة، أو يرشدهم للعمل الصالح حتى ولو قال: أن صاحب الشمال ما (ص 413) كان يكتب عليه شيئاً ما أبعد، وما أراه إلا أحد أولياء الله الذين كانوا يحاسبون أنفسهم، فقد روينا عن الحسن البصري أنه كان يقول: «إن المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه الله - عز وجل -».

وروينا من طريق ابن المبارك، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، فإنه أهون لحسابكم، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتجهزوا للعرض الأكبر. ﴿يَوْمَ يُدْعَرَضُونَ لَا تَخَفْ مِنْكُمْ خَافَةٌ﴾»

[الحاقة: 18]». وعن وهب بن منبه قال في حكم آل داود: «حق على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يُحاسب فيها نفسه (ص 414)، وساعة يجتمع فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوب نفسه، ويذكرونه بالدار الآخرة، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يخل ويحمل، وحق على العاقل أن يعرف أهل زمانه ويملك فضول لسانه، ويقبل على شأنه».

وكان سيدي أحمد يحض كثيراً على الصمت، والكف عن لغو الحديث وكثرة الكلام، ويقول: لا أضرب على هذا الخلق في دينهم ودنياهم من فضول الكلام، وهذا الذي كان الشيخ - رحمه الله - يوصي به هو من فرائض الدين ومعتقدات أهل السنة وأعمال السلف الصالح.

فإن الرجل إذا كان مجتهداً في عبادته راضياً بفقره (ص 415) قانعاً بعتاء ربه، فإن صلاته وصيامه وعمله كله لا ينتفع بشيء منه، وإن اجتهد في إتقانه وأحكامه إذا كان لا يحفظ قلبه ولسانه؛ لأن في القلب خصلتين عظيمتين يجتمع فيهما الشر كله وهو الغل والحسد، كما أن في اللسان خصلتين عظيمتين من الشر يجتمع فيهما خصال الشر كله وهما: الغيبة والكذب.

تحفظ من لسانك ليس شيء أحق بطول السجن من لسان

وكن للصمت ملتزماً إذا ما أردت سلامة في ذا الزمان

وقد روينا عن جماعة من الصحابة والتابعين (ص 416) كأبي هريرة، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وعطاء أن الغيبة تنقض الوضوء وتفطر الصائم، قال مجاهد: وتُحبط العمل.

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «نظرت في النار ليلة أسري بي، فإذا قوم يأكلون الجيف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس».

وعن أبي هريرة قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، إن أحببت أن يفشي الله لك الثناء الحسن في الناس، فكف لسانك عن غيبة المسلمين». وسأل رجل النبي ﷺ عن الغيبة فقال: «أنك تذكر (ص 417) من المرء ما يكره أن يسمع».

قال: يا رسول الله، وإن كان حقاً؟ فقال له ﷺ: «إذا قلت باطلاً فذلك البهتان». فسمى رسول الله ﷺ الكذب بهتاناً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا تُبَيِّنُ﴾ [الأحزاب: 58].

وحدث الخطيب في تاريخه عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قلّ ماله وكثر عياله، وحسنت صلاته، ولم يغتب المسلمين جاء يوم القيامة وهو معي كهاتين».

وعن ابن عباس أنه قال: «أذكر أخاك إذا توارى عنك بمثل الذي تحب أن يذكر بك به إذا (ص 418) تواريت عنه».

وعن وهب بن منبه قال: قال رجل في بني إسرائيل: اللهم ليس لي مال فأصدق به، فأیما مسلم أخذ من عرضي فهو عليه صدقة، فأوحى الله - عز وجل - إلى نبي زمانه أنه قد غفر له.

وعن الفضيل بن عياض قال: ثلاث يهز من العمل ويفطرن الصائم، وينقضن الوضوء: الغيبة، والنميمة، والكذب.

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «شراركم أيها الناس المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة».

قال صاحب الهداية: والفرق بين الغيبة والنميمة: أن الغيبة هي أن تقول في المغتاب ما فيه على سبيل التنقص له (ص 419)، والحامل عليها الكبر

والاستهزاء بعباد الله، والنظر إليهم بعين الاستخفاف، قال: والنميمة هي السعاية بأخيك إلى من يقدر عمل الأضرار به، وربما أدى ضررها إلى القتل، أنك إذا سعت بأخيك؛ أي نقلت عنه حديثاً حقاً أو باطلاً في سر فقد قصدت إذايته وإفساد ذات بينه، وكل حديث منقول في خفاء على جهة الإفساد فهو نميمة وهي أعظم بلاء من الغيبة، ورحم الله محمود الوراق حيث قال:

تجنب من الطرق أوساطها وعد عن الموضع المشتبه
وسمك صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق به
فإنك عند استماع الحنا شريك لقائله فانتبه

(ص 420) وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «من كَفَّ عن أعراض المسلمين لسانه أقال الله عثرته يوم القيامة».

وعنه ﷺ: «مَنْ ألقى جلاباب الحياء عن وجهه فلا غيبة فيه».

قال أئمتنا: أراد ﷺ أن من صرح عن نفسه ثوب الحياء ولم يستح من الله - عز وجل - ولا من الناس في إظهار مساويه، والقبايح التي يرتكبها من معاصيه، فلا غيبة فيه لأنها لا تؤذيه ولا تؤلمه، وإنما حرمت الغيبة من أجل الإذابة اللاحقة للمرء الذي يكره أن يطلع الناس على عيوبه الخفية (ص 421) وأسراره الباطنية، فمن أظهر مساويه وأعلن بالعيب الكائن فيه فلا حرمة ولا ذنب على من اغتابه على وجه التعريف به والتحذير منه، وقيل لمجاهد: الرجل يكون وقاعاً في الناس فأقع عليه، أله علينا تباعة في اغتيابه؟ قال: لا. قلت: فمن ذا الذي تحرم غيبته؟ قال: رجلٌ خفيف الظهر من دماء المسلمين، خفيف البطن من أموالهم، أخرس اللسان عن أعراضهم فهذا هو الذي تحرم غيبته، ومن كان سوى ذلك فلا حرمة له ولا غيبة فيه.

وحدثوا عن سفيان الثوري أنه مر بجماعة قد وقعوا في شخص فقال لهم:

لو كان معهم من (ص 422) يرفع حديثكم للسلطان أكنتم تتكلمون بشيء، قالوا: لا.

قال: فإن معكم من يرفع حديثكم هذا إلى سلطان السماوات والأرض، أراد سفيان - والله أعلم - قول الله - تبارك وتعالى - : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْهُ بِهِ نَفْسَهُ^{١٦} وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ^{١٧}﴾ إِذْ يَنْفَقُ الْمَتَّقَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ^{١٨} مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿[ق: 16 - 18].

فقد أخبر الله تعالى أنه قد وكل بكل إنسان ملكين يحفظان عليه كل شيء ينطق به، ويرفعانه إلى سلطان الدنيا والآخرة، والله - عز وجل - الذي لا يحول بينه وبين مطلوبة شيء (ص 423)، ولا يفوته شيء ولا يعجزه شيء، وأما سلطان الدنيا فقد يريد أمراً ثم لا يكون ولا يقدر عليه، وقد يكون ما لا يريد أن يكون، والله - تبارك وتعالى - لا يكون في ملكه ما لا يريد ولا يفوته شيء مما يريد، سبحانه لا إله إلا هو الملك وإليه ترجعون. والحفظان اللذان أشار إليهما في الآية، حدث عن عبد الله بن المبارك عن ابن جريج قال: الملكان أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن يساره يكتب السيئات، وصاحب الحسنات يكتب بغير شهادة من صاحبه وصاحب السيئات لا يكتب إلا بشهادة من صاحبه أن فعل المكلف.

فأحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، وأن من مشى فأحدهما أمامه والآخر (ص 424) خلفه. وأن قدر فأحدهما عند رأسه والآخر عند رجله، وفي جامع العتبية عن عيسى بن دينار، عن أبي وهب أن رجلاً كان يسوق حماراً، فعثر فقال له: تعست، فقال صاحب اليمين: ما هي الحسنة فأكتبها، وقال صاحب الشمال: ما هي بالسيئة فأكتبها، فنودي صاحب الشمال أن اكتب كل ما ترك صاحب اليمين. قال ابن رشد: يظهر من هذا أن صاحب اليمين هو

القاضي على صاحب الشمال فيما يقول أنه سيئة، ولأجله نودي أن يكتب ما تركه صاحب اليمين؛ لأنه لا يكتب إلا الحسنات والدعاء على الحمار بالتعس وهو السقوط سيئة، والله أعلم.

ورأيت في (ص 425) كتاب الهداية، عن ابن المبارك، أن ابن آدم وكل الله به خمسة أملاك، ملكان بالنهار وملكان بالليل يجيئان ويذهبان، والخامس لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً.

وكان سيدي أحمد - رحمه الله - على غاية عظمة ورتبة كريمة من رفع الهم عن أبناء الدنيا معرضاً عن الالتفات إليهم سالكاً سبيل أهل الإرادة متأدياً بأداب أهل الحقائق في صدق الثقة بمولاهم وصيانة النفس عن تدنيس شعار أهل الإيمان بالميل إلى الأكوان، والنظر لغير الملك الحق المنان الذي لا إله إلا هو، وفي مسند حديث عمران بن حصين - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة (ص 426)، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها».

وكان قد تخلق بأخلاق السلف الصالح في عبادته للملك الحق، ومعاملته بالمعروف لكافة الخلق، قد بذل نفسه وأذلها في مرضاة ربه وعلم وسع - رحمه الله - لعباده فعامل بالرحمة جميع الخلق ممثلاً في ذلك قول رسول الله ﷺ على ما حدثنا به شيخنا الإمام سيدي محمد بن العباس فيما قرأته عليه وأجازنيه، قال: حدثنا شيخنا الإمام سيدي محمد بن مرزوق، وقال: حدثني شيخنا أبو الفضل العراقي بحديث الرحمة المسلسل بالأولوية بسنده المتصل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص (ص 427)، أن رسول الله ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن - تبارك وتعالى - ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وأنشد أبو عبد الله بن عباس قال: أنشدني أبو عبد الله بن مرزوق، قال:
أنشدني أبو الفضل العراقي لنفسه:

إن كنت لا ترحم المسكين أن عدما ولا الفقير إذا يشكو لك العدما
فكيف ترحو من الرحمن رحمة وإنما يرحم الرحمن من رحما

وقد سبقه إلى هذا محدث الشام أبو القاسم بن عساكر أنشده له ابن يعيش
في فهرسته قوله: (ص 428)

بادر إلى الخير يا ذا اللب مفتما ولا تكن من قليل العرف محتثما
واشكر لمولاك ما أولاك من نعم فالشكر يستجلب الإفضال والنعم
وارحم بقلبك خلق الله وارهم فإنما يرحم الرحمن من رحما

وكان سيدي أحمد كثير الشفقة على المسلمين يتودد إليهم، ويتحمل
أثقالهم ويصرف وجوههم لطاعة الله عملاً بالحديث الذي رواه أنس قال: قال
رسول الله ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس»، (ص 429) قال
علمائنا: معنى التودد إلى الناس هو الإتيان بالأفعال الحميدة والأقوال
السديدة التي يودك الناس عليها ويحبونك من أجلها كما قال - عليه الصلاة
والسلام - لأبي هريرة: «يا أبا هريرة، ازهد فيما في أيدي الناس يحبك
الناس».

فشيخنا سيدي أحمد - رحمه الله - قد زهد فيما في أيدي الناس، وبذل
لهم ما عنده وتحمل أثقالهم، ولم يكلفهم أثقال نفسه وتحبب إليهم بإغاثة
ملهوفهم وقضاء حوائجهم ودفع المكاره عنهم.

ولما تخلق بهذه الأوصاف الجميلة وكانت أفعاله لوجه الله تعالى أودع
الله حبه قلوب عباده المؤمنين، وأوضع له القبول التام (ص 430) بحبه تعالى

له، قال الله - عز وجل - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96]. جاء في التفسير: في قلوب أوليائه وخاصة عباده.

وأُسند أبو عبد الله بن رشيد في رحلته عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبدٍ نعمة إلا كثرت مؤونة الناس عليه، فإن لم يتحمل مؤونتهم فقد عرض تلك النعمة لزوالها»، وأنشد لأبي العباس المبرد:

إذا شئت أن تبقي من الله نعمة عليك فسارع في حوائج خلقه
ولا تعصين الله ما نلت ثروة فيحضر عنك الله واسع رزقه

(ص 431) وقرأت فيما حدثني به شيخنا أبو عبد الله بن العباس، عن شيخه الإمام أبي عبد الله بن مرزوق، عن شيوخه عن قاضي الجماعة أبي القاسم أحمد بن يزيد بن بقي، فيما كتب به لأحد أولاده قال: لتعلم يا ولدي أن الناس كلهم بنو رجل واحد، وامرأة واحدة، أنت واحد منهم فلتحب لهم من الخير، وإن اختلفت مذاهبهم، ومللهم، مثل ما ينبغي أن تحب لإخوتك أشقائك، فمن اعتقدت فيه منهم أنه على هدى فرحت له بذلك وأبهجت حاله وغطته فيه، ومن اعتقدت فيهم أنه على ضلالة رحمته ودعوت الله له ونصحته إن أمكنك نصحه، ومن اطلعت له على (ص 432) سيئة سترتها عليه ولا تتعرض لأحد منهم بمكروه إلا حيث أوجب عليك الشرع ذلك، ولا تتكبر على كبير منهم، ولا صغير لزيادة زدتها عليه في دين أو علم أو جاه أو مال؛ لأن تلك الزيادة لا تخلو من أن تكون نعمة أنعم الله بها عليك أو بلية ابتلاك بها، فإن كانت نعمة فالنعم يجب شكر الله عليها، والتكبر ليس من شكر الله في شيء، وإن كانت بلية فما للمبتلى والتكبر، فإن إذن أن الكبرياء لا ينبغي إلا لله

وحده، ولذلك ورد في الحديث عنه تعالى أنه قال: «فمن نازعني واحدًا منهما قصمته». يعني: العظمة والكبرياء، وأزيدك يا ولدي: أن المتكبر لا يجد بتكبره إلا بغض الناس ومقتهم لا غير، فلتتودد يا ولدي (ص 433) إليه بكل ما يمكنك التودد به مما ليس بمحظور ولا مكروه في الشرع فإنك تستجلب بذلك محبتهم ولا تجني بذلك سرًا، وقد قال رسول الله ﷺ: «التودد نصف العقل»، ولا تستعمل يا ولدي عدوًا واحدًا ولا تستكثر ألف صديق، ولا تمازح أشرارهم وكن من خيارهم على حذر.

وكان سيدي أحمد - رحمه الله - يحب الفقراء وينبسط لهم ويؤنسهم ويسأل عن حالهم، ويقول لهم: إذا صبرتم فأبشروا فإنكم بعين الله، وكأنه يشير في ذلك للأثر المروي عن عبد الله بن مسعود، فقد روينا عنه أنه قال: «الأيادي عند الفقراء قبل أن تأتي دولتهم فإنه إذا كان يوم القيامة قيل: (ص 434) أين الفقراء الراضون بالفقر في الدنيا فيعتذر الله - عز وجل - إليهم فيقول: عبادي لم أزو الدنيا عنكم لهوانكم علي، فانظروا في الصفوف فمن أطعمكم في يوم أو كساكم في يوم، أو أعطاكم درهمًا فخذوا بيده واشفعوا له أشفعكم فيه، وكان يحض الناس كثيرًا على عمل الفلاحة من زراعة وغراسة، ويقول: أهل المغرب أقوى وأحرص على عمل الفلاحة من أهل تلمسان، فإذا اعتذر له الحاضرون يقول لهم: لو علمتم ما في ذلك من الفضل والثواب ما وسعكم هذا العذر.

وإشارته في ذلك للأثر المروي عن عبد الله بن مسعود (ص 435) - رحمه الله - لتلك الأحاديث الواردة بفضل الغراسة والزراعة منها:

حديث أنس روينا عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من زرع زرعًا أو غرس غرسًا، فأكل منه إنسان أو بهيمة فهو له صدقة».

وروينا في كتاب التوكل، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، أنه

قال لقوم: «إنما المتوكل الذي يلقي حبة في الأرض ويتوكل على الله، قالوا: ولأن الغالب على صاحب هذا العمل أنه يبعد عن خلطة الناس التي هي محل كل آفة من غيبة وحسد، ونميمة، وغير ذلك من المفسد التي يبعد وجودها في أهل الفلاحة المنفردين (ص 436) بأعمالهم، وفي أمثالهم ورد حديث الزبير بن العوام، عن النبي ﷺ أنه قال: «من استطاع منكم أن يكون له جزء من عمل صالح فليفعل».

وقرأت في كتاب الرشاطي حديثاً أسنده عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من غرس غرساً يوم الأربعاء، فقال: سبحان الله الباعث الوارث، أطعمه الله من ثمره».

ومن جميل أخلاق سيدي أحمد ومحاسن آثاره أنه كان إذا أتاه أحد من التجار وسأله الاستخارة في سفر معين أو تكسب بقراض ونحوه سأله عن فائدة ذلك وكيف حال والوقت فيه وأنسه وأوصاه بحسن المعاملة، (ص 437) ولا يحمل الناس على الجلوس وترك التكسب والأخذ في طريق الزهد بل كان ينبه على فضل التكسب ويحض على عمل الفلاحة، ويقول: كان كثير من السلف الصالح يحترفون بالتجارة ويتعلقون بالأسباب المعينة لهم على التفرغ لعبادة الله، وهذا الذي أشار إليه الشيخ - رحمه الله - في الحديث عن النبي ﷺ: «لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحمه ويستغني به عن الناس».

وروينا عن سعيد بن المسيب، وكان سيد أهل زمانه وفاضل أقرانه أنه قال: «لا خير فيمن لا يجمع المال فيقضي به دينه، ويصل به رحمه، (ص 438)، ويكف به وجهه عن الناس، فقيل له: ويترك دنائير، فقال: اللهم إنك تعلم أنني لم أجمع هذا المال إلا لأصون به حسبي وديني».

وروينا عن أبي الزناد عن عبد الله بن ذكوان، وكان أفضل أهل المدينة بعد

سعيد بن المسيب، أنه قيل له: يا أبا الزناد، أتحب الدراهم وهي تدينك من الدنيا، فقال: هي وإن أدنتني من الدنيا فقد صانتني عنها، وعن الزاهد العابد حذيفة المرعشي قال: سمعتُ إمامنا ومعلمنا سفيان بن سعيد الثوري يقول: لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها، أحب إليّ من أن أحتاج إلى الناس، حدثوا عنه أنه مات وله بضاعة يتجر بها مائة وخمسون دينارًا قالوا: (ص 439) وكان سفيان يقول: المال في هذا الزمان سلاح المؤمنين، وعز المؤمن.

وروينا عن سفيان بن عيينة أنه كان يقول: من كان له مال فليصلحه، وأبكم من زمان من احتاج فيه إلى الناس كأنما يبيع دينه، وحدث سفيان الثوري عن الأعمش، عن يزيد الرقاشي، عن أنس، أن النبي ﷺ قال: «أعظم المؤمنين أجرًا الذي يهتم بأمر دنياه وآخرته».

وعن الزاهد الفاضل الربيع بن خثيم قال: «ما أعلم أحدًا أشد حزنًا في الدنيا من المؤمن شارك أهل الدنيا في أهل المعاش، وتفرد عنهم بآخرته».

ولشيخنا سيدي أحمد من باهر الكرامات وظاهر العلامات الخارقة لحجاب العادات ما لا يقوم (ص 440) به ديوان ولا يجمعه إتيان، ولذا ذكر طرفًا من ذلك لتستدل به على ما هنالك، ولما شرعت في تنفيذ هذا المجموع سألتُ شيخنا البركة سيدي عبد الله بن منصور أن يقيد لي شيئًا من أخبار سيدي أحمد، وكريم أحواله؛ لأنه كان كثير الملازمة له، وكان سيدي أحمد ينبسط معه في الحديث ويدنيه ويُجالسه في خلواته كثيرًا، ويسطفه فامتنع سيدي عبد الله من ذلك وقال لي: لا أرى نفسي أهلاً لأن ينقل عني، وهذا من عادة أهل الفضل جزاء الله عن نفسه خيرًا.

ثم حدثني سيدي عبد الله قال: حدثني سيدي أحمد قال: كنتُ مرة (ص

441) ببعض سواحل المغرب جالسا، وإذا برجلين من المصادمة جلسا إليّ مقدمهما من المشرق، ومع أحدهما مزبود من عقيق، ومع الآخر شكيرة لا أدري ما فيها، فبينما نحن جلوس وإذا بجماعة من القطاع ظهرُوا هنالك فناولني صاحب الشكيرة شكيرته، جعلتها معي، وبقي الآخر بمزوده، وانصرفنا فتلاحق بنا القطاع وأخذوا لصاحب المزود مزوده، وسلبوا ثياب الرجلين، وما تعرض لي أحد منهم، ولا سألني عن شيء، قال: ثم إن صاحب المزود قال: بقلب مخاطبًا للفارس الذي أخذ منه المزود: اللهم لا تبقي لي فيه حقًا، قال: فعدا بفرسه في الوقت فوق عينه، وتشبث رجله بالركاب، والفرس تعدو به والأحجار (ص 442) تضرب رأسه إلى أن خرجت روحه في الوقت، وحقق الله إجابة دعوة ذلك الرجل ونحن ننظر إليه.

وحدثني شيخنا سيدي محمد السنوسي فيما كتب به إليّ قال: حدثني جماعة من الصالحين أن سيدي أحمد كان يتردد في ابتداء أمره لبلد ندرومة وسواحلها كثيرًا، فإذا كان يوم الخميس وهو يوم اجتماع القبائل لسوق ندرومة بخارجها أخذ إبريقًا له وجعل يدور به على أهل السوق يسقيهم الماء منه، وذلك في زمن الحر ولا يزال كذلك يتعرض لهم بإبريقه من أول السوق إلى آخره، وهم في الكثرة بحيث لا يحصيهم إلا خالقهم، من غير أن يجدد ماء غير الذي فيه، قال: ولما كثر ذلك منه في أسواق عديدة انتبه لذلك (ص 443) أهل السوق، فاخترع بعضهم الإبريق حين يتناوله للشرب منه فأرأوا الماء ينبع في قعر الإبريق كالعين فتحدثوا بذلك وشاع خبره إلى أن وصل للولي الصالح البركة سيدي الحسن الصدراتي فتشوف لذلك وأراد الوقوف على هذه الكرامة على ما لصاحبها عند الله من عظيم العناية، فأتى سوق ندرومة وجلس بين الناس مختفيًا، فلما مر به سيدي أحمد وهو يدور على الناس بإبريقه يسقيهم

الماء على عادته أخذ الإبريق من يده وجعل يضرب منه، وينظر لقعره فرأى عينًا من الماء تنبع هنالك، فتيقن لوقته ولأية سيدي أحمد، وأنه من رجال الكمال ذوي المقامات والأحوال. قال شيخنا أبو عبد الله: حدثني بهذه القصة (ص 444) من التقى به من الفقهاء والصالحين، وقال: سمعتها بأذني من سيدي الحسن الصدراوي.

ومما شهدت من كرامات سيدي أحمد أنني كنت عنده ذات الظهر في أوائل شهر ربيع الثاني من سنة ست وستين وثمانمائة⁽¹⁾، وإذا بشخص قد أخذ بحلقة باب دويرته وهزها واستغاث به ففتحت الباب ووجدت الحرس قد حملوه فسألته عن الرجل، فقبل لي: إنه من بني ورنيد طولب بما عليه من الغرامة، فهرب من أنياب الظلمة، وجاء لحرم الشيخ ليستجير به على ما جرت عادة المظلومين، ومن تعدى عليه أو اكتسب خطيئة من أهل الجرائم والجناة اللاتدين بحرمه، فبعث إليه ولد قائد الجبل إذ ذاك الناصر بن ربيب الخلافة المعتصمية (ص 445) من أخرجه من حرم الشيخ كرهاً واستعظم الناس ذلك فدخلت إليه وعرفته القضية، فقال لي: هذا حرم الله ولا بد لهم أن يحتاجوا إليه، وتعلق خاطره بالرجل فجاء في الوقت من رد عليه أنه لا بأس عليه، وأنه تمشي حاله بخير فسُرَّ بذلك، وما زال يكرر كلامه ويقول هذا الحرم حرم الله، فمن ضيعه لا بد له من الالتجاء إليه. فما تم الشهر حتى نزل البلد الخليفة بحق محيي رسم المملكة بعد عفائه أمير المؤمنين مولانا المتوكل على الله أبو عبد الله محمد، وكان نزوله يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر، فحاصرها بقية يومه ويوم الأحد، وفي يوم الاثنين الموفى ثلاثين كان دخوله البلد

(1) الموافق شهر جانفي (1426م).

واستولى على ملكها من (ص 446) غير مضرة أحد، ولما دخل مولانا - رحمه الله - البلد واستقر ملكه عليها هرب الريب وأولاده، وجميع عمال الخليفة المخلوع وأكابر دولته لدويرة الشيخ سيدي أحمد وأراهم الله قدرته في الالتجاء إليه والاستجارة بحرمه، فما كان عند أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين حين دخوله البلد أهم من زيارة الشيخ سيدي أحمد والابتداء بالسلام عليه، فلما وصل إليه وجلس عنده هنا سيدي أحمد بالخليفة ودعا له بخير، ثم قال سيدي أحمد: إن الله قد أحسن إليك فأحسن لعبيده، واعف عن هؤلاء الولاة فعفا عن أجمعهم مولانا المتوكل - رحمه الله - ، وتحققنا حيث يدكرامته عند الله في قوله هذا الحرم (ص 447) حرم الله فمن ضيعه لأبد من الالتجاء إليه.

وحدثني سيدي عبد الله بن منصور قال: لما من الله عليّ بمعرفة سيدي أحمد بن الحسين نازعتني نفسي مرة أن أذهب إلى موضع خال بعيد من العمران، وأقيم فيه أياماً، ثم تردد عندي الحال في القوت هل أحمل معي الكفاية من الخبز، ففمت فرأيت إنساناً ناولني رقعة مكتوبة وفي آخرها: اقتد بأبي الحسن الشاذلي، فأتيتُ الشيخ سيدي أحمد، وقلت له: رأيت إنساناً أعطاني رقعة مكتوبة وفي آخرها: اقتد بأبي الحسن الشاذلي، ولم أذكر له ما كان تقدم هذه الرؤية فتبسم - رحمه الله - وقال لي: كان سيدي أبو الحسن إذا ارتحل لبعض المواضع سافر إليه على قدم التوكل (ص 448)، والتجريد لا يحمل معه زاداً، قال: فقلتُ له: يا سيدي، ومن أين يأكل؟ قال: كان إذا احتاج إلى القوت وجده في وقت الحاجة إليه.

وحدثني سيدي محمد السنوسي ومن خطه نقلت قال: ذكر لي بعض من التقى به أنه كان يتلمسان غلاء شديد ومجاعة كبيرة، تعطلت الصلاة بسبب

ذلك في كثير من المساجد، وربطت أبوابها بالحزم، قال: فدخلت جامع الحلفاويين فوجدت فيه سيدي أحمد بن الحسن، فقال لي أخي: إذا خرجت فأغلق علي تلك الباب فإني أريد أن أنام هنا شيئاً، قال: فخرجت وغلقت عليه الباب كما أراد، قال: ثم إن الناس أهملوا تلك المساجد لاشتغالهم بأمر المجاعة التي غلبت عليهم، قال (ص 449) صاحب الحكاية: فلما كان بعد مدة طويلة، وقد فرج الله على الناس مما كانوا عليه من الجوع، مررت بجامع الحلفاويين فانتبهت إليه فوجدته مغلقاً كما تركته، ففتحته ودخلت فوجدت الشيخ سيدي أحمد نائماً على ما كنت تركته فيه، فاستفاق عند دخولي عليه وظن أنه قد نام ساعة واحدة، فقام وخرج قال: فتذكرت الزمان الذي كنت فيه، وأمرني بغلق الباب عليه، فعلمت أنه ما زال في نومه تلك إلى أن أيقظته، وأن الله تعالى غيبه عن فتنة الجوع لطفاً وكرامة كما فعل سبحانه بأهل الكهف، قال شيخنا أبو عبد الله: وهذا من الخوارق العظام.

قال المؤلف: حدثني والدي أن هذه المجاعة (ص 450) أتت سنة اثنين وأربعين وثمانمائة⁽¹⁾، وأن سوم القمح انتهى إلى صاع ونصف بدينار.

ومن كراماته الماثورة أنني كنت عنده يوماً فأتاه متظلم يستغيث به في فكاك ولده من أنياب بعض العمال فبعث سيد أحمد رسوله إلى ذلك العامل، فلم يستطع الوصول إليه وغاب ساعة، ثم رجع وقال له: يا سيدي أحمد هذا العامل قد أمر بغلق بابه عن الناس كلهم خشية أن يشفع له أحد في هذا الولد، فقال سيدي أحمد: هذا من ضعف إيماننا فلو كان الناس يقصدون بحوائجهم مولاهم ما أغلق أبوابه دونهم، فبينما نحن جلوس عنده وإذا برجل يدق الباب

(1) الموافق (1438 - 1439 م).

ففتح له، فدخل ابن الرجل فسر به أبوه وقال له بعض الحاضرين (ص 451):
 ما سبب إطلاقك، فقال له: خرجت في جملة من أهل السجن أمر بإطلاقهم
 فما تعرض لي أحد، فعلمنا أن ذلك بهمة الشيخ واعتناؤه وصدق نيته في قوله:
 ولو كان الناس يقصدون بحوائجهم مولاهم، رحمة الله على تاج الدين ابن
 عطاء الله حيث قال:

شكوى الضعيف إلى ضعيف مثله عجز أقام بحامليه على الشفا
 فاسترزق الله الذي إحسانه عم البرية منه وتعطفوا
 والجا إليه تجده فيما ترتجي لا تعد عن أبوابه متحرفا

(ص 452) قلت: وهذا ينظر لقول الزاهد أبي بكر بن قسوم:

طلب الرزق من ملك كريم يسمع الصوت إن شكوت إليه
 لا وزير له يصدك عنه لا ولا حاجب فيوشي عليه
 نزه النفس عن سواه وصنها إنما الأمر كله بيديه

وحدث السمعاني في ترجمة سعد الله بن محمد البزاز، عن عطاء قال لي
 طاوس: يا عطاء، لا تنزلن حاجتك بمن أغلق دونك أبوابه، وجعل عليها
 حجابها، ولكن أنزلها بمن بابها مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تدعوه وضمن
 لك الإجابة.

ومن مرويات القاضي أبي نصر حفيد سيدي عبد القادر عن شيوخه، عن
 النبي ﷺ أنه قال: «من ولاه الله من أمر (ص 453) المسلمين شيئاً، فاحتجب
 عنه حاجتهم وخلتهم وفاقته، احتجب الله - عز وجل - دون حاجته وخلته
 وفاقته».

تنبيه:

قول الشيخ - رحمه الله - : «لو كان الناس يقصدون بحوائجهم مولاهم ما أغلق أبوابه دونهم» ينظر إليه قول بعض الأكابر في شرح قوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا»، قال: يعني - والله أعلم - اصرفوا وجوه الناس إلى الله - عز وجل - في الرغبة إليه، وردوهم في طلب الحوائج منه ودلوهم في كل أحوالهم عليه، فإن اليسر كله عند الله، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

قال: ومعنى قوله - عليه السلام - : «ولا تعسروا»، أي: لا تردوهم إلى الناس في طلب ما يحتاجون إليه، فإنهم في الحاجة كأنتم (ص 454) فإنهم يتجاوزون شيئاً بينهم كان يريد له نفسه، ومن كراماته أن الزوار كانوا يأتونه من الآفاق حتى من بلد العجم، شاهدنا رجلاً من العجم أتوه وكانوا لا يخرجون من الجامع الأعظم ولا يأتون الشيخ نهائياً، وإنما كانوا يجتمعون معه - والله أعلم - في الليل حين دخول الشيخ لقيام الليل بالجامع الأعظم، فإنه كان من عاداته إذا هدأت العيون خرج من بويته ودخل، أتاه من الجامع فلا يزال قائماً به إلى طلوع الفجر، وكان بعض من أتاه من هؤلاء الأعاجم يكثر من ذكر لا إله إلا الله بصوت مرتفع، وكان ذا صوت جهير، فكان بعض المتفقه ينكر ذلك عليه، ويأمر من يعدله (ص 455) فيه فلا يلتفت إليهم الرجل العجمي، فكنت مرة عند الشيخ بين المغرب والعشاء، وكثيراً ما كنت أقصده في ذلك الوقت فسمعنا ضجة في الجامع الأعظم فخرجت لأختبر علم ذلك فوجدت جماعة من العوام قد وقفوا على الرجل العجمي يكلمونه في أن يخفض صوته بذكره، ولا يرفعه وهو على حاله غير مكترث بهم، ولا رافع رأسه إليهم، وقد دخل قلبي بعد الإنكار عليه إلا أنني لم أجسر على ما جسر عليه أولئك، فرجعت إلى الشيخ

وأخبرته الخبر وظني أنه يصوب فعلهم به، وإذا به قال لي بقوة: غضب الماء إذا كان فيه العلق لا يشب منه، فحيث علمت أن ذلك الرجل من أهل الله، وإنما بان لنا هذا كله بعد (ص 456) وفاة الشيخ وانقطاع الواردين من العجم وغيرهم.

ترجمة الشيخ العبدوسي

وكان سيدي أحمد يذكر كثيراً من محاسن أشياخه ويطيل الثناء عليهم والدعاء لهم، وكان يقول: ما رأيت أحفظ من الشيخ سيدي أبي القاسم العبدوسي، ولا أعظم هيبة من مجلسه، ولا أنفع من وعظه.

قال: وسمعت جماعة من الأعلام الذين لقبتهم بتونس وبغيرها من البلاد الشرقية يقولون: ما رأينا أحفظ من سيدي أبي القاسم العبدوسي.

قلت: وهذا السيد العبدوسي كان من أكابر الأولياء وأعيان الزهاد في وقته، ممن جمع الله له العلم والعمل، وضرب بكمال سؤدده المثل، ولم أقف له في هذا (ص 457) الوقت على ما تكمل به ترجمته، فأفرده بالذكر، وإنما وقع إلي طرف من أخباره التي يتشرف هذا المجموع بذكرها، وتهتز أنفس الأفاضل إليها.

قرأت بخط من أثق به أنه كان يدعى بخادم سنة رسول الله، قال: وكان حافظاً لسيرته ﷺ ومغازيه وأيامه، يذكر ذلك في كثير من مجالسه، ثم يتبعه بذكره وزرائه وأزواجه، وأولاده، وسراريه، ومؤذنيه، وأمراه، ومواليه وحراسه. ثم يستطرد الكلام إلى ذكر خيله وإبله، وسلاحه وبعاله، وحماره وثيابه وفراشه، وراياته (ص 458) وأوانيه، وجميع أحواله ﷺ. قال: ولا يترك شيئاً من صفته وكريم أخلاقه وخصائصه ويسرد ذلك في مجلسه كأنه يمليه من كتاب، ثم يختم ذلك بدعاء يقول في بعضه: اللهم لا تجمع علينا حرمان النظر إلى وجهه ﷺ في الدنيا والآخرة، يا أرحم الراحمين.

ورأيتُ النقل عن الشيخ سيدي محمد بن مرزوق أنه كان يقول سيدي أبو القاسم حافظ المغرب في وقته، وإمام الدنيا؛ لأن الله تعالى قد أجرى عادته في علماء الإسلام أن يُبارك لأحدهم في قراءته ولآخر في إلقائه وتفهمه، ولآخر في نسخه وجمعه وعبادته.

(ص 459) وحدثوا عن سيدي عمر الرجراجي وكان من أساتيد وقته وحافظ زمانه أنه قيل له: كيف تحضر مجلس العبدوسي، وهو ولد صغير وأنت أنت. فقال لهم: إن الله تعالى قد جعل معه بركة فما أنظر أنا في شهر، أسمع من العبدوسي في مجلس واحد.

وحدث بعض من قيد عنه قال: سمعت عنه، قال: سمعت أبا القاسم يقول: قرأت البخاري في حصار فاس الجديد في يوم واحد ابتدأته بعد آذان الفجر، وختمته بعد العتمة بقليل، قلت: كان سيدي أبو القاسم ممن فتح عليه في حفظ البخاري والقيام عليه نسخًا وفهمًا وقراءةً.

رأيت في بعض التقاليد أنه نسخ منه ثمان نسخ (ص 460) وربما جعل أكثرها في سفر واحد، ونسخ أيضًا من مسلم سبع نسخ، وأما غيرهما من كتب الحديث والفقهاء فنسخ من ذلك ما لا يأتي عليه العد والإحصاء، وخصوصًا شمائل النبي ﷺ، وكتاب الشفا لعياض، فإنه نسخ منها كثيرًا، وهذا من أعظم الكرامات.

ومن كراماته: ما حدثني والدي عن بعض الشيوخ، قال: لما ارتحل سيدي أبو القاسم العبدوسي من مدينة فاس، ونزل مدينة تونس وأقام في سوق الوعظ والتذكير وأظهر معالم التفسير وشرح الحديث، أقبل الله بوجوه عباده إليه فكانت الصدقات والندور ترد عليه، ويفرق ذلك على المحاويج وأهل العلم، فكثرت القول فيه وتحدث الناس بغرائب أحواله.

وكان ملك الوقت أمير المؤمنين مولاي أبو قاس يعتني به ويفضله على (ص 461) علماء حضرته ويسارع لقضاء حاجته، وقبول شفاعته، ثم إن بعض الحسدة المارقين من الدين الطاعنين على أولياء الله الزاهدين دس للخليفة أن سيدي أبا القاسم يستعمل الكيمياء وحقق عنده ذلك واستدل عليه بكثرة ما يخرج مزيده من الصدقات، والصلاة لطلاب العلم وغيرهم، فبينما سيدي أبو القاسم يوماً في داره إذا بحاجب الخليفة يدق عليه أن قم لأمر المؤمنين فقام إليه وأدخله وليس معه سوى حاجبيه، فقال له سيدي أبي القاسم: ما جاء بك في هذا الوقت؟ فقال له: بلغني أنك وصلت لحقيقة علم الكيمياء وأنت تستعملها فنريد معرفتها، فقال له: نعم.

ثم قام فتوضأ (ص 462) ولبس أحسن ثيابه وتطيب وأخذ كتاب البخاري وجعل يقرأه بسكينة ووقار، فبينما هم كذلك وإذا برجل يدق الباب فأذن له فدخل فأعطى للشيخ صرة من الذهب وانصرف، ثم رجع الشيخ لقراءته وإذا برجل كذلك معه صرة من الذهب أو فضة، وثالث ورابع إلى أن اجتمع من ذلك عدة صرر، ثم ختم الشيخ القراءة وصلى على النبي ﷺ، ودعا ثم أقبل على الخليفة، فقال له: هذه الكيمياء التي عند محبكم، فبكى السلطان، فقال له: بارك الله فيك، فيما أتاك وأطال عمرك وأبقاك وجزاك عن الإسلام خيراً وانصرف عنه على حالة عظيمة من الاغتباط والتعظيم له رحم الله جميعهم.

(ص 463) قالوا: كان سيدي أبو القاسم يحض كثيراً على الصدقة، ويحرص عليها، ويذكر بفوائدها قبول التوبة، قال: روي أنه كان رجل فيمن كان قبلنا قتل تسع وتسعين نفساً، ثم أراد أن يتوب، فقال لأعلم أهل زمانه: هل لي من توبة؟ فقال: لا توبة لك، وقنطه من رحمة الله، فقتله، ثم ندم وقصد عالمًا آخر، فقال له: هل يقبل الله التوبة مني؟ فقال له: لا أدري، ولكن العلامة

على قبول توبتك هذه العصا، وكان له دهر طويل من حين قطعت ويبست، فإن اخضرت هذه العصاة، وأورقت في يدك فقد قبل الله توبتك، وكان هذا استبعاد من العالم في قبول توبته، فأخذ الرجل العكاز في يده وانصرف، فلما كان (ص 464) في وقت عيد الأضحى خرج الرجل ليشتري أضحيته فاشترى كبشاً، وأتى به فلما كان ببعض أزقة المدينة انفلت الكبش من يده، ودخل دار امرأة لا زوج لها ولها أولاد أيتام فقراء، وكان الأولاد يقولون لأهم: أين كبشنا، فإن جيراننا قد أدخلوا كبشاً، فتصبرهم وتقول لهم: الساعة يجيء، فينما هم كذلك، وإذا بالكبش قد دخل عليهم، فقاموا إليه وفرحوا به، وداروا عليه، ثم قام الرجل صاحب الكبش يضرب على الباب، فوقفت إليه المرأة، فقال لها: كبشي هنا، قالت: نعم، ولكن هنا أولاد أيتام وقد أحرقوا به، وقالوا: هذا كبشنا، فانصرف في هذا الوقت حتى ينام الصبية، وأمكنك منه.

فقال لها: (ص 465) لا أفعل، فقالت له: وأنا لا أكسر قلوبهم، فادخل واحمل مالك، قال: فدخل وترك العكاز على باب الدار فوجد الأولاد دائرين بالكبش فرحمهم، ثم قال للمرأة: احلفي لي أن أباهم ما ترك لهم شيئاً، فحلفت له، قال: فأخذ دراهم كانت معه أعطاها لهم، وترك الكبش صدقة لوجه الله وخرج فوجد عكازه قد اخضر، فعلم أن الله تعالى قد قبل توبته، وأنا له رحمته.

قال صاحب التفسير: فإذا وصل سيدي أبو القاسم لآخر هذه الحكاية بكى وسأل الله التوبة، فيقع في أهل مجلسه من البكاء والتضرع والانكسار والتواجد ما يعلمه الله، قال: وكان سيدي أبو القاسم يسند في مجلسه عن شيوخه بالسند المتصل عن النبي ﷺ (ص 466) أنه قال: «أنا مدينة اليقين، وأبو بكر بابها، وأنا مدينة الشجاعة وعمر بابها، وأنا مدينة الحياء وعثمان بابها، وأنا مدينة العلوم

وعلي بابها».

قال: وكان يقول أرجو آية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥﴾ أَلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّكَ فَعَدَّلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿[الانفطار: 6 - 8].

وكان سيدي أبو القاسم معروفاً بكثرة الصلاة على النبي ﷺ في مجالس إقراءه مواظباً عليها متحققاً بفوائدها، فلما توفي في ذي الحجة عام سبعة وثلاثين وثمانمائة⁽¹⁾، رثيت له مراثي حسنة تدل على فضل الصلاة على النبي ﷺ.

حدثوا (ص 467) عن الفاضل سيدي الشرف المشامري قال: حدثني الخيرة العابدة عائشة الصوفية، قالت: رأيتُ الشيخ العبدوسي في المنام بعد وفاته، فكان مما قال لي: يا عائشة، قل لهم يُكثرون من الصلاة على سيدنا مولانا محمد ﷺ.

أنا مشيت، قال المعقيد: حدثني بعض الصالحين، قال: رأيتُ سيدي أبا القاسم بعد وفاته فقلت له: كيف أنت يا سيدي، وما لقيت؟ قال: خيراً لما وضعتُموني في قبري وسويتُم علي لحدي وانصرفتُم عني، جاءني رسول الله وعانقني، وقال لي: مرحباً بمن (ص 468) كان يُصلي علي صلاة لم يصلها علي غيره.

(1) الموافق لـ (9 جويلية - 6 أوت 1434).

ترجمة الحاج موسى

وكان سيدي أحمد - رحمه الله - يفخر بخدمته لسيدي موسى البطيوي وأخذه عنه. ويحدثنا عنه بعجائب الكرامات ويقول: كان سيدي موسى مجاب الدعوة، وإذا غضب انتقم الله له في الوقت، وإذا أحب أمرًا يسره الله له كما يُحب، وقال لنا: كان سيدي الحاج موسى يواصل وبلغ في وصاله إلى أربعين يومًا، ثم رجع عن ذلك إلى عادة أهل منزله، فقال له بعض أصحابنا: يا سيدي موسى هلا دمت على الوصال فإنها حالة شريفة. قال: فقال له سيدي موسى: هذا المقام رسول الله ﷺ أولى به.

قلت: يشرح لك هذا ما حدث (ص 469) به الأستاذ أبو القاسم في كتابه الرسالة، عن أبي يزيد البسطامي، قال: لقد هممت أن أسأل الله أن يكفيني مؤونة الأكل، ومؤونة النساء، ثم بدا لي فقلت: كيف يجوز لي أن أسأل الله هذا، ولم يسأله رسول الله ﷺ فتركْتُ سؤال ذلك، ثم أن الله سبحانه كفاني مؤونة النساء، حتى لا أبالي أن استقبلتني امرأة أو جدار.

ومما حدث به سيدي أحمد من كرامات سيدي الحاج موسى - رحمه الله - قال: أن بطيوة وطنه كان يتولى عمالتها رجال من بني مرين، وكان مسرفًا على نفسه متهاونًا بمظالم الخلق، فسجن يومًا رجلًا من أصحاب سيدي الحاج موسى أو من ذوي رحمه، فلما وصل خبر سجنه لسيدي الحاج موسى أمر أصحابه (ص 470) أن يذهبوا إلى السجن ويخرجوا جميع من كان فيه فأنى الخبر للمريني العامل فركب في جماعة من أصحابه وأتى لمنزل الشيخ وهو بحال غضب شديد، فلما وقعت عينه على الشيخ قال له: إنما أنت قائم من القيام، وكان بينه وبين الشيخ أصل شجرة من اللوز، فقال له الشيخ: يا إبليس بن إبليس تلك اللوزة بيني وبينك، فلما قرب منها عدا به فرسه فعارضه

أصل اللوزة فاندق الفرس وسقط الميرني إلى الأرض، وصار الفرس يتخبط به إلى أن ماتا معاً، وفرج الله عن أهل بطيوة مما كانوا فيه ببركته.

ترجمة الشيخ الماواسي

وسألت سيدي أحمد عن شيخه أحمد الماواسي، فقال لي ما معناه: كان سيدي أحمد الماواسي من أكابر أولياء الله المنقطعين (ص 471) لخدمته الصادقين في عبادته، قال: حضرت درسه للعربية وعلوم القرآن، والفقه، والحديث وغير ذلك من العلوم.

قال: وجالسته في خلواته كثيراً، واستفدت منه ونفعني الله بصحبته، وما رأيت منذ عقلت أروع منه ولا أزهد.

قال: ولما توفي والده الفقيه القاضي الصدر الكبير خرج ولده سيدي أحمد فاراً بنفسه مفارقاً لوطنه وأهل مسلماً إخوته في جميع ما تركه والده، وحدثني عنه بكثير من الكرامات منها: أن الطعام المشتبه إذا أكله لا يقر بمعدته، بل يرده لوقته، ويخرج لفوره غير متغير.

ومنها: أنه نزل بساحل موضعاً مخوفاً طالما نزله العدو، وأسر فيه المسلمين وصار من الثغور (ص 472) مخوفة، فلما نزل به سيدي أحمد الماواسي واستقر به سكناه بنية حراسة المسلمين حفظ الله ذلك الموضع من العدو، وقطعهم عنه ببركته وصار الموضع مقصوداً وبالأمان والبركة مذكوراً.

وقد كان قبل ذلك مخوفاً مهجوراً، قال لي: ومن كراماته أنني كنت عنده في بعض المجاعات فاحتاج أهل داره للقوت، واشتد بهم ألم الجوع والطعام قليل لا يوجد. فسأل الله تعالى قائلاً: «يا رب أنا أرضى بفعلك مستطيع لما قدرت به وأردته بفضلك وجودك، وهؤلاء الأطفال لا يطيقون ذلك، فقد

مسهم الضر وأنت أرحم الراحمين».

قال: فلم تمض ساعة حتى أتاه رجل من معارفه يحمل من القمح وحملين (ص 473) من الحطب. قال: وكنت عنده وقد اشتدت المجاعة وفرغت مخازن الطعام من كل الجهات وطار النوم عن الأولاد من شدة الجوع، فلما كان قرب نصف الليل سمعت وقع حافر دابة وحركة عند باب الدار، فقال لي: قم وأدخل هذا الرزق الذي ساقه الله لنا ببركة هؤلاء الأولاد، قال: ففتحت الباب فوجدت تليس قمح فنظرتُ يميناً وشمالاً للدابة وصاحبها فما رأيتُ أحداً، وليس بقرب مكان يظن فيه القمح، فأدخلت التليس وأنا أتعجب من ذلك، ولم يكن عند شيخنا - رحمه الله - كتاب علم ينظر فيه ولا يطالعه، وكان إذا توقف في شيء من الآيات القرآنية بعث إلي (ص 474) أو لغيري فيأتيه بتفسير ابن عطية، ويقرأ عليه المحل منه، فإن وجد شفاء في المسألة اقتصر عليه، وإلا أشار لتفسير الزمخشري، وما كان عندك كان عنده سوى مصحف كامل من القرآن لا أدري هل كان ينظر فيه في خلواته أم لا، وحدثنا مشايخنا أن النظر في المصحف مما يقوي البصر، أنشد الخطيب أبو عبد الله بن رشيد في رحلته للأستاذ أبي بكر سحنون:

أربعة تزيد في نور البصر إذ أرنأ فيها وتابع النظر

المصحف المتلو بالآي الكبر والماء والوجه الجميل والخضر

ورأيت في بعض كتب التعريف: أن مما جرب في تقوية البصر، قال: حدثني أحد الفضلاء ممن أخذت عنه قال: ممن (ص 475) سمع المؤذن لنداء الجمعة، وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وجر يده على عينه اليمنى وتشهد، وقال: حبيبي نور عيني محمد بن عبد الله، فإذا قال المؤذن أشهد أن محمد رسول الله، قال كقوله، وجر يده على عينه اليسرى، وقال: حبيبي نور عيني

محمد بن عبد الله قوي بصره، وبورك له فيه، قال: ولقد كنت أرى الشيخ يستعمل هذه الحالة في الجماعات فمتع ببصره لوفاته.

ومن جميل مناقب سيدي أحمد - رحمه الله - ، وكريم أثره، أنه كان ينزل الناس منازلهم، ويميز بين أقدارهم فإذا أتاه بعض أهل العلم والصلاح وأحد من أولاد الخلفاء أقبل عليه وتبسم له وفاتحه بالكلام (ص 476)، وأبان قدره وقدم له محضراً من الطعام عملاً بما في الحديث عنه ﷺ أنه لما وفد على رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي أكرمه وبسط له رداءه، وعممه بيده، وقال: «إذا أتاكم عزيز قوم فأكرموه».

وعن عائشة - رضي الله عنها - ، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم».

وكان إذا أتاه مولانا السلطان أيده الله وأعلى يده ينبسط معه في القول، ويستهج به سروراً ويظهر الاعتناء به، والتحفي بشأنه، فإذا قضى حاجته من الزيارة وخرج من الزيارة يقول سيدي أحمد لمن حضر مثل هذا العقل الذي خص الله به هذا الشاب المبارك يصلح (ص 477) للخلافة وكلام هذا معناه، سمعته منه وبلغني عنه مرات عديدة، وكأنه كوشف بولايته خلافة الأمة وإقامته قسطاً من العدل في الرعية أدام الله للإسلام دولته وأيد نصره وأعلى كلمته.

وأما الشرفاء من أهل البيت الكريم على مشرفهم وعليهم أفضل الصلاة وأكمل التسليم، فقد كان معروفاً بمحبتهم مظهرًا لتعظيمهم، مبالغاً في إجلالهم وتكريمهم، منبهاً على ما لهم من منزلة تقديم، وإذا أتاه أحد من الشرفاء أقبل عليه، وهش له وأبان منزلته، وقدم على سائر حاجته، وأرشد الحاضرين عنده من أصناف الناس لما لأهل بيت الرسالة من الحق الواجب

(ص 478) المتأكد على كافة المسلمين، ويضرب لذلك أمثالا على قدر العقول ويقول من تعظيمه - عليه السلام - وتوقيره تعظيم أهل بيته؛ لأن حرمة ﷺ ميتا كحرمة حيّا، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾. حضرت عنده يوما وأتاه رجل يشتكي بأحد الشرفاء خاف له على مرتبه في الحبس، فقال له الشيخ: اجعله في حل فامتنع الرجل عن ذلك وقال له: يا سيدي كيف أترك مرتبي، وأنا بحاجة إليه والله لا أتركه له ولا أجعله في حل منه أبدا. فقال له: أنا ما قلت لك إلا ما ينفعك، كيف لا تجعله في حل ونحن غدا إذا وقفنا بين يدي الله ما نرجو وسيلة عند الله سوى شفاعته جده (ص 479) - عليه السلام - .

فإذا كنتم ممن يرجو شفاعته جده فكيف يسوغ لك أن تطالب من يتسبب إليه، أما إن كنت فأنت أعرف أي إن كنت ممن لا يرجون شفاعته، وسكت الشيخ عنه وظهر في وجهه الغضب وانصرف الرجل غير راض بكلام الشيخ، ثم أداه التنافس وعدم الانقياد للحق إلى أن صار له بعض الطعن على الشيخ وأصحابه نعوذ بالله من ذلك، وقد ابتلي به في دينه، ثم في جسده بالبلايا ظاهرة وخفية، نسأل الله العافية.

ورحم الله شيخنا سيدي أحمد ما كان أقواه بالحق وأنصحه للأمة. رويانا في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «الدين النصيحة، لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم».

(ص 480) قال أئمتنا: النصيحة لعامة المسلمين هي إرادة الخير لهم، ومن إرادة الخير لهم إرشادهم إلى معرفة ما يجب عليهم من تعظيم النبي ﷺ وتوقيره. فإجلال أهل بيته وإكرامهم إجلال له ﷺ؛ لأن حرمة ﷺ ميتا كحرمة حيّا.

قال القاضي أبو الفضل في كتابه الشفاء: ومن توقيره ﷺ وبره وبر آله وذريته وأزواجه أمهات المؤمنين.

وأسند عن زيد بن أرقم قال رسول الله ﷺ: «أنشدكم الله في أهل بيتي.. ثلاثاً». قال راوي الحديث: قلنا لزيد: من أهل بيته ﷺ؟ قال: آل علي وآل جعفر، وآل العباس رضي الله عنهم جميعهم.

(ص 481) كنت عند الشيخ - رحمه الله - يوماً وقد أتاه جماعة من الشرفاء الكائنين بوطن مغراوة من بلاد الشلف يشكون جور عامل وطنهم، وأنه تنقصهم وأهاليهم وسواهم على غيرهم من الرعية فاشتد غضب الشيخ لذلك، ثم بعث للخليفة مولانا أمير المؤمنين المرحوم بفضل رب العالمين قدس الله تربته، وأسمى في الدار الآخرة رتبته، وطلب منه في أن يكتب للعامل بتأكيده عن الشرفاء، فلما وصله رسول الشيخ سمع مقالته، قال له: قل لسيدي أحمد إنني قد عزلت هذا العامل عقوبة له على إهانته للشرفاء، وسأتقدم لمن يلي هذا العامل بتأكيد الوصية عليهم في تعظيمهم واحترامهم فسر الشيخ بذلك كثيراً ودعا لمولانا بالرحمة لما ينفعه الله به.

ثم (ص 482) إن الشيخ - رحمه الله - أمر من أتاه بسفر من الزمخشري في تفسيره قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، وبعد الفراغ من القراءة أمر بجعل الشأن في ذلك المحل، وبعث بسفر لمولانا - رحمه الله - ليقف على ما أعد الله من ثواب لمن أكرم آل النبي ﷺ، فإن مولانا - رحمه الله - كان من ذوي البصائر في محبة النبي ﷺ، وحب الصلاة عليه والاعتناء بأهل بيته الكريم، له في ذلك أخبار ماثورة ومقامات مشهورة أورثت له الذكر الجميل بنيته الصالحة، وستكون في ميزانه بفضل الله من الحسنات الراجعة، وما أحسن قول القائل: (ص 483)

يا أهل رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفخر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له
ولنذكر طرفاً من تلك الأحاديث رغبة في الثواب وتتميمًا لفوائد الكتاب؛
لأنه في أخبار الصالحين الذين تنزل عند ذكرهم البركات، وآل البيت الكريم
من أصل طينتهم ابتدئ الصلاح، وبهديهم القويم عرف طريق الفلاح، قال
الزمخشري: روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قيل: يا
رسول الله، من قرابتك الذين وجبت علينا محبتهم؟ قال: «علي، وفاطمة،
وابنهما».

هذا الحديث رواه أبو القاسم الطبراني في معجمه بسند صحيح (ص 484)،
وأخرجه الواقدي في تفسيره، قال: ويدل عليه ما روي عن علي - رضي الله عنه -
قال: «شكوت إلى رسول الله ﷺ حسد الناس لي، فقال: «أما ترضى أن تكون رابع
أربعة: أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسين والحسن، وأزواجنا عن أيماننا
وشمائلنا، وذريتنا خلف أزواجنا».

وعن النبي ﷺ: «حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وأذاني في عترتي،
ومن اصطنع صنعة إلى أحد من ولد عبد المطلب، ولم يجازه عليها فأنا
أجازه عليها إذا لقيني يوم القيامة».

ومن الحديث المروي في فضائل أهل البيت ما أخرجه صاحب فوائد
الأخبار عن المقداد بن الأسود قال: قال رسول الله ﷺ (ص 485): «معرفة آل
محمد براءة من النار، وحب آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل
محمد أمان من العذاب». وفي كتاب الأمثال المروية عن النبي ﷺ أنه قال:
«إنما مثل أهل بيتي كمثّل سفينة نوح، من دخلها نجا، ومن تخلف عنها
غرق».

وأُسند أبو نعيم عن رجاله في ترجمة كل الأخبار قال: أخذ كعب بيد العباس بن عبد المطلب وقال له: يا عباس ادّخر لي شفاعاً عندك تشفع لي بها يوم القيامة، فقال له العباس: وهل لي من شفاعاً يا كعب؟ قال: نعم يا أبا الفضل، فإنه ليس أحد من أهل بيت نبي إلا كانت له شفاعاً يوم القيامة.

وأنشد القاضي العلامة سيدي أبو عبد (ص 486) الله المقري فيما قرأته بخطه، للولي الزاهد أبي الحسن الحراني:

مثل لآل المصطفى مشتظرف بير معطلة وقصر مشرف
فالقصر مجدهم الذي لا يرتقي والبير علمهم الذي لا ينزف

تنبيه:

وعلى الأفاضل الشرفاء لسائر الناس حقوق يجب عليهم الوفاء بها، والتخلق بآدابها منها: أن يعاشروا الناس بالمعروف ويتحملوا إذابة الخلق، ويجودوا عليهم بفضل أموالهم، ويتواضعوا لهم، ولا يحملهم نسبهم الشريف على العجب والكبرياء والاستطالة. وفي الحديث عنه ﷺ: (ص 487) «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

قال أئمتنا: معناه أن من لم يتصف بالعمل الصالح والأخلاق الحسنة فنسبه لا يرفعه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: 13]. أنشدني شيخنا أبو عبد الله بن العباس، وقرأته في طبقات⁽¹⁾:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالاً على الحسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك الشريف أبا هب

(1) كلمة غير مقروءة في الهامش.

* ذكر وفاة سيدي أحمد - رحمه الله - :

كانت وفاته بعد رمضان في ثالث عشر شوال من سنة أربع وسبعين وثمانمائة⁽¹⁾، حدث أبو نعيم بسنده عن (ص488) أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن وافق موته عند انقضاء رمضان دخل الجنة، ومن وافق موته عند انقضاء صدقة دخل الجنة».

ومن كراماته على الحق - سبحانه وتعالى - أن جمع له أجر شهيد من الشهداء الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة؛ لأنه مات غريبًا عن أهله ووطنه، وفي الحديث عنه ﷺ: «موت الغريب شهادة». خرجه الدارقطني عن طريق ابن عباس، وروى أبو بكر الخرائطي من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات غريبًا مات شهيدًا».

وكان مرضه (ص489) الذي لازمه إلى أن مات الزرب وهو الإسهال، أقام به مدة أيام. وفي كتاب السنن لأبي عبد الله النسائي، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهادة سبعة سوى القتل في سبيل الله، المطعون وهو الذي يموت في زمن الطاعون، والمبطون وهو الذي يموت من علة البطن، إما بالإسهال كمرض الشيخ - رحمه الله - ، وإما بالاستسقاء المتولد عن داء البطن، والحرق وهو الذي أصابته نار فاحترق فمات من ذلك، والغريق يعني في بحر أو غيره، وصاحب ذات الجنب والذي يموت تحت الهدم والمرأة تموت من النفاس سواء ألفت ولدها وماتت، أو ماتت وهو في بطنها».

وكان يوم وفاته من الأيام المشهورة (ص490) ومفاخر الفقراء المعهودة حضرها مولانا السلطان في أكابر دولته، وأسف لفقده وأثنى عليه خيرًا وقال:

(1) الموافق (15 أبريل 1470م).

ما رأيت مثل سيدي أحمد، وأما أهل البلد فما تخلف منهم أحد كأنه مات أبوهم الشفيق عليهم الرفيق بهم - رحمه الله - ورضي عنه ونفعنا بحبه وصالح دعاءه.

وكان مع ما به من ضعف وشدة المرض يجدد التوبة ويكثر الاستغفار ويدعو لنا ولأصحابنا الحاضرة بما أرجو قبوله، وفي الحديث: «من لزم باب التوبة قبلت منه، ومن أكثر من الاستغفار غفر له».

وحدث الخولاني عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: «من رزق ستاً لم يحرم:

من رزق الشكر، لم يحرم الزيادة، قال (ص 491) الله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

ومن رزق الصبر لم يحرم الثواب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ومن رزق التوبة لم يحرم القبول، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: 25].

ومن رزق الاستغفار لم يحرم المغفرة، قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 10].

ومن رزق الدعاء لم يحرم الإجابة، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

ومن رزق النفقة لم يحرم الخلف، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ [سبا: 39].

ولو رأيت يوم دفنه تراحم الناس على نعشه يمسحونه بأثوابهم ويلمسونه
بأكفهم لغبطت حال أولياء (ص 492) الله، وعلمت ما لهم من المكانة عند الله.
وفي مثله أنشد بعض الفضلاء - رحمهم الله تعالى - :

إن بان منزله وشط مزاره	قامت مقام عيانه أخباره
هذا عميد المسلمين ومن جرى	مثلاً شروداً زهده ووقاره
قصده عادية الزمان فأنضدت	نبداً لأبت من أن تقال عثاره
يا كافل الأيتام يدفع عنهم	بنداه جور الدهر أم أضاراه
يا مجزل الصدقات في جنح الدجى	والليل قد سولت له أستاره
يا من يوحى إليه في خلواته	ضاء الدجى وتأرجت أسحاره
تبكي عليك معاهد الدين الذي	بكا صاح حي على الفلاح مناره

وأما محل دفن سيدي أحمد - رحمه الله - فقد جرب الناس فيه إجابة
الدعاء وتعرفوا بركة زيارته في الشدة والرخاء فروضته (ص 493) قل أن تخلو
من زائر يتلو القرآن ويهدي له الثواب، أو يذكر ويدعو ويتنظر منه بلسان
الحال الجواب كأنه شاهد لنجواه، أو من يسمع شكواه ثم لا ينصرف عنه إلا
قوي الرجاء في إجابة دعائه، وكشف بلائه.

وفي الحديث أن ملائكة السماء تبكي على العبد المؤمن إذا مات، أسند
ابن المبارك، عن أبي عبيد صاحب سليمان قال: إن العبد المؤمن إذا مات
تنادت بقاع الأرض: عبد الله المؤمن مات، قال: فتبكي عليه السماء والأرض،
فيقول الرحمن - عز وجل - : «ما يبكيكما على عبدي، فيقولان: يا ربنا، إنه
لم يمش على ناحية من الأرض قط إلا وهو يذكرك جل جلالك، وتعالى
ملكك وشأنك».

(ص 494) وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إذا فنيت أيام الدنيا عن هذا العبد المؤمن بعث الله - عز وجل - إلى نفسه من يتوفاها من ملائكته، قال: فيقول صاحبه الكاتبان اللذان كانا يحفظان عليه عمله: إن هذا العبد كان لنا أخاً وصاحباً، وقد حان منه اليوم فراق فدعونا نشي على أخينا، فيقولان: جزاك الله عنا خيراً ورضي عنك وغفر لك، وأدخلك الجنة، فنعم الأخ كنت، ولقد كنت يسير المؤونة جميل (ص 495) المعونة، وما كانت خطاياك تمنعنا أن نصعد إلى ربنا تعالى فنسبح بحمده، ونقدس له ونسجد لعظمته، قال: ثم يقول الملك الذي يتولى قبض روحه: اخرج أيها الروح الطيب إلى خير يوم مر عليك نعم ما قدمت لنفسك، اخرج إلى الروح والريحان، وجنات النعيم وربّي عليك غير غضبان». ول بعضهم:

لو أمكن الأموات أن ينطقوا فيسمعوك عظة الناصح
(ص 496) لقال كل منهم معلناً تزودوا من عمل صالح

وفقنا الله وإياكم لطاعته، وجعلنا في الدارين من أهل ولايته، وأنفعنا اللهم بحب هؤلاء الأولياء الذين اصطفيتهم بالمعرفة وخصصتهم بالكرامة، واجعلنا من المتبعين لأثارهم المقتبسين من أنوارهم.

وصلّى الله وسلّم على سيدنا ومولانا محمد نبي الرحمة، وعلى آله وأصحابه صلاة وسلاماً ندخرهما شفاعاة ليوم الحسرة والندامة ووسيلة (ص 497)⁽¹⁾.

(1) هنا ينتهي النص، وقد بترت منه بعض الجمل، أو الأسطر لا ندري.

بعض المراجع ذات الصلة بالموضوع

- 1) أبهلول (أبو علي بن الحسين بن علي المجاجي): العقد النفيس في بيان علماء وشرفاء غريس (مخطوط في بداية القرن 11 هـ، وأواخر القرن 16 م).
- 2) الأفراني أو اليفريني (محمد الصغير):
 - أ - صفوة من انتشر في أخبار القرن الحادي عشر م. خ. ع. الرباط د 671.
 - ب - نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ترجمة هوادس إلى الفرنسية عام 1888 م، (مشتورات أرنست لوروكس).
- 3) الأصفهاني (عماد الدين): خريدة القصر وجريد العصر، تحقيق محمد المرزوقي، ومحمد العروسي المطوي، والجيلاني بن الحاج يحيى، 3 أجزاء، (تونس 1971 - 1972 - 1973 م).
- 4) ابن أبي أصيبعة (أحمد الخزرجي): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، (بيروت، دار الحياة 1965 م).
- 5) بدوي (عبد الرحمن): مؤلفات ابن خلدون (القاهرة 1962 م).
- 6) ابن بشكوال (أبو القاسم خلف): كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائها، 2. أ ج (مدريد 1882 - 1883 م) (القاهرة 1962 م).
- 7) بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة فارس (نبية أمية)، والبلبكي (منير) ط 2 (بيروت 1974 م).
- 8) بوعزيز (يحيى):
 - أ - ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين في المغرب الإسلامي ودورهما في نهضة أوروبا وبقظتها، مجلة الأصالة، أعداد: 75، 76، 77، 78، (الجزائر، نوفمبر، ديسمبر 1979، جانفي، فيفري 1980) ص 113 - 144.
 - ب - جهود الجزائر الفكرية في مركب الحضارة العربية، الأصالة، عدد 19 (الجزائر 7 مارس، أبريل 1974 م) ص 287 - 301.
 - ج - أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة (بيروت - دار الغرب الإسلامي 1995 م) 2. أ ج.
 - د - مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية (الجزائر د. م. ج 1991 م) ط 2 (1999).
 - هـ - مركز بجاية الحضاري، ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوروبا، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد الأول (وهران 1414 هـ - 1993 م) ص 1 - 19.
- 9) التميمي (محمد بن أحمد): كتاب طبقات علماء إفريقيا (الجزائر 1332 هـ - 1914 م).
- 10) التيبكتي (أحمد بابا): نيل الانتهاج بتطريز الديباج، طبع على هامش الديباج المذهب لابن فرحون (القاهرة 1315 - 1923 م).
- 11) التنسي (محمد بن عبد الجليل): نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان، ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان (مخطوط).
- 12) التيجاني (أبو زيد عبد الرحمن): عقد الجمال، النفيس في ذكر العيان من أشرف غريس (مخطوط)، وهو رجز شرحه تلميذه محمد الجوزي بعنوان: فتح الرحمن في شرح عقد الجمال.
- 13) الجيلاني (عبد الرحمن): تاريخ الجزائر العام (الجزائر 1998) ط 4، أ. ج.
- 14) ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. ط 1 (حيدر آباد 1448 هـ)، ط 2 تحقيق محمد عبد الحق (القاهرة - 1996 م).
- 15) حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (اسطنبول 1951 - 1943 م) 2. أ. ج (طهران 1967 م - 1387 هجري).

- 16) ابن حواء (الشيخ محمد): سبيكة العقيان فيمن حل بمستغانم وأحوازها من الأعيان (مخطوط).
- 17) الحميري (أبو عبد الله محمد): الروض المصطار، (القاهرة 1938م).
- 18) ابن خلكان (شمس الدين): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محي الدين عبد الحميد (القاهرة 1938م) 6 أ. ج، ط2 تحقيق إحسان عباس (بيروت 1971م).
- 19) الخشني (أبو عبد الله محمد): قضاة قرطبة وعلماء أفريقيا (القاهرة 1372 - الجزائر 1914م).
- 20) ابن خلدون (عبد الرحمن):
 أ - كتاب العبر، ج 7 (بيروت 1971م).
 ب - التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، تحقيق وتعليق ابن تاويت (محمد الطنجي) (القاهرة 1951م).
- 21) ابن خلدون (يحيى): بغية الرواد في ذكر الملوك من بين بني عبد الواد، نشر ألفريد بل. 2 أ. ج. (الجزائر، ج 1، 1904، ج 2 1913م)، ط2 ج 1، تعريب وتحقيق عبد الحميد حاجيات (الجزائر 1890م).
- 22) ابن أبي دينار (محمد القيرواني): المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق محمد شماخ (تونس 1967م).
- 23) الزركشي (محمد بن إبراهيم): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ط2، تحقيق محمد ماضور (تونس 1966م).
- 24) الزركلي (خير الدين): الأعلام (القاهرة 1954 - 1955م) 10 أجزاء.
- 25) ابن الزيات (يوسف التادلي): الشوق إلى معرفة رجال تصوف، نشر أدولف فور (الرباط 1985م).
- 26) الزياتي (محمد بن يوسف): دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي أبو عبدلي (الجزائر 1978م).
- 27) السخاوي (محمد): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (القاهرة 1354 - 1355هـ) 12 أ. ج، ط 2 (بيروت بدون تاريخ) 12 ج.
- 28) سعد الله (د. أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي، 2 أ. ج (الجزائر 1982م).
- 29) ابن سعد (التلمساني): روضة النسر في مناقب الأربعة المتأخرين (مخطوط) عندنا حققنا وقدمناه للطبع، بدار الغرب الإسلامي.
- 30) أبو العرب (محمد القيرواني): طبقات علماء إفريقيا وتونس، تحقيق علي الشابي، وزميله (تونس 1968م).
- 31) عنان (محمد عبد الله): ابن خلدون حياته وتراثه الفكري (القاهرة 1938م).
- 32) الغبريني (أبو العباس أحمد): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (الجزائر 1971م).
- 33) ابن عسكر (محمد): دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر (الرباط 1397 هـ - 1977م).
- 34) ابن الفرسي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس (القاهرة 1954م) 2 أ. ج، ط 2 (1966م).
- 35) فيشل (ولتر): لقاء ابن خلدون لتييمور لنگ، ترجمة توفيق (محمد)، (بيروت بدون تاريخ).
- 36) القادري (محمد بن الطيب):
 أ - نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، (فاس 1310 هـ - 1862م).
 ب - مستودع المواعظ والعبر في أخبار أعيان أهل المائة الحادية والثانية عشر (مخطوط).
- 37) ابن القاضي (أحمد الفاسي): جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس (فاس 1309 هـ).

- (38) ابن قنفذ (أحمد الخطيب القسنطيني):
 أ - الوفيات: تحقيق هنري بيري، الجزائر (بدون تاريخ) ط2، تحقيق عادل نويهض (بيروت 1971م).
 ب - أنس الفقير وعز الحفير: تحقيق محمد الفاسي، وأدولف فور، (الرباط 1965م).
 (39) محمد (الأمير): نسخة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، (الإسكندرية 1903م) 2 أ.ج.
 (40) المحيي (محمد): خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، (القاهرة 1284هـ - 1867م).
 (41) ابن مريم (محمد المليتي): البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق ابن أبي شنب (الجزائر 1908م).
 (42) ابن مرزوق (محمد الخطيب): المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق فيغيرا (د. ماريا خيسوس)، (الجزائر 1981م).
 (43) المزاري (بن عودة إسماعيل): طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود، تحقيق بوعزيز (د. يحيى)، 2 أ.ج. (بيروت، 1990م).
 (44) ابن محرز الوهراني (محمد): منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان، ومحمد نعش (القاهرة 1968م).
 (45) المقرئ (أحمد): نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق وتعليق إحسان عباس (بيروت 1968م) 8 أ.ج.
 (46) المغيلي (محمد بن عبد الكريم): أسئلة الأسقياء وأجوبة المغيلي، تحقيق وتقديم: د. عبد القادر زبادية (الجزائر 1974م).
 (47) الهواري (محمد بن عمر): السهو والتنبيه للفقراء أهل الفضل النبیه، (مخطوط).
 (48) الورتلاني (الحسين): نزهة الأنظار في فضل التاريخ والأخبار، المعروفة بالرحلة الورتلانية، تحقيق محمد بن أبي شنب، (الجزائر 1920م).

* المجلات:

- مجلة الأصالة: (1971 - 1981م).

- مجلة الثقافة: (1971 - 1996م).

- المجلة التاريخية المغربية: (1974 - 1991م).

- مجلة المقتبس: (1906 - 1908م).

* دوائر المعارف:

- دائرة المعارف الإسلامية: الترجمة الفرنسية (3 مجلدات).

- دائرة معارف القرن العشرين، (10 أجزاء).

* دور المحفوظات:

- الأرشيف الوطني التونسي، الوزارة الأولى (ملفات المشبوه فيهم).

- المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة، حي الحامة.

- الخزائن العامة بالرباط، المملكة المغربية.

سيرة الأستاذ الدكتور يحيى بوعزيز في سطور

ولد الأستاذ يحيى بوعزيز يوم (27 ماي 1929م) بقرية ودائرة الجعافرة، من ولاية برج بوعرييج، وحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ اللغة العربية، والفروض الدينية على والده الشيخ الحاج عبد الرحمن بوعزيز، وشارك تعليم وتحفيظ أبناء القرية للقرآن الكريم، وفي عام (1947) التحق بزاوية الشيخ الحاج حسن الطرابلسي بعنابة، ودرس مختلف العلوم العربية، الفقهية، واللغوية، والأدبية، وفي عام (1949) التحق بالجامعة الزيتونية في تونس، وحصل على شهادة التحصيل (البكالوريا) عام (1956).

وفي خريف (1957) التحق بكلية الآداب في جامعة القاهرة، وحصل على شهادة الليسانس في التاريخ عام (1962)، وعندما عاد إلى الوطن عام (1962) حصل على الدكتوراة في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة الجزائر عام (1976)، واشتغل خلال إقامته بتونس في ميدان الصحافة في إطار جبهة التحرير الوطني، ونشر عشرات المقالات في الصحف والمجلات التونسية والعربية، ونشر كتابًا عن جهاد الأمير عبد القادر عام (1957م)، وكان عضوًا في الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، ورئيس اللجنة الثقافية في تونس والقاهرة.

وفي مصر اشترك في إذاعة حصص من إذاعة صوت العرب، عن كفاح شعب الجزائر، وترأس اللجنة الثقافية، وتحرير مجلة الطالب الجزائري التي كان يصدرها الاتحاد في القاهرة، وعندما عاد إلى الوطن عام (1962م) اشتغل في التدريس، وعين عضوًا في لجنة التأليف المدرسي الوزارية عام (1963)، بالعاصمة، وكلف عام (1969) بتأليف كتاب مدرسي في التاريخ الحديث والمعاصر للسنة الأولى ثانوي، وأنجزه مع زميلين آخرين.

وألّف كتاب الموجز في تاريخ الجزائر الذي صدر عام (1965م)، ونشر بعد ذلك مائة مقال موثق، وثمانية وعشرين كتابًا عن تاريخ وكفاح وحضارة الجزائر، وله عشرة كتب مخطوطة. واشتغل أسنًا للتاريخ الحديث والمعاصر في جامعة السانية بوهران، حتى تقاعد آخر عام (1996م)، وهو عضو مؤسس لاتحاد الكتاب الجزائريين، واتحاد المؤرخين الجزائريين، وشارك في معظم ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر، وفي ملتقيات أخرى خارج الجزائر من ضمنها وليس كلها:

1) ملتقى المستشرقين الألمان الواحد والعشرين في برلين الغربية أواخر شهر أبريل (1980م).

- 2) الملتقى الدولي الثاني لتاريخ المغرب وحضارته في تونس أواخر نوفمبر (1980م).
 - 3) ملتقى رد فعل تونس من الاحتلال الفرنسي لها عام (1881م) أواخر شهر ماي (1981م) بتونس.
 - 4) ملتقى تاريخ التجارة عبر الصحراء بمدينة طرابلس الليبية ما بين (1 و4 أكتوبر 1979م).
 - 5) ملتقى صيانة جزيرة جربة، ما بين (7، 11 أبريل 1982) بجربة.
 - 6) ملتقى تاريخ العلاقات العربية التركية بطرابلس الغرب ما بين (13، 18 ديسمبر 1982م).
 - 7) الملتقى الدولي الرابع لتاريخ المغرب وحضارته بتونس في فيفري (1992م).
 - 8) ملتقى دور المرأة العربية في حركة الإصلاح النسوية العربية، بمدينة مدنين في ماي (1992م) بتونس.
 - 9) ملتقى التراث والمعاصرة بالجزائر في جويلية (1984م).
 - 10) ملتقى الحركة الوطنية وحروب التحرير بالجزائر (1850 - 1950) في ديسمبر (1984م).
 - 11) الملتقى الدولي عن صدى الثورة الجزائرية في الخارج أواخر نوفمبر (1984م) بالجزائر.
- هذا إلى جانب عشرات الملتقيات والندوات التي تعقد على مستوى كل ولايات الجزائر لغاية اليوم آخر عام (2002م) ومئات المقالات والبحوث التي نشرها في الجرائد والمجلات الجزائرية باستمرار وما يزال ينشرها حتى هذه الساعة آخر عام (2002م).

* * *

من كتب المؤلف الأستاذ الدكتور يحيى بوعزيز

(أ) الكتب المطبوعة:

- 1 - الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، ط3 (تونس 1983) (366ص)، ط4 (2002م).
- 2 - الموجز في تاريخ الجزائر، (الجزائر المطبوعات الوطنية 1965) (220ص) ط2، (الجزائر د. م. ج 1999) 2 أجزاء.
- 3 - تاريخ العالم الحديث من فجر الصناعة إلى الحرب العالمية الثانية، بالاشتراك مع الزميلين أحمد بن الطاهر، وبلعديس بلحاج (الجزائر 1969) (245ص).
- 4 - ثورة (1871) (دور عائليتي المقراني والحداد)، (الجزائر 1978) (471ص).
- 5 - ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين (الجزائر - قسنطينة 1980)، (550ص)، ط2 (1996م) 2 أجزاء.
- 6 - مراسلات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بملييلة (الجزائر - قسنطينة 1982) (120ص)، ط2 (د.م.ج 1986م).
- 7 - علاقات الجزائر الخارجية (1500 - 1830)، (الجزائر د.م.ج 1985) (159ص).
- 8 - التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830 - 1954، (الجزائر 1985م) (149ص).
- 9 - وهران عبر التاريخ (الجزائر 1985) (189ص)، ط2، (دار الغرب، وهران 2002م).
- 10 - تلمسان عاصمة المغرب الأوسط (الجزائر 1985) (92ص).
- 11 - الأيديولوجيات السياسية الحركة الوطنية الجزائرية (1920 - 1954) (178ص).
- 12 - كفاح الجزائر من خلال الوثائق (الجزائر م.و.ك 1986) (388ص).
- 13 - الاستعمار الحديث في إفريقيا وآسيا وجزر المحيطات (الجزائر د. م. ج 1986) (135ص).
- 14 - مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية (الجزائر د.م. ج 1991) (422ص)، ط2، (د.م.ج 1999م).
- 15 - فريدة منسية أو تاريخ قسنطينة (الجزائر د.م.ج 1991)، (186ص).
- 16 - وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز (الجزائر، م.و.ك 1989)

- (198 ص).
 17 - طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود، (بيروت دار الغرب الإسلامي 1990) 2 أجزاء، للمزاري (تحقيق).
 18 - الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية (الجزائر، د.م.ج، 1991) (142 ص).
 19 - المراسلات الجزائرية الإسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدير (1780 - 1798)، (الجزائر د.م.ج 1993) (162 ص).
 20 - مواقف العائلات الأرستقراطية من الباشاغا محمد المقراني وثورته (1871)، (الجزائر م.و.ك 1993) (162 ص).
 21 - أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة (بيروت - دار الغرب الإسلامي - 1995) 2 أجزاء.
 22 - سيرة الأمير عبد القادر وجهاده لمصطفى بن التهامي (تحقيق)، (بيروت، دار الغرب الإسلامي 1995) (408 ص).
 23 - السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري، (الجزائر د.م.ج 1995) (326 ص).
 24 - الاتهامات المتبادلة بين مصالي حاج واللجنة الجزائرية وجبهة التحرير الوطني، (الجزائر - دار هومة 2001م) (205 ص).
 25 - تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 11 إلى مطلع القرن 20م، (الجزائر - دار هومة 2001م) (427 ص).
 26 - المرأة الجزائرية وحركة الإصلاح النسوية العربية، (الجزائر - عين مليلة 2001م) (146 ص).
 27 - دائرة الجعافرة تاريخ وحضارة وجهاد، (الجزائر - دار هومة 200م) (455 ص).
 28 - موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، (الجزائر - دار هومة - عين مليلة 2002م) 3 أجزاء.

فهرس الموضوعات

3	مقدمة وتمهيد في التعريف بالمخطوط
5	تحية المودة والتقدير ... وبعد
8	التعريف بالشيخ ابن سعد التلمساني
11	التعريف بالشيخ محمد بن عمر الهواري
15	حول مدفن الشيخ الهواري
19	التعريف بالشيخ الحسن أركان
21	التعريف بالشيخ إبراهيم التازي
26	قصيدة المرادية للشيخ إبراهيم التازي
30	التعريف بالشيخ أحمد الغماري
33	نص المخطوط
35	أولاً: الشيخ محمد بن عمر الهواري المغراوي
36	*والد الشيخ الهواري
36	*نشأة الشيخ الهواري وتعلمه
37	*رحيل الشيخ الهواري إلى كلميتو
37	*رحلات الشيخ الهواري في البلاد
38	*حكاية سيدنا موسى
40	*رحيل الشيخ الهواري إلى مدينة بجاية
40	*سفر الشيخ الهواري إلى فاس
42	*انتقاله إلى الحجاز لأداء فريضة الحج
43	*سفره إلى بيت المقدس
43	*رجوعه لمدينة وهران واستقراره بها
109	*حكايات بغاء الكبير
115	ثانياً: الشيخ الحسن أركان
135	*وفاة الشيخ الحسن أركان
137	ثالثاً: الشيخ إبراهيم التازي
138	*أصل الشيخ إبراهيم التازي
139	*رحيل الشيخ إبراهيم إلى مصر والحجاز
140	*إجازة الشيخ تقي الدين الفاسي للشيخ التازي
141	*رحيل الشيخ التازي إلى المدينة المنورة
142	*حديث الضيافة

- * عودة الشيخ إبراهيم التازي إلى مصر وتونس 143
- * عودته من تونس إلى تلمسان 145
- * انتقاله من تلمسان إلى وهران 145
- * استقلال الشيخ التازي بزاويته الخاصة 146
- * قصة إدخاله الماء لوهران 150
- * صنائع المعروف 151
- * إيثار الشيخ التازي للعلماء 152
- * إجلال الشيخ التازي للشرفاء 157
- * حديث النرجس 168
- * قصة ابن الخراز الوهراني 175
- رابعاً: الشيخ أحمد الغماري 185
- * سفره إلى الشرق 193
- * عودته إلى عنابة ثم عودته إلى الحجاز 194
- * عودته إلى تلمسان 195
- ترجمة الشيخ العبدوسي 219
- ترجمة الحاج موسى 224
- ترجمة الشيخ الماواسي 225
- * ذكر وفاة سيدي أحمد - رحمه الله - 232
- بعض المراجع ذات الصلة بالموضوع 236
- سيرة الأستاذ الدكتور يحيى بوعزيز في سطور 239
- من كتب المؤلف الأستاذ الدكتور يحيى بوعزيز 241
- فهرس الموضوعات 243

